رواية

فلاديمير نابوكوف

لوليتا

ترجمة: سهيل إدريس



دار الآداب

فلاديمير نابوكوف

لوليتا

رواية

ترجمة: سهيل إدريس

دار الآداب ـ بيروت

لوليتا

فلاديمير نابوكوف/ روائي

الطبعة الأولى عام 1988
الطبعة الثانية عام 2013
ISBN 978-9953-89-259-7

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana.adab@hotmail.com
Website: www.daraladab.com
Facebook: Dar Al Adab

مقدّمة

«لوليتا» أو «اعترافات أرمل من الجنس الأبيض». كان هذا هو العنوان المزدوج للوثيقة الغريبة التي تلقّاها موقّع هذا البيان التمهيديّ. أمّا مؤلّف الكتاب «همبرت همبرت» فقد مات في السجن من تمزّق في نسيج القلب العضليّ، يوم ١٦ تشرين الثاني ١٩٥٢، قُبيل بدء محاكمته بأيّام. وحين رجاني محاميه السيّد كلارنس شوت كلارك (وهو قريبٌ لي وصديق منذ عهد بعيد، وهو اليوم عضو في محكمة ولاية كولومبيا) أن أُعيد قراءة هذه المخطوطة وأن أصحّحها، كان يستند إلى بندٍ من وصيّة موكّله، تاركًا لحسن تقدير قريبي النابغة، أمر الاهتمام بإعداد نشر «لوليتا». وليس من المستحيل أن يكون قرار السيّد كلارك قد تأثّر بكون المصحّح الذي وقع عليه اختياره، نال مؤخّرًا جائزة «بولنغ» على دراسة متواضعة بعنوان: «حسّ الحواسّ» خصّصها لدراسة بعض ألوان الدعارة والحالات المَرضيّة الجنسيّة.

وظهر أنّ مهمّتي كانت أيسر ممّا كنّا نحسب نحن الاثنين. فباستثناء تصحيح أغلاط الصرف والنحو الواضحة وتشذيب بعض التفاصيل العنيدة التي ظلّت قائمة بالرّغم من جهود «هـ. هـ.» نفسه، والتي كانت تنصبّ في المخطوطة إشاراتٍ ومعالم تذكّر بأمكنةٍ وأشخاص يقضي الذوقُ السليم بحجبها كما يقضي الإحسانُ بالإغضاء عنها، باستثناء ذلك، نقدّمُ هذه

المخطوطة كما هي، لم تُمسّ. أمّا لقب البطل الغريب فهو من اختراعه، وغنيّ عن القول: إنّ هذا القناع ينبغي أن يظلّ مُسدلاً بناءً على رغبة صاحبه، بالرّغم من أنّ بريق عينين منوّمتين يبدو أنّه يخترقه. وإذا كان «هاز» لا يشبه إلّا بالقافية كنيةَ البطلة الحقيقيّة، فإنّ اسمها هو من فرط الالتصاق بوتر الكتاب العميق بحيث لا يَسْمح بأيّ تغيير. والحقّ أنّه لا ضرورة على الإطلاق لمثل هذا التغيير، كما سيلمس القارئ ذلك بنفسه. وبوسع الأذهان المتفحّصة أن تجد لها مراجعَ عن جريمة «هـ. هـ.» في صحف شهر أيلول ١٩٥٢، غير أنّ السرّ كان سيظلّ كاملاً، فيما يخصّ أسباب تلك الجريمة وغايتها، لو لم يضع القدرُ هذه المخطوطة تحت مصباحي.

وأمّا القرّاء الذين يحبّون أن يتابعوا مصير الأشخاص «الحقيقيّين» فيما وراء حدود «القصّة المعيشة»، فسأضيف لمصلحتهم هنا بعض التفاصيل التي وافانا بها السيّد «وندملر» من «رامسدال» الذي يودّ أن يحتفظ باسمه مغفّلاً حتى لا يبلغ «ظلّ هذه القضيّة المحزنة القذرة» المجتمَعَ الذي يفخر بالانتساب إليه. وابنته «لويز» هي الآن في السنة الثانية بالجامعة، وأمّا «مونا دال» فهي طالبة في باريس، وأمّا «ريتا» فقد تزوّجتْ حديثًا صاحبَ فندق كبير في فلوريدا وأمّا السيّدة «ريتشارد ف. شيلر» فقد ماتت يوم عيد الميلاد ١٩٥٢ عندما كانت تضع أنثًى وُلدت ميتة في «غراي ستار» وهي قرية ضائعة عند حدود الشمال الغربي. وقد أنهت «ڤيڤيان داركمبلوم» كتابًا في سيرتها الخاصّة أُعلن عن صدوره قريبًا وعدّه بعض النقّاد الذين اطّلعوا على المخطوطة أحسن كُتبها. وأمّا الذين ماتوا اليوم، فإنّ حرّاس مقابرهم لا يشيرون إلى أيّة ظاهرة عن عودتهم.

إنّ «لوليتا»، إذا نُظر إليها من الزاوية الروائيّة الصرف، تُلقي الضوء على مواقف وعواطف ستظلّ في عين القارئ على غموض لا يُحتمل إذا رُويت بطريقة جانبيّة مواربة تُذبلها وتُفقدها رونقها. ومن المؤكّد أنّ الكتاب

لا يضمّ أيّة عبارة فاجرة، ولا شكّ في أنّ ذوي التفكير المبتذل الذين تقودهم مواضعات عصرنا إلى أن يتقبّلوا، بلا احتجاج، الكلمات القذرة التي تتزيّن بها أسخف الروايات، سيضطربون ويقلقون لانعدامها كلّيًّا من هذه الرواية. والواقع أنّه إذا اخترنا الاستجابة لهذا الاحتراس والحذر بأن نحذف بعض الفصول التي قد تصفها الأذهان البائسة بأنّها «مهيّجة للشبق»[1] فلن يبقى أمامنا إلّا أن ننصرف عن نشر «لوليتا»، لأنّ هذه الفصول المُشار إليها، والتي يوشك البعض أن يصفها خطأً بأنّها تُثير اللذّات الجسديّة، هي ضروريّة جدًّا لتطوّر رواية دراماتيّة تنزع بلا هوادة نحو تمجيد أخلاقيّ حقيقيّ. وسوف يردّ الخلاعيّون بأنّ المؤلّفات التجاريّة الداعرة تزعم أنّها تخدم الهدف نفسه. ولكن علماء الاجتماع الثقات يستطيعون أن يبرهنوا لهم أنّ اعترافات «هـ .هـ.» الحارّة هي عاصفة في وعاء زجاجيّ للاختبار، وأنّ ١٢ بالمئة على الأقلّ من الذكور الأميركيّين البالغين ـ وهو «تقدير معتدل جدًّا» في رأي الدكتور بلانش شوارزمان ـ يعانون كلّ عام، على أشكال مختلفة، التجارب الخاصّة التي يصفها «هـ. هـ.» مثل هذا الوصف اليائس؛ وسوف يقولون لهم أيضًا: إنّ صاحب هذه المذكّرات الضالّ لو استشار عالمًا كفؤًا للأمراض النفسيّة، في ذلك الصيف المشؤوم من عام ١٩٤٧، لكان من الممكن تجنّب الكارثة ـ ولكن ما كان لهذا الكتاب، في مثل تلك الحالة، أن يشاهد النور.

وليُسمح لي أن أذكّر هنا بما شرحته مرارًا على منبر الجامعة أو في مقالاتي، من أنّ صفة «صادم» أو «جارح» ليست في أغلب الأحيان إلّا مرادفًا لصفة «خارق» أو «مخالف للعادة»، وأنّ كلّ كتاب رائع يفترض حتمًا خلقًا

---

(١) لنذكر في هذا الصدد الحكم الممتاز الذي أصدره يوم ٦ كانون الأوّل ١٩٣٣ القاضي النزيه جون ووسلي في موضوع كتاب آخر كانت عباراته أكثر تحرّرًا من هذا الكتاب.

إبداعيًّا تسبّب طبيعته نفسها أثرًا عنيفًا من المفاجأة. وبعيدٌ عن ذهني أن أقدّم دفاعًا عن «هـ. هـ.» فهو لا شكّ شخص حقير يُثير الاشمئزاز، وهو نموذج يدلّ على الوباء الخلقي، وليست لهجته التي تتردّد بين الدعابة والشراسة لتوحي الودّ والعطف، بالرّغم من أنّها قد تكشف عن قلقٍ لا أساس له. إنّ طفراته طفرات ثقيلة، ومعظم تعليقاته التي يوجّهها إلى أميركا وسكّانها، في أثناء الحديث، تدعو إلى السخرية. وبالرّغم من أنّ اعترافاته تنبض بصدقٍ يائس، فإنّ ذلك لا يكفي لتبرير جرائم شيطانيّة تنضح بالمكر والخداع. إنّه كائن غير طبيعي، وهو بكلّ تأكيد نقيض الإنسان النبيل. ولكن قلمه يشبه معزفًا سحريًّا يعرف كيف يلتقط أنغامًا رائعة تفيض بالحنان والرأفة من أجل لوليتا، وليس بوسع القارئ إلّا أن يتأثّر بسحر القصّة فيما هو ينفر من بطلها.

ومن المؤكّد أنّ «لوليتا» ستحتلّ مقامها، كوثيقة معالجة طبّيّة، بين الأمّهات من علم الطبّ النفساني. وأمّا كأثر فنّي، فإنّ هذه الاعترافات تتجاوز مظهرها التكفيريّ. ومع ذلك فإنّ ما يستوقف انتباه القارئ الرصين إنّما هو الانعكاس الخلقي للكتاب أكثر من أهمّيّته العلميّة أو الأدبيّة. فمن خلال هذه التجربة الشخصيّة الموجعة يبرز درس عامّ وعبرة جامعة. فهذه الطفلة المتمرّدة، وتلك الأمّ الأنانيّة، وهذا المأخوذ المبهور اللاهث ليسوا هم فقط أشخاصًا ملوّنين في مأساة شاذّة: إنّهم يحذّروننا من نزعات خطرة، ويكشفون لنا بأيديهم عن انهيارات مرعبة. ومن هذه الزاوية، تعلّمنا رواية «لوليتا» أن نصارع جميعًا، ذراعًا في ذراع، أهلاً ومربّين ومساعدين اجتماعيين، وأن نضاعف الجهود، بتفهّم رحب ووعي لا يلين، لتربية أجيال أفضل في عالم أوفر أمنًا وطمأنينة.

ودورث، ماساشوستس

جون راي الابن

دكتور في الفلسفة

القِسم الأوّل

١

لوليتا، يا نور حياتي ونار صدري. يا خطيئتي وروحي. لو ـ لي ـ تا: إنّ طرف اللسان يقفز ثلاث قفزات صغيرة على الحلق ليأتي فيصطدم ثلاث مرّات بالأسنان. لو. لي. تا.

كانت «لو» في الصباح، «لو» بكلّ بساطة، طولها مترٌ وثمانية وأربعون، والجوربان في قدميها، واقفةً على رجل واحدة. وكانت «لولا» وهي تلبس البنطلون. وكانت «دولّي» في المدرسة. وكانت «دولوريس» على رسوم الكتب المنقّطة. أمّا بين ذراعيّ، فقد كانت أبدًا لوليتا.

تُرى، هل كان ثمّة فتاة قبلها؟ نعم، بكلّ تأكيد. والحقيقة أنّه ربّما لم تكن هناك أيّة لوليتا لو لم أحبّ، ذات صيف، غُلامة أصليّة. «في مملكة بالقرب من البحر». متى كان ذلك؟ قبل سنوات من ولادة لوليتا تساوي ما كنت أعدّه في ذلك الصيف. إنّ الأسلوب الزاخر بالصور هو سِمَةُ القاتل البارع.

هذه، سيّداتي وَسَادَتي القضاة، هي الوثيقة الأولى المؤيّدة للتهمة: وهذا هو بالذات ما كان يطمع به ملائكة «إدغار ألن بو»، الملائكة الجهلة ذوو الأجنحة المتغطرسة والقلوب الساذجة. فتأمّلوا هذه الشبكة من الشوك.

٢

وُلدت في باريس عام ١٩١٠. وكان أبي ذو المزاج اللامبالي خليطًا من وراثات أجناس مختلفة: إنّه مواطن سويسريّ ولكنّه متحدّر من أصلٍ نصفه فرنسيّ ونصفه نمسويّ، مع آثارٍ من الدانوب في العروق. وسوف نضع في البريد عمّا قريب بطاقات جميلة ملتمعة ذات آفاق واسعة زرقاء. وكان يملك مقصورة على الريڤييرا وقد كان أبوه وجدّاه على التوالي تجّار خمورٍ ومجوهراتٍ وحرائر. وقد تزوّج في الثلاثين من عمره صبيّة إنكليزيّة هي ابنة متسلّق الجبال «جيروم دان» وحفيدة إكليركيين من «دورسيه» مختصّين في موضوعات غامضة في علم الآلات الموسيقيّة وسواه. أمّا أمّي، وهي امرأة عظيمة القابليّة للتصوير، فقد ماتت أتفه ميتة (صاعقة في نزهة) عندما كنت في الثالثة من عمري، ولم تترك، باستثناء موجة من الحرارة في ظلّ الماضي، أيّ أثر بين دروب المستقبل الجوفاء التي غابت عليها شمس طفولتي: (إنّي أخشى أن تكونوا قد بدأتم بالنفور من أسلوبي، إنّني أكتب تحت المراقبة) وأنا على يقين من أنّكم تحفظون جميعًا صورة تلك الآثار الأخيرة من النهار، وقد تخلّلتها العطور ولدغها الذباب، وظلّت كأنّها معلّقة فوق سياج من الزهور، أو مزّقتها فجأة قَدَما متنزّهٍ عند سفح رابية في شفق الصيف ـ دفء فراء، وذباب ذهبيّ راقص.

وكانت «سيبيل» الأخت الكبرى لأمّي، التي كان ابن عمٍّ لأبي قد تزوّجها ثم هجرها، تتولّى في بيتنا مهمّةَ التربية وإدارةَ البيت من غير مقابل. وقد علمتُ فيما بعد أنّها كانت مشغوفة جدًّا بأبي، وقد استغلّ ذلك بلا مبالاة ذات مساء ماطر لكي ينساها برجوع الشمس. وكنتُ أكنّ لها حنانًا بالغًا بالرّغم من قسوة بعض مبادئها، تلك القسوة المشؤومة. ولعلّها كانت

تأمل أن تجعل منّي، في المستقبل، رجلاً أرملاً أقدر من أبي على أن يكون قدوة. وكانت خالتي «سيبيل» ذات عينين لازورديّتين ولونٍ شمعي. وكانت تنظم الشعر وتبدو موسوسة بشاعريّة، وكانت تؤكّد غالبًا أنّها ستموت بعد بلوغي السادسة عشرة بقليل، وقد حقّقت نبوءتها. وكان زوجها، وهو وكيل شركات عطور، يقضي معظم وقته في أميركا حيث استقرّ به المقام فأسّس تجارة واشترى أراضي.

على هذا النحو كبر الصبيّ السعيد الصلْب الذي كُنته، في عالم متموّج بالكتب المصوّرة وأشجار البرتقال والرمل النقيّ والكلاب الأليفة والمناظر البحريّة والوجوه الباسمة. وكان فندق «ميرانا» الباذخ يدور حولي كأنّه عالم شخصيّ، دنيا مبيضّةٌ بالكلس وسط دنيا واسعة زرقاء تكتنفها. لقد كان الجميع يحبّونني ويدلّلونني منذ أن كنت صبيًّا قذرًا يرتدي الوزرة حتى أصبحت سيّدًا مطلقًا يرتدي الصوف. وكانت عجائز أميركيّات يعتمدن على عصيّهن لينحنين فوقي انحناءة برج «بيز» الرائعة. وكانت أميرات روسيّات قد حطّ بهنّ الدهر يمنحني علب ملبّس فاخرة لعجزهنّ عن الدفع لأبي. وكان هو، أبي الصغير العزيز، يأخذني في نزهات طويلة على الدرّاجة أو في القارب، ويعلّمني فنّ السباحة والغطس والتزلّج المائي، ويقرأ لي «دون كيشوت» و«البؤساء» ـ وكنت أعبده وأحترمه وأسرّ له كلّما كنت أفاجئ تعليقات العمّال عن صواحبه العابرات، تلك المخلوقات الجميلة الناعمة اللواتي كنّ يهتممن بي ذلك الاهتمام الكبير ويذرفن دموع شفقةٍ وحنانٍ على جبيني الهادئ الفَرِح، جبين الصبيّ الذي لا أمّ له.

وكنت أتردّد إلى مدرسة إنكليزيّة تقع على بضعة كيلومترات من «ميرانا». وكنت ألعب فيها وأمرح وآخذ علاماتٍ ممتازة وأعيش في انسجام كامل مع المعلّمين والزملاء. وحتى بلوغي الثالثة عشرة (أي حتى تاريخ التقائي بالصغيرة أنابيلّا) اقتصرت غزواتي في الميدان الجنسيّ ـ بقدر ما

أذكر ـ على مناقشة علنيّة، بريئة ونظريّة، حول مفاجآت سن البلوغ. وكان مُناقشي، في حديقة المدرسة، صبيًّا أميركيًّا هو ابن ممثّلة سينمائيّة كانت مرموقة جدًّا في ذلك العهد، وكان لا يكاد يلتقيها في العالم ذي الأبعاد الثلاثة. ومن جهة أخرى، كنت أشعر بردود فعل غريبة في جسمي عند رؤية بعض الصور الملتمعة الملأى بالظلال، مع شقوق في أجساد شديدة النعومة، كلّ ذلك في مجموعة صور «بيشون» الرائعة التي عنوانها «الجمال البشريّ» والتي استللتها في صالة الفندق من بين ركام من الكتب المجلّدة آنق تجليد. وفيما بعد، شرح لي أبي بطريقته الساحرة كلّ ما اعتبر نافعًا أن أعرفه من شؤون الحبّ. وكان ذلك في خريف ١٩٢٣، قبيل دخولي الليسيه في ليون حيث قضينا ثلاثة أعوام. ولكنّه كان في ذلك الصيف يزور إيطاليا بصحبة السيّدة ر. وابنتها، ولم يكن هناك من يعزّيني ولا من يقودني.

٣

كانت أنابيل، شأنها في ذلك شأن الراوي، ذات نسب مختلط، إذ كانت ابنة رجل إنكليزيّ وامرأة هولنّديّة. وملامحها اليوم أقلّ صفاء ممّا كانت منذ أعوام، قبل لوليتا. والحقّ أنّ هناك نوعين من الذاكرة البصريّة: أحدهما يتيح للإنسان أن يخلق بكلّ دقّة من جديد صورةً في مختبر الذهن بينما تظلّ عيناه مفتوحتين على سعتهما (وهنا يمكن تعريف أنابيل بعبارات عامّة من مثل «بشرة في لون العسل» و«ذراعان دقيقتان» و«شعر كستنائي قصير» و«جفون طويلة» و«فم متّسع بارز»). وأمّا النوع الآخر من الذاكرة البصريّة، فإنّه يعكس على الشاشة الداخليّة للأجفان المغمضة، الصورة الأمينة الموضوعيّة لوجهٍ حبيب كأنّه طيف صغير مرسوم بالألوان الطبيعيّة ـ وهكذا أرى لوليتا.

فليسمح لي إذن أن أقول بكلّ بساطة، وأنا أصف أنابيل، إنّها كانت فتاة رائعة تصغرني بعدّة أشهر. وكان أهلها، وهم أصدقاء قدامى لخالتي وهم في مثل ضيق فكرها، قد استأجروا مقصورة غير بعيدة عن فندق ميرانا: السيّد لايغ أصلع الرأس أسمر البشرة، والسيّدة لايغ (مولودة فانيسا فان نيس) سمينة الجسم كثيرة البهرجة ـ ما أشدّ ما كنت أكرههما! ولم نتحدّث أنا وأنابيل بادئ الأمر إلّا في موضوعات غريبة شاذّة. ولم تكن تكفّ عن التقاط قبضات من الرمل الناعم كانت تدعها تنساب من بين أصابعها. وكان ذهنانا يهتزّان بمثل ما تهتزّ به أذهان جميع المراهقين الأوروبيّين الذين تطوّروا تطوّرًا طبيعيًّا في وسطنا وفي زمننا، وأشكّ في أن يكون من الممكن رؤية علامة العبقريّة في مناقشاتنا حول تعدّد العوالم المسكونة، والتنافس في لعبة التنس، وفكرة اللاّمحدود وسواها. وكان زغب الحيوانات الوليدة ورخص أجسامها يوحيان لنا الانفعال المؤلم العنيف نفسه. وكانت تريد أن تصبح ممرّضة في منطقة ضائعة في آسيا المجاعات، وكنت أنا أودّ أن أصبح جاسوسًا مشهورًا.

وقد أحبّ أحدنا الآخر دفعة واحدة حبًّا عنيفًا، صريحًا، قاسيًا، أخرق. وينبغي أن أقول أيضًا: حبًّا بائسًا، لأنّه ما كان لنا أن نهدّئ رغبة الامتلاك المتبادلة تلك إلّا بأن يمتلئ أحدنا من الآخر، وأن يلتهم أحدنا الآخر حتى آخر ذرّة من الجسم والروح. والواقع أنّنا لم نكن نستطيع حتى أن نتحابّ، في حين أنّ صِبْيَةَ الشوارع كانوا يجدون مئة فرصة مناسبة لذلك. وباستثناء محاولة ليليّة مجنونة في حديقتهم (وسوف أعود إلى هذا بعد قليل) لم نعرف قطّ إلّا وحدة تبعث على السخرية، خارج متناول الصوت، ولكن لا خارج متناول النظر، في بعض زوايا الشاطئ المسكون بالناس. فهناك، كنّا نضطجع فوق الرمل الناعم على بضع خطوات من حرّاسنا الشرسين، ونظلّ طوال ساعات الصباح في حالة قصوى من الرّغبة

المتصلّبة، نترصّد أقلّ ارتجاج في المكان أو الزمان لنتماسّ فيما بيننا تماسًّا خفيفًا. فقد كانت يدها تتسلّل تحت الرمل نحوي على طرف أصابعها السمراء المعروقة في بطء متلمّس ناعس، أو كانت ركبتها الملتمعة تبدأ في الزحف لملاقاتي خلال رحلة طويلة حذرة. وأحيانًا أخرى كان بعض الأطفال ينصبون حولنا متراسًا طارئًا فيمنحوننا ملجًأ موقّتًا كنت ألامس خلفه شفتَيْها المالحتين. ولكنّ التوتّر المهتاج في جسمَيْنا الفتيين القويّين الجاهلين كان يبلغ، بعد هذه الملامسات المكبوتة، حدًّا لا يستطيع معه حتى الماء الأزرق المنعش الذي كنّا نسعى فيه للتلاقي، أن يهدّئنا

لقد كنت أحبّ من مجموعة الكنوز التي فقدتها في رحلاتي صورةً أخذتها خالتي سيبيل، وهي تضمّ أنابيل وذويها ورجلاً مسنًّا رصينًا ذا ساقٍ متصلّبة يُدعى الدكتور كوبر، كان في ذلك الصيف يغازل خالتي، وكانت ملامح أنابيل في هذه الصورة مهزوزة بسبب أنّ آلة التصوير التقطتها آنذاك عندما كانت تنحني لتأكل «الشوكولا المثلّجة». وأحسبني أذكر أنّ كتفيها الدقيقتين العاريتين وحدهما وفرق شعرها، كانت تتيح معرفتها في الهالة الشمسيّة التي كان جمالها الضائع يمّحي في وسطها. وأمّا صورتي أنا، فقد كانت تمثّلني منعزلاً في جانب انعزالاً مسرحيًّا: صبيّ ذو جبين مقطّب ناتئ، يرتدي قميصًا مظلم اللون وسروالاً قصيرًا أبيض، ويبدو في جلسة جانبيّة، شابكًا ساقيه، صارفًا نظره إلى البعيد. وقد حدث هذا في آخر يوم من أيّام ذلك الصيف المشؤوم، قُبيل المحاولة الثانية والأخيرة التي قمنا بها آنذاك لنحبط قرار القدر، وكانت فرصتنا الأخيرة أن نفرّ من المقهى بحجّة تافهة، ونعدو إلى الشاطئ. وهناك، فوق رقعة من الرمل المنعزل، وفي ظلّ مغارة من الصخر الوردي، تبادلنا بعض الملامسات النهمة القصيرة، ولم يكن علينا من شاهد إلّا زوج من النظّارات الشمسيّة نسيها أحد المصطافين. وكنت راكعًا، وعلى وشك امتلاك حبيبتي، حين خرج من

الماء مستحمّان ملتحيان، هما عجوز البحر وأخوه، فراحا يصيحان بنا صيحات تشجيع داعرة، وبعد أربعة أشهر ماتت بداء التيفوس في «كورفو».

٤

إنّني أقلّب هذه الذكريات البائسة بلا راحة، وأتساءل عمّا إذا ظهرت هناك، في ارتعاش ذلك الصيف البعيد، أوّل فجوة في حياتي؟ أم أنّ رغبتي المطلقة في تلك الغلامة لم تكن إلّا الغلامة الأولى التي تكشف عن انحراف طبيعي يلازمني منذ خلقت؟ إنّني إذ أحاول أن أحلّل رغباتي الخفيّة وبواعثي وأعمالي نفسها، سرعان ما أُسقط في نوع من الحلم الارتجاعيّ يعرض لفكري ألف افتراض، ينقطع كلّ دربٍ فيه وينسدّ بلا نهاية في دوار ماضيَّ المجنون. ومع ذلك، فأنا مقتنع بأنّ قدرًا سحريًّا جعل لوليتا تبدأ في أنابيل.

وأعرف كذلك أنّ الضربة التي حملها موت أنابيل قد عزّزت حسّ الكبت الذي خلّفه كابوس ذلك الصيف واستدرك وقوع كلّ غرام آخر في سنوات شبابي الباردة. لقد امتزج الروح والجسد فينا امتزاجًا كاملاً لا يستطيع مراهقو اليوم أن يتصوّروه بأذهانهم الأرضيّة المغلقة. لقد ظلّت أفكارها ترفّ عبر أفكاري مدّة طويلة جدًّا بعد موتها. والحقّ أنّنا كنّا نحلم الأحلام نفسها قبل أن نتعارف. ولقد قابلنا ذكرياتنا واكتشفنا صلاتٍ غريبة فيما بينها وكان كنارٌ ضائع قد رفرف عبر غرفتي وعبر غرفتها في شهر حزيران من العام نفسه (١٩١٩) إذ كانت تفصل بيننا مئات الكيلومترات. أوه! لماذا لم تكتفي بحبّي على ذلك الشكل، يا لوليتا؟

لقد احتفظت بقصّة محاولتنا الأولى المخفقة لأرويها كخاتمة لفصل «أنابيل» في حياتي. فقد نجحتْ ذات ليلة في أن تخدع يقظة أسرتها الشديدة، فتسلّقنا جدارًا صغيرًا متهدّمًا عند رابية من أشجار الميموزا ذوات

الأوراق العصبيّة الحيّة القائمة في جوف حديقتهم. وكانت نوافذ المقصورة المُضاءة ترسم عبر الليل والأشجار أطيافًا غامضة تبدو لي الآن وقد تلطّخت بحبر ذاكرة مرهفة جدًّا، وكأنّها أوراق اللعب. ومرجع هذا دون ريب إلى أنّ لعبة «بريدج» كانت تحبس العدوّ المشغول. وكانت أنابيل ترتجف وتهتزّ تحت القبلات التي كنت أغطّي بها ملتقى شفتَيْها المنفرجتين وشحمة أذنها الملتهبة. وكان عنقود من النجوم يلتمع خفيفًا فوقنا خلال أشباح أوراق الميموزا الحادّة، وكانت السماء المرتعدة تبدو في مثل عُري أنابيل تحت ثوبها الشاطئي الرقيق. وكنت أرقب وجهها الذي بلغ من تميّزه المدهش في الليل، أنّه كان على ما يُخيّل إليّ، يشيع لمعة من نور فوسفوريّ طبيعيّ. ولم تكن ساقاها، ساقاها الطويلتان الرشيقتان، مضمومتين تمامًا. وحين وجدتْ أصابعي ما كانت تبحث عنه، قرأتُ على ملامحها الطفوليّة تعبيرًا حالمًا مسحورًا عن اللّذة الممزوجة بالعذاب. وكانت جالسة أعلى منّي قليلاً، وكلّما كانت نشوتها المتوحّدة تجذبها نحو قبلاتي، كان رأسها ينحني على مهل في حركة مضناة رازحة، وكانت ركبتاها العاريتان تتلقّفان كفّي وتضمّانها لحظة ثم ترتخيان، فيما يسعى فمها النابض المتوتّر بمرارة رحيق عجيب مقتربًا من وجهي، وهو يتنفّس بصوت شاهق؛ وكانت تحاول آنذاك أن تسكّن عذاب الحبّ بأن تدْعَكَ دعكًا وحشيًّا شفتَيْها الجافّتين بشفتيّ، ثم تبتعد فجأة، وتقذف شعرها إلى الخلف بانتفاضة متشنّجة من رأسها، وتعود قريبةً غامضة لتغذيني بفمها المنفرج، وفي الوقت نفسه، وفي بذلٍ يجعل من كلّ كياني وقلبي وحنجرتي وأحشائي هبةً لها، كنت أودّع يدَها المفتقرة إلى الحذق صولجانَ عاطفتي.

وما زلت أتنشّق ذلك العطر العذب المبتذل بعض الشيء الذي كان ينبعث من مسحوق الزينة الذي سرقته، على ما أعتقد، من خادمة أمّها الإسبانيّة. لقد كان ذلك العطر يذوب مع رائحة جسدها البسكوتيّ حتى

أوشكت حواسّي الممتلئة أن تفيض، ولكنّ ضجّة مفاجئة في دغل مجاور حبستها بأعجوبة. وبينما كنّا نفترق، ما تزال عروقنا تخفق، ونحن نترصّد من لم يكن بدون ريب إلّا قطّة تسعى إلى السرقة، بلغنا صوت أمّها من البيت وهي تناديها بصوت يزداد حدّة. وظهر الدكتور كوبر في الحديقة وهو يعرج برصانة ثقيلة. ولكنّ ذلك الدغل من الميموزا، وذلك البخار من النجوم، وتلك الارتعاشة وهذه النار، وتلك الرطوبة العسليّة، وذلك العذاب الطويل الطويل، كلّ ذلك ظلّ في نفسي، وظلّت الغلامة ذات الساقين السمراوين واللسان الملتهب مستوليةً عليّ بلا هدنة ـ إلى اليوم الذي استطعت فيه أخيرًا، بعد أربعٍ وعشرين سنة، أن أحطّم سحرها بأن جسّدتها في غلامة أخرى.

٥

حين أَلتفتُ إلى الماضي، يبدو لي شبابي في أشهره وسنواته وهو يجري مع رياح الذكرى، تائهًا في سحابة من المِزَق المتشابهة الباهتة على غرار العواصف الصباحيّة من رقع الأوراق التي يراها المسافر تنداح في خطّ القطار. كنت أبدو، في علاقاتي الصحّيّة مع النساء، عقلانيًّا، ساخرًا، موجزًا وخلال سنواتي الجامعيّة في لندن وباريس، اكتفيت بالفتيات بائعات اللذّة اكتفاء تامًّا. وكنت أدرس في حماسة مندفعة منظّمة، بالرّغم من أنّ تلك السنوات كانت قليلة الإنتاج. وكنت قد عزمت، شأني في ذلك شأن كثير من المواهب المُخفقة، على أن أُحقّق لنفسي الشهرة في علم الطبّ النفسي، ولكن حتى في هذا الميدان كنت أفتقر إلى الكثير. لقد كان عياء غريب («إنّني أحسّني يا دكتور في منتهى الضيق») يحُطّمني بلا انقطاع. وفي تلك الفترة أكببتُ على الأدب الإنكليزي، وهذا الملجأ الذي أنهى فيه

كثير من الشعراء المُخففقين أيّامهم وهم يرتدون غلالةً «التويد»، والغليون بين أسنانهم، ينعمون بالبذخ الجامعيّ. وكانت باريس تناسبني إلى أبعد الحدود. وكنت أتناقش مع بعض المهاجرين في مستقبل السينما السوڤياتيّة وأجلس في باحة مقهى «ليدو ماغو» مع «الأورانيين» وأنشر دراسات ملتوية في مجلّات غامضة وأنظم القصائد الهزليّة.

وقد كتبت يومًا دراسة بعنوان: «الفكرة البروستيّة في رسالة من «كيتس» إلى «بنجمان بيلي» فحيّاها نقيق ستّة مثقّفين أو سبعة قرأوها. وألّفتُ لحساب ناشر مشهور «تاريخًا مختصرًا للشعر الإنكليزيّ» واهتممت بعد ذلك بتأليف كتاب عن الأدب الفرنسيّ لفائدة الطلّاب الإنكلوساكسون، وقد شغلني هذا الكتاب في فترة حرب ١٩٤٠، وكان آخر جزء منه قد أُنجز تقريبًا عند اعتقالي.

واحتللت عدّة مناصب، كتدريس الإنكليزيّة للكبار في «أوتاي» أو التدريس في تلك المدرسة للصبيان، التي استخدمتني طوال عامين. وبين وقت وآخر كنت أفيد من علاقاتي بعالم الطبّ الاجتماعيّ لأزور، بصحبة المحقّقين والمربّين وعلماء الطبّ النفسيّ، بعض المياتم ودور الإصلاح والمؤسّسات الأخرى التي كنت أستطيع أن أتأمّل فيها بعض الغُلامات الممتقعات الزغباوات ذوات الجفون المتكسّرة. كنت أتأمّلهن بلا عقاب كما كان يحدث لي في أحلامي.

وقد آن الأوان، كما أعتقد، لأن أُقدّم للقارئ بعض التأمّلات العامّة. فقد يحدث أحيانًا أن تكشف بعض العذراوات التي تراوح أعمارهنّ بين التاسعة والرابعة عشرة، لبعض المسافرين المأخوذين الذين تبلغ أعمارهم الضعف أو الضعفين، عن طبيعتهن الحقيقيّة، لا البشريّة، بل الحوريّة، أعني الشيطانيّة. وهذه هي المخلوقات المختارة التي أقترح تسميتها «الجنّيّات الصغيرات».

وسوف يُلاحظ أنّني أستبدل بفكرة المكان فكرة الزمان. والواقع أنّي أُحبّ أن يعتبر القارئ هذين الرقمين «تسعة» و«أربعة عشر» بمثابة الحدود الطبيعيّة ـ الشواطئ المتماوجة والصخور المائيّة الورديّة ـ لتلك الجزيرة المسحورة، الضائعة في محيط ضبابيّ تتردّد عليه جنّيّاتي. أتكون جميع الغلامات اللواتي تراوح أعمارهنّ بين هذين الحدّين من الجنّيّات؟ لا، بالتأكيد. إنّهن إذا أصبحن كذلك، فسوف نفقد عقولنا، نحن الذين رأينا النور، نحن التائهين المتوحّدين، نحن المتخصّصين بالجنّيّات. على أنّ ما ينبغي أن يتضح كذلك هو أنّ الجمال لا يشكّل قطّ مقياس الحالة «الجنّيّة»، وليس الابتذال، أو ما يُسمّى كذلك في بعض الأوساط، غير متّفق بالضرورة مع الخصائص الخفيّة الغامضة، ومع ذلك السحر المقلق وتلك الفتنة المتقلّبة المحرجة الباعثة على الاضطراب التي تميّز الجنّيّة من بنات جنسها اللواتي يخضعن للتطوّرات المتواقتة في عالم الأبعاد، واللواتي لا يستطعن الاقتراب من جزيرة الزمن المعلّق، تلك الجزيرة السحريّة المجهولة التي تتلهّى فيها لوليتا مع أصحابها إنّ عدد الجنّيّات الحقيقيّات ضئيل مقارنةً بِفِرَق الفتيات الصغيرات العاديّات (سواء كنّ فاقدات الجمال أو «رشيقات» أو حتى «رائعات») اللواتي هنّ بالجوهر مخلوقات بشريّة تافهة سمينة لا شكل لها، ذوات خصلات من الشعر بشكل ذنب الخنزير، وبشرة باردة وبطن منتفخ، واللواتي قد يصبحن نساء ذوات جمال عظيم (تصوّروا أولئك الطائشات الممتلئات الوجوه اللواتي يرتدين الجوارب السوداء والأثواب البيضاء، واللواتي انقلبن إلى «فينوسات» باهرة على الشاشة)، قدِّموا لرجل عاديّ صورة فريق (من الطالبات أو الكشّافات) واطلبوا منه أن يشير إلى أجمل فتاة صغيرة، فهو ربّما لن يختار الجنّيّة الصغيرة من بينهنّ. إنّ على الإنسان أن يكون فنّانًا مزدوجًا بمجنون، أن يكون أحد هذه الكائنات الشديدة الكآبة، ذات الأكباد التي ترشح بسُمٍّ دقيق، وذات

الأصلاب التي تحترق أبدًا بنار الشّبق (أوّه! يا لذلك العذاب تحت القناع!)، يجب أن يكون الإنسان من هؤلاء ليميّز بسرعة، وبمجرّد إشارات لا تُخطئ ـ كخطّ الانحناء المرائي لوجنة من الوجنات، أو دقّة ساقٍ زغباء، وكمئة علامة أخرى يمسكني اليأس والخجل ودموع الحنان من أن أعدّدها ـ الجنّيّة الشيطانيّة المختبئة بين الأطفال الطبيعيّين الذين تبقى بينهم مجهولة، جاهلةً هي نفسها القوّة العجيبة الهائلة التي تملكها.

ولَما كانت فكرة الزمن، من جهة أخرى، تلعب دورًا رئيسيًّا، فإنّ الذين يهتمّون بهذا الموضوع لن يعجبوا حين يعرفون أنّه لا بدّ من أن يكون هناك فرق بضعة أعوام لا تقلّ في رأيي عن عشرة، وهي في العادة ثلاثون أو أربعون (بل حتى تسعون في بعض الحالات) بين العاشق والعاشقة لكي يكون سحر الجنّيّة فعّالاً والقضيّة هنا هي قضيّة تعديل بؤريّ وتحديد للمسافة المناسبة ـ التي تتلذّذ العين الداخليّة بعبورها ـ وللتناقض المثالي الذي يتذوّقه الفكر في ارتعاشة نشوة فاجرة. إنّني لم أكن أستطيع حين كنت صبيًّا أن أرى الجنّيّة التي كانت تختبئ في أنابيل، لأنّني كنت صنوها، حيوانًا صغيرًا أنا نفسي، وكنّا نسترخي معًا فوق الجزيرة المسحورة اللازمنيّة نفسها. أمّا اليوم، في هذا الشهر من أيلول ١٩٥٢، بعد تسعٍ وعشرين سنة، فإنّني أعرف فيها الجنّيّة الأصيلة، شيطان حياتي المشؤوم. لقد أحبّ أحدنا الآخر حبًّا نضج قبل أوانه وتجاوز حدوده، ترافقه تلك الحميّا الوحشيّة التي تستطيع أن تحطّم كثيرًا من الحيوات البالغة. ولقد تغلّبت لأنّي كنت صبيًّا قويًّا، ولكنّ السُمّ كان في الجرح الذي لم يلتئم قطّ ـ ونضجتُ على هذا النحو، في قلب هذا المجتمع الذي يتيح لرجل في الخامسة والعشرين من عمره أن يغازل فتاة في السادسة عشرة، ويفضحه إذا لم يتجاوز عمرها الثانية عشرة.

والآن، من ذا الذي لا يدهش من وحشيّة الثنائيّة في المرحلة

«الأوروبيّة» من حياتي البالغة؟ وفق الظاهر، كنت أعقد ما يسمّى العلاقات الطبيعيّة مع كائنات أرضيّة ذوات نهود تذكّر باللّيمون أو بالإجاص، أمّا في الخفاء، فكنت أُحتضر على موقد شهوة جهنّميّة كانت تلهبها كلّ جنّيّة تمرّ ـ ولم أكن أجرؤ، بسبب احترام جبانٍ للقوانين، على أن أقترب منها لأستعطي تحريري وخلاصي. أمّا النساء اللواتي كنّ يستجبن لأهوائي، فلم يكنّ يملكن إلّا قدرة تحذيريّة. وإنّي أودّ أن أعتقد حقًّا بأنّ الزّنى الذي يوصف بالطبيعي كان يعود عليّ بمشاعر تكاد تشبه المشاعر التي يحسّ بها الذكور الكبار حين يستجيبون مع نسائهم الكبيرات إلى هذا الإيقاع النمطي الذي يهزّ العالم ـ ولكن هل كان بوسعي أن أرضى مثلهم بهذا، أنا الذي انكشفت لي انكشافًا قصيرًا صاعقًا سعادةٌ أسمى من تلك السعادة بما لا مجال معه للمقارنة؟ إنّ أبهت أحلامي غير الطاهرة كان يكسف ألمع روايات الزنى التي يتصوّرها أقوى الأدباء العباقرة أو أوفر العاجزين موهبة.
لقد كان عالمي ممزّقًا. فأنا لم يكن عندي وعي جنس واحد، بل وعي جنسين لم يكن واحدٌ منهما جنسي. صحيح أنّ كلًّا منهما كان يُسمّى «أنثى» في علم التشريح البشريّ، ولكنّهما كانا في نظري، عبر موشور حواسّي، يشبهان في اختلافهما «أحلام البحّارة وصخور الضفاف». وبوسعي الآن أن أحلّل نفسي بطريقة عقلانيّة، ولكنّي في تلك الفترة وحتى بلوغي الخامسة والثلاثين تقريبًا، كانت عندي فكرة أقلّ وضوحًا عن أسباب تسلّطي الجسمي الموسوس. إنّ جسدي وحده كان يعرف ما يطمع فيه، وكان فكري يردّ بلا شفقة كلّ نداء من نداءاته، وكنت أحيانًا مغمورًا بالضيق والخجل، وأحيانًا كنت أفيض بتفاؤل جريء. كانت المقدّسات تخنقني، وكنت مطارَدًا من علم النفس الطبّي ومن التحرّر ـ الذاتي من الاغتلام ـ الذاتي. وكنت أشعر شعورًا عميقًا بأنّ أخوات أنابيل وحدهنّ، وآنسات الشرف عندها وخدمها باللباس القصير، كنّ يعرفنّ أن يوقظن فيّ اهتزازات

رغبة الحبّ، وكان هذا يخيفني أحيانًا كما كنت أخاف علامةً ما تنذر بالجنون والبله. وفي أحيان أخرى، كنت أقنع نفسي أنّ كلّ ما في الأمر كان قضيّة مبدئيّة، وأنّ السحر الذي كانت تمارسه عليّ الفتيات الصغيرات لم تكن له عواقب قطّ. وإنّي أسمح لنفسي أن أذكر هنا أنّ القانون الإنكليزي الذي أُقرّ عليه عام ١٩٣٣ يعرّف «الفتاة الصغيرة» بأنّها إحدى الغلامات اللواتي تزيد سنّهنّ على الثمانية الأعوام وتقلّ عن الأربعة عشر (وبعد عيد ميلادهن الرابع عشر يتحوّلن إلى «شابّات»). أمّا في ماساشوستس، فإنّ القانون يدرج في فئة «الغلامات المنحرفات» الفتيات الصغيرات «اللواتي تراوح أعمارهنّ بين السابعة والسابعة عشرة»، (واللواتي يعشن في معظم الأحوال في أثر الأشخاص الفاسدين أو الذين لا يعوّل عليهم). وقد سبق لكاتب من عصر جاك الأوّل، واسمه هيو بروتون، أن أثبت أنّ «رحاب» كانت تمارس مهنة البغاء منذ كانت في العاشرة. إنّ هذا كلّه يثير الاهتمام البالغ ـ وأحسب أنّكم بدأتم ترون أنّي على حافّة الأزمة، وأنّ التشنّجات تأخذني ويتدفّق الزبد على شفتيّ. كلّا! وأرجو ألّا تُخدعوا: فأنا أتسلّى ـ بكلّ بساطة ـ بأن أحرّك محفظة أفكاري الفرحة الدقيقة. وهذه بعض الصور الأخرى: هنا يقوم فيرجيل الذي غنى الجنّيّات الرومانيّات أجمل غناء، ولكنّه كان، من غير شكّ، يؤثّر عليهنّ عجان[1] الراعيات الصغيرات. وبوسعك أن تتأمّل هناك هاتين الأختين المراهقتين، ابنتي الملك أخناتون والملكة نفرتيتي (وكان لهذين الفرعونين ستّ بنات!) تأمّلهما، وقد مضى عليهما ثلاثة آلاف عام من النسيان لم تُمسّا، لا تزيّنهما إلّا عقود الجواهر، وتأمّل رأسيهما الأصلعين وعيونهما الأبنوسيّة الكبيرة، وجسميهما الصغيرين الفجّين الأسمرين الناعمين وقد تمدّدا باسترخاء على وسائد مشجّرة. وانظر الآن إلى هذه الزوجات الصغيرات ذوات الأعوام

(١) المسافة التي بين عضو التناسل والشرج.

العشرة اللواتي أجلسوهنّ قسرًا على منبر العاج الذكوريّ الذي كان ينصب في معابد دراساتنا الكلاسيكيّة. وفي بعض مناطق الهند، لا يعتبر استثنائيًّا على الإطلاق أن يتمّ الزواج والسكنى قبل سن البلوغ، وحتى في أيّامنا هذه. وعند قبائل «لبشا» يتزوّج كهول في الثمانين طفلات في الثامنة من غير أن يستقبح أحدٌ ذلك. وبعد، ألم يحبّ دانتي محبوبته بياتريس وهي لا تكاد تتجاوز التاسعة: غلامة مشعّة ذات وجه مصبوغ وثياب حمراء مثقلة بالجواهر؟ إنّ هذا قد حدث عام ١٢٧٤ في أثناء مأدبة في فلورنس، بشهر أيّار الجميل. وحين شُغِف بترارك شغفًا جنونيًّا بالصغيرة «لور» لم تكن إلّا جنّيّة في الثانية عشرة تعدو في الهواء والغبار، زهرة شقراء هاربة في السهل الفسيح المذهّب عند أقدام جبال «فوكلوز».

والآن، هدنةٌ من المرح الجاهلي. لقد جهد همبرت همبرت جهدًا يائسًا لكي يبقى على الطريق المستقيم، ولا يشكّنّ أحدٌ في أنّ حماسته من أجل ذلك لم تكن صادقة تدعو إلى الإعجاب. لقد كان مسلكه إزاء الطفلات العاديّات الرخصات العود، مسلكًا لا غبار عليه، وقد كان يفضّل الموت على أن يعتدي على براءة طفلة إذا استشعر أدنى خطر بالضجّة. ولكن ما كان أعنف ما يخفق قلبه حين كان يكتشف، وسط فريق بريء، فتاة من بنات الشيطان، غلامة ساحرة ماكرة، جنّيّة ذات نظر غامض وشفتين رطبتين. وعشرة أعوام سجن إذا لاحظ الناس أنّك تنظر إليها. هكذا كان الزمن يمضي. لقد كان همبرت قادرًا تمامًا على أن يزني مع حوّاء، ولكنّه إنّما كان يحلم بأن يمتلك «ليليت». إنّه أوّل تبرعمٍ ثديي يظهر في وقت مبكّر (السنة العاشرة وسبعة أشهر) في إطار التغيّرات البدنيّة التي تدلّ على البلوغ. أمّا العلامة الثانية التي هي في متناولنا فهي ظهور الشعر الملوّن فوق العانة. (السنة الحادية عشرة وشهران). إنّ محفظتي الصغيرة ستفيض.

طوفان. فوق جزيرة، وحيدًا مع طفلة مرتعشة لعابرة ابتلعتها الأمواج. أؤكّد لك يا صغيرتي، أنّ ذلك ليس إلّا لعبًا! أوه! يا لجمال المغامرات التي كنت أعيشها في الخيال، جالسًا على مقعد خشن في حديقة عامّة، خافض الجبين فوق صفحات كتاب مرتعشة. كانت الجنّيات تمرح بحرّيّة، وبلا همّ، حول الاشتراكي الجامد المجتهد، كما لو أنّه كان تمثالاً مألوفًا أو ظلًّا لشجرة مسنّة تخضّبه الشمس. وذات يوم، جاءت إلٰهةٌ صغيرة في ثوب إسكتلندي فارتمت فوق المقعد بصخب إزائي، وكانت قدمها مسلّحة بآلة تزحلق، فعبرت قلبي بذراعيها الضامرتين العاريتين وهي تنحني لتتمسّك بالحبل، ورأيتني أذوب في الشمس مع كتابي وأنا أرى خصلاتها السمراء تكنس ركبتها المخدوشة، بينما كان ظلّ الشجر الذي نتقاسمه يرتجف عذبًا حارًّا فوق الفخذ المشعّة التي كانت ترفعها حتى لتلتقي خدِّي الحربائي. وذات مرّة أخرى، وقفت تلميذة ذات شعر نحاسيّ وقتًا طويلاً في المترو ملتصقةً بمقعدي، رافعة ذراعها لتمسك بالمقبض الجلديّ، فانكشفت لي شُقرةٌ حريريّة إبطيّة ظلّت في عروقي طوال أسابيع. وطويلة هي لائحتي التي تسرد هذه الأقاصيص الناقصة، وهذه الغراميّات ذات الاتّجاه الواحد. وقد كان الحلم يمّحي أحيانًا، ويا للحسرة، في دخان الكبريت. فقد حدث أن كنت أرصد يومًا من شرفتي نافذة مضادّة في الجانب الآخر من الشارع، فأظنّ أنّي أرى طيف جنّيّة مقلقة وهي تتعرّى أمام مرآة مشاركة. وكانت هذه الرؤية البعيدة، حين تُعزل وتُقطع عن الطريق، تُشيع سحرًا كانت حدّته تُسرع بي إلى مكافأة نشوتي المتوحّدة. وفجأةً، وبكلّ خيانة، أصبح العُري الطفوليّ الذي كنت أذوب له ذراعًا عارية قبيحة لرجل في «مايوه» كان يقرأ جريدته أمام النافذة المفتوحة، في ليل من ليالي الصيف خانقٍ لا أمل فيه.

وحين يلعبن لعبتهنّ، وحين يقفزن بالحبل. وتلك المرأة العجوز المرتدية السواد، الجالسة بقربي على مقعد العذاب والفرح (وكانت تحت

المقعد جنّيّة تتلمّس الأرض بيدها باحثة عن حجر من أحجار لعبها) والتي سألتني ـ يا للسفيهة الخبيثة ـ هل كنت أشكو في معدتي وجعًا! دعيني، دعيني وحدي في ملعبي الأزغب، في حديقتي ذات الطلحب الطري. وليلعبن حولي حتى نهاية العالم، ولا يكبرن أبدًا!

٦

وفي هذا الصدد، كثيرًا ما تساءلت عمّا كانت تصير إليه جنّيّاتي بعد ذلك. أمن الممكن، في هذا العالم الذي هو سجين شبكة الأسباب والنتائج، ألا يكون هذا التشنّج الذي كنت أُسلبهن إيّاه بالخفية أيّ تأثيرٍ على حياتهنّ؟ لنفترض أنّني امتلكت هذه الجنّيّة، ولم تكن تعرف من ذلك شيئًا، ولكن ألا تكون مع ذلك قد وُسمت بهذا طوال حياتها؟ ألا تراني قد غيّرت مجرى مصيرها إذ كرّست شهواتي على صورتها؟ لقد كنت، وما زلت، مشغولاً موسوسًا بهذا اللغز الرئيسي المرعب.

على أنّني بالمقابل أُتيح لي أن أرى ما الذي كنّ يشبهن إذ يصحبن كبيرات، جنّيّاتي هاتيك العذبات الشيطانات ذوات الأذرعة الرخصة الدقيقة. إنّني لن أنسى أبدًا ذلك الشارع المضطرب من حيّ «المادلين» الذي واجهتني فيه، خلال نور رماديّ من أصيل ربيعيّ، امرأة ـ غلامة كانت تقفز في مشية ناشطة على كعبيها العاليين. والتفتَ كلّ منّا إلى الآخر في اللحظة نفسها، واقتربتُ منها. وكان جبينها لا يكاد يبلغ مستوى شعر صدري. وسرعان ما زرعت فيّ الاضطراب بجفونها الطويلة ووجهها الصغير، وجه فرنسيّة تافهة، وغمّازتيْ وجنتيها الممتلئتين، وبذلك الجسم الطفولي الذي كان يحتفظ، تحت فراء بذلتها الضيّقة، بحيويّة صبيانيّة كانت تُناقض الاهتزاز المهني في ردفيها الدقيقين: وثمّة كان الصدى الجنّي.

ويا لرعشة النشوة وطفرة الأحشاء! وسألتها عن سعرها، فأجابت بخفّة، وبزقزقة رقيقة (أقول لكم: إنّها عصفور، عصفور حقيقيّ!): «مئة فرنك!». وأردت أن أُساوم، ولكنّها قرأت في نظري الذي كان غارقًا، عموديًّا، في جبينها الناتئ وقبّعتها الصغيرة (ضفيرة من حرير أو باقة) رغبتي المريرة النافدة الصبر، رغبة الرجل الوحيد، فإذا هي تتمتم بخفقة موجزة من جفنيها: «أنت حرّ!» وهمّت بالذهاب. غير أنّ ما شجّعني هو تفكيري بأنّي ربّما أكون قد التقيتها قبل سنتين أو ثلاث على طريق المدرسة! وقادتني إلى السُلّم الوعر الضيّق الذي لم يكن بدّ منه، بعد أن لم تجد بدًّا من أن تقرع الجرس لتفسح الطريق أمام «السيّد» الذي يُفضّل من غير شكّ ألّا يلتقي سيّدًا آخر، ثم كان التسلّق الطويل الحزين حتى الغرفة الكريهة ـ ذات السرير والمغسلة ولا شيء غير ذلك. وسألتني، حسب العادة، هديّتها الصغيرة، وسألتها، حسب العادة، عن اسمها (مونيك) وعمرها (ثمانية عشر عامًا). وكنت قد ألفت عادات بنات الملذّة، وكنت أعلم أنّهنّ كنّ دائمًا يجبن بلهجة اطمئنان وتأكيد: «ثمانية عشر عامًا» كأنّها زقزقة خفيفة أو لازمة ذات نغمين تردّدها هاتيك البائسات حتى عشر مرّات في اليوم بلهجة تنضح بالكآبة أكثر ممّا تنضح بالقحّة. وكان من المرجّح، في حالة مونيك، أنّها أضافت سنة أو سنتين لتبلغ الحساب، وقد أكّد لي هذا الشعور تفاصيل جمّة من جسمها المكتنز الدقيق الذي كان يشبه برعمًا لم يكتمل تفتّحه. وبعد أن نزعت ثيابها بسرعة باهرة، ظلّت بضع لحظات جامدة مسمّرة أمام النافذة التي كان الأفق ينعكس عليها، ملتفّة نصف التفاف بستار الموسلين الذي ذهب رونقه، مُصغيةً بفرح طفولي أمين لدور قديم إلى ألحان أرغن كانت تتصاعد من الباحة. وحين تفحّصت يديها وأشرت إلى أنّ أظفارها متّسخة قالت: «نعم، هذا ليس مستحبًّا» وتوجّهت إلى المغسلة وعلى وجهها تعبير السذاجة الطاهرة، وأسرعتُ أُؤكّد لها أنّه لم يكن في ذلك أيّ

بأس على الإطلاق. وكان لها شعر كستنائيّ قصير، وعينان رماديّتان مشعّتان، وبشرة دقيقة صفراء ـ وكانت لذيذة في خاصرتيها اللتين لم تكونا أعرض من خاصرتَي صبيّ. والواقع ـ وهذا هو بلا شكّ ما جعلني أطيل مكوثي معها راضيًا في تلك الغرفة الرماديّة الموسلينيّة الذكرى ـ أنّي لا أتردّد في التأكيد أنّ مونيك وحدها، من بين الثمانين بغيًّا اللواتي تعرّضن لي، استطاعتْ أن توقظ فيّ أهوال لذّة حقيقيّة. وقد علّقت وهي ترتدي ثيابها بالسرعة المدوّخة نفسها التي خلعتها بها، بقولها: «لقد كان ماكرًا ذلك الذي اخترع هذه العمليّة!».

وعرضت عليها أن نلتقي مرّة أخرى، في المساء نفسه، إذ نكون أكثر حرّيّة، فواعدتني على اللقاء في مقهى عند الزاوية في الساعة التاسعة، وهي تؤكّد لي أنّها لم يسبق لها في وجودها الفتيّ أن أخلفت موعدًا. وحين وصلنا إلى غرفتنا (الغرفة نفسها) لم أستطع الامتناع عن تهنئتها على جمالها، فأجابت بتواضع «إنّك لطيف جدًّا إذ تقول ذلك». ورأت فجأة، عبر المرآة التي كانت تعكس حدود جنّتنا الصغيرة، فرجة الحنان التي كانت تقلّص شفتيّ على أسناني المصطكّة، فسألتني بخضوع سبق أن أتقنته (أوه، أجل، لقد كانت جنّيّة في زمانها) هل أرغبُ في أن تمسح أحمر شفتيها قبل أن نتضاجع، فقد أرغب في تقبيلها. أودّ ذلك بكلّ تأكيد يا مونيك الصغيرة! واستسلمت كلّيًّا لها، في عطاءٍ لم أكن قد عرفته مع أيّة امرأة أخرى حتى ذلك الحين. وإنّ آخر رؤية حفظتها تلك الليلة من مونيك ذات الجفون الطويلة تطلّ ملوّنة بجذلٍ هادئ قلّما عرفت مثله في الفصول الأخرى المنحطّة، القذرة، الصامتة من حياتي الغراميّة. لقد بدت مبهورة حتى الجنون من الخمسين فرنكًا التي أعطيتها إيّاها وأنا أخرج، على سبيل الهديّة، فراحت تقفز بجذل في رذاذ نيسان الليلي، وهي تجرّ في إثرها همبرت همبرت الثقيل. وتوقّفت فجأة إزاء واجهة ثم صرخت بحماسة

«سأشتري جوربًا جديدًا». أتُراني أستطيع أن أنسى كيف انفجرت شفتاها، شفتا صبي باريسي، إذ لفظت كلمة «جورب» بلهجة نهمة؟

واتّفقنا على أن نلتقي مرّة أخرى في بيتي في الساعة الثانية والربع بعد ظهر اليوم التالي. ولكن لقاءنا ذلك كان دون الأوّلين نجاحًا، فكأنّ مراهقة الليلة الماضية تحوّلت في الليل إلى امرأة. ولقد التقطت منها زكامًا شديدًا أجبرني على أن ألغي موعدنا الرابع. والحقّ أنّي لم أحزن على قطع دورة عاطفيّة كانت توشك أن تخلّف عندي أوهامًا متحمّسة ممزّقة لا بدّ أن أسحقها فيما بعد تحت خيبة كئيبة. يبقى إذن، يا مونيك الصغيرة ذات الجسد الدقيق الناعم، ما كنتِه لبضع لحظات: جنّيّة مذوّبة مشعّة عبر قناعٍ مبتذل لمومس.

وقد كان من شأن هذا اللقاء أن يحرّك سلسلة من ردود الفعل والتداعيات التي لن تدهش القارئ الذي خَبَرَ هذه الأمور. لقد قرأت يومًا إعلانًا في مجلّة خلاعيّة قادني إلى مكتب امرأة تُدعى «الآنسة أديث» سرعان ما عرضت عليّ أن أختار فتاة بين صور مجموعة بالية متّسخة (أنظر إلى هذه السمراء الفاتنة!) ولكنّي دفعت مجموعة الصور بعيدًا، وحين صارحتها بصوت متمتم عن هوايتي، حسبت أوّل الأمر أنّها ستلقي بي خارج الباب. على أنّها حين عرفت المبلغ الذي كنت مستعدًّا لدفعه، التهبت شوقًا لتدلّني على فتاة يمكن أن تناسبني. وفي اليوم التالي، أدخلتني ساحرة تشكو الربو ويبعث فمها رائحة الثوم، امرأة متوحّشة ذات زينة مبتذلة وشارب مفحم يعلو شفة ذات حمرة قانية، ولهجة مارسيليّة تنزع إلى السخرية، أدخلتني ما كان دون ريب مسكنها، وهناك رأيتها تقبّل أطراف أصابعها المضمومة تقبيلاً مسعورًا لتؤكّد لي ميزة بضاعتها العذراويّة اللذيذة، ثم سحبت بحركة مسرحيّة ستارًا كشف زاوية من الحجرة التي كانت على ما يظهر غرفة نوم لأسرة عديدة الأفراد، قليلة الاهتمام بالصحّة. ولم يكن في الغرفة إلّا صبيّة

تثير سمنتها الرعب وتفاهتها النفور، ولا يقلّ عمرها عن الخمسة عشر عامًا، وكانت لها جدائل كثيفة سوداء مربوطة بشُرُطٍ حمراء، وكانت مستلقيةً على كرسيّ تهدهد بين ذراعيها دمية صلعاء. وحين هززت رأسي علامة الاستنكار وأردت أن أفرّ من هذا المكمن المنصوب لي، حاولت الساحرة أن تجتذبني بأن نزعت ثوب العملاقة الصغيرة، ذلك الثوب الرمادي القذر، فيما هي تتدفّق بفيض من الكلام، ثم اضطرت، إزاء تصميمي، إلى أن تتخلّى عن جهودها وتطالب بدراهمها. وفي تلك اللحظة، فُتح باب في داخل الحجرة، وظهر رجلان تركا المطبخ والعشاء ليأتيا إلى نجدة العجوز. وكانا أسمرين مربوعين غير متناسبي الأعضاء، وكانا مشمّري السواعد، وكان أحدهما يضع نظّارات ذوات زجاج مدخّن. وكان يختبئ وراءهما طفل في السابعة أو الثامنة وصبيّ بشع ملطّخ. وأشارت القوّادة الهائجة، بمنطق وقح كما لو كان ذلك في حلم كابوسيّ، إلى الرجل ذي النظّارات وهي تصرخ بأنّه قد خدم في الشرطة، وأنّه لا يبقى لي إلّا أن أرضخ. وعدت إلى ماري (فقد كان لها هذا الاسم السماوي) وكانت قد انتقلت إلى المطبخ تاركةً الدمية للطفل، لتتناول بقيّة حسائها البارد، وكان حوضها العظيم متداعيًا حول الكرسي. وأخذتني شفقة عمّقت شعوري بسخافة حركتي المأسويّة، فألقيت بورقة ماليّة بين يديها اللامباليتين. وبسطت هي هبتي لرجل الشرطة السابق، فتفضّلوا أخيرًا وسمحوا لي بالخروج.

٧

من الممكن أن تكون مجموعة صور السمسارة قد أضافت حلقة أخرى إلى الإكليل. ومهما يكن من أمر، فقد صمّمت بعد ذلك بقليل، من أجل

صون نفسي، على أن أتزوّج، فقد بدا لي أنّ حياة منتظمة ووجبات مطبوخة في البيت، واصطلاحات الزواج الألف، وتتابع واجبات المخدع الواقي من الأمراض، بل حتى (ولِمَ لا؟) تفتّح بعض القيم الخلقيّة الخطرة المُحطّة، فقد يساعدني، في الأقلّ، على أن أفرض عليها وداعة سلميّة. وقد استطعت، بفضل الرأسمال الصغير الذي كنت قد ورثته بعد موت أبي ـ وليس هناك شيء ضخم إذ كان قد مرّ وقت طويل على بيع فندق «ميرانا» ـ وبفضل جسمٍ جميل جمالاً فريدًا (بالرّغم من بعض القسوة في رسم الملامح) استطعت أن أبدأ بالحملة بثقة واطمئنان. وبعد تفكير طويل، اخترت ابنة طبيب بولونيّ طيّب كان يعالجني في تلك الفترة ممّا كنت أصاب به أحيانًا من دوار وخفقان في القلب. وكنت ألعب معه الشطرنج بينما كانت ابنته ترمقني من خلف مسند مرسمها وتختلس مني بعض الأحجار لتدرج رسمها في الحماقات التكعيبيّة التي كانت الفتيات الناضجات تؤثّر تصويرها على تصوير الحملان أو الزنبق. وإنّي أسمح لنفسي هنا أن أردّد بكلّ ثقةٍ وهدوء أنّني كنت وما زلت، برغم هذه المصائب، رجلاً ذا هيبة غير مألوفة: كانت مشيتي منسجمة متمهّلة، وقامتي طويلة وشعري حريريًا مظلمًا ووجهي مطبوعًا بكآبة تضاعف من فتنته. إنّ رجولة استثنائيّة غالبًا ما تعكس على ملامح صاحبها المرئيّة شيئًا من الشراسة مردّه إلى ما ينبغي له أن يحتفظ بسرّه. وذلك كان شأني. وكنت مدركًا، لسوء حظّي، أنّه كان بحسبي أن أرفع إصبعي الصغيرة لتعدو نحوي جميع النساء اللواتي يخطر ببالي أن أختارهنّ، والحقّ أنّي كنت قد درّبت نفسي على ألّا أظهر لهنّ مزيدًا من الاستمالة، خشية أن يسقطن ناضجات فوق صدري البارد. ولو أنّي كنت فرنسيًا متوسّطًا يفتنه الجمال الصاخب، لسَهُلَ عليّ أن أجد بين الحوريّات المتحمّسات اللواتي كنّ يهاجمن صخرتي المستوحشة، مخلوقات أوفر سحرًا من «ڤاليري». على أنّ قراري

قد أملته اعتبارات كانت قائمة، كما ثبت لي فيما بعد، على رغبة في التسوية تُثير الشفقة. وأنّ هذا كلّه ليثبت سذاجة همبرت المسكين، تلك السذاجة الأبديّة المؤسية فيما يخصّ شؤون القلب.

٨

عبثًا ما كنت أقول: إنّني لا أريد إلى جانبي إلّا حضورًا أنثويًّا معزّيًا، امرأة بيتيّة، دمية متحرّكة، ولكنّ الذي سحرني في «ڤاليري» هو ما كان يشبه خصائص غلامة صغيرة. وليس مردّ ذلك أنّها حدست بنزعاتي، وإنّما كان ذلك في طبيعتها، ولهذا عضضت على الشصّ بنواجذي. وكانت قد تجاوزت في الواقع العشرين من عمرها (وأنا لم أستطع قطّ أن أُحدّد عمرها الحقيقي، فحتى تذكرتها كانت كاذبة) وكانت قد أضاعت بكارتها في ظروف كانت تراوح مع مزاجها المختصّ بالذاكرة. أمّا أنا فكنت أبيض القلب كما لا يكون إلّا الفاسق. وكانت تبدو ماكرة مدلّلة ترتدي ثيابًا لامبالية وتكشف بلا تحرّج عن ساقيها الجميلتين، وتحرص على أن تزيد من بياض رسغيها العاريين بأن تنتعل حذاء بيتيًّا من المخمل الأسود. وكانت سحنتها كلّها تفيض بالغمّازات والتعبيرات الطفوليّة، وجسمها بالطفرات والانفعالات، وكانت تنفض جدائلها القصيرة الشقراء بفتنة يقظة كان ابتذالها يصعقني.

وبعد احتفال صغير في دار البلديّة، صحبتها إلى المنزل الجديد الذي كنت قد استأجرته، وقبل أن أضع يدي عليها، طلبت أن ترتدي قميص نوم لغلامة صغيرة كنت قد سرقته من خزانة أحد المياتم، فأخذتها دهشة عظيمة وهي ترتديه. وقد حاولت أن أتسلّى في ليلة العرس، تلك حتى إنّ المرأة المسكينة انتهى بها الأمر إلى أزمة أعصاب استولت عليها حين أشرق

الفجر، ولكنّ الحقيقة لم تلبث طويلاً حتى تأكّدت. فإنّ خصلات الشعر الشقراء كشفت عن جذورها السوداء، وتحوّل الزغب إلى فرشاة على ربلاتها الحليقة. ولم يلبث فمها الندي النابض الذي كنت ألتهمه بنهم أن كشف عن شَبَه مريع بالفُرجة التي كانت تنفغر في صورة وجه المرحومة أمّها ولم يطل الوقت بهمبرت همبرت حتى أحسّ على ذراعيه، بدلاً من غلامة الأزقّة الصفراء، قطعة حلوى ضخمة كثيفة ذات صدر منتفخ وساقين أقصر ممّا ينبغي، وعقل يكاد يكون معدومًا.

وقد استمرّت هذه الحالة من عام ١٩٣٥ إلى عام ١٩٣٩ وكانت ميزة ڤاليري الوحيدة طبيعتها المتحفّظة التي كانت تسهم في خلق جوّ هادئ في بيتنا الضيّق القذر المؤلّف من غرفتين تشرف إحدى نوافذهما على منظر عامّ، والأخرى على جدار قرميديّ، ومن مطبخ صغير ومغطس كنت أحسبني فيه شبيهًا بـ «مارا» ـ ولكن «مارا» لم تكن تهدّده أيّة عذراء بخنجرها وقد استمتعنا في البيت بعدّة ليالٍ ناعمة، وكانت هي تغرق في جريدتها «باري ـ سوار» وأنا أعمل إزاء طاولة مهتزّة. وكنّا نقصد السينما ونشاهد تدريبات للدرّاجات ولحفلات ملاكمة. ولم أكن ألجأ قطّ إلى مفاتنها المنحلّة إلّا في لحظات الاستعجال القصوى أو في فترات اليأس. وكان للسمّان الذي يفتح حانوته قبالة منزلنا فتاة صغيرة كان ظلّها يكفي لكي يفقدني رشدي. على أنّي كنت أتمتّع، بفضل ڤاليري، بمنفذ شرعي كنت أقنّي فيه، كيفما كان الأمر، اندفاعاتي التي لا اسم لها أمّا طعامنا، فكنّا قد ألغينا إعداده في البيت، وكنّا نتردّد إلى مطعم في شارع بونابرت كان مزدحمًا دومًا بالروّاد، فنجلس إلى طاولة تلطّخ قماشها بالخمر، ونستمع إلى المحادثات الأجنبيّة حولنا وعلى مقربة من أحد الأبواب، كنّا نلمح في واجهة حانوت للآثار القديمة تمثالاً خشبيًّا أميركيًّا رائعًا يبهر بلونه الذهبي الأحمر والأخضر. وكان يمثّل محرّك قطار، ذا مدخنة عظيمة

وفوانيس كبيرة، يجرّ حافلاته عبر ليل البراري، الذي تجلده العاصفة، مازجًا دخانه الحلزوني الأسود ذا الشرارات الملتمعة بفراء الغيوم السوداء الموشكة على الانفجار.

ولم تلبث أن انفجرت. ففي صيف ١٩٣٩، مات عمّي الأميركي تاركًا لي عائدات سنويّة وبضعة آلاف من الدولارات، شريطة أن أرحل فأعيش في الولايات المتّحدة وأُبدي بعض الاهتمام بأشغاله. وقد فُتنتُ بهذه الرحلة، وكنت أحسّ أنّ حياتي كانت بحاجة إلى صفعة سوط، ولكنّ ذلك لم يكن السبب الوحيد: فإنّ ثقوبًا من قرض العثّ كانت تظهر في قطيفة رفاهيّتي البيتيّة. وكنت قد لاحظت خلال الأسابيع الأخيرة أنّ زوجتي السمينة «ڤاليري» كانت تبدو على غير استقرار، إذ كانت تُظهر عصبيّة غير مألوفة، بل كانت تستسلم أحيانًا للون من النزق لا يتلاءم مع الشخص المتحفّظ الجامد الذي كان مفترضًا أن تجسّده. وحين أخبرتها بأنّنا سنبحر عمّا قريب إلى نيويورك بدت مشدوهة مذعورة. وقد أدّى الحصول على أوراقها إلى مساعٍ مضجرة.

وذات صباح، وكنّا على وشك مغادرة أحد مكاتب الإدارة ـ وكانت أوراقها قد أُنجزت على وجه التقريب ـ أخذت «ڤاليري» التي كانت تمشي إلى جانبي، تهز رأسها فجأة باندفاع صامت. وتركتها على حالها لحظة، ثم سألتها هل هناك شيء مهمّ يشغل مخّها   فأجابت بفرنسيّة فوضويّة كانت تعبّر، على ما أظنّ، عن سماجة سلافيّة: «إنّ في حياتي رجلاً آخر».

هذه كلمات لا يحتمل زوج أن يسمعها   وأعترف أنّها قد جعلتني أضطربُ. ولم يكن واردًا أن أضربها في وسط الشارع كما كان يفعل كلّ متوسّط. فقد مكّنت لي سنوات من العذاب في المقاومة أن أسيطر على نفسي سيطرة تفوق طاقة الإنسان. ولهذا اكتفيت بأن أدخلها في سيّارة تاكسي كانت ترود منذ بضع دقائق بجانب الرصيف كما لو أنّها تجتذبنا،

وإذ استقرّ بنا المقام فيها طلبتُ منها أن تشرح كلامها السخيف. وكانت حنجرتي معقودة بغضب متزايد لا يعزى إلى ما لا أدريه من الحنان للسيّدة همبرت، تلك الدمية المضحكة، وإنّما كان يُعزى إلى أنّ ڤاليري، زوجتي التمثيليّة، قد نسيت أنّه كان يعنيني وحدي أن أحلّ مشكلاتنا الزوجيّة، شرعيّة كانت أم غير شرعيّة، فأخذت تتصرّف تصرّفًا فاجرًا بالتنازل من تلقاء نفسها عن طمأنينتي ومصيري. وأمرتها أن تشي باسم عشيقها، ولكن عبثًا ما أمرت، فقد انطلقت في هذر بهلوانيّ متحدّثة عن ضيقها في العيش معي ومعلنةً عن مشاريعها في الطلاق على التوّ. وعند ذاك صحت بها: «ولكن من هو؟» وألقيت بقبضتي على ركبتها، ومن غير أن تتحرّك تحت تأثير الضربة، نظرت إليّ بإحداد، فاغرة الفم، كما لو أنّ الجواب كان من فرط البدهيّة بحيث لا يحتاج إلى إشارة، ثم هزّت كتفيها هزّة سريعة وأومأت بإصبعها إلى رقبة السائق الكثيفة. وأوقف السيّارة إزاء مقهى صغير وقدّم نفسه. وقد نسيت اسمه المضحك، ومع ذلك فما زلت أتخيّله، بعد هذه السنوات الطوال ـ كولونيل سابق في روسيا القيصريّة، قصير كثيف الظهر، ذو شعر قاسٍ وشارب كثيف. وكانوا ألوفًا من السائقين الذين يمارسون مثله هذه المهنة الغريبة في شوارع باريس؛ وقد اتّخذنا مجلسنا حول طاولة، وطلب القيصريّ خمرًا، وبعد أن وضعت «ڤاليري» على ركبتيه فوطة مبلّلة، عادت إلى ثرثرتها، ولكنّها لم تكن تتّجه بالحديث لي بل أخذت تغرق في كلامها هذا المكان المفرط في التصنّع، بهذر لم أكن أعهده فيها وكانت تبصق بين فترة وأخرى رذاذًا من اللغة السلافيّة إلى عاشقها الجامد. وتفاقم فجأة مجون الموقف حين قاطع السائق الكولونيل كلام ڤاليري بابتسامة واثقة، وشرع يشرح بنفسه وجهة نظره ومشاريعه. وأخذ يصوّر بلغة فرنسيّة دقيقة، ولكنّها مشوّهة بلهجة قاسية، عالم الحبّ والجدّ، الذي ينوي دخوله مع امرأته ـ الطفلة، ذراعًا في ذراع. في تلك الأثناء، كانت ڤاليري وهي

جالسة بيننا قد بدأت تتزيّن صابغة شفتيها الململومتين بالأحمر. ومَنْ يسمع الكولونيل يتحدّث عنها يخال أنّها كانت غائبة، وأنّ الأمر يتعلّق بيتيمة صغيرة تُنقل من وصيّ متبصّر إلى حارس أوفر حكمة وتبصّرًا، وأنّ هذا من حسن حظّي. ومن الممكن أن تكون سورة غضبي العاجزة قد حملتني على أن أبالغ وعلى أن أُشوّه بعض الانفعالات، ولكنّي أؤكّد أنّه اتّخذ لهجة من يستشيرني حول بعض الطلاسم، كالنظام الذي كانت تتبعه، وحالاتها النفسيّة وجهازها والكتب التي كانت قد قرأتها أو ينبغي أن تقرأها. وقال: «أعتقد أنّها ستحبّ «كريستوف» أليس كذلك؟» أوه! لقد كان مثقّفًا ومن طبقة معتبرة، السيّد تكسوفيتش هذا!

ووضعت حدًّا لهذه الثرثرة إذ دعوت «ڤاليري» إلى أن تُعدّ بلا تأخّر حاجاتها المتواضعة التي عُرض مُطلق السخافات المسكين أن ينقلها في سيّارته. وعاد إلى مهنته، فقاد أسرة همبرت إلى بيتها. وهذرت ڤاليري طوال الطريق، بينما كان همبرت الغريب وهمبرت الصغير يتناقشان لمعرفة ما إذا كان على همبرت همبرت أن يقتل الخائن أو عشيقها أو كليهما أو لا يقتل أحدًا منهما وإنّي لأذكر أنّه كان بين يديّ يومًا مسدّس آلي لزميل من زملاء الجامعة، في وقت (احسبني لم أتكلّم عنه، ولكنّ الأمر سواء) كنت أُداعب فيه فكرة امتلاك أخته الصغيرة، وهي جنّيّة شفّافة ذات شعر يمسكه شريط أسود، ثم أُحرق مخّي برصاص هذا المسدّس. غير أنّي أخذت أتساءل هنا هل كانت «فاليتشكا» كما كان يدعوها الكولونيل، تستحقّ فعلاً أن تموت رميًا بالرصاص أو شنقًا أو غرقًا كان لها ساقان رخوتان جدًّا وقد عزمتُ على أن أكتفي بأن أؤذيها أذًى مريعًا حين يخلو أحدنا إلى الآخر.

ولكن هذه الخلوة لم تُتح لنا لحظة. فقد كانت «فاليتشكا» التي أخذت في تلك اللحظات تذرف أنهارًا من الدموع كانت آثار زينتها

المتعدّدة الألوان تذوب فيها، منشغلةً بحشو صندوق ومحفظتين وكيس إلى حدّ الانفجار. وقد كان غير معقول بالطبع أن أنتعل حذائي الجبليّ لأرفس به مؤخّرتها رفسة طائرة، لأنّ الكولونيل الشيطاني كان لا ينفكّ يرود حولنا. وينبغي القول: إنّ مسلكه لم يكن وقحًا ولا ملتبسًا، بل على العكس قد كان يظهر احترامًا حذرًا على الطريقة القديمة ويتّبع كلّ حركة بمقدّمة من الاعتذارات العرجاء المزعجة وينفتل ببراعة حين نزعت «فاليتشكا» مباذلها الورديّة عن الحبل المنصوب فوق المغطس. فكانت هذه الحركات كلّها تشبه فترات الاستراحة في المهزلة التي كان محكومًا عليّ أن أحضرها غير أنّ ذلك النذل كان يبدو موجودًا في كلّ مكان في وقت واحد، موفِّقًا مظهره مع متطلّبات الأمكنة، وقد رأيته يجلس تارةً على كرسيّي ليقلّب جريدتي، ويحلّ تارةً أخرى خيطًا معقّدًا، ويبرم طورًا لفّافة، ويعدّ طورًا آخر ملاعق القهوة، وينظر إلى الحمّام ويساعد جميلته في صرّ المروحة الكهربائيّة ـ وهي هديّة من أبيها ـ وينقل أمتعتها إلى الشارع. وكنت نصف جالس، مشتبك الذراعين، مسندًا خاصرتي إلى حافّة النافذة، أكاد أحتضر حقدًا وضجرًا وغادرا أخيرًا منزلي المضطرب ـ وقد أصدت خفقة الباب الذي صفقته خلفهما وقتًا طويلاً في كلّ عصب من أعصابي، وكانت بمثابة ردّ الصفعة التي كان يجب عليّ أن أوجّهها إلى خدّ الخائنة. وما لبثت أن هرعت إلى الحمّام، وأنا أُمثّل دوري بعدم حذق، لأتأكّد أنّهما لم يأخذا ماء الزينة الذي كنت قد جلبته من إنكلترا غير أنّي وجدته ما يزال هناك، ولكنّي رأيت، بتشنج عنيف من الاشمئزاز، أنّ مستشار قيصر السابق قد أفرغ هناك بكلّ دقّة محتوى مثانته، من غير أن يشدّ آلة دفق الماء. وقد قرأت في تلك البركة المجيدة من البول الأجنبي، حيث كان يتحلّل عقبُ لفّافة مبلّلة مصغرة، شتيمة عظمى فأسرعت أبحث عن سلاح. والحقّ أنّ من دواعي اللياقة المثاليّة

للصغار البورجوازيين الروس أنّ الكولونيل السائق (مكسيموفيتش! هو ذا اسمه يصفع ذاكرتي) وهو الرجل الحريص على أساليب الاحترام كجميع مواطنيه قد فرض صمتًا مناسبًا على حاجاته الصميميّة حتى لا يشي بصغر بيت ضيفه حين يدفق شلالاً وقحًا إثر تبوّله المستعجل. بيد أنّ ذلك لم ينكشف لي على الفور، فكان أن قلبت المطبخ رأسًا على عقب وأنا أدمدم من شدّة الغضب من غير أن أجد إلّا مكنسة. وعدلت آنذاك عن متابعة التفتيش، وقفزت إلى السلّم يراودني مشروع بطولي في أن أُهاجم الرجل عاري اليدين، غير أنّي لم أكن ملاكمًا بالرّغم من قامتي القويّة، بينما كان مكسيموفيتش، بقامته القصيرة التي تعوّض عنها كتفاه العريضتان، يبدو وكأنّه مصبوب في الحديد. ولكن ربّما كان خلوّ الشارع، الذي لم يكن فيه ما يشي بفرار زوجتي إلّا زرّ من «الستراس» تركته يسقط في الوحل بعد أن احتفظت به ثلاثة أعوام طويلة في محفظة ممزّقة، ربّما كان خلوّ الشارع هو الذي وفر عليّ مصيبة لكمة شديدة تزرقّ منها عيني. ومهما يكن، فقد حقّقت ثأري في الوقت المناسب. فقد أخبرني طبيب من «باسادنيا» ذات يوم أنّ سيّدة تدعى السيّدة مكسيموفيتش قد ماتت في أثناء الوضع عام ١٩٤٥، وهذا يعني أنّ الزوجين قد وصلا، لا أدري بأيّة طريقة، إلى كاليفورنيا حيث عملا طوال اِثني عشر شهرًا، براتب ممتاز، كمريضين من مرضى الاختبار لدى عالم أميركي من علماء السلالات كان يدرس ردود الفعل البشريّة والجنسيّة عند أشخاص يقتصر غذاؤهم على البلح والموز ويدبّون على أيديهم وركبهم طوال مدّة الاختبار. وأكّد لي محدّثي أنّه رأى بأمّ عينيه «فاليتشكا» السمينة وكولونيلها، الذي شاب وأصبح هو أيضًا بدينًا، يزحفان بحيويّة على بلاط ناعم في سلسلة من الغرف كان في إحداها الماء وفي الثانية الفاكهة وفي الثالثة فراش الراحة. وهكذا وكان بصحبتهما عدد آخر من ذوي

الأربع اختيروا بين طبقات الشعب المعوّزة وغير المنتجة. وقد راجعت طويلاً «مجلّة الإنتروبولوجيا» لأقف على نتائج هذه الاختبارات، ولكنّها لم تُعرف حتى هذا اليوم، ولا حاجة إلى القول: إنّ هذه البواكير العلميّة تتطلّب بعض الوقت لتبلغ مرحلة النضج. وأرجو إذا نُشر المقال يومًا أن يُرفق بصور مفيدة، بالرّغم من أنّ هناك حظًّا قليلاً في أن تتلقّى مجموعات صور السجن مؤلّفات في مثل هذه الدراسات، وأنّ الفهرس الذي أقتصر الآن على تقليبه، بالرّغم من مساعي محاميّ الحميدة، يُمثّل الاختياريّة الخرقاء التي يقوم عليها انتخاب الكتب لمكتبات السجون. فعندنا هنا الكتاب المقدّس طبعًا، ومؤلّفات «ديكنز» في طبعة قديمة، و«دائرة معارف الأطفال» (مع عدد لا بأس به من صور الكشّافات ذوات الشعر المنثور في الشمس والهواء والسراويل القصيرة) وكتاب «ستُرتكب جريمة قتل» وهي رواية بوليسيّة لأغاتا كريستي، وبين أيدينا أيضًا سخافات أشهر من هذه من مثل «شقي في إيطاليا»، تأليف (بيرسي الفنستون) مؤلّف «عودة إلى فينيسيا» (بوسطن، ١٨٦٨) و«حوليّة المسرح» وهو كتاب حديث نسبيًّا (١٩٤٦) وفيه لائحة عن أشهر الهزليّين وقادة الفرق المسرحيّة والمؤلّفين المسرحيّين. وبينما كنت أقلّب مساء أمس هذا الكتاب الأخير استمتعت بإحدى تلك المصادفات المرهقة التي تكرهها الأذهان القويّة والتي هي قدر الشعراء. وإنّي أنقل هنا معظم سطور تلك الصفحة:

«بيم رولان وُلد عام ١٩٢١ في لاندي (ماساشوساتس). درس التمثيل في مسرح السينور بدربي (نيويورك)، بدأ تمثيله في رواية «الانبهار». نذكر من أكبر الروايات التي لمع فيها «على بُعد شارعين من هنا»، «الآنسة ذات الثوب الأخضر»، «الزوجان المتخاصمان»، «خبز الأرض العجيب»، «بالناقص خمسة»، «جون لافلي»، «كنت أحلم بك» إلخ.

«كلتي، كلار، مؤلّف مسرحي. ولد عام ١٩١١ في أوسيان ستي

«نيوجرسي». درس في جامعة كولومبيا   هجر مهنة تجاريّة ليتخصّص في المسرح. مؤلّف «الجنّيّة الصغيرة»، «السيّدة التي كانت تحسب الصاعقة» (بالاشتراك مع ڤيڤيان درك بلوم)، «عهد الظلمات»، «خبز الأرض العجيب»، «حبّ أب» إلخ.   كتب مسرحيّات طفوليّة رائعة: «الجنّيّة الصغيرة» ١٩٤٠ مُثّلت ٢٨٠ مرّة في الريف في أثناء الشتاء قاطعة أكثر من ٢٢ ألف كيلومتر قبل أن تُمثّل في نيويورك. هواياته: سيّارات رياضيّة، صور حيوانات.

«كين، دولوريس. وُلدت عام ١٨٨٢ في ديتون (أوهيو). تابعت دروسًا مسرحيّة في الأكاديميّة الأميركيّة. بدأت التمثيل في أوتاوا عام ١٩٠٠ أخذت تشتهر في نيويورك عام ١٩٠٤ في مسرحيّة «احذروا المجهولين». منذ ذلك الحين أخذت تراوح في مسرحيّات.   (تلي عناوين زهاء ثلاثين مسرحيّة).

وما زلت حتى الآن، لمجرّد رؤية اسم حبيبتي، وإنْ كان ملصقًا باسم ممثّلة عجوز بالية، يمزّقني عذاب لا دواء له. فمن يدري! قد تصبح هي أيضًا ممثّلة هزليّة، ولدت عام ١٩٣٥ ظهرت في «المؤلّف المغتال». أوه يا حبيبتي لوليتا إنّهم لا يدعونني ألعب إلّا بالكلمات!

٩

تأخّر رحيلي بسبب شكليّات الطلاق. وكان عبء حرب عالميّة أخرى قد بدأ يثقل على القرى حين بلغتُ أخيرًا الولايات المتّحدة بعد شتاء مملّ قضيته في البرتغال وأصبتُ فيه بنزلة رئويّة. وما إن وصلتُ إلى نيويورك حتى سارعتُ إلى قبول المنصب الذي عُرض عليّ: وكان يقضي خصوصًا بتهيئة وتحرير إعلانات عن العطور المتعلّقة بالأعمام والعمّات. ولم أكن

أنفر قطّ من الطابع الأدبيّ الغريب لهذه المهمّة، وكنت أنصرف إليها بحماسة كلّما كنت لا أجد ما أفعله خيرًا من ذلك. ومن جهة أخرى ألحّت عليّ جامعة في نيويورك أن أنجز دراستي المقارنة عن الأدب الفرنسيّ المعَدّة لاستعمال الطلّاب ذوي اللغة الإنكليزيّة. وقد استغرق القسم الأوّل عامين من جهودي كنت خلالهما قلّما أقضي أقلّ من خمس عشرة ساعة في العمل كلّ يوم. وحين أتصوّر هذه الفترة من حياتي، تبدو لي منقسمة منطقتين: أولاهما ذات ضوء واسع، والأخرى ذات ظلّ ضيّق ـ الأولى تذكّرني بعذوبة أعمالي في المكتبات التي لا تقلّ جمالاً عن القصور، وأمّا الظلّ فهو يقنّع عذاب تلك الرغبات التي تحدّثت عنها أكثر ممّا ينبغي. ويستطيع القارئ، وهو يعرفني الآن، أن يتصوّرني تارةً راشحًا بالعرق والغبار، مترصّدًا ـ على خلسة ـ الجنّيّات البعيدات ـ ويا للحسرة! ـ عن متناولي واللواتي كنّ يلعبن في «سنترال بارك»، وطورًا يشنجني النفور والاشمئزاز أمام مسودّات الآلات الكاتبة التي كان يُلقيها بين يدي باستمرار صبي مكتبٍ مَرح. لندع هذا كلّه. ولأذكر أنّ هبوطًا عصبيًّا مريعًا قد نفاني طوال أكثر من عام إلى أحد المصحّات، وعندما استعدتُ نشاطي ما لبثت أن رجعت ثانية إلى المصحّ.

وقد بدا لي أنّ إقامة سليمة في الهواء الطلق ستعود عليّ ببعض العزاء. وقد قدّم لي أحد أطبّائي المفضّلين، وهو رجل ذو لحية سمراء، يملك من اللطف على قدر ما يملك من البذاءة، قدّم لي أخاه الذي كان على وشك ترؤّس بعثة إلى المناطق الشماليّة من كندا وقد تعاقدت معه بصفة «مقرّر للإرجاع النفسيّة». وكنت بين فترة وفترة أتقاسم مع شابّين من علماء النبات ونجّار عجوز حظوة طبيبة البعثة الدكتورة «أنيتا جونسون»، ولكن هذه العلاقات لم تلق نجاحًا كبيرًا وأُسارع إلى القول: إنّ الطبيبة ما لبثت أن أُعيدت إلى بلدها ولم أكن أدرك على الإطلاق غاية هذه الرحلة.

وإذا كان لي أن أحكم عليها من عدد علماء الفلك الكثر الذين كانوا من أعضائها، فربّما كانت مهمّتها أن ترصد في مكان ما من جزيرة «برنس دو غال»، على ما أعتقد، القطب المغناطيسي العظيم. وقد نصب فريق، بالاشتراك مع الكنديّين، محطّة جوّيّة في «بيير بوان» في مضيق «ملفيل». وكلّف فريق آخر جمع الحشرات الصغيرة، وكان فريق ثالث يدرس تأثير السلّ في البراري الشماليّة. أمّا المصوّر «برت» ـ وهو شخص شديد العصبيّة كنت مقسورًا في صحبته على عدد من السخرات غير اللائقة (فقد كان يشكو هو أيضًا بعض المتاعب النفسيّة) ـ يعتقد بأنّ رؤساء البعثة، الرؤساء الحقيقيّين الذين لم نكن نراهم قطّ، كانوا منهمكين أساسًا بتقدير تأثير الجوّ على فراء الثعالب الفضّيّة اللون.

وكنّا نسكن أكواخًا من الحطب (صنعت سلفًا) وسط عالم من الغرانيت. وكان معنا كمّيّة ضخمة من المعدّات والأغذية ومجموعة «الريدر دايجست» وإناء كبير للشرب ومراحيض مطهّرة من الجراثيم وقبّعات من الورق للسهرات. وكانت صحّتي مزدهرة بالرّغم من، أو بسبب الفراغ ورتابة حياتنا وكنت أحسّني أجنبيًّا عن نفسي وسط تلك البنايات المقطبة من الأشن وغابات الصفصاف القصير، يكتنفني ويطهّرني النسيم الذي يتردّد إلى صخرة تظلّلها سماء شفّافة وإن كانت لا تكشف عن شيء مثير جدًّا ولم يكن هناك أيّ إغراء يشغلني. وكانت فتيات لاسكيمو القصيرات السمينات الملتمعات اللواتي يشيع منهنّ نتن السمك لا يوحي لي بشعرهنّ المشمّع المنفر وأفواههنّ التي تشبه خراطيم خنازير الهند أكثر ممّا كانت الدكتورة «جونسون» توحيه لي. إنّ الجنّيّات لم تكن لتعبر قطّ تلك المناطق القطبيّة. ولقد تركت لأولئك الذين يحسنون خيرًا منّي تحليل كتل الجليد والرّيح الشماليّة والسخافات، وجهدت بعض الوقت في تسجيل ما كنت أتساهل في تسميته «إرجاعًا» (فقد لاحظت مثلاً أنّ الأحلام كانت تحت

شمس منتصف الليل تنتعش بألوان فاقعة وقد أكّد صديقي المصوّر هذه النظريّة). وبالإضافة إلى ذلك فقد كان مفترضًا فيّ أن أسأل مختلف رفاقي عن مختلف المشكلات الرئيسيّة كالدوار والخوف من الحيوانات المجهولة والرّغبة في الطعام والغائط الليلي والهوايات واختيار برامج الراديو وتغيّرات المنظورات إلخ. وقد تخلّيت سريعًا عن هذه التحقيقات التي كانت تثير أعصاب الجميع. غير أنّي لم أنفض يدي من تحقيقي إلّا بعد عشرين شهرًا من الأعمال الباردة (على حدّ تعبير عالم نباتيّ مزّاح) وهو تقرير زائف وزخم من أوّله إلى آخره، ويستطيع الطبيب أن يرجع إليه في حوليّات «البالغين النفسيّة ـ الجسديّة» لعام ١٩٤٥ أو ١٩٤٦ كما يجدها في عدد تحقيقات «المناطق الشماليّة» المخصّص لأعمال هذه البعثة التي لم تكن تهتمّ، على الإطلاق، كما أبلغني أخيرًا طبيبي اللطيف، بالموادّ النحاسيّة في جزيرة ڤيكتوريا ولا بأيّة قضيّة أخرى مماثلة: وإنّما كانت غايتها الحقيقيّة «سرّيّة جدًّا»، وأكتفي بأن أقول في الختام، إنّ هذا السرّ أيًّا كان، قد حوفظ عليه محافظة تدعو إلى الإعجاب.

وسوف يشقّ على القارئ أن يعرف أنّي أصبتُ بعد عودتي إلى العالم المتمدّن، بانحراف من الغباوة جديد (إذا كان يحقّ لنا أن نطلق هذه العبارة القاسية على كآبة بلا أمل وشعور من الضيق لا يحتمل). وأنا مدين باستعادة صحّتي تمامًا إلى اكتشاف وجدته في المستوصف المرتفع الأسعار الذي عُولجت فيه. في الواقع، اكتشفت هناك السحر المسكر الذي لا ينفد، والذي يشعر به المرء حين يتلاعب ساخرًا بالأطبّاء النفسيّين. وتتلخّص اللعبة في أن نبحر بهم ببراعة، فيما نخفي عنهم، بحرص، أنّنا نعرف جميع خيوط المهنة، فنختلق لهم أحلامًا معقّدة، أحلامًا تبلغ من البراعة حدًّا يصبحون هم أنفسهم معه فريسة الكوابيس فيستيقظون وهم يهدرون رعبًا، ونجتذبهم بمختلف ذكريات اللعب الأبويّ «وبمشاهد بدائيّة»

أخرى مختلفة برمّتها، ونرفض أخيرًا أن نقدّم لهم أيّ علامة عن الاضطرابات الجنسيّة التي نعانيها حقًّا. وقد رشوت إحدى الممرّضات، فاستطعت أن أُلقي نظرة على إضبارتي، فقرأت بجذل وفرح قصاصات وُصفت فيها، في وقت واحد، بأنّي «لواطيّ بالقدرة» و«عنّين كامل». وقد كانت هذه الرياضة لذيذة جدًّا، وكانت نتائجها عجيبة جدًّا (في مثل حالتي على الأقلّ) حتى إنّي عزمت على أن أبقى شهرًا آخر، بالرّغم من أنّي استعدت كامل صحّتي، وكنت أستغرق في نوم هادئ وآكل بشهيّة طالبة مدرسة. ثم أخّرت رحيلي أسبوعًا آخر، لا لشيء إلّا لأنعم بمصارعة اختصاصيّ أوروبيّ شهير وصل منذ حين، عالم طبّ نفسيّ مضلّل كان يتمتّع بموهبة إقناع مرضاه بأنّهم قد حضروا بأنفسهم عمليّة الحَبَل بهم.

١٠

حين غادرتُ المستوصف، بدأتُ أبحث عن مُنْعَزل، عن قرية صغيرة حالمة في حقول «نوفيل انكلتير» (ممرّ من شجر الدردار، كنيسة بيضاء) لأقضي فيها صيفًا مُجدًّا أُوزّع فيه أيّامي بين الملاحظات التي سجّلتها (وكان يضمّها دفتر مليء) وبين الاستحمام في بحيرة مجاورة. وكانت قد عاودتني الرغبة في العمل ـ أقصد نشاطي الجامعي ـ بعد أن تقلّصت مساعدتي الفعّالة في شؤون عطور عمّي المتوفّى.

وأتاني يومًا موظّف قديم في الشركة، هو سليل أسرة معروفة شريفة، فعرض عليّ أن أقيم بضعة أشهر لدى قريب له يُدعى السيّد «ماك كو» قلب له الدهر ظهر المجنّ، وكان يودّ أن يؤجّر، هو وزوجته، الطابق الأخير من بيتهما الذي كانت عمّته المتوفّاة قد قضت فيه حياة دقيقة على فراش من الدانتيل. وقال لي الموظّف: إنّه كان للأسرة ابنتان صغيرتان لا تزال

أولاهما في المهد، بينما كانت الأخرى في الثانية عشرة من عمرها، وكانت لهما حديقة رائعة قريبة من بحيرة أروع، فأكّدت له أنّ ذلك يبدو لي أمرًا مثاليًّا حقًّا

وتبادلت مع الأسرة بعض رسائل لأقنعها بأنّني كنت مدرَّبًا على عادات الحياة البيتيّة الرصينة، ثم قضيت في القطار ليلة موسوسة وأنا أتخيّل من جميع الزوايا الممكنة الجنّيّة المطلسمة التي يمكنني أن أدرّسها الفرنسيّة وألاطفها على الطريقة الهمبرتيّة. وحين ترجّلت عند رصيف المحطّة الصغيرة، لم يكن هناك من أقبلَ للقائي مع محفظتي الجديدة الفخمة، ولم يردّ أحد على المخابرة التلفونيّة التي قمت بها ومع ذلك، فقد رأيت بعد قليل في فندق «رامسدال» الوحيد (وهي مدينة صغيرة ورديّة وخضراء) السيّد ماك كو يصل وهو يقطر ماء، فإذا هو يبلغني أنّ حريقًا قد اكتسح بيته ـ لعلّ سببه اللهب الموازي الذي كان يعصف طوال الليل بعروقي ـ وأوضح لي أنّ أسرته قد استقلّت السيّارة والتجأت إلى مزرعة صغيرة يملكها، وهي غير بعيدة عن المدينة، وأنّ صديقة لزوجته تُدعى السيّدة هاز، وهي امرأة لذيذة، عرضت أن تُسكنني عندها، في المنزل الرقم ٣٤٢، بممرّ «البيلوز». وكانت السيّدة التي تسكن مقابل بيت هذه المرأة، قد أعارت السيّدة «ماك كو» مركبتها، وهي آلة مربّعة كأنّها العلبة بطل طرازها منذ وقت طويل، وكان يقودها سائق ذو بشرة سوداء ومزاج ضاحك. وقد بدا لي هذا الحلّ بعد أن زال سبب رحلتي الوحيد، حلًّا سخيفًا حسنًا جدًّا، لقد كان على «ماكو كو» أن يُعيد بناء بيته من القبو حتى السطح ـ وإذًا؟ لقد كنت غاضبًا ممزّقًا، ولكنّي كنت كذلك مواطنًا من مواطني أوروبا الحفيّة. وكان لا بدّ لي من أن أقبل التوجّه إلى ممرّ «البيلوز» مستقلًّا مركبة الموتى تلك المفجعة، شاعرًا بأنّ رفضًا حاسمًا منّي سيوحي إلى «ماك كو» بحيلة للتخلّص منّي. ولقد رأيته يمضي بسرعة

فيهز سائقي رأسه ويطلق ضحكة. وفي الطريق أقسمت ألّا أبقى في «رامسدال» بأيّة حجّة، وأن أستقلّ الطائرة في اليوم نفسه إلى «البهاماس» أو «البرمود» أو «الإيريب». وكان ذهني وجوفي مسحورين، منذ حين من الزمن، ببشائر نشوات عذبة أصيبها على شواطئ ملوّنة، فإذا بقريب «ماك كو» يصرف فجأة هذه المشاريع بعروضه ذات النيّة الطيّبة التي تبدو، مع ذلك، غير مناسبة على الإطلاق الآن.

وبمناسبة الانعطافات المفاجئة: بينما كنّا ننعطف في ممرّ «البيلوز»، أوشكنا أن نسحق كلبًا من هذه الحيوانات الوقحة التي تستلقي على دروب الضواحي لتترصّد السيّارات. وعلى بعدٍ يسير بدا لي منزل السيّدة هاز كبناء قبيح من الخشب المطليّ الجدران باللّبن، باهت هرم، أصهب أكثر ممّا هو أبيض ـ نموذج البيوت التي نعرف مقدّمًا أن ليس فيها آلة دوش وإنّما أنبوب من المطّاط متّصل بصنبور المغطس. وأعطيت السائق هبة ماليّة وأنا أظنّ أنّه سيقف حالاً فيمكنني أن أقفل راجعًا من غير أن أرى، وأعود إلى الفندق حيث تركت محفظتي، ولكنّ الرجل اكتفى بأن يجتاز الشارع ليتحدّث إلى سيّدة عجوز كانت تناديه من شرفتها وقد أسقط في يدي، فقرعت الجرس.

وفتحت لي الباب زنجيّة، ثم تركتني مزروعًا على الحصير لتهرع إلى المطبخ حيث كان يحترق شيء ما كان مفترضًا أن ينضج فوق نارٍ معتدلة.

وكان المدخل مزيّنًا بمجموعة من الأجراس وبتمثال خشبيّ كريه ذي عينين بيضاوين وهو من صنع مكسيكي تجاري، وبلوحة فان غوغ «لار ليزين» تلك اللوحة التافهة التي يعبدها البورجوازيّون الصغار المشغوفون بالجماليّة. وإلى اليمين كان باب مشقوق يتيح رؤية زاوية من الصالة مع واجهة تراكمت فيها قذارات مكسيكيّة أخرى، وعند الجدار ديوان مخطّط القماش. وكان ينتصب في الداخل سُلّم كنت أنتظر عنده واقفًا وأنا أمسح

جبيني (ففي تلك اللحظة فقط أحسست بقيظ الشارع). وأنظر، لمجرّد أن أنظر إلى شيء، كرةً قديمة من التنس مسمّرة على طاولة من خشب السنديان الملمّع، وإذا بصوت السيّدة هاز المنغّم (وكانت على الأرجح منحنية فوق الحاجز) يسقط من الطابق الأعلى: «هل هو السيّد همبرت؟». وتدحرج بعض رماد من سيكارة على أثر هذا السؤال الملحّن، ثم بدت السيّدة بحذائها البيتي وبنطلونها العقيقيّ وقميصها الحريريّ الأصفر ووجهها المربّع وهي تهبط الدرج، وما تزال تنفض لفافتها بطرف سبّابتها

وخير لي أن أصفها على الفور لأنتهي من هذه المهمّة الشاقّة. كانت السيّدة المسكينة في نصف الطريق بين الثلاثين والأربعين، وكان جبينها برّاقًا وحاجباها مزجّجين وملامحها بسيطة غير أنّها لا تنفّر، بل تُذكّر بما يمكن تسميته نموذج مرلين دياتريش. وأدخلتني، وهي تجسّ شعرها البرونزي الأسمر، إلى الصالة، فتحدّثنا قليلاً عن حريق بيت «ماك كو» وعن سعادة من يعيش في رامسدال. وكان لعينيها الخضراوين المتباعدتين أكثر ممّا ينبغي طريقة عجيبة بأن تتابعا جسم محدّثها كلّه فيما تحرصان على تفادي الالتقاء بنظره. وكانت بسمتها تقتصر على أن ترفع أحد حاجبيها بتساؤل، وفيما هي تتكلّم كانت لا تني تزيح جسدها عن الأريكة وتنفض ذراعها بتشنّج نحو إحدى المنافض الثلاث أو نحو موقد المدخنة القريبة حيث كانت بقيّة تفّاح تميل إلى السواد، ثم تعود فتجلس من جديد طاوية تحتها إحدى ساقيها وكان واضحًا أنّها من النساء اللواتي ربّما كانت لغتهن المهذبة تعكس صورة ناديهن للعبة البريدج أو للمطالعة أو صورة أيّ شيء مبتذل آخر، ولكنّها لا تعكس نفوسهن قطّ، من تلك النساء الخاليات من أيّة روح فكاهيّة، اللامباليات إلى أبعد الحدود بالموضوعات العشرة أو الإثني عشر التي تقود محادثات الصالونات، غير أنّهنّ شديدات الحرص على بروتوكول هذه المظاهر الصالونيّة التي تنمّ عبر قشرتهن الثمينة الشفّافة

عن ألوان من الحرمان قليلة الشهيّة. وكنت على أتمّ العلم بأنّي إذا نزلت عندها بدافع مصادفة غير معقولة، فستجهد بحرص منظّم على أن تخضعني لما كان يعنيه في نظرها دائمًا مجيء نزيل، وأنّي سأكون مرّة أخرى سجين إحدى هذه العلاقات المرهقة التي كنت أعرفها كلّ المعرفة.

ولكن لم يكن واردًا أن أُقيم هنا فلن يمكنني أن أكون سعيدًا في مثل هذا البيت بين صحف ممزّقة منثورة على جميع الكراسيّ، وإزاء هذا التفاهم الخليط المرعب بين تهريج «الأثاث الوظيفيّ للعصر الحديث» ومأساة هذه المقاعد المتأرجحة المفكّكة، وهذه الطاولات العرجاء التي تحمل مصابيح ميتة. وقد دُعيت إلى صعود السلّم والانتقال نحو الشمال: وكانت تلك «غرفتي». وتفحّصتها عبر ضباب كثيف من اشمئزاز لا دواء له، ولكنّي استطعت أن أُميّز فوق «سريري» مقطوعةَ «رينه برينه» المسمّاة «سوناتة كروتزر». حجرة الخدم هذه هي التي كانت تدعوها إذن بـ «شبه استديو!». وقلت لنفسي بعزم: لنهرب بأسرع ما يمكن، بينما كنت أصطنع التفكير في بدل الإيجار الذي كانت تطلبه مضيفتي المحترقة آملاً لقاء الغرفة والطعام.

غير أنّ الأدب الذي هو وارث العالم القديم كان يقضي عليّ بأن أتحمّل هذا العذاب حتى النهاية. واجتزنا الممرّ لنبلغ الجناح الأيمن من البيت حيث كانت غرفتانا أنا و«لو» (ولو هذه هي الخادمة على ما يظهر). ولقد عانى الحبيب ـ المستأجر، ذلك الرجل المفرط في الدقّة، مشقّة كبيرة في أن يخنق رعشة أخذته حين رأى الحمّام الوحيد، وهو علبة ضيّقة محصورة بين الممرّ وغرفة «لو» تتدلّى فوق مغطسها المشكوك فيه خرق طريّة رطبة، وحين رأى كذلك حلقات أفعى المطّاط والغطاء الوردي الذي كان يغطّي بطهارة كوّة الحجرة.

«أرى أنّ انطباعك ليس حسنًا جدًّا». هذا ما قالته سيّدة المكان وهي

تريح كفّها لحظةً على ذراعي: كانت تجمع إلى جرأة لامبالية ـ هي فيض ما يسمّى على ما أعتقد «الثقة» ـ خجلاً وكآبة كانا يضفيان على كلماتها التي كانت تختارها بلا اكتراث غريب، رنينًا لا يقلّ تصنّعًا عن تنغيم أستاذ الإلقاء. «أعترف بأنّه ليس مسكنًا غير قابل للانتقاد» أضافت المرأة اللطيفة المحكوم عليها، وهي تتأمّل شفتي: «ولكنّي أؤكّد لك أنّك ستكون مرتاحًا جدًّا فيها، إلى أبعد حدّ ممكن من الراحة. ودعني الآن أُريك الحديقة» (قالت هذه العبارة الأخيرة بحيويّة متملّقة كأنّها قفزة صوتيّة).

وعلى كره منّي هبطتُ الدرج خلفها، فعبرنا المطبخ الواقع في أقصى الممرّ إلى يمين البيت حيث كان يقوم أيضًا الصالون وغرفة الطعام (ولم يكن فوق غرفتي إلى الشمال إلّا مرأب). وفي المطبخ كانت الخادمة السوداء، وهي ما تزال شابّة ممتلئة الوجه، تنزع محفظة يدها السوداء العميقة اللامعة عن قبضة باب الخروج، وقالت: «إنّني عائدة إلى البيت يا سيّدتي». فأجابتها السيّدة هاز بتنهّدة: «حسنًا يا لويز، سأدفع لكِ يوم الجمعة». ومن هناك انتقلنا إلى ممرّ صغير وولجنا غرفة الطعام الموازية للصالون الذي كنت قد تأمّلته. ولحظت على البلاط جوربًا صغيرًا أبيض فانحنت السيّدة هاز وهي تطلق تمتمة استنكار، فالتقطته وألقته في خزانة متّصلة بالممرّ. ونظرنا بسرعة إلى طاولة خشبيّة عليها صحن للفاكهة فارغ تمامًا إلّا من نواة خوخ لا تزال تلمع. وجعلت أعيث في جيبي بحثًا عن مرشد السكك الحديديّة فأخرجته بالخفية لأستشيره في أوّل مناسبة. وكنت لا أزال أسير خلف السيّدة هاز، حين انبعث فجأة، خلف غرفة الطعام، انفجار اخضرار، فصاحت دليلتي «إنّها البيازا!» وفجأةً، على حين غرّة، تدحرجت موجة طويلة خضراء تحت قلبي، وهناك، رأيت حبيبتي، حبيبة «الريڤييرا» ترقبني من تحت نظّارتيها السوداوين، وكانت راكعة تدور على عرقوبيها، وهي قائمة فوق حصير تغمره الشمس، وكانت نصف عارية.

كانت هي الغلامة نفسها ـ بكتفيها النحيلتين العسليّتي الإشعاع، وظهرها الطريّ الحريريّ العاريّ، وشعرها الكستنائيّ نفسه. وكان القميص الأسود الذي يلفّ صدرها يخفي عن عينيّ، عيني الإنسان الذي شاخت أنسجته، ولكنّها لم تكن تخفي عن أنظار ذاكرةٍ حيّةٍ أبدًا، النهدين الفتيّين اللذين داعبتُهما ذات يوم خالد. ولقد شاهدت على خاصرتها شامة صغيرة شقراء، وكان شأني في ذلك شأن مرضع أميرة من قصص الجنّيات (اختفت واختُطفت ثم اكتُشفت أخيرًا في أسمال بوهيميّة كان عُريها يبتسم عبْرها للملك وكلابه). وشأن الملك الذي بكى من السعادة وارتفع صوت نفيره مبتهجًا، وكادت المرضع تموت من شدّة السكر الفرح، رأيت مرّة أخرى خطّ انحناء بطنها الرائع حيث كانت شفتاي المنحدرتان قد تجمّعتا من قبل ورأيت تينك الخاصرتين الطفوليّتين حيث كنت قد قبّلت الأثر المحزوز الذي خلّفه مطّاط سروالها القصير ـ في حمّى ذلك النهار العظيم الخالد خلف «الصخور الورديّة». إنّ الأربعة والعشرين عامًا التي عشتها منذ ذلك التاريخ ذابت كلّها حتى لم تعد إلّا شرارة لا تُرى، خفقتْ لحظة ثم انطفأت.

إنّه يكاد يستحيل عليّ أن أُعبّر بما فيه الكفاية عن تلك الإنفراجة وتلك الطفرة وتلك الصدمة من العرفان المهووس. وإذ مررت قريبًا منها وأنا في ثوب الفتى التنكّري (نموذج قوي رائع لفتى الشاشة) خلال تلك اللحظة الوجيزة الغارقة في الشمس حيث انزلق نظري على الغلامة الراكعة الغامزة بعينيها خلف نظّارتيها السوداوين القاسيتين، أخذت هاوية روحي المتوحّدة تستنشق أصغر تفاصيل جمالها المشعّ لتقارنها بكلّ ملمح من ملامح عشيقتي الراحلة. صحيح أنّ الجديدة، لوليتا هذه، حبيبتي لوليتا، ستخسف فيما بعد نموذجها السابق خسفًا كاملاً ولكنّي أحبّ مع ذلك أن أُشير إلى أنّ اكتشافي للوليتا لم يكن إلّا عقابيل من «مملكتي ماضيّ

المعذّب»، تلك المملكة التي كانت تعدو فيها «أنابيل لي» التي غنّاها إدغار ألن بو، ولم يكن كلّ ما تخلّل هاتين اللحظتين إلّا سلسلة من التلمّسات والحماقات وفتات مسكين من اللذّة المصطنعة ـ وكلّ ما كانتا مشتركين فيه كان يُذيب إحداهما في الأخرى.

ليس لديّ أيّة أوهام. إنّ قضاتي لن يروا هنا إلّا هذيان مجنون فاسد يهوى الثمر الأخضر. إنّ هذا عندي سواء. وكلّ ما أعلمه أنّ ركبتَيّ لم تكونا، إذ كنت أهبط مع العجوز هاز إلى الحديقة المحجّرة التي ليس فيها نفَس، إلّا انعكاس ركبتين في ماء مرتعش. وكانت شفتاي أشدّ جفافًا من الرمل، وقالت:

«إنّها ابنتي لو، وهذه هي زنابقي».

فقلت: «نعم. نعم. شيء رائع، رائع، رائع».

١١

الوثيقة الثانية المؤيّدة للتهمة هي مفكّرة جيب مجلّدة بجلد أسود وعليها رقم مذهّب للعام ١٩٤٧، مطبوع بشكل درجيّ في الزاوية الشماليّة العليا إنّني أصف هذا الباب الرشيق المرتّب من أبواب بيت فلان وشركائهما، المدينة الفلانيّة (مساشوستش)، الذي نامت فيه مذكّراتي الصميميّة، كما لو أنّه كان حقًّا أمام عيني. والواقع أنّه قد أتلف منذ زهاء خمسة أعوام، وإن ما نتفحّصه الآن، بفضل مساعدة ذاكرة أمينة أمانة الميكروفيلم، ليس إلّا تجسيدًا مخطوفًا ـ طرح عنقاء.

والحقّ أنّي إذا كنت أتذكّر هذه المفكّرة بمثل هذه الدقّة فلأنّي كتبتها مرّتين. كنت أوّلاً أُسجّل ملاحظاتي بقلم الرصاص (مع كمّيّة الشطب والتصحيح) على ما يُدعى في اللغة التجاريّة «بلوك ستينو». ثم كنت أنقلها

من خطّي الصغير الشيطاني (مع اختصارات أوّليّة) إلى المفكّرة الصغيرة السوداء التي تحدّثت عنها

إنّ توقيت الصوم في ٣٠ أيّار يُطاع في مقاطعة نيوهمشير، ولكنّه ليس كذلك في مقاطعتي كارولين. ذلك اليوم انتشرت حمّى «الكريب المعوي» (لا أدري ما المقصود بذلك) فاضطرّت المدارس في رامسدال إلى إغلاق أبوابها حتى آخر الصيف. أمّا الأحوال الجوّيّة، فإنّي أُحيل القرّاء الذين يهمّهم موضوعها إلى مجموعة جريدة «غازيت» في رامسدال للعام ١٩٤٧. لقد أقمت معسكري عند السيّدة هاز في الأيّام الأولى من حزيران، وإنّ المذكّرات الخاصّة التي أنشرها الآن (شأني في ذلك شأن جاسوس يُلقي من ذاكرته نصّ الوثيقة التي ابتلعها) تغطّي أكبر قسم من الشهر.

الخميس. يوم جميل جدًّا من برج مراقبة (نافذة الحمّام) رأيت دولوريس تنزع ثيابًا مبهرجة من الحبل، في النور الأخضر الذي يموج خلف البيت. سرعان ما نزلت إلى الحديقة. كانت ترتدي قميصًا ذا مربّعات وحذاء للتنس. كانت كلّ حركة تقوم بها في هواء الشمس المنقّط تلوي أشدّ الحبال خفاء وحساسيّة في جسمي القذر. ولم يمضِ وقت طويل حتى أقبلتْ تجلس بالقرب مني على الدرجة الأخيرة من السطحيّة، وأخذت تتسلّى بالتقاط الحصى من بين قدميها وبقذفها على تنكة قديمة. بنغ! إنّك لن تنجحي في إصابتها مرّتين ـ لن تستطيعي ـ أيّ عذاب ـ إصابتها مرّتين متلاحقتين. بنغ! بشرة لذيذة ـ لذيذة! عذبة وبرونزيّة، بلا أدنى نقيصة، إنّ المثلّجات والسكاكر هي مصادر للأمراض الجلديّة. وإنّ فرط إفراز المادّة الدهنيّة التي تُغذّي جرابات الجلد الشعريّة يؤدّي إلى تهييج يفتح السبيل للالتهاب. ولكنّ الأمراض الجلديّة لا تُصيب الجنّيّات قطّ مهما ابتلعن من المآكل الدسمة. يا إلٰهي! أيّ عذاب، هذه الدغدغة الحريريّة على حافّة الصدغين والتي تذوب تدريجيًا في ذهب الشعر الأسمر. وتلك العَظْمة

المرتجفة على كعبها المخملي المغبرّ. «ماك كو» الصغيرة! جيني ماك كو؟ أوه إنّها فظيعة. إنّها جرب حقيقيّ. ثم إنّها تعرج. وقد كانت تموت بمرض في نخاعها الشوكيّ. بنغ! إنّ على ذراعها آثار زغب لامع. وحين نهضت لتعود بالغسيل، استطعتُ أن أتأمّل لحظةَ من بعيد، مقعد بنطلونها الذي كان مشمّر الساقين حتى الركبتين. وظهرت ماما هاز، نابعة فجأةً من بين الأعشاب، كشجرة خياليّة يبعثها فقير هنديّ من الأرض، وكان في يدها آلة تصوير، وبعد بضع حركات متصنّعة لإلهام سماويّ ـ كتوجيه العين إلى الفضاء بهيئة حزينة، ثم إلى الأرض بهيئة مسرورة ـ ملكت توازنها لتأخذ صورتي: همبرت الجميل المنتصب على سطيحة المطبخ خافق الجفون.

الجمعة. رأيتها تذهب لا أدري إلى أين مع فتاة صغيرة سمراء تُلقّب بروز. كيف يمكن لطريقتها في المشي ـ لا تنسوا إنّها غلامة، فتاة صغيرة ـ أن تثيرني هذه الإثارة الفاحشة؟ لنحلّل. إنّ القدمين مبرومتان إلى الداخل. نوع من الارتجاج الناشط تحت البطّة يمتدّ لدى كلّ خطوة حتى يبلغ أخمص القدم. نزوع خفيف إلى جرّ الساق. إنّ ذلك طفوليّ جدًّا وهو في الوقت نفسه غير محتشم على الإطلاق. وإنّ همبرت همبرت متأثّر كلّ التأثّر للقريحة اللغويّة لدى هذه الغلامة ولصوتها الحرون الحادّ. سمعتها بعد قليل ترشق مجموعة من القصص المخجلة لصديقتها روز من فوق الحاجز. كان جسمي كلّه يهتزّ من ذلك الصوت الحامز الذي كان يزداد حدّة. استراحة: «هيّا، يجب أن أعود، يا صغيرتي».

السبت. (وقد أكون عدّلت الأسطر الأولى ممّا يلي) أدرك جيّدًا أنّه من الجنون أن أكتب هذه المذكّرات. ولكنّي أصيب من ذلك متعة فريدة، ثم إنّه لن يستطيع قراءة خطّي الميكروسكوبيّ إلّا عينا زوجة محبّة. لأسجّل إذن، والغصّة في حلقي؛ أنّي رأيت اليوم حبيبتي ل. تذهّب جسمها في الشمس فوق ما يسمّى هنا «البيازا»، ولكنّ أمّها وامرأة قبيحة أخرى

(مجهولة) كانتا لا تكفّان عن الطواف حولنا. كان باستطاعتي بكلّ تأكيد أن أجلس على المقعد الهزّاز قريبًا منها وأتصنع أنّي أقرأ ولكنّي فضّلتُ، بدافع مع الاحتراس أن أبقى على حدة، خشية أن يمنعني الانفعال ـ التوتّر الكريه والمعتوه والمثير الشفقة، ذلك التوتّر الذي كان يشلّني ـ من أن أدخل في حالة من اللامبالاة معقولة بما فيه الكفاية.

الأحد. لم تنحسر بعد موجة الحرارة، أسبوع قائظ، هذه المرّة وضعت بصورة استراتيجيّة مقعد «البيازا» الهزّاز قبل مجيء ل. وتسلّحت بجريدة ضخمة وغليون جديد. وقد وصلت ـ ويا للحسرة واليأس! ـ مع أمّها ترتدي كلتاهما ثوب استحمام ذا قطعتين، أسود اللون، جديدًا لامعًا كغليوني. وظلّت حبيبتي ـ معبودتي ـ لحظة إلى قربي (كانت تريد القسم المصوّر من جريدتي) وكان لها مثل عبير الأخرى، فتاة الريفييرا، ولكنّه كان أعنف وأغنى إيحاء ـ عبير ملتهب سرعان ما أثار رجولتي، ولكنّها خطفت ـ ويا للحسرة! ـ الصفحات المرغوب فيها ولجأت إلى حصيرها بالقرب من أمّها اللبوءة. وهناك تمدّدت محبوبتي على بطنها كاشفة لي ـ كاشفة لعيون دمي الألف المفتوحة، نتوء مشط كتفيها ومخمل ظهرها المقوّس وانتفاخ ردفها الضيّق المكتنز المقنّع بالسواد وملتقى فخذيها، فخذَي الفتاة الصغيرة. وكانت التلميذة الصامتة تتذّوق مهزلة العصابات المرسومة. وما كانت لـ «برياب» نفسه ـ برياب المثلّث الألوان ـ أن يتصوّر جنّيّة أروع من هذه. كنت أترصّدها عبر هالة موشوريّة، جافّ الشفتين، مموِّجًا رغبتي تحت جريدتي ومستقطبًا إيّاها، وكنت أستشعر أنّ بوسعي حين أُركّز إرادتي كلّها على الرؤية التي كنت آخذها منها، أن أبلغ فورًا درجة الاشتهاء. على أنّني كنت أريد، كتلك اللبوءات التي تنتظر أن تتحرّك فريستها لتنقضّ عليها، أن أواقت هذه النتيجة المثيرة للشفقة مع إحدى الحركات الطفوليّة التي كانت ترسمها أحيانًا وهي تقرأ (كأن تحاول بشرود

حكّ وسط ظهرها مظهرةً إبطها المحبّب)، ولكن «هاز» السمينة قد أفسدت كلّ شيء إذ التفتت إليّ لتسألني أن أشعل لها لفافتها ولتخوض مناقشة بصدد آخر تهريجة أدبيّة لكاتب مشهور.

الإثنين. الأيّام تمضي حزينة باهتة. كنّا قد اتّفقنا (ماما هاز ودولوريس وأنا) على أن نقصد بعد ظهر هذا اليوم ضفّة البحيرة المجاورة لنأخذ حمّامًا مزدوجًا من الماء والشمس، ولكنّ السماء الملبّدة منذ الصباح امتلأت ظهرًا بالعاصفة، وسبّبت «لو» مشكلة.

يبدو أنّ سن البلوغ الوسطى هي ثلاثة عشر عامًا وتسعة عشر عامًا لدى فتيات نيويورك وشيكاغو. ولكنّ هذه السن تراوح، وفق الأفراد بين العاشرة (وحتى أقلّ) والسابعة عشرة. ولم تكن فرجينيا قد بلغت الرابعة عشرة حين امتلكها هاري إدغار. وكان يلقّنها دروسًا في الجبر. وأنا أدرك ذلك وأتصوّره. لقد آويا شهر عسلهما إلى «بتراسبورغ»، في فلوريدا

إنّني أملك جميع الخاصّيّات القادرة (وفق اختصاصيّي الجنس وقطبي جاذبيّته) على أن أوقظ لدى فتاة صغيرة إرجاعًا شهوانيّة: كان لي فكّان مرسومان بدقّة وصوت عميق مترنم وكتفان عريضتان وقبضة قويّة. ويبدو أنّي إلى ذلك أشبه ممثّلاً أو مغنّيًا عاطفيًّا كانت «لو» مسحورة به.

الثلاثاء. مطر. بحيرة من الأمطار. كانت الماما تتسوّق حاجاتها من المدينة، وكنت أعرف أنّ «لو» في الجوار. وبعد بضع غارات استكشافيّة وجدتها في غرفة أمّها فاتحة عينها اليسرى لتحاول أن تنتزع منها بعض الغبار. كانت ترتدي ثوبًا ذا مربّعات. مهما كنت أتأثّر بذلك العبير الأسمر المسكر فأعتقد حقًّا أنّ عليها أن تغسل شعرها بين وقت وآخر. وقد استحممنا كلانا لحظات في ضوء المرآة الدافئ الأخضر حيث كانت تنعكس قمّة صفصافة. ووجهانا على قاع السماء. وقبضت على كتفيها بحركة فجائيّة وضغطت على صدغيها بين كفّيّ بعذوبة ثم أدرتها تجاهي.

وقالت: «إنّني أُحسّ الغبار هنا تمامًا». ـ «الفلّاحات في سويسرا يعالجن ذلك بطرف اللسان» ـ «بأن يلحسن العين؟» ـ «نعم، هل أُحاول ذلك؟» ـ «حاول». وبرقّة لامست بلساني بؤبؤها ذا المذاق المالح الذي استدار تحت لسان الأفعى النابض. وقالت، وجفناها متواترا الطرف: «حسنًا، لقد ذهب» ـ «والعين الأخرى؟» ـ «ولكن ليس فيها شيء على الإط. . » غير أنّها استدركت إذ رأت فرجة شفتَيّ القريبتين النهمتين، فقالت بكرم: «طيّب». وانحنى همبرت، فاعل السوء في الظلام فوق الوجه الأشقر المرفوع إليه وضغط شفتيه على الجفن الحارّ الذي يطرف. وانفجرت «لو» ضاحكة وفرت من الحجرة وهي تلامسني لدى مرورها وبدا أنّ قلبي كان في كلّ مكان في وقت واحد. أبدًا طوال حياتي كلّها ـ وحتى تحت ملامسات حبيبة الريڤييرا ـ أبدًا

في الليلة نفسها لم أُعانِ مثل هذا الاحتضار. أودّ لو أصف وجهها وحركاتها ومواقفها ولكنّ ذلك يستحيل عليّ إذ يعميني الشبق وهي إلى قربي. لم أعتد أن تكون لي علاقات بالجنّيّات. فلأُغمض عينيّ ولن أرى منها إلّا ملمحًا مسمّرًا كصورة من فيلم أو بريق جمالات متشابكة حين تجلس، فتبرز ركبة تحت تنّورتها الإسكتلنديّة لتربط سير حذائها، فتقول أمّها من أنفها: «لا تظهري ساقيكِ يا دولوريس هاز».

كنت شاعرًا في أوقات الصفاء، وكنت قد نظمت أغنية عن جفني عينيها الشاحبتين المكسّرتين وعن الكفّ الأحمر المنتثر على أنفها المشمّر وعن الزغب الأشقر في أطرافها الشهباء ـ ولكنّي مزّقت هذه القصيدة ولا أذكر شيئًا منها بعد. وإذا عدت إلى مذكّراتي فإنّي لا أملك إلّا عبارات تافهة جدًّا لأعرّف ملامحها: فإنّي أقول إنّ شعرها كستنائيّ وإنّ فمها في مثل احمرار سكرة نصف ممتصّة وإنّ شفتها السفلى ممتلئة امتلاء لذيذًا.
أوه! ليتني امرأة كاتبة لأنصبها عارية تحت أضواء عارية! ولكنّي همبرت

همبرت المتعب ذو الصدر المنقبض، المترنح المعظّم، الكثيف الحاجبين السوداوين، الهزليّ اللهجة، الغريب الذي تخفي بسمته الطفوليّة الهادئة مستنقعًا من القذارات الفاسدة. والحقّ أنّ حبيبتي لوليتا لا تملك شيئًا ممّا تملكه الفتاة النحيلة في روايات الكتّاب المشهورين. وهذا هو بالذات ما يدفع حمّايا إلى ذروتها ثنائيّة هذه الجنّيّة الشيطانيّة (كما هو الحال بلا ريب لدى شقيقاتها في عالم الجنّ) وكذلك هذا المزيج من الطفولة الرقيقة المرتخية مع لون من الابتذال الخارق المنبعث من المجلّات ومن إعلانات الدعاية حيث تبرز تلك الوجوه الصغيرة ذات الأنف الصاعد، ومن النضارة اللّبنيّة الممحوّة التي تتمتّع بها وصيفات العالم القديم إذ ترشح منهن عطور الربيع المسحوقة وعبير العرق، وتلك المومسات المتنكّرات في أثواب الغلامات في مواخير الريف. ويذوب هذا كلّه من جديد في ذلك الحنان وذلك الجمال الطاهر الذي يرشح تحت التفالة والمسك وتحت الوحل والموت ـ يا إلٰهي! أوه، يا إلٰهي! والأغرب أنّها (لوليتا هذه، حبيبتي لوليتا) قد جسّدت غراميّاتي السابقة وإنّها فوق ذلك كلّه، وفيما وراء ذلك كلّه، توجد وحدها ـ لوليتا

الأربعاء. «اسمع، استعدّ لتأخذنا الماما غدًا إلى البحيرة» تلك كانت الكلمات الحرفيّة التي تمتمت بها حبيبتي من أعلى أعوامها الإثني عشر تمتمة شهوانيّة في أذني حين اصطدمنا مصادفَةً عند السطيحة بينما كانت هي داخلة وأنا خارجًا وكانت أشعّة شمس الظهيرة الشبيهة بجواهر بيضاء ملتهبة تنبثق منها آلاف الأشواك القُزحيّة. ترتعش على ظهر سيّارة كانت واقفة في الشارع. وكانت أوراق شجرة دردار ضخمة ترسم بظلالها العذبة واجهة البيت الخشبيّة. وكانت صفصافتان تحرّكان قمّتيهما المرتعشتين. وكان يُسمع ضجيج حركة السير بعيدًا غير واضح. وكان صوت طفولي ينادي: «نانسي، نان ـ سي!». وفي البيت كانت لوليتا تستمع إلى

أسطوانتها المفضّلة: «كارمن الصغيرة».

الخميس: قضينا الأمسية فوق «البيازا» أنا ولوليتا والعجوز هاز. وكانت عذوبة المغيب قد ترجّحت في ظلمات شهوانيّة. وكانت المرأة الطيّبة تنجز سرد موضوع فيلم شاهدته مع ل. خلال الشتاء. كان الملاكم على حافّة الهاوية حين التقى الكاهن المحسن العجوز (الذي كان هو أيضًا ملاكمًا في شبابه وكان قادرًا على أن يخرج رجلاً آثمًا من حلبة الملاكمة بضربة حاسمة). وكنّا جالسين على وسائد مطروحة فوق الرمل، وكانت ل. متجمّعة بين هاز وبيني. وانطلقت بدوري في سرد قصّة مضحكة عن مغامراتي في القطب الشمالي. وقد بسطت لي ربّة الإلهام بندقيّة قتلت بها دبًّا عظيمًا أبيض سقط على مؤخرته وهو يدمدم: «هان!» على أنّي كنت أعي وعيًا حادًّا مؤلمًا حرارة جسم ل. القريب؛ وكنت أتكلّم وأنا أُحرّك ذراعيّ في الظلام مستغلًّا هذه التمثيليّة الإيمائيّة لألامس يدها أو كتفها أو شالها الصوفيّ الذي كانت ترقصه في الهواء وكان يصطدم بلا انقطاع بركبتي. وحين أدركت أخيرًا أنّ جنّيّتي الملتهبة كانت سجينة هذه الشبكة من الملامسات الهوائيّة، جرؤت على أن ألامس بطرف أصابعي الزغب الذي يحلم على قصبة ساقها ـ وكنت أضحك لنكاتي، وأرتجف، وأحاول أن أخفي ارتعاشاتي، وأحسست فوق شفتي حرقة شعرها بينما كنت أنشقّه بخرطومي، بحجّة همس عبارة مضحكة. وكانت هي أيضًا تتململ بعصبيّة فوق الوسائد، حتى إنّ أمّها، أمرتها بجفاء أن تلزم الهدوء ونزعت اللعبة من يديها لتلقيها في الظلام. فانفجرت ضاحكًا وأنا أنحني فوق ساقَيْ لو لأتحدّث إلى العجوز، بحيث استطاعت يدي أن تزحف خفيّة على ظهرها النحيل وتستشعر عذوبة بشرتها الجنّيّة تحت قميصها الصبيانيّ.

ولكنّ ذلك كلّه كان بلا أمل. وكنت من فرط تعذيب الرغبة، ومن فرط ضيقي في ثيابي بحيث إنّي وجدت متنفّسًا لي إذ سمعت صوت الأمّ

اللامبالية تقول في الظلام: «والآن يا «لو» نظنّ جميعًا أنّ الأوان قد آن لكي تنامي». وقالت «لو»: «وأنا أظنّ أنّكم جميعًا منتنون» فقالت هاز: «وهذا ما يلغي نزهة الغد». وصاحت «لو»: «أليس لنا الحقّ في أن نتكلّم في هذا البلد!» وانطلقت غاضبة وهي تنتفض باحتقار، وظللت هناك مسمّرًا بينما كانت الأمّ هاز تشعل لفافتها العاشرة في تلك الأمسية وتشكو من «لو».

إسمع قليلاً لم تكن تتجاوز العام حين ظهر أنّها شريرة، وكانت ـ وقحة ـ تتسلّى بإلقاء لعبها تحت سريرها لتجبر أمّها على أن تلتقطها وتابعت هاز بأنّها أصبحت اليوم، وهي في الثانية عشرة، في منتهى الخبث. ولم يكن لها مطمح في الحياة غير أن ترقص الجيتربوغ وأن تصبح عضوة رئيسيّة في الفرقة المحلّيّة لكرة القدم. وكانت علاماتها المدرسيّة تدعو إلى الرثاء، بالرّغم من أنّها تأقلمت في مدرستها الجديدة بأسهل ممّا تأقلمت في «بيسكي» (بيسكي هي المدينة الصغيرة في مقاطعة ميدل ويست التي كانت أسرة هاز تسكنها في الماضي، وقد مضى زهاء عامين على استقرار السيّدة هاز في «رامسدال» في هذا المنزل الذي ورثته عن حميها). «لماذا كانت شقيّة هناك؟» فقالت هاز: «لا تحدّثني عن ذلك، فقد كفاني ما عانيته من ذلك حين كنت صغيرة، أنا المسكينة!» إنّهم الصبيان الذين يعضون ذراعك، أو يتقصّدون أن يدفعوك لدى مرورهم، أو يضغطون على صدرك بكتبهم المدرسيّة، أو يشدّون شعرك، أو يرفعون تنورتك. صحيح أنّ النموّ يؤدّي دائمًا، عن طريق العدوى، إلى مزاج مقطّب كريه، ولكن «لو» تبالغ. إنّها زلقة مكفهرّة متوحّشة، وعلى وقاحة غريبة! لقد زرعت قلمها في مؤخّرة «ڤيولا» وهي زميلة صغيرة، إيطاليّة في صفها أتدري ما الذي أودّه، أيّها السيّد؟ إذا كان لنا الحظّ في أن تظلّ معنا حتى موعد افتتاح المدارس، فسأطلب منك أن تقودها في عملها، إذ يبدو أنّك تعرف

كلّ شيء: الجغرافيا والحساب والفرنسيّة.

فقال السيّد مؤكّدًا: «نعم، كلّ شيء» فقالت بحيويّة: «إذن فهذا يعني أنّك تنوي البقاء هنا!» فكدتُ أصرخ أنّي سأبقى إلى الأبد شريطة أن أطمئنّ إلى إمكانيّة تدليل تلميذتي القادمة بين وقت وآخر، ولكنّي كنت أحترس من هاز، فاكتفيت بأن أتمتم بجواب مبهم، ثم تثاءبتُ بطريقة غير مُعدية (الكلمة المضبوطة) ونهضت لأتّجه إلى غرفتي. غير أنّ العجوز لم تكن على ما يظهر مستعدّة لرفع الجلسة. فقد كنت أويت إلى فراشي المثلج، وأنا أشدّ بكلتا يديَّ طيف لوليتا العطر على وجهي، حين سمعت مؤجّرتي التي لا تتعب تجاور بابي بخطى الذئاب وتتمتم عبر ثقب القفل: كانت تريد أن تعرف إذا كنت قد انتهيت من قراءة مجلّة «نرى كلّ شيء» التي كنت قد استعرتها منها قبل أيّام. وصاحت «لو» من غرفتها بأنّها سبق أن استعادتها إنّ هذا لم يعد بيتًا يا إلٰهي، وإنّما هو مكتبة عامّة!

الجمعة. ما عسى يقول ناشرو كتبي، هؤلاء المجمعيّون الكبار، إذا كنت أذكر في كتابي «الفرجة العقيقيّة» التي يتحدّث عنها رونسار، أو «ذلك الجبل الصغير الملبّد بالزبد الشفّاف» الذي يتحدّث عنه ريمي بيلو؟ إنّني أتعرّض بلا شكّ إلى انهيار عصبيّ جديد إذا بقيت يومًا آخر في هذا البيت أتخبّط تجاه ذلك الإغراء الذي لا يُحتمل بسبب وجود حبيبتي ـ حبيبتي الغالية ـ وقرينتي وحياتي. أترى أمّنا الطبيعة قد درّبتها من قبل على الفتنة؟ شعور من التورّم لا يمكن التعبير عنه. إنّه ما تسمّيه الفتيات عند البلوغ «لعنة» تدحرج السقف. الجدّة في الزيارة. «السيّد أوتاريس (اسم مجلّة للفتيات) يباشر إقامة جدار صفيق ناعم احتياطًا لإمكانيّة مجيء طفل صغير». العفريت الأبله في خليّته المحشوّة. بين هلالين: إذا ارتكبت يومًا جريمة كبيرة (لاحظوا الـ «إذا») فلا بدّ من أن يكون الإغراء أعمق تميّزًا ممّا كان في قضيّة «ڤاليري». ولاحظوا بعناية أنّي كنت آنذاك في عهد سخيف

بعض الشيء. حين تقرّرون (وإذا قرّرتم) أن تُشووني على الكرسي الكهربائي تذكّروا أنّ عارضًا من الجنون يستطيع وحده أن يُثير فيّ طاقة الحيوان الأوّليّة (أعتقد أنّي قد أعدت كتابة هذا المقطع كلّه)، وهذا ما يحدث لي أحيانًا في المنام. حسنًا، أتعرفون ما الذي يحدث؟ إنّني أمسك مسدّسًا في يدي مثلاً، وأصوّبه إلى خصم مخادع يراقب المشهد باهتمام هادئ. أوه، وأضغط على الزناد كما ينبغي، ولكنّ الرصاصات التي يقيئها فم مسدّسي تسقط على الأرض بشكل محزن. ففي هذه الأحلام تكون فكرتي الوحيدة أن أخفي هذا الإخفاق عن عينيَ عدوّي الذي يبدأ صبره في النفاد.

هذا المساء، على المائدة، بينما كنت أصف، بذرابة حادّة، شاربي الذي كنت ما أزال متردّدًا في أن أتركه ينبت، قالت لي العنزة العجوز (وهي تنفث نحو «لو» نظرةً مثقلة بالسخرية الأموميّة): «خيرٌ لك أن تُعدل، وإلّا فإنّي أعرف من سيفقد رشده تمامًا». وسرعان ما دفعت لوليتا بظاهر يدها صحن السمك الذي كانت تأكل منه وأوشكت أن تقلب بالحركة نفسها كوب الحليب أمامها، ثم خرجت من القاعة بصخب. وعند ذلك سألتني الماما هاز: «هل يزعجك كثيرًا أن تأتي معنا غدًا إلى البحيرة إذا طلبت «لو» الصفح عن حركاتها السيّئة؟».

وفيما بعد، سمعت ضجّة أبواب مصطفقة وأصواتًا أخرى ناشزة تنبعث من أعماق عاصفيّة كانت الخصمتان تتبادلان فيها شدّ الشعر

ولم تعتذر. فلم يعد أمر السباحة واردًا يا للخسارة! كم كان يمكن لذلك أن يكون مسلّيًا!

السبت. أحصر منذ بضعة أيّام على أن أترك باب غرفتي مشقوقًا بينما أكتب على طاولتي. وقد عمل الشرك الذي نصبتُه عمله اليوم. فقد عمدت «لو» إلى ألوان من الحركات والأصوات وتشحيط القدمين لتخفي ضيقها من

زيارتي دون أن تُدعى إلى ذلك. ثم دخلتْ محرّكة جفنيها هنا وهناك، واستغرقت في تأمّل ورقة كنت قد رسمت عليها خطوطًا كابوسيّة. أوه، كلّا! لم تكن هي ثمرة راحة ملهمة، بين فصلين، لفنّان بارع، وإنّما كانت رموزًا هيروغليفيّة قذرة (لن تكون مفهومة في عينيها لحسن الحظّ) لمطمحي، وإذ كانت تخني خصلاتها فوق الطاولة، وضع همبرت الرقيق ذراعه حول كتفيها متصنّعًا ودًّا أبويًّا يدعو إلى الرثاء. ومن غير أن تكفّ عن دراسة الورقة التي بين يديها، استرخت زائرتيِ الصغيرة حتى أصبحت نصف جالسة على ركبتي. وكان وجهها الرائع وشعرها الحريريّ وشفتاها المشقوقتان في متناول أنيابي العارية، وأحسست حرارة جسدها عبر قماش ثوبها الخشن، ثوب صبيّ لم يكتمل. وتملّكني اليقين دفعة واحدة أنّه كان بإمكاني أن أُقبّل من غير عقاب عنقها أو ملتقى شفتيها، وأنّها ستدعني أفعل ذلك ـ بل أكثر من هذا ستغمض عينيها وفقًا لوصايا هوليوود. قطعة مزدوجة من المثلّجات المصبوبة في شوكولا محرقة ـ ليس شيء أكثر من ذلك شذوذًا. ولكنّي لا أستطيع أن أشرح لقارئي العالم (الذي يقوم حاجباه المرتفعان الآن بلا شكّ في القطب الآخر من مخه العاري) أجل، لا أستطيع أن أشرح له كيف حصلت على هذا اليقين. فربّما كانت أذني القرديّة قد لاحظت، بصورة غريزيّة، تغيّرًا طفيفًا في إيقاع تنفّسها، ذلك أنّها لم تعد تنظر إلى خربشاتي، بل كانت تنتظر، برباطة ممزوجة بالفضول ـ أوه، يا لجنّيّتي المطمئنّة! ـ أن يفعل نزيل أمّها الباهر ما كان يحترق لهفةً على فعله. وبدا لي أنّ غلامة عصريّة مثلها قارئة شرهة من قارئات مجلّات السينما، اختصاصيّة في المشاريع الكبرى المحوّلة إلى أحلام بطيئة، لن يدهشها أبدًا أنّ صديقًا بالغًا قوي المراس والرجولة يمكن أن. لقد فات الأوان، إذ إنّ البيت أصدى فجأة بوعوعة لويز الصاخبة وهي تتحدّث للسيّدة هاز ـ التي عادت في تلك اللحظة ـ عن الدابّة الصغيرة

الميتة التي اكتشفتها هي ولسلي طومسون في القبو، ولم تكن صغيرتي لوليتا لترضى بأن تفوّت هذا المشهد.

الأحد. شرسة، أبديّة الحركة، فيّاضة، عديمة الحذق، رائعة (تلك الروعة التي تستمدّ حدّتها من جسمها الصغير غير البالغ) قاسية الرغبة من رأسها إلى قدميها، من قلنسوتها وعقدة المخمل التي تحبس شعرها حتى آثار الجرح الباقية لدى ربلتها (ذكرى ضربة مزلاج متدحرج أُصيبت بها في بيسكي فوق حدود جرابها الصغير الأبيض) ذهبت مع أمّها إلى بيت أسرة هاملتون حيث يحتفل بعيد ميلاد أو بما لست أدريه. فستان قطني ذو تنّورة واسعة جدًّا حمامتاها الصغيرتان تبدوان وكأنّهما قد اكتملتا تمامًا. حبيبتي الناضجة قبل الأوان!

الإثنين. هطل المطر طوال الصباح. تلك الأصباح الشهباء العذبة. إنّني أرتدي منامة بيضاء مزيّنة الظهر بغصن زنبق. أشعر بأنّني إحدى تلك العناكب الصفراء المنتفخة التي تُرى في الحدائق القديمة، وقد تسمّرت وسط خيوطها المشعّة، تسحب خيطًا تارةً، وخيطًا آخر طورًا بانتفاضات صغيرة. وأنّ «خيوطي» ممدودة من أقصى البيت إلى أدناه، وأنا أصغي جالسًا على كرسيّي كسامر عجوز خبيث. أتكون «لو» في غرفتها؟ أشدّ متمهّلاً على خيط. كلّا، ليست هناك. لقد سمعتُ صوت ورق التطهير في المرحاض. ولم يلتقط الخيط الذي قذفته بحثًا عن «لو» أيّة خطوة بين الحمّام وغرفتها هل هي تنظّف أسنانها (همّ النظافة الوحيد الذي تتحمّس له «لو» حماسًا تلقائيًّا)؟ كلّا فقد سمعت اصطفاق باب الحمّام، ويجب عليّ أن أترصّد في مكان آخر فريستي الجميلة ذات الألوان الناريّة. لنرسل خيطًا إلى السلّم، وهكذا أتأكّد أنّها ليست في المطبخ: ليست هناك أيّة ضجّة معدنيّة لباب البرّاد، ولا أيّة صيحة موجّهة إلى عنوان أمّها المريعة (التي هي الآن بدون ريب مشغولة في ثالث جلسة تلفونيّة هذا الصباح،

تضحك وتسجع). حسنًا لنتابع البحث، ولنتلمّس ولنأمل، أشعّة نائسة، خرج تفكيري إلى الصالة حيث أجد الراديو أخرس، (والماما لا تزال معلّقة على التلفون تتمتم بصوت منخفض مع السيّدة شاتفيلد أو السيّدة هاميلتون، محمرّة الخدّين، والبسمة على شفتيها ويدها الأخرى تحيط بالسمّاعة منكرة بكلّ بساطة أن تكون قد أنكرت تلك الأخبار التي هي في الحقّ مضحكة) ـ «نزيلي؟ نعم، ولكن ليس أكثر من ذلك!» تقول ذلك بتمتمة صميميّة غامضة. وإذن فإنّ جنّيّتي ليست في البيت. لقد طارت! وفجأة لا تبدو شبكتي الموشوريّة الحريريّة إلّا خيوط عنكبوت قديمة مغبرّة، فإنّ البيت خالٍ ـ ميّت. وفجأة أسمع من خلف بابي المشقوق صوت لوليتا ضاحكًا مداعبًا: «لقد أكلت كلّ نصيبك من لحم الخنزير، فلا تخبر أمّي بذلك!» وهرعت إلى الباب، فإذا هي قد اختفت. أين أنتِ، يا لوليتا؟ أنا لا يهمّني طبق الفطور الذي أعدّته لي مؤجّرتي بكلّ لطافة، وهي تنتظر أن أحمله إلى غرفتي. لولا، لوليتا.

الثلاثاء. مرّة أخرى عاكست السماءُ العاصفةُ مشروعَ النزهة التي ننوي القيام بها إلى شاطئ تلك البحيرة البعيدة المنال. أتُرى القدر يقف ضدّي؟ جرّبت أمس، أمام المرآة، سروال السباحة الجديد.

الأربعاء. أخبرتني السيّدة هاز أنّها ذاهبة إلى السوق لتشتري هديّة لصديقة إحدى صديقاتها ـ وبالنظر لسلامة ذوقي في شؤون الأقمشة والعطور، فهل أتفضّل بأن أصحبها؟ «ستختار ما يستطيع أن يفتنك أكثر من سواه». هذا ما تمتمت به. فكيف يستطيع همبرت المسكين عماد صناعة العطور، أن يتملّص؟ لقد حشرتني بين الباب والسيّارة وقالت «أسرع» بينما كنت أجهد في أن أطوي جسمي الكبير لألج من الباب، وأنا أبحث عبثًا عن وسيلة لأفلت من هذا الشرك. وكانت قد أدارت المحرّك وأخذت تستهزئ، في عبارات رقيقة، بسائق شاحنة (كان قد أنزل مقعدًا جديدًا من

مقاعد المرضى إلى بيت الآنسة العجوز الساكنة مقابل البيت، وأخذ يعالج سيّارته ليستدير في الشارع) حين صاح بنا صوت لوليتا الحادّ من نافذة الصالة: «إيه! إلى أين أنتما ذاهبان؟ إنّني آتية أنا أيضًا، انتظراني!» فوعوعت هاز تقول: «لا تهتمّ بها!» ولم نلبث أن دُهشنا حين فتحت «لو» الباب من جانبي، فبدأت هاز تقول: «إنّ هذا لا يحتمل وأنا لا .» ولكن «لو» كانت قد اتّخذت لنفسها مكانًا بالدفع واللّكز وهي تهتزّ جذلاً وقالت لي: «ادفع مؤخرتك قليلاً!» فصاحت هاز وهي ترميني بنظرة مختلسة (مؤمّلة من غير شكّ أن أقذف خارجًا بلولا العديمة الحشمة) ـ «وما هذا يا لولا؟». وأنقذفنا إلى الخلف حين انطلقت السيّارة إلى الأمام. وعادت هاز تقول: «إنّ هذا غير محتمل. لا أستطيع أن أحتمل غلامة قليلة الأدب كهذه! وعنيدة إلى هذا الحدّ! في الوقت الذي تعلم فيه جيّدًا أنّنا لا نريدها، وأنّها بحاجة إلى أن تأخذ حمّامًا».

وكان ظاهر يدي يلامس تنّورة التلميذة. وكانت آثار من الطلاء تلمع على أظافر قدميها العاريتين، وكانت عصابة من قماش ملصقة حول إصبع رجلها الكبير. أيّ شيء لم أكن مستعدًّا لإعطائه، يا إلٰهي، لأستطيع أن أقبّل هاتين القدمين بعظمهما الرقيق وأصابعهما الطويلة المتحرّكة؟ وفجأة، انزلقت كفّها في جوف كفّي، وظللت طوال الطريق أشدّ وأضغط وأداعب يدها الصغيرة المحرقة، بالخفية عن مرافقتنا وكانت سائقتنا تحدّث نفسها بتفنّن عن قواعد السير، بينما كان جناحا أنفها الدياتريشي يلمعان بعد أن بذرت عليهما نصيبهما من المسحوق، وكانت تبتسم ابتسامة جانبيّة، وتقطّب تقطيبة جانبيّة، وتطرف بجفنيها بطريقة جانبيّة، وكنت أنا أتحدّى السماء بألّا تقطع علينا قطّ هذه الرحلة، ولكن ما لبثنا أن وصلنا بأسرع ممّا ينبغي.

ليس هناك شيء آخر للتسجيل باستثناء أنّ هاز الكبيرة قد أجبرت هاز

الصغيرة على الجلوس في المقعد الخلفي في أثناء رحلة العودة، وأنّ السيّدة الطيّبة قد عزمت على أن تحتفظ بما اختاره همبرت لتزيّن به شحمة أذنيها هي بالذات.

الخميس. برَد ومطر وعواصف. إنّنا ندفع غاليًا ثمن موجات الحرّ الاستوائيّة التي اكتسحت مطلع هذا الشهر. وجدت في أحد أجزاء «دائرة معارف الشباب» خريطة للولايات المتّحدة رسمتها يد طفوليّة على ورقة كُتبت على قفاها لائحة من الأسماء هي من غير شكّ أسماء زميلات «لو» في مدرسة رامسدال. إنّها قصيدة أحفظها الآن عن ظهر قلب: أنجيل، غراس. أوستان، فلوريد. بيل، جاك. بيل، ماري. باك، دانيال. بايرون، مارغريت. كامبل، أليس. كارمير، روز. شاتفيلد، فيليس. كلارك، غوردون. كوان، جون. كوان، ماريون. دانكان، وولتر. فالتر، تيد. فانتازيا، ستيلّا فلاشمن، أيرفنغ. فوكس، جورج. كلاف، مابيل. غودال دونالد. غرين، لوساندا. هاملتون، ماري روز. هاز، دولوريس. هونك، روزالين. نايت، كنيت. ماك كو، ڤيرجينيا. ماك كريستال، ڤيڤيان. ماك ناتوم، أوبري. ميراندا، أنطوني. ميراندا، فيولا روزاتو، إميل. شلانكر، لينا. سكوت، دونالد. شريدان، أغنيس. شيرفا، أوليغ. سميث، هازل. تالبوت، إدغار. تالبوت أدوين. واين، لول. ويليامز، رالف. وادندمولر، لويز.

أقسم بالله إنّها قصيدة، قصيدة حقيقيّة. أيّ انفعال غريب، لذيذ بأن أكتشف هذه الـ «هاز، دولوريس» (هي!) في هذا السجلّ الثمين من الأسماء، تحيط بها «روزتان» حارستان. أميرة صغيرة من أميرات قصص الجنّيات بين آنساتها، آنسات الشرف. لنحاول تحليل رعشة الانتشاء هذه التي تسري في صلبي لدى رؤية هذا الاسم بين كثير من الأسماء الأخرى. ما الذي يهزّني على هذا الشكل حتى حافّة الدموع (هذه الدموع الحارّة

الثقيلة الملوّنة التي يذرفها العشّاق والشعراء)؟ أيكون ذلك الاسم الغفل المختبئ تحت ستاره الرسمي («دولوريس»)، أم يكون تلاحق الاسم والكنية الذي يذكّر بقفّازات من الجلد الجديد الباهت، أو بقناع. أتكون كلمة «قناع» هي الكلمة المفتاح؟ أهي شهوة السرّ الشفّاف نصف شافية، كأنّه «شرشف» توجّه البشرة والعين من خلفه ابتسامة لك لا يراها غيرك؟ أم لأنّ بوسعي أن أتخيّل تخيّلاً واضحًا الوجوه التي تحيط بحبيبتي، هاز دولوريس، حبيبتي المتردّدة المؤلمة: فإنّ «غراس» ذات جبين تغطّيه البثور، و«ڤرجينيا» تجرّ ساقيها، و«غوردون» الشارد، و«دانكان» المهرّج المنتن المصنّ، واغنيس التي تقرض أظفارها، و«ڤيولّا» ذات النقاط السوداء والصدر المنتفض، وروزالين الجميلة وماري روز السمراء وستيلّا الرائعة التي سمحت لأجانب بأن يداعبوها، ورالف المتوحّش السارق، وإيرفنغ اليهودي الصغير المسكين، وهي، هناك، مضيَّعة بينهم، ماضغة قلمها، مكروهة من أساتذتها، وعيون جميع الأولاد مصوّبة على عنقها وشعرها ـ هي، حبيبتي لوليتا.

الجمعة. أتمنى من كلّ قلبي وباء كاسحًا. هزّة أرضيّة. حريقًا واسع النطاق. بحيث تحذف أمّها وكلّ ما يعيش حولنا، فأجد لوليتا تبكي بين ذراعَيّ، وأجدني متحرّرًا فأمتلكها وسط الخرائب، وأتصوّر دهشتها، وشروحي وبراهيني وتمتماتي. ولكنّها كلّها أوهام عقيمة تافهة! وأحسب أنّ «همبرت» أوفر جرأة كان يمكن أن يستغلّها بطريقة قذرة (بالأمس، مثلاً، حين عادت إلى غرفتي لتُريني رسومها التي رسمتها في الصفّ)، بل قد نذهب إلى حدّ أن يرشوها ويتخلّص من المشكلة بلا خطر. ولو كان ثمّة رجل أبسط منّي، وأعمق روحًا عمليّة لتدبّر أمره بأمور تجاريّة مستعملة بديلة. ولكن إذا كنتم تعرفون إلى أين تتّجهون، فليست عندي أنا أيّة فكرة. إنّني شديد الخجل بالرّغم من تصرّفاتي الرجوليّة. وإنّ روحي العاطفيّة

تصبح مرتعشة من الخوف إذا فكّرت في أنّي أستطيع أن أشترك في فضيحة ما. إنّي أذكر ذينك الشيطانين الملتحيين القذرين اللذين صاحا بنا، وهما خارجان من البحر: «هيّا! هيّا!». لقد قفزت أنابيل آنذاك لترتدي سروالها، واستبدّ بي الغضب وأنا أُحاول أن أخفيها عن أنظارهما

اليوم نفسه، فيما بعد. أضأت المصباح لأسجّل حلمًا. إنّ إلهامها أمر واضح: لقد أعلنت هاز، إذ كنّا على العشاء، أنّ النشرة الجوِّيّة تَعِدنا بنهاية أسبوع مُشمسة، وأنّنا سنذهب إلى البحيرة صباح الأحد بعد القدّاس. وقد اكتشفت قبل لحظات، بينما كنت في سريري أُهدهد نفسي بخيالات عاطفيّة قبل أن أُحاول النوم، خطّة ممتازة لأُفيد من هذه النزهة. لقد أدركتُ أنّ هاز الضخمة غاضبة أشدّ الغضب على حبيبتي التي استولت على اهتمامي، فنصبت مدفعيّتي بحيث أركّز اهتمامي على الأمّ. لن أتحدّث إلّا إليها عند اللحظة المناسبة، فأزعم لها أنّي نسيت ساعتي أو نظّارتي الشمسيّة في البقعة المجاورة، ثم أَدلف إلى الغابات مع جنّيّتي. وعند هذا الحدّ، امّحت الحقيقة، وتحوّل البحث عن النظّارات إلى حفلة صغيرة لطيفة مع لوليتا الواعية الفاسدة الموافقة، التي تتصرّف كما لا يقرّ العقل أن تتصرّف. وفي الساعة الثالثة صباحًا ابتلعتُ منوِّمًا، فما لبثت أن رأيت في حلم، لم يكن من تأثير الخيال وإنّما كان تزييفًا له، تلك البحيرة التي لم أكن أعرفها، رأيتها بوضوح وصفاء عجيبين. وقد بدت لي وكأنّها مطليّة بطبقة من الثلج العقيقيّ يحاول رجل من الأسكيمو ذو وجه محدود أن يحطّمها بمعوله، بالرّغم من أنّ الضفاف الوعرة كانت مغطّاة بغابات صغيرة من الميموزا ومن شجر الغار المجلوب بتكاليف كثيرة. وأنا على يقين من أنّ الدكتور بلانش شوارزمن سوف يقدّم لي محفظة ملأى بالدراهم ليتمكّن من إضافة هذا الأثر الجنسيّ إلى مجموعته. ولكنّ البقيّة ظهرت، ويا للأسف قليلة الأهمِّيّة: كانت هاز الكبيرة وهاز الصغيرة تهتزّان فوق صهوة الحصان حول البحيرة،

وكنت أثب وراءهما من فوق إلى تحت، وساقاي مستديرتان بالرّغم من أنّه لم يكن بينهما حصان، وإنّما كان هناك فقط الهواء المطّاط ـ وكان ذلك رؤية تافهة تُعزى إلى شرود بائع الأحلام.

السبت. إنّ قلبي لا يزال يخفق حتى يكاد يتحطّم. إنّني أتململ على كرسيّي في أنّات من الاضطراب.

رؤية ظهريّة. زاوية من بشرتها اللامعة بين قميصها وسروالها الرياضي الأبيض. كانت منحنيةً على حافّة النافذة، تنزع أوراق الصفصافة القريبة بينما هي تجري حديثًا متدفّقًا مع موزّع الصحف (أظنّه كينيت نايت) الذي كان قد قذف «غازيت» رامسدال على السطيحة قذفة بارعة. واقتربت منها على مهل، وكانت ذراعاي وساقاي سطوحًا محدبة كنت أتقدّم بينها ـ لا عليها ـ في حركة لا شخصيّة: همبرت العنكبوت الجريح. وقد أنفقت ساعات حتى أبلغ «لو»، وكان يخيّل إليّ إنّي أراها من فتحة تلسكوب عملاق، وكنت محدّدًا بصري بردفها المبسوط، أُجرجر نفسي كالمشلول، مسترخي الأعضاء، مشوّهها، مركّزًا ذاتي بطاقة عنيفة. وأخيرًا كنت خلفها، ولكن أتتني فكرة سخيفة بأن «أزعجها» قليلاً لأغطّي عملي، فقبضت على عنقها، فإذا هي ترسل صيحةً حادّة ذات أنين: «ألن تنتهي؟» بلهجة مبتذلة، فانقبضت شفتا همبرت الذليل انقباضة كريهة وتراجع بمذلّة، بينما استعادت الرائعة ثرثرتها مع صبيّ الرصيف.

ولكن اسمعوا جيّدًا ما حدث بعد ذلك. بعد الغداء، تمدّدت على كرسيّ طويل لأحاول أن أقرأ. وفجأةً، حطّت يدان صغيرتان حاذقتان على عينَيّ: كانت قد دلفت خلفي، فكرّرت المناورة التي قمت بها ذلك الصباح، في شبه حركة من حركات الباليه، وكانت أصابعها التي تقنّع الشمس على جفنيّ ذات عقيق مضيء، وكانت تتململ ذات اليمين وذات اليسار، وهي تغصّ بالضحك، لتتفادى ذراعي التي كنت أحرّكها خلفي دون

أن أغيّر جلستي. ولامست يدي ساقيها الجذلتين الهاربتين، وسقط كتابي عن ركبتي في الوقت الذي وصلت فيه السيّدة هاز، فقالت بلطف: «اصفعها صفعة مناسبة إذا قطعت عليك تأمّلاتك. كم أحبّ هذه الحديقة (ولم يكن في صوتها أيّة علامة تعجّب! أليست هي إلٰهيّة في أشعّة هذه الشمس ليس هناك علامة استفهام)». وعند ذاك، كانت الضيفة الثقيلة قد جلست على العشب وهي ترسل تنهّدة غبطة مصطنعة، وكانت تتأمّل السماء وهي مستندة إلى يديها المتفتّحتين تفتّح أغصان البلح، فإذا بكرة تنس قديمة باهتة تقفز عليها، وإذا بصوت «لو» ينطلق من البيت ليقول بلهجة احتقار: «عفوًا، يا ماما، لم أكن أقصدك أنت بالذات». بكلّ تأكيد يا حبيبتي، يا حبيبتي المحرقة الحريريّة، لوليتا.

١٢

بهذا الفصل تنتهي تلك المفكّرة التي استغرقت أسبوعين أو ثلاثة، وهي تثبت بوضوح أنّ الحبكة، بالرّغم من موارد اختراع الشيطان، لا تزال هي نفسها: لقد بدأت المفكّرة بنصب الشباك لي، ثم تلاعبت بي، وتركتني مفحمًا يستولي عليّ خدر كياني ذاته. عذاب أصمّ. كنت أعرف تمامًا ما كنت أريد أن أفعله، وكنت أعرف أيضًا الوسيلة التي تبلغني غاياتي من غير أن أعتدي على طهارة غلامة، كان عندي بعد حياة طويلة من التأمّل بعض التجربة: ألم أمتلك بالنظر ألف جنّيّة وجنّيّة في الحدائق العامّة؟ ألم أدلف مرّات ومرّات في ممرّات الأوتوبيس الخانقة المزدحمة بالناس لأحشر نفسي ـ في حيوانيّة محترسة ـ بين عناقيد من تلميذات معلّقة بالمماسك الجلديّة؟ غير أنّ كلّ مناورة من مناوراتي العاطفيّة تتعرّض منذ ثلاثة أسابيع للمعاكسة. وقد كان مفسد هذه الحفلات في كلّ مرّة المرأة هاز التي يسمح

لي القارئ أن أقول إنّها كانت تخشى أن ترى «لو» تتمتّع بصحبتي أكثر ممّا كانت تخشى أن تعلم أنّها كانت مفتونة بي. وكان الهوس الذي يحرقني من أجل هذه الجنّيّة ـ الجنّيّة الأولى التي كنت أستطيع أن ألامسها ملامسة خجلة بأظافري الموجعة العديمة الحذق ـ سيؤدّي بي حتمًا إلى مصحّ آخر لو لم يفهم الشيطان أنّ عليه أن يمنحني بعض التهدئة إذا كان يرغب في الاستمرار بالتلاعب بي.

ثم إنّ القارئ قد لاحظ أيضًا سراب البحيرة الغريب. ولقد كان منطقيًّا من قبل «أومبري ماك فاتوم» ـ اسم التلميذ الذي هو لقب ممتاز لشيطاني الشخصي ـ أن يمنحني تسلية صغيرة على تلك الضفّة الموعودة في قلب تلك الغابة المفترضة. والواقع أنّ وعد السيّدة هاز لم يكن أقلّ أو أكثر من استغلال ثقة: فقد تجنّبتْ أن تخبرني أنّ ماري روز هاملتن (ويهمّني أن أسجّل أنّها سمراء فاتنة صغيرة) سوف تأتي أيضًا، وأنّ جنّيّتيّ الصغيرتين ستنتحيان جانبًا لتتهامسا وتلعبا وتمرحا على حدة، بينما تتحدّث السيّدة هاز ونزيلها الجميل حديثًا رصينًا، وهما نصف عاريين وبعيدان عن الأنظار الفضوليّة. ومع ذلك، فلا بدّ من أن يكون هناك بالفعل أنظار منقّبة وألسنة حادّة. فيا للحياة ما أشدّ تناقضها! إنّه يبدو أنّ الإنسان لا يعجّل في شيء تعجيله في أن يتخلّى عن المصير الذي يسعى إليه. لقد كانت مؤجّرتي، قبل وصولي إلى رامسدال، فكّرت في أن تُنزل في بيتها عانسًا تُدعى الآنسة «ڤالين» (وهي ابنة طبّاخة ذويها السابقة) كان مفترضًا أن تُعنى بـ «لو» وبي أنا بينما تتولّى السيّدة هاز منصبًا مناسبًا في المدينة المجاورة. وكانت قد واجهت المستقبل بدقّة منظّمة: فتصوّرت شخصًا يُدعى الهرّ همبرت ذا ظهر منحنٍ ونظّارة على أنفه ينزل من أوروبا الوسطى بسلاحه ومتاعه ليلتقط الغبار من زاوية خلف ركام الكتب، أمّا «لو» الفتاة القبيحة المكروهة فسيعهد بها إلى رعاية الآنسة «ڤالين» التي سبق لها منذ بضعة أعوام أن

أخذتها تحت جناحها النسريّ (وأنّ حبيبتي لوليتا تذكر ذلك الصيف من عام ١٩٤٤ برعشة من الغيظ) وتتصوّر السيّدة هاز نفسها وهي تستقبل الزوّار في بلد أنيق رقيق. ولكن حادثًا مناسبًا جدًّا قلب هذا البرنامج: فقد كسرت الآنسة ڤالين إحدى خاصرتيها في «سافنّا» بولاية «جورجيا» يوم وصولي بالذات إلى منزل أسرة هاز.

١٣

بدا يوم الأحد الذي عقب السبت الموصوف أعلاه صافيًا مشعًّا كما تنبّأ المختصّون. وبينما كنت أضع طبق فطور الصباح على كرسيّ الممرّ، بالقرب من بابي، في انتظار أن تأتي صاحبة البيت اللطيفة لتأخذه في الوقت المناسب، سمعت ضجّة صوت وتوصّلت إلى التقاط المعلومات التالية وأنا أقترب بلا ضجّة، في حذائي البيتيّ القديم (وهو الشيء الوحيد القديم الذي يُمكن أن يؤخذ عليّ): كان هناك شيء جديد، فقد تلفنت السيّدة هاملتن أنّ ابنتها كانت مرتفعة الحرارة، فأخبرت السيّدة هاز ابنتها أنّ النزهة قد أُرجئت، فأجابت الصغيرة الملتهبة هاز بأنّها، في هذه الحالة، لن تصحبها إلى القدّاس، فأجابت السيّدة الباردة هاز: «حسنًا» ومضت.

حين التقطتُ هذا الحوار، لم أكد قد فرغت من حلق ذقني: كانت أذناي لا تزالان ملطّختين بصابون الحلاقة. وكنت لا أزال في المنامة (منامتي البيضاء المزيّنة بغصن ترنجان ـ وهي غير منامة الزنبق). وعدت إلى غرفتي فمسحت الصابون، وعطّرت شعري وإبطي، وارتديت الروب دي شمبر الحريريّ الليلكي وهبطت أبحث عن «لو» وأنا أدندن بعصبيّة، إحدى الأغنيات.

وأودّ أن يشترك قرّائي العلماء بالمشهد الذي سأمثّله لهم مرّة أخرى،

وأودّ أن يدرسوه بكلّ تفاصيله ليثبتوا بأنفسهم أنّ هذا الفصل، مهما بدا مُسكرًا ولذيذًا، يظلّ طاهرًا ومحترسًا إلى أبعد حدّ «ودًّا غير متغرّض». لندقّ الدقّات الثلاث. يا إلٰهي ما أصعب دوري!

الشخصيّة الرئيسيّة: همبرت المدندن. الزمان: صباح أحد من حزيران. المكان: صالون غارق في الشمس، ديكور ولوازم: ديوان قديم، قماش مخطّط، مجلّات، غرامافون، لعب، أشياء مكسيكيّة زهيدة (كان المرحوم السيّد هارولدا. هاز. ـ ليتغمّد الله روحه الطيّبة ـ قد استولد حبيبتي في «ڤيبرا كروز»، في غرفة محشوّة باللون الأزرق خلال فترة القيلولة، وكان بيت أسرة هاز ملآنَ بذكريات رحلة شهر العسل هذه، وكانت دولوريس من هذه الذكريات (كانت «لو» ترتدي ذلك الصباح ثوبًا جميلاً مطبّعًا لم أرها فيه إلّا مرّة واحدة: تنّورة واسعة، قميص صغير ضيّق ذو أكمام قصيرة من القطن الرقيق الورديّ المطبّع بالزهور الغامقة، وكانت، لكي تكمل هذا الانسجام الاحمراريّ، قد صبغت شفتيها، وكانت تحمل بين يديها تفّاحة حمراء رائعة. غير أنّها لم تكن قد انتعلت حذاء الخروج، وكانت محفظة الأحد ملقاة بالقرب من الغرامافون).

كان قلبي يهدر كما تهدر العاصفة الكابوسيّة. وقد جلست بالقرب منّي فتفتّحت تنّورتها قبل أن تسترخي على الديوان، وأخذت تلعب بتفّاحتها المشعّة فتقذفها في الفضاء المشمس وتلتقطها بخفّة مغلقةً يديها حولها باصطفاق مُرِن.

واعترض همبرت همبرت طريق التفّاحة فاحتجزها.

وكشفت «لو» رونق كفّيها المرمريّتين متوسّلة: «أعدها لي» فقلت: «لذيذة» فتناولتها وزرعتْ فيها أسنانها، فكان قلبي كفقّاعة من ثلج تحت غطاء رقيق من البشرة القرمزيّة، وفجأة، وبسرعة تعتبر خطًّا رئيسيًّا من خطوط هذه الجنّيّة لما وراء البحار ـ انتزعت منّي المجلّة المفتوحة التي

كنت أمسكها بقبضة مجرّدة (من المؤسّف أنّه لم يكن من المستطاع أخذ فيلم عن مجموعة حركاتنا المتوافقة حينًا والمتشابكة حينًا آخر) وأخذت لو، من غير أن تربكها التفّاحة المشوّهة التي كانت تشدّها بين أصابعها، تقلّب بعنف صفحات المجلّة بحثًا عن صورة تودّ أن تُريها إلى الصديق همبرت. ووجدت الصورة أخيرًا. واصطنعت الاهتمام، فأحنيت رأسي قريبًا منها حتى لامس شعرها صدغي ولامس ذراعها خدّي بينما كانت تمسح فمها بباطن كفّها. وخيّل إليّ أنّ غيمة ذهبيّة كانت ترفّ بين الصورة وبين نظري، وكان ردّ فعلي أبطأ ممّا ينبغي على هوى لوليتا التي جعلت تحكّ ركبتيها فيما بينهما بنفاد صبر. ورويدًا رويدًا تجسّمت اللوحة بإبهام أمام عينيّ: رسّام سيريالي متمدّد بلامبالاة على رمال شاطئ، قرب «فينوس» من الجفصين غارزة في الرمل بلامبالاة أيضًا وكان مكتوبًا تحت الصورة أنّها «وثيقة الأسبوع» وطويت بحركة سريعة هذه القذارة. وسرعان ما ارتمت «لو» على جسمي متصنّعة أنّها تريد أن تستعيد المجلّة. فقبضت على مرفقها المعروق النحيل، وسقطت المجلّة على الأرض كأنّها طير مذعور. وتململت «لو» على نفسها فتخلّصت وتراجعت وتركت نفسها تسقط في زاوية الأريكة اليمنى، ثم بسطت الغلامة العديمة الحشمة، ببساطة معجبة، ساقيها على ركبتي.

وكنت قد دخلت حالة من الهياج تقارب البلاهة. ولكنّي كنت أملك كذلك مكر المجنون. ورحت أقوم بسلسلة من المناورات الخفيّة وأنا فوق الأريكة لأُوفّق بين رغبتي المقنّعة وبين ضغط ساقيها البريئتين. ولم يكن من اليسير أن أصرف انتباه الغلامة بينما كنت أقوم بالترتيبات الغامضة التي لا بدّ منها لنجاح خطّتي. كنت أخطب بتدفّق فينقطع نَفَسي الذي كنت ألتقطه على الطائر ثم أصطنع ألمًا مفاجئًا في أسناني لأبرّر فترات الانقطاع في خطابي، كلّ هذا من غير أن أكفّ عن إحداد نظري، نظر الأبله على هدفي

المشعّ البعيد، وأُشدّد بحذر الدلك السحري الذي كان يحذف، بالمعنى التصوّري إن لم يكن الحقيقي للعبارة، قماش الحاجز المادّي (المنامة والثوب الحريريّ) الذي يعزل حِمْل هاتين الساقين البرونزيّتين عن الدمل الخفي لعاطفة لا توصف. وفي أثناء شطحاتي كان خليط من الكلام المتدفّق الآلي يتناثر على شفتي وبدأت أُدندن كلمات أغنية ذائعة وأنا أقطّعها بعض الشيء: «أوه حبيبتي كارمن، صغيرتي كارمن. والأمسيات والحانات والـ. .» وكنت أُكرّر هذا اللغو بصوت آلي، مخضعًا إيّاها لسحره الخاصّ (الخاصّ بسبب الكلمات العرجاء) وفي الوقت نفسه، كنت أخشى خشية مميتة أن يفسد عليّ عمل من أعمال الربّ ما كنت فيه فيحرمني من هذا الثقل الذهبي المسمّر الذي يبدو كياني كلّه مركّزًا في الإحساس به، فقادني ذلك الذعر إلى أن أبذل، خلال دقيقة أو دقيقتين، عجلةً لا تنسجم مع شهوة منظّمة تنظيمًا حكيمًا. ولم يمضِ وقت طويل حتى انتقلت تلحيناتي عن كارمن والأمسيات والحانات وأصحاب الحانات إلى قيادة «لو» نفسها التي استعادت اللحن المغتال وأخذت تنعشه. وكان لها صوت منسجم، نصفه حلو ونصفه حامض. وكانت ساقاها الممدودتان عبر حجري عرضًا ترتعشان بين فترة وفترة، فكنت أداعبهما بلطف. وكانت لولا التلميذة تتمرّغ في زاويتها ملتهمةً ثمرتها الأبديّة، مغنّيةً عبر لبّها الغني العصير، فاقدة أحد نعليها، داعكة كعبها على مجموعة المجلّات المتراكمة على ديوانٍ إلى يساري، وكانت كلّ حركة وكلّ انقباضة وتموّجة تساعدني على أن أخفي وأُحسن وضع شبكة التبادل اللمسيّ بين الجميلة والحيوان، بين الوحش المكموم الممدود حتى ليكاد يتحطّم وجمال جسمها الصغير الملآن بالغمّازات تحت ثوب القطن الطاهر.

ولامست بأطراف أصابعي المترصّدة الزغب المنتصب انتصابًا غير مرئيّ على ربلتيها وكنت أذوب في الحرارة الحازمة (ولكنّها صحّيّة) التي

كانت تخفق حول جسمها كغمامة صيفيّة. إبقي، يا هاز الصغيرة، ابقي. وإذا كانت تنحني لترمي في الموقد التفّاحة الضحيّة كان ثقلها الفتي وردفها المستدير وساقاها اللامحتشمتان بشكل طاهر تتململ عليّ ـ على حجري المحموم المعذب الذي كان يشتغل خفية. وفجأة طرأ تغيّر عجيب على حواسّي، ودخلت في دائرة من الوجود لم يكن يعنيني فيها شيء غير تدفّق اللذّة التي كان جسمي يحرّكها. إنّ ما كان في البدء تمدّدًا لذيذًا لأُخفي أنسجة كياني انقلب إلى تنمّل محرق بلغ فجأة تلك الحالة من الأمن والثقة والهدوء المطلق، التي يبحث المرء عبثًا عنها في العالم الواعي. ولمّا كنت متأكّدًا أنّ شيئًا ما لن يصرف هذه الغبطة الملتهبة العميقة عن تشنّجها الأقصى جرؤت على إيقافها قليلاً لأُطيل إشعاعها. في الخارج كانت الشمس الواضحة تخفق في الصفصاف المتواطئ. كنّا وحيدين، وحيدين بطريقة عجيبة، بطريقة إلٰهيّة، وكنت أراقبها، مورّدة مذهّبة، فيما وراء ستار نشوتي المكبوتة عن رضى، نشوتي التي لم تكن تشعر بها، بل لم تكن تخطر في بالها ـ وكانت الشمس تلعب على شفتيها، وكانت شفتاها لا تزالان تشكّلان في الظاهر كلمات أغنية كارمن التي كفّت عن أن تستطيع اجتياز عتبة الوعي. كلّ شيء كان مهيّأً. كانت أعصاب السعادة عارية. وكانت جُسيمات «كروز» تقترب من مرحلة الهيجان. وكان أدنى ضغط كافيًا لإثارة جميع السكرات النعيميّة. ولم أعد همبرت، الكُلَيب الدعيّ ذا النظر الحزين، الذي يعانق القدم التي ترتفع لتضربه. كنت فوق مِحَن المهزلة، وفوق إمكانيّة العقاب. لقد كنت في هذه السراي، التي أنشأتها على طريقتي، تركيًّا مشعًّا قويًّا، واعيًا أشدّ الوعي لحرِّيّتي، مؤجّلاً بملء إرادتي لحظة امتلاك أصغر جواريه وأرقّهنّ. كنت معلّقًا على حافّة تلك الهاوية الشهوانيّة (وأنّه لعمل رائع هذا التوازن الفيزيولوجي الشبيه ببعض التقنيّات الفنِّيّة) وكنت أردّد وراءها كلمات بالمصادفة ـ كارمن، أوه حبيبتي كارمن ـ

آهمن، أهاهمن ـ كالنائم المتحدّث والضاحك في نومه، وفي الوقت نفسه كانت يدي السعيدة تزحف على ساقها المشمسة إلى أعلى مكان يسمح ظلّ الحشمة بالزحف إليه. وكانت عشيّة الأمس قد اصطدمت بطاولة المدخل الكثيفة، فقلت لها وأنا أغصّ بريقي: «أُنظري، أُنظري، أُنظري ما فعلته بساقكِ، آه أُنظري» فقد كان هناك، وأقسم على ذلك، ارتشاح دمويّ عقيقيّ مزرقّ على فخذها، فخذ الجنّيّة الرقيق، جعلت أدلّكها وأضمّها بلطف في يديّ الكبيرة المشعرة، ويبدو أنّ ثيابها الداخليّة كانت أقصر من أن تمنع إبهامي الجذل من بلوغ المرتقى المحرق ـ كما تُداعَب وتدغدغ طفلة تضحك حتى البكاء وليس أكثر من ذلك. وصاحت بصوت نافذ: «أوه ليس هذا شيئًا على الإطلاق». وتململت وتشنّجت وارتمت إلى الخلف لافتة رأسها نصف لفتة، عاضّة شفتها السفلى بأسنانها البرّاقة ـ وقد أوشك فمي الذي يئنّ أن يلامس، أيّها السادة المحلّفون، عنقها العاري، بينما كنت أسحق على ردفها الأيسر آخر تشنّجات أطول نشوة عرفها إنسان أو شيطان. وحدث بعد ذلك، كما لو أنّنا صارعنا ولو أنّ قِبضتي قد استرخت، أن تدحرجت تحت الديوان وقفزت على قدميها (أو بالأحرى على قدم واحدة) لتضع حدًّا لرنين التلفون الهادر الذي ربّما كان يدقّ منذ آباد (أنّى كان لي أن أعرف ذلك!) كانت تقف على قدم واحدة طارفة بعينيها، ملتهبة الوجنتين، منثورة الشعر، وكان بصرها يتنقّل بغير مبالاة بيني وبين الأثاث، وفيما كانت تستمع أو تجيب (على أمّها، التي كانت تقول لها أن تلحق بها إلى بيت أسرة «شتفيلد» للغداء. ولم تكن «لو» ولا «هم» يعرفان بعد ما كانت ماما هاز تتآمر به) كانت تربت حافّة الحاجز بطرف بابوجها الذي كانت تمسكه بيدها والحمد لله أنّها لم تلاحظ شيئًا!

وأخرجت منديلاً حريريًا ملوّنًا مسحت به عرق جبيني، ثم أصلحت الروب دي شامبر الملكي وأنا مستغرق في غبطة التحرّر. وحين نهضت،

كانت لا تزال على التلفون تجادل أمّها (كانت صغيرتي «كارمن» تطلب أن تُقَلّ بالسيّارة)، ومضيت إلى الدرج، وأنا أغني بصوت أقوى، ثم دخلت الحمّام فأجريت في المغطس طوفانًا مدخّنًا مُصمًّا

١٤

تناولت الغداء في السوق ـ ولم تأتني شهيّة للطعام مثل هذه منذ أعوام ـ ثم عدت على مهل، ولكنّ البيت كان خاليًا من «لو» ومن الحياة. وقضيت بعد الظهر حالمًا وأجترّ مغامرة الصباح.

وكنت فخورًا بنفسي. لقد استمتعت من غير أن أهدّد طهارة فتاة قاصر. ليست هناك أيّة أضرار. لقد صبّ الساحر في محفظة الآنسة الصغيرة البيضاء خليطًا من الحليب والثفل والشمبانيا المحتدمة ـ والمعجزة أنّ المحفظة ظلّت وكأنّها لم تمسّ. كنت قد حقّقت حلمي المجرم، خطّتي القذرة المجنونة، ومع ذلك فقد بقيت لوليتا سليمة صحيحة، وأنا كذلك. ولم تكن هي التي امتلكتها بهوس، وإنّما امتلكت التي خلقتها بالذات، وهي لوليتا أخرى، خياليّة ولكنّها مع ذلك أكثر واقعيّة من لوليتا بلحمها وعظمها، إذ كانت تتضمّنها وتشملها، وكانت تطفو بينها وبيني ـ خيال لا إرادة له ولا وعي ولا أيّة حقيقة غير رغبتي. لم تكن الغلامة قد علمت شيئًا. ولم أكن قد فعلت لها شيئًا وما كان لشيء أن يمنعني من أن أُكرّر لعبة لا تؤثّر عليها بأكثر ممّا لو كانت ظلًّا فوتوغرافيًّا متموّجًا على تعرّجات شاشة، ولا أكثر ممّا لو كنت أنا نفسي أحدب ذليلاً يستغلّ جسمه في ظلام القاعة. وقد امتدّت فترة بعض الظهر امتدادًا طويلاً، في صمت مضغوط. وكان يبدو على الأشجار المحمّلة بالنسغ أنّها تتابع أفكاري، وبعد قليل عاد الشبق يرهقني من جديد أعنف من أيّ وقت مضى. وابتهلت إلى إلٰه مستعار

أن تعود بسرعة وأن تتجدّد حادثة الديوان مرّة أخرى بينما تكون أمّها في المطبخ، أبتهل إليك، فإنّي أحبّها، أحبّها حبًّا مريعًا

كلّا، إنّ كلمة مريع غير مناسبة. فالانتشاء الذي كان يسبّبه التفكير في شهوات جديدة لم يكن مريعًا بل مؤثّرًا. «مؤثّر» هي الصفة المناسبة. مؤثّر لأنّني كنت أعدّ نفسي بإرادة قويّة مستبصرة، بالرّغم من أتون مطمحي الجسديّ الذي لم يُروَ، أن أُحافظ على طهارة هذه الغلامة ذات الإثني عشر عامًا.

ولكن أُنظروا ذلك المساء: فقد ذهبت إلى السينما مع أسرة شاتفيلد. وكانت مضيفتي قد نصبت طاولة العشاء بعناية خارقة: عشاء على نور الشمع من فضلكم. وكانت وهي غارقة في تلك الهالة من البضاعة الدون تربت بلطف على ما يحيط بصحنها، كعازف للبيانو يوقع نغمًا دقيقًا، وتبتسم فوق البورسلين الفارغ (كانت تتّبع نظام حمية). وأعربت عن أملها في أن أحبّ «السلَطة» التي صُنعتْ وفق تعليمات مجلّة نسائيّة. وكانت ترجو كذلك أن أحبّ قطعة اللحم المشويّة الباردة. كانت قد قضت يومًا رائعًا. وكانت السيّدة شاتفيلد امرأة مدهشة. وستذهب ابنتها «فيليس» في اليوم التالي إلى مخيّم للعطلات تقضي فيه ثلاثة أسابيع. وأمّا لوليتا فقد تقرّر أن تذهب يوم الخميس، فلا فائدة من انتظار شهر تمّوز كما كان مفترضًا من قبل. وستظلّ في ذلك المخيّم إلى ما بعد عودة فيليس، وستظلّ هناك إلى موعد افتتاح المدارس. أوه يا قلبي، أيّة إمكانيّة فظيعة!

ظللت مبهوتًا، منهارًا ـ أتُراني سأفقد حبيبتي في اللحظة التي جعلتها فيها ملكًا لي بالخفية؟ ولكي أُبرّر مزاجي الفجائيّ الشرس، عمدت إلى ألم الأسنان الذي كنت قد تصنّعته في الصباح: لا ريب في أنّه ضرس كبير مصاب بدمل كبير. وقالت هاز:

«إنّ طبيبنا للأسنان ممتاز. ونحن في الواقع جاران. الدكتور كيلتي.

عمّ المؤلّف المسرحيّ، أو ابن عمّه. أتظنّ أنّ هذا الألم سيزول؟ حسنًا، كما تريد. عند عودتها، لا بدّ من تأديبها أخشى أن تكون قد سمّمت حياتك في تلك الأيّام الأخيرة. ولا بدّ أن ننتظر جلسة أو جلستين عاصفتين قبل ذهابها إلى المخيّم. لقد رفضت بكلّ برودة أن تذهب إليه. وأصارحك بأنّي إنّما تركتها هذا المساء مع أُسرة شاتفيلد لأنّي لم أشعر بالجرأة على أن أواجهها وحدي. فلعلّ السينما تهدّئ مزاجها أمّا فيليس فهي فتاة صغيرة رائعة وليست «لو» على حقّ في أن تكرهها. إنّني آسفة حقًّا أيّها السيّد أن أراك تتألّم هكذا، وسيكون أكثر حكمة أن تدعني أخابر أيفور كيلتي منذ صباح الغد إذا لم يتحسّن ضرسك. والحقّ أنّي أعتقد، بيني وبينك، أنّ إقامة بضعة أشهر في مخيّم للعطلات هي أوفر صحّة، وسيكون ذلك من جهة أخرى كما قلت، أكثر حكمة، بدلاً من الاسترخاء على عشب في الضاحية، أو من سرقة أحمر شفاه أمّها، أو من مضايقة سادة خجولين بعض الشيء مرهقين بالعمل، أو من الانفجار في أزمات غضب عند أقلّ إثارة.

وسألتها أخيرًا: «هل أنتِ متأكّدة أنّها ستكون سعيدة هناك؟».

ـ «يجب أن تتعوّد أن تُسعد هناك. هذا كلّ ما في الأمر. ثم إنّ القضيّة ليست فقط أن تضحك. إنّ المخيّم تديره شيرلي هولمس، وهي كما تعلم مؤلّفة كتاب «فتيات تحت الخيمة». ولا شكّ في أنّ هذا المكوث سيفيد دولوريس في جميع الميادين. فهي ستنمّي معارفها وصحّتها وشخصيّتها، وخصوصًا حسّ المسؤوليّات تجاه الآخرين. هل تريد أن نجلس لحظة على «البيازا» مع هذه الشموع أم تُفضل أن تصعد للنوم ولهدهدة ذلك الضرس؟

هدهدة ذلك الضرس.

١٥

في اليوم التالي، قصدتا المدينة لتشتريا بعض الحاجات اللازمة للمخيّم. وكان الحصول على أيّ شيء يتعلّق بالثياب يُحدث لدى «لو» أثرًا عجيبًا وعند العشاء بدا أنّها قد استعادت مزاجها المألوف الساخر. وبعد ذلك مباشرة صعدت إلى غرفتها واستغرقت في كتب الأحداث المصوّرة التي اشترتها للأيّام الماطرة في مخيّم كيلث. (حتى إذا أقبل يوم الخميس كانت قد قرأتها مرّة ومرّتين حتى زهدت بها) وعدت أنا أيضًا إلى مغارتي فكتبت بضع رسائل. وكنت قد فكّرت في قضاء الصيف على شاطئ البحر، وحين تفتح المدارس أستعيد حياتي لدى أسرة هاز. فقد كنت أدرك أنّي لا أستطيع العيش بعيدًا عن الصغيرة. ويوم الثلاثاء استقلّتا السيّارة مرّة أخرى لشراء بعض الحاجات من المدينة، ورجتاني أن أجيب على التلفون إذا خابرت مديرة المخيّم البيت في غيابهما والواقع أنّها قد اتّصلت (وسوف تُتاح لنا الفرصة، بعد أسابيع، لنتحدّث معًا عن ذلك الاتّصال اللطيف).
وفي ذلك اليوم تناولت «لو» العشاء في غرفتها، وكانت قد بكت (عقب إحدى المنازعات المألوفة مع الأمّ هاز) ولم تكن تريد أن أرى عينيها متورّمتين، كما حدث في مناسبات أخرى سابقة: فقد كانت من تلك المخلوقات ذوات البشرة الرقيقة التي تصبح، بعد فيض من الدموع، متورّمة وذات فتنة شهوانيّة. وقد أسفت أسفًا شديدًا أن تحتقر نفسها على هذا النحو بشأن ميولي السرّيّة في مادّة الجمال، لأنّي كنت أُجنّ لرؤية ذلك اللون الورديّ حول الشفاه والجفون الرطبة الملتصقة بالدموع. فلا حاجة إلى القول إذن إنّ هذه التصرّفات الحيّية قد حرمتني مرّات عديدة من تعزيات مموّهة، ولكن لم يكن ذلك سبب غيابها الوحيد. فقد اعترفت هاز في

ضحكة متعبة (وكانت ريح وقحة قد أطفأت الشموع الحمراء) بأنّها قد أبلغت «لو» أنّ حبيبها همبرت كان يوافق بلا تحفّظ على مشروع رحلة المخيّم. وأضافت هاز: «والغلامة الآن غاضبة، الحجّة: نريد أن نتخلّص منها نحن الاثنين، السبب الحقيقي: كانت قد ألحّت عليّ إلحاحًا شديدًا في أن أشتري لها قمصان نوم أجرأ من أن تلبسها فتاة صغيرة. فقلت لها إنّنا سنستبدلها غدًا بنماذج عاديّة. أنتَ ترى أنّها تعتبر نفسها نجمة صغيرة. وأنا أعتبرها غلامة قويّة سليمة الصحّة، ولكنّها خالية تمامًا من أيّة جاذبيّة. وهذا، على ما أعتقد، هو مصدر جميع متاعبنا».

ونجحتُ يوم الأربعاء في أن أخطف «لو» بضع لحظات: كانت جاثية على السطيحة بقميص قصير وسروال ضيّق أبيض ملطّخ بخضرة العشب، وكانت تُفتّش في صندوق. وتمتمتُ عبارة أردتها أن تكون ودودة ومسلّية، ولكنّها أجابت باحتقار، ولم تتنازل حتى للنظر إليّ. وكان من شدّة يأس همبرت أن داعب عصعصها، فإذا هي تقذفه بقالب يخصّ المرحوم والدها وترميه بعبارة «طرح زائف» بينما كنت أهبط الدرج بخطًى بطيئة وأنا أفرك ذراعي بحركات واسعة تنمّ عن الأسى والندم. ولم تتنازل على تناول العشاء بصحبة مامي وهامي، وإنّما غسلت شعرها وصعدت لتنام مع صورها السخيفة. ويوم الخميس قادتها هاز العديمة الإحساس إلى مخيّم كيلت.

وكما كتب مؤلّفون أشهر منّي: «ليتخيّل القارئ إلخ. .» والأفضل إنعاش هذه المخيّلة قليلاً، كما يبدو لي. لقد كنت على يقين من أنّي سأظلّ إلى الأبد مفتونًا بلوليتا. وكنت على يقين كذلك من أنّها لن تبقى إلى الأبد كما هي. ستبلغ الثالثة عشرة في أوّل كانون الثاني. وبعد عامين ستكفّ عن أن تكون جنّيّة لتتحوّل إلى «فتاة» ثم ـ ويا لفظاعة الفظائع! ـ إلى «طالبة» وأنّ عبارة «إلى الأبد» تصف فقط عاطفتي نحوها، نحو اللوليتا الخالدة التي كانت تنعكس في دمي. اللوليتا التي لم يتفتّح بعد

عُرفها الحرقفي، اللوليتا التي أستطيع اليوم أن ألمسها وأنشقها وأسمعها وأراها، لوليتا ذات الصوت الحادّ والشعر الأسمر الحارّ الغني ـ موجات وفروق من الجانبين، وخصل على الرقبة ـ اللوليتا ذات العنق المحرق الحامز، والحديث العامّي المبتذل ـ هكذا كانت هذه اللوليتا، «حبيبتي» لوليتا التي سيفقدها «كاتول» المسكين إلى الأبد. فأنّى لي أن أقرّ عدم رؤيتها طوال الصيف، طوال شهرين كاملين من الأرق؟ شهران كاملان من مجموع السنتين القصيرتين اللتين يبقى لها أن تعيشهما في الحالة «الجنّيّة»! فما العمل! هل أتنكّر في زيّ فتاة سوداء، تدعى الآنسة همبرت، لأنصب خيمتي عند تخوم مخيّم «كيلت» على أمل أن تُجمع تلك الجنّيّات الحمراوات على المطالبة «بتبنّي هذه المسكينة اللّاجئة ذات الصوت الأبحّ» ثم يصحبنها، وهي كئيبة بعض الكآبة وباسمة بتواضع، ـ «بيرت» ذات القدم الكبيرة ـ إلى مخيّمهنّ الريفيّ. وستنام «بيرت» مع دولوريس هاز!

أحلام مريرة جوفاء! شهران من الجمال، شهران من الحنان ضائعان إلى الأبد، وليس في وسعي أن أعمل شيئًا على الإطلاق.

ومع ذلك، فإنّ ذلك الخميس كان يحتفظ بقطرة رحيق لذيذ. كان عليهما أن يسيرا باكرًا في الصباح. وحين سمعت سلسلة الضجّات التي كانت تعلن رحيلهما، تدحرجتُ من سريري وذهبت أطلّ من النافذة. كانت السيّارة تحت الصفصاف قد بدأت الارتعاش. وكانت لويز، على الرصيف، تغطّي عينيها بيدها سابقة أثر المسافرة الصغيرة في الشمس التي تداعب الصباح. وكانت حركتها سابقة لأوانها وصاحت هاز «آن لك أن تسرعي!» وقبل أن تصفق حبيبتي لوليتا الباب، وكانت قد جلست نصف جلسة، أنزلت الزجاج، ووجّهت حركة وداع للويز وللصفصافات (فهي لن ترى الأولى ولا الثانية أبدًا)، وفجأة أوقفت سير القدر: لقد رفعت عينيها ـ

وهرعت إلى البيت، تلاحقها صرخات أمّها الغاضبة. وبعد لحظة، سمعت صوت قدمَي معبودتي ترقيان الدرج مسرعة. وتمدّد قلبي بعنف شديد حتى أوشكت أن أختنق. ورفعت بسرعة سروال منامتي وفتحتُ الباب دفعة واحدة، وكانت لوليتا قد وصلت في اللحظة نفسها وهي تضرب الأرض بقدمها، نابضة خافقة في ثوب الأحد، وفجأة كانت بين ذراعيّ وذاب فمها البريء تحت ضغط فكّيَّ الوحشيين ـ أوه يا حبيبتي المرتعشة! ـ وبعد لحظة سمعتها ـ وهي لا تزال سليمة صحيحة عذراء ـ تنحدر على الدرج بصخب. واستعاد القدر مجراه. واختفت ساقٌ شقراء ابتلعتها السيّارة، واصطفق الباب، اصطفق من جديد، وبفتلة مقود انتزعت هاز السائقة، وقد التوت شفتاها الحمراوان المطّاطتان بموجة من الكلمات الغاضبة المبهمة ـ انتزعت حبيبتي من نظري، وفي هذه الأثناء كانت «آنسة البيت المقابل»، المريضة العجوز، تحرّك يدها حركة ضعيفة ولكنّها موقّعة وهي واقفة على شرفتها المغطّاة باللبلاب، من غير أن يتصدّق عليها أحد بنظرة.

١٦

كانت راحتاي لا تزالان مملوءتين بعاج جسمها المكتنز. وكانت لا تزالان تستشعران انحناءة ظهرها المراهق، وعذوبة بشرتها المنزلقة كالعاج تحت الثوب الرقيق الذي احتويته وأنا أضمّها بين ذراعيّ. ودلفت إلى غرفتها المبعثرة الحوائج، وفتحت خزانتها بوحشيّة وقذفت نفسي في ركام الثياب التي سبق أن لامستها. وكان بينها ثوب ورديّ رقيق مبهرج، ممزّق لا تزال خياطته تبعث عطرًا حامزًا بعض الشيء. فغمر همبرت فيه قلبه المتلاشي الفائض. وكانت هزّة يأس توشك أن تحملني عندما تناهى إليّ صوت الخادمة المخمليّ يناديني من السلّم. فألقيت عنّي الثياب المدعوكة

واستعدت رباطتي بسرعة. وقالت إنّ معها رسالة لي، وأودعت لويز الطيّبة يدي المرتجفة رسالة ليس عليها طابع، وعجيبة الخطّ، ثم غطّت شكري الآليّ لها بكلمة ـ عفوًا ـ اللطيفة.

«هذا اعتراف: أحبّك ـ هكذا بدأت الرسالة، وخلال لحظة قصيرة من العمى، حسبتني أعرف خطّ تلميذة في هذه الخربشة الهيستيريّة ـ ويوم الأحد الماضي، في الكنيسة ـ أيُّها الفتى القبيح الذي لم يَرِدْ أن يأتي ليتأمّل بإعجاب زجاجيّاتنا الجديدة ـ أجل يوم الأحد الماضي فقط سألت المولى ما الذي ينبغي لي أن أفعله، فقال لي أن أتصرّف كما أفعل الآن. اِسمع، ليس عندي الخيار. لقد أحببتك منذ الدقيقة الأولى. وأنا امرأة مهووسة وحيدة، وأنت حبيب عمري.

«والآن، يا حبيبي، يا عزيزي، يا سيّدي العزيز، الآن وقد قرأت هذا، فإنّك تعرف كلّ شيء. ولهذا أبتهل إليك أن تحزم أمتعتك وترحل على الفور. أنا صاحبة البيت تأمرك بذلك، إنّني ألغي اتّفاق الإيجار وأدفعك إلى الباب. اِذهب. حلّ عنّي! سأعود في ساعة».

«إنّ الموقف يا عزيزي في منتهى البساطة. فأنا أعلم جيّدًا، بل أنا على يقين مطلق أنّي لست بالنسبة إليك شيئًا، لست شيئًا على الإطلاق. صحيح أنّك تجد بعض المتعة في أن تحدّثني (وفي أن تسخر منّي بلطف) وأنّك تعلّقت ببيتنا الصميميّ وبالكتب التي أحبّها وبحديقتي الجميلة، وحتى بتصرّفات «لو» الصاخبة ـ ولكنّي لست شيئًا بالنسبة إليك. أليس هذا صحيحًا؟ هو صحيح بكلّ تأكيد: لست شيئًا على الإطلاق! ولكن إذا كنت ستقرّر بعد قراءة هذا الاعتراف برومنتيكيّتك الأوروبيّة السوداء أنّي أملك من الفتنة ما يكفي لأن تسمح لك هذه الرسالة بأن تقدّم عروضًا مغرية، فستكون مجرمًا وستكون أقبح من شقيّ ينتهك الطفلة التي اختطفها اِسمع يا عزيزي! إذا قرّرت أن تبقى (ولكنّك لن تبقى ولهذا أستطيع أن أقول كذلك)

فإنّ حضورك لا يمكن أن يعني إلّا شيئًا واحدًا: إنّك ترغب فيّ مثل رغبتي المهووسة فيك، وإنّك تريدني رفيقة إلى الأبد، وإنّك مستعدّ أن تربط حياتك بحياتي إلى نهاية الأزمان وأن تصبح أبًا لابنتي الصغيرة.

«دعني أُهذي وأُثرثر لحظة أخرى قصيرة ـ يا حبيبي ـ الواقع أنّي أعرف تمامًا أنّك قد مزّقت هذه الرسالة ونثرتها ألف قصاصة (وهنا بضع كلمات غير مقروءة) في دوّامة ماء المرحاض. يا حبيبي يا حبيبي جدًّا جدًّا، إنّك لن تعرف أبدًا أيّ عالم من الحبّ بنيته حولك في شهر حزيران هذا العجيب! إنّني أعرف تحفظك البريطاني وحذرك، حذر إنسان العالم القديم، وحسّ اللياقة عندك، ولا بدّ لهذه كلّها من أن تخدش بجسارتي هذه الأميركيّة! ولست في نظرك، أنت الذي تعرف أن تخفي أعنف عواطفك، إلّا قرعة زجاجيّة لا حشمة فيها، وهي من السخف بحيث تفتح لك قلبها المسكين الضجر! لقد عرفت خلال السنوات الماضية كثيرًا من الخيبات. لقد كان السيّد هاز إنسانًا يثير الإعجاب، روحًا من أرواح النخبة، ولكنّه كان أكبر منّي بعشرين عامًا و.   كفى! لا نعد إلى الماضي، إنّ فضولك يا حبيبي لا بدّ أن يكون قد رضي إلى أبعد حدّ ـ هذا إذا أهملت صلاتي وقرأت هذه الرسالة حتى النهاية. مهما يكن، مزّقها وارحل. ولا تنس أن تترك المفتاح على مكتب غرفتك، وعنوانك، لأستطيع أن أردّ لك الإثني عشر دولارًا التي تغطّي أجرتك حتى آخر الشهر. وداعًا يا حبيبي. صلِّ من أجلي ـ إذا كان يحدث لك أن تصلّي».
س. هاز.

إنّني لا أعرض هنا إلّا ما بقي في ذاكرتي، ولكن كلّ ما ذكرته من هذه الرسالة هو حرفي، وقد كانت أطول من ذلك مرّتين على الأقلّ، وقد أسقطت منها مقطعًا غنائيًّا جدًّا مررت به مرورًا سريعًا وأنا أقرأ الرسالة بصدد أخ للوليتا مات وهو في سن العامين (وكانت هي في الرابعة)، وإنّي

كنت سأحبّه كثيرًا. ولنتذكّر هل هناك شيء آخر يستحقّ التنويه؟ أجل: قد تكون هذه «الدوّامة من ماء المرحاض» (حيث اختفت الرسالة بالفعل) معزوَّة إلى ذهني المبتذل. فالأرجح أنّها كانت ترجوني أن أشعل حطبة خاصّة لأحرق بنارها الرسالة.

كان ردّ فعلي الأوّل ضيقًا واشمئزازًا وكان ردّ فعلي الثاني أهدأ من ذلك ـ فكأنّ صديقًا كان يضع يده المسكّنة فوق كتفي ويرجوني أن آخذ بعض الوقت للتفكير. وقد أخذت هذا الوقت. وحين خرجت من ذعري، لاحظت أنّني كنت لا أزال في غرفة «لو». وكان هناك إعلان على صفحة منتزعة من مجلّة فخمة ذات ورق لمّاع، كانت معلّقة فوق حائط السرير بين صورة مغنّ عاطفيّ وممثّلة للسينما. وكان ذلك الإعلان يمثّل عريسًا شابًّا ذا شعر أسود ونظر مرهق في عينين زرقاوين لسليل من إيرلندا القديمة. وكان يختال في روب دي شمبر رائع (من صنع الدار الفلانيّة) وكان يحمل قصعة بشكل قناة (من تصميم المؤسّسة الفلانيّة) كان عليها فطور صباحي لشخصين. وكانت العبارة التي تحت الصورة، وهي للأب المحترم توماس موريل، تصفه تحت عنوان «البطل المنتصر». ولا شكّ في أنّ السيّدة الممتلكة بمثل ذلك الفخر، وهي لا تظهر في الصورة، كانت تتقنطر على أذنيها لتتلقّى فطورها من القصعة. ولم يكن مفهومًا كيف يستطيع شريك سريرها أن ينزلق تحت القناة من غير أن يقلب شيئًا ما وكانت «لو» قد رسمت بقلم هازل سهمًا متّجهًا إلى وجه البطل وأضافت إليه بحروف كبيرة: «هـ. هـ.» والواقع أنّ الشبه واضح جدًّا لولا فرق بعض السنوات. وكان هناك إعلان آخر ملوّن معلّقًا تحته، وهو يمثّل مؤلّفًا مسرحيًّا معروفًا يدخّن سيكارة «دروم». ولم يكن يُدخّن إلّا سيكارة دروم. وكان الشبه هنا أدعى للشكّ. وكان سرير لوليتا، تحت هاتين اللوحتين، ملآنَ بالجرائد المصوّرة. وكان بياض قوائم السرير ممحوًّا في بعض الأمكنة تاركًا

علامات سوداء مستديرة تقريبًا فوق الطلاء الأبيض. وإذ تأكّدت أنّ لويز قد ذهبت، اندسستُ في فراش «لو» ورحت أقرأ الرسالة مرّة ثانية.

١٧

سادتي القضاة! سأتجنّب التأكيد أنّ بعض الرغبات المتّصلة بهذه القضيّة المطروحة لم تُعرض لذهني قطّ قبل الآن ويقينًا لم أتفحصّها من قبل تفحّصًا عقلانيًّا أو بالنسبة لمناسبات سابقة، ولكنّي أكرّر أنّني لم أُداعبها (إذا أردت أن آتي بصورة أسلوبيّة أخرى) في ظلّ أفكاري، وفي ظلمات عاطفتي. وربّما يكون قد حدث لي في الماضي (أن ربّما هذه زائدة، إذا كنت أعرف حقًّا صاحبي همبرت) إن واجهت بتجرّد متبصّر إمكانيّة التزوّج بأرملة لم تعد فتيّة جدًّا (شارلوت هاز مثلاً) ولم يعد لها أيّ قريب في هذا العالم الواسع الحزين، لغاية واحدة، هي أن أُلاعب ابنتها (لو، لولا، لوليتا)، بل أنا مستعدّ أن أعترف لجلّادي أنّي ربّما كنت قد أرسلت مرّة أو مرّتين نظرة وسيط باردة إلى شارلوت، إلى شفتيها المرجانيّتين وشعرها البرونزيّ وثوبها المعرّى تعريةً عميقةً خطرة، وأنا أُحاول بغموض أن أسجّلها في صورة مناسبة. إنّني أعترف بهذا تحت التعذيب، تعذيب خياليّ، وأنا أُسلّم بذلك، ولكنّه أشدّ فظاعة لهذا السبب بالذات. وأودّ هنا أن أفتح هلالين لأروي لكم بالتفصيل قصّة الأشباح التي كانت تعمر بصورة مرعبة ليالي مراهقتي حين كنت أتذكّر عبارات أقرأها في مطالعاتي بالمصادفة من مثل «مشقّة قويّة وقاسية» (أيّ عبقريّة من عبقريّات العذاب اخترعت ذلك!) أو كلمة «جرح» المخيفة الماكرة، أو «صدمة جراحيّة». يكفي ما في حياتي من الاضطراب حتى الآن.

بعد فترة قليلة، أتلفت الرسالة وعدت إلى غرفتي وأنا أجترّ أفكاري

وأُخلّل أصابعي في شعري، وأختال في روب دي شامبري الليلكي، وأئنّ بين أسناني الكازّة ـ وفجأة ـ فجأة يا سادتي القضاة، أحسست بسمة دستويفكسيّة، تطلّ كأنّها شمس مربّعة بعيدة من تحت التشنّج الذي كان يلوي شفتَيّ. وتخيّلت، في وضع جديد شديد الوضوح، جميع المداعبات العَرَضيّة التي يمكن لزوج أمٍّ أن يحيط بها الابنة. سأستطيع ثلاث مرّات في اليوم، في كلّ يوم، أن أشدّها إلى صدري. وسوف تزول آلامي، وأستعيد صحّتي. «أجلسكِ بهدوء على ركبةٍ لطيفة، وأطبع على جبينك قبلة أبويّة. . ». إنّ لدى صاحبنا همبرت رسائل!

وأخيرًا، تصوّرت شارلوت في دور الزوجة، تصوّرًا يمتاز بكلّ الاحتراس المطلوب، وعلى رؤوس أقدام الخيال، إذا صحّ التعبير. سأعرف أن أجبر نفسي على أن أحمل لها تلك الليمونة الهنديّة المقسومة قسمين، ذلك الفطور الذي لا سكَّر فيه.

إنّ المتّهم همبرت همبرت الذي يرشح الآن بالعرق تحت الضوء القاسي الحادّ، والذي يشتمه رجال الشرطة ويرفسونه، سيتابع الآن «شهادته» (أيّة كلمة!) وهو يطوي ضميره ـ كما يطوي الردنجوت ـ ليكشف عن طيّاته الأكثر صميميّة. لم أكن أقصد قطّ أن أتزوّج شارلوت المسكينة لأحذفها فيما بعد بطريقة مبتذلة ومنفّرة وخطرة، بأن ألقي مثلاً خمسة أقراص من كلورير الزئبق الملوّن في شرابها، أو بطريقة أخرى مماثلة، ولكنّي أعترف بأنّ فكرة صيدليّة مسبقة متوازية توازيًا دقيقًا طنّت بوضوح في ذهني المدخن المصدّي. فلماذا أقتصر على الملامسات الخجولة المقنّعة التي جرّبتها من قبل؟ لقد كانت صور اقتناص أخرى تتمثّل لي في تمايلات خرقاء وابتسامات ساحرة. فقد تصوّرت نفسي وأنا أُعطي الأمّ والبنت مخدّرًا قويًّا لأستطيع أن أُداعب الفتاة وأُعالجها حتى الفجر، فلا يصيبني من ذلك أدنى عقاب، فبينما يكون البيت مهتزًّا من شخير شارلوت، تكون

لوليتا، وهي لا تكاد تتنفّس في نومها، أهدأ من دمية مدهونة. «أقسم لكِ يا أمُي أنّ «كيني» لم يحاول حتى لمسي. ـ إنّكِ تكذبين يا دولوريس. أو هو إذن عفريت». ولكن لا، لن أبلغ هذا المبلغ.

هكذا كان يحلم همبرت المكعّب، وكان كوكب الرغبة والتصميم (هذين القطبين الحيويين للعالم الذي نعيش فيه) يرتفع إلى سمته، بينما كان ألف داعرٍ مستعجل على ألف شرفة يرفعون كؤوسهم المحتدمة إلى شهوات الليل الماضية والآتية. ثم حطّمت كأسي (بالتصوّر) وفكّرت بجرأة ـ لأنّ هذه الرؤى كانت تسكرني إلى حدّ أن كنت أنتهي بالتقليل من شأن وداعتي ـ فكّرت في خطّة شانتاج لأجبر الكبيرة هاز على أن تتركني أتزوّج مرّة أخرى الصغيرة هاز، مهدّدًا الحمامة العجوز العاشقة بالهجر إذا عاكست ألعابي مع ابنة زوجتي الشرعيّة. وبكلمة واحدة، إزاء هذا «العرض العظيم» وإزاء هذه الآفاق الواسعة المتنوّعة، كنت بلا سلاح، تمامًا كأبينا آدم إذ رأى كلّ تاريخ الشرق الأوسط القديم يظهر مقدّمًا فوق حديقة تفّاحاته، كأنّما هو في سراب.

وتفضّلوا الآن بتسجيل هذه الملاحظة الرئيسيّة: إنّ الفنّان فيّ قد تغلّب على الجنتلمان. لقد بذلت جهدًا إراديًّا عظيمًا لأوفّق أسلوب هذا البحث مع أسلوب المفكّرة التي كنت أكتبها إذا لم تكن السيّدة هاز في عينيّ إلّا شخصًا حزينًا يُعكّر أفراح الناس. وقد انتهت تلك المفكّرة، ولكن واجبي كفنّان يقضي عليّ بأن أُحافظ على اللهجة نفسها، مهما بلغ من نشازها وقسوتها كما يبدو لي اليوم. وأحمد الله على أنّ حكايتي قد بلغت الآن حدًّا أستطيع معه أن أكفّ عن شتم شارلوت المسكينة.

وبدافع من الرغبة في أن أوفّر على الشقيّة ساعتين أو ثلاثًا من الضيق والقلق على طريق ملآى بالمنعطفات (وقد يحدث اصطدام يُلغي جميع أحلامي وأحلامها) قمت بمحاولة لطيفة جدًّا، ولكنّها غير مثمرة، للاتّصال

بها تلفونيًّا في المخيّم. ولكنّها كانت قد غادرته قبل نصف ساعة، وقد أعطوني «لو» بدلاً منها، فقلت لها دفعة واحدة، وأنا أرتجف وأغلي فخرًا لفكرة أنّي قهرت القدر، قلت لها إنّي سأتزوّج أمّها، واضطررت إلى ترديد كلامي مرّتين، لأنّ شيئًا ما كان يمنعها من أن تسمعني بالتنبّه المطلوب. وقالت بصوت ضاحك «حقًّا. إنّ هذا ظريف. فمتى العرس؟ انتظر لحظة، الكلب ـ إنّ هناك كلبًا صغيرًا يعضّ رجلي. اسمع. .» وأضافت بأنّ المخيّم كان يبدو «ممتعًا جدًّا» ـ وأعدتُ سمّاعة التلفون، وأنا أفكّر بأنّ ساعتين تقريبًا كانتا كافيتين لكي تكسف انشغالاتٌ جديدة صورة همبرت همبرت الفاتن في ذهن لوليتا الصغيرة. ولكن لم يكن لذلك أيّة أهمّيّة. فحين أتزوّج سأُعيدها إلى الحظيرة بمجرّد أن يصبح ذلك في الإمكان بصورة محتشمة ـ حتى قبل أن «يذبل إكليل أوراق البرتقال فوق القبر» كما يمكن لشاعر أن يقول! ولكنّي لست شاعرًا، لست إلّا راوي مذكّرات صادقًا. بعد ذهاب لويز نظرت في محتوى الثلّاجة، وبعد أن حكمت بأنّه شديد التقشّف خرجت على القدمين إلى وسط المدينة لأشتري أندر المؤن. واشتريت كذلك خمرًا جيّدة ونوعين أو ثلاثة من الڤيتامينات. وكنت أرجو، بمساعدة هذه المنعشات ومواردي الطبيعيّة، أن استدرك الموقف المربك الذي قد تضعني فيه لامبالاتي حين تأتي فترة إظهار نشاط يتمتّع بالقوّة ونفاد الصبر. وقد استعرض همبرت اللبق شارلوت عشر مرّات أو عشرين مرّة تحت أضواء دكّان الخيال الرجولي. ولم تكن تفتقر إلى الجاذبيّة ولا إلى بعض الأناقة، ولا بدّ لي من أن أعترف بذلك. ثم ألم تكن الأخت الكبرى للوليتا؟ إنّ هذه فكرة ربّما كنت أستطيع استغلالها والإفادة منها شريطة ألّا أتصوّر بمزيد من الواقعيّة خاصرتيها الثقيلتين وركبتيها المستديرتين وصدرها الناضج وجلدة حلقها الورديّة الضخمة (الضخمة مقارنةً بالعسل والحرير) وجميع العناصر الأخرى التي تؤلّف ذلك الشيء الباهت المثير للشفقة:

امرأة جميلة. وأتمّت الشمس دورة حلبتها اليوميّة حول البيت وغرق الأصيل في الشفق. وشربت قدحًا. ثم قدحًا آخر، وقدحًا ثالثًا من «الجنّ» وعصير الأناناس وهو مزيجي المفضّل الذي يضاعف دائمًا طاقتي. وخطر لي أن أشتغل بالحديقة المهملة. اهتمام صغير. وكان العشب متضرّرًا بالهندباء، وكان كلب كريه ـ إنّني أكره الكلاب ـ قد لطّخ البلاطات الملساء التي كانت تزيّنها من قبل ساعة شمسيّة. وكان الصيف قد بدّل شموس الهندباء الصغيرة إلى كرات قمريّة صغيرة. وكان «الجنّ ولوليتا» يرقصان فيّ. وقد أوشكت أن أتدحرج فوق الكراسي القابلة للطيّ التي كنت أتفنّن في نقلها من هنا إلى هناك. خطوط قرمزيّة! وأنّ هناك تجشّؤات تصدّي كالهتافات ـ تجشّؤاتي على الأقلّ. وفي أقصى الحديقة كان سياج خبيث يفصلنا عن قمامات الجار وزنابقه. ولكن لم يكن هناك شيء بين أسفل حديقتنا (التي كانت تنحدر من جهة واحدة من المنزل) والشارع، وكان باستطاعتي أن أترقّب عودة شارلوت بمثل الابتسامة البلهاء قليلاً التي يبتسمها فتًى يتهيّأ للإتيان بعمل طيّب: كان يجب قلع ذلك الضرس بدون تأخير. وكنت أتمايل وأتدحرج وألتصق بآلة الجزّ، ترافقني زقزقة قصاصات العشب الذي كان يتطاير في الشمس الغاربة، مترصّدًا امتداد ذلك الشارع في الضاحية، وكان ينبثق من تحت قنطرة من شجر الدردار الكبير وينعطف في انحدار شديد باتّجاهنا محاذيًا حديقة «آنسة البيت المقابل» وهي حديقة متعرّجة معتنًى بها أفضل من حديقتنا، منضدة حتى البيت الصغير قبل أن يختفي خلف مدخلنا المسقوف (الذي لم أكن أستطيع رؤيته من المكان الذي كنت أُجادل فيه نفسي وأنا أطوف بغبطة). وهلكت الهندباء، وكان عبير النسغ يمتزج بعفونة الأناناس. ومرّت من بعيد «ماريون» و«مابيل»، وهما فتاتان صغيرتان كنت أترصّد آليًّا روحاتهما وغدواتهما منذ فترة من الزمن ـ فمن التي كانت من الممكن أن تحلّ محلّ حبيبتي لوليتا؟ ـ

متّجهتَين نحو الجادّة التي كان يتفرّع منها ممرّ الأعشاب، وكانت إحداهما تدفع درّاجة والأخرى تنقر شيئًا في كيس من الورق، وكلتاهما تثرثران بأعلى صوتَيْهما المشرقين. وابتسم لي «لسلي» السائق الجنيناتيّ لـ «آنسة البيت المقابل» وهو زنجيّ عتليت ودود، فصاح مؤكّدًا أنّني أبدو له اليوم في منتهى النشاط. أمّا كلب بائع الحديد الغنيّ (الذي كانت مقصورته تبعد قليلاً عن الشارع) فقد اندفع ـ أعني الكلب السخيف ـ في ملاحقة سيّارة زرقاء ـ كلّا ليست هي سيّارة شارلوت. وهبطت إحدى الفتاتين الصغيرتين الجميلتين وأحسبها «مابيل» (وهي ترتدي سروالاً قصيرًا وحاملة نهود لم يكن لها أن تحمل شيئًا كثيرًا، وشعر مشرق ـ إنّها لعمري جنّيّة!) هبطت الشارع تعدو وهي تدعك كيس الورق. وما لبثت واجهة منزل السيّد والسيّدة همبرت أن خطفتها من أنظاري، أنظار الخنزير الزمرديّ وانبعثت شاحنة صغيرة من عتمة الجادّة، ساحبة على سقفها قطعًا من الظلّ تمزّقت فجأة ـ وما لبثت، وقد طاردها كلب تاجر الحديد، أن ألمّت بي بسرعة جنونيّة، وكان سائقها ممسكًا السقف بيده اليسرى. ومرّت فترة باسمة، وفجأة شاهدتُ عودة السيّارةِ الزرقاء، وأنا متشنّج القلب. وقد دلفتْ إلى الشارع واختفت في زاوية البيت. ورأيت عبر الزجاج وجه شارلوت الهادئ الباهت. وأيقنت أنّها لن تعرف إذا كنت قد رحلت أم لا قبل أن تصعد الطابق الأوّل. وبعد دقيقة، أطلّت من نافذة «لو»، وعلى وجهها طابع ضيّق فاجع، فرأتني في الحديقة. ورقيتُ السلّم، كلّ أربع درجات معًا، ونجحت في أن ألحق بها قبل أن تغادر غرفة لوليتا.

١٨

حين تكون الخطيبة أرملة، وحين يكون الخطيب أرملاً، وحين تسكن

المدينة الصغيرة منذ عامين تقريبًا، وهو منذ شهر تقريبًا، وحين يريد السيّد أن يتخلّص بأسرع مدّة من هذه الشكليّات السخيفة، وحين توافق السيّدة على ذلك ببسمة رحيمة، عند ذلك يقتصر العرس، يا قارئي، على حفلة «خفيّة» بصورة عامّة. إنّ العروس ليست بحاجة إلى تاج من زهر البرتقال ليمسك غُلالتها المقصّرة، ولا إلى سحلبيّة بيضاء لتزيين كتاب صلاتها. ولا شكّ في أنّ حضور ابنة العروس من شأنه أن يضفي علامة قرمزيّة على الاحتفال بالطقوس التي تجمع هـ. وهـ، ولكن لمّا لم يكن بإمكاني أن أُجازف، بهذه السرعة المبكرة، بأن أكون أرقّ ممّا ينبغي مع حبيبتي لوليتا التي سقطت في الشرك، فقد اعترفت بأن لا فائدة من انتزاع الغلامة من لذائذ مخيّم كيلت.

وإنّ «شارلوتتي» التي تزعم الوحدة والهوس، كانت في الحقيقة، في الحياة اليوميّة، ذات قابليّة عجيبة للائتلاف مع الناس وللعيش عيشة أرضيّة. وقد اكتشفت كذلك أنّ قرينتي، مهما بلغ من عجزها عن أن تكبت صيحاتها واندفاعات قلبها، كانت امرأة ذات مبادئ. فما إن أصبحت خليلتي (فإنّ «حبيبها» العصبيّ الملتهب ـ «الحبيب» البطوليّ ـ قد عاكسه ـ بالرّغم من المنعشات ـ ضعف أوّليّ نجح مع ذلك في التعويض عنه إلى حدّ بعيد بأن بسط بسطًا أسطوريًّا ألوانًا من اللطافات على الطريقة الأوروبيّة) ـ ما إن أصبحت شارلوت الطيّبة خليلتي حتى سألتني عن علاقاتي بالله. وكان بوسعي أن أُجيب بأنّني كنت أحذّر ـ في هذا الميدان ـ الآراء المسبقة، ولكنّي بدلاً من ذلك أخرجت تفاهة تقيّة، فأكّدت إيماني بروح كوني. فسألتني آنذاك، خافضة النظر إلى أظفارها، هل لدى أحد من أفراد أسرتي قطرة صغيرة من دم كافر. فتفاديت الضربة بأن سألتها، بدوري، هل كانت تقبل أن تتزوّجني إذا علمت أنّ جدّ جدّي لأمّي، مثلاً، كان تركيًّا. فأجابت بأنّ ذلك ليس على أيّ قدرٍ من الأهمّيّة، ولكن إذا علمت يومًا بأنّي لم أكن

أؤمن بإلٰهنا المسيحيّ جدًّا فإنّها ستنتحر. وقد نطقت بهذه الكلمات بتقديسٍ ارتعشتُ له حتى النخاع. وفي ذلك اليوم أدركت أنّها كانت امرأة ذات مبادئ.

أوه! وكانت لها مع ذلك تصرّفات مرموقة لذيذة: إنّها لم تكن تنسى أن تقول «عفوًا»، كلّما كان استطراد خفيف يقطع خيط خطابها، وكانت حين تتحدّث أمام صديقاتها عنّي، تدعوني دائمًا «السيّد» همبرت. ورأيت من الخير، إرضاء لها، أن أدخل المجتمع متوَّجًا بهالة ذات نفوذ. ويوم العرس نشرت الأخبار الاجتماعيّة في جريدة «الغازيت» مقالاً صغيرًا عنّي مع صورة لشارلوت وهي مقطّبة الجبين واسمها أعرج «هازر»، وبالرّغم من هذا الخطأ الصغير، فإنّ هذه الدعاية قد أدفأت قلبها البورسليني وهزّت بالقهقهة حياتي الجلجليّة. وقد عرفت شارلوت أن تصبح شخصيّة معتبرة، إن لم نقل ذات تأثير، بعد أن كرّست نفسها منذ عشرين شهرًا لأعمال الرعيّة وعاشرت أمّهات زميلات «لو» الأكثر تميّزًا، ولكنّها لم تحظَ قبل الآن بشرف الكتابة عنها في ذلك الباب الباهر من صحيفة رامسدال. فمن ذا الذي فتح لها تلك الأعمدة؟ أنا، إدغار هـ. همبرت (كنت قد أضفت «إدغار» هذه حبًّا بالفنّ)، «الأديب والرحّالة المكتشف». وقد سألني شقيق «ماك كو» حين سمحت له بتلك المقابلة عن الآثار التي ألّفتها فكان مجمل جوابي أنّها «عدّة مؤلّفات عن «بيكوك»، و«رامبو» وشعراء آخرين». وكان المقال يذكر أيضًا أنّني كنت أعرف شارلوت منذ بضعة أعوام وأنّي كنت نسيبًا بعيدًا لزوجها الأوّل. وتركت المراسل أن يفهم أن قد جرت لي معها مغامرة قبل ثلاث عشرة سنة، ولكن هذا التفصيل لم يُنشر. وشرحت لشارلوت أنّ الأعمدة التي هي من هذا النوع لا بدّ من أن تتضمّن بعض الأخطاء.

لنتابع هذه القصّة المتسلسلة. أتُرى النزيل القديم لم يعرف إلّا المرارة

والنفور حين دُعي إلى التمتّع بمنصبه بصفة عاشق؟ كلّا إنّ السيّد همبرت لا ينكر قطّ أنّه شعر بدغدغة صغيرة من الغرور، بحنان غامض، بل بطرف من الندم جرى على نحاس سكّينه الحادّ، سكّين المتآمر. إنّني لم أكن قد تنبّأت بأنّ السيّدة همبرت المضحكة الدمثة الأخلاق في وقت واحد، بإيمانها الأعمى بفضائل كنيستها وناديها الأدبيّ وبعباراتها المتحذلقة وبموقفها البارد الخشن تجاه فتاة صغيرة ذات ذراعين زغباوين، لم يكن يتوقّع أن تتحوّل السيّدة همبرت إلى مخلوقة على هذه الدرجة الكبيرة من قلّة الحذق بمجرّد أن أضع يدي عليها ـ وهذا ما فعلته على عتبة غرفة لوليتا، حيث تراجعت خطوة فخطوة وهي ترتجف بجميع أعضائها وتتمتم: «لا، لا، أرجوك لا». ولقد جمّلها التحوّل. فإنّ بسمتها، التي كانت حتى ذلك الحين مصطنعة ومقتصرة، كانت تُشيع الآن روعة رفيعة. وكان هذا الإشعاع يعبّر عمّا لست أدريه من اللذّة والرطوبة اللتين كنت أجد فيهما بإعجاب شديد شيئًا من ابنتها، شيئًا من تلك النظرة الرائعة الغارقة التي كانت تشعُّ في عينَيْ «لو» حين كانت تطمع بقطعة جديدة من المرطّبات أو كانت تتأمّل بصمت أناقة ثيابي الغالية. وكنت أفتن حين كنت أرى شارلوت تتبادل مع أمّ أخرى موجة من العتاب الأموميّ أو تظهر ذلك التعبير الوطني من الخضوع النسويّ (عيناها في السماء وفمها ملتوٍ) ذلك التعبير الذي كنت رأيته في شكله الطفولي على وجه حبيبتي لوليتا. وبفضل الويسكي الذي كنّا نتمصّصه قبل أن ننام، كنت لا أجد كبير مشقّة في استحضار صورة الابنة فيما أنا أداعب الأمّ. وكنت أقول في نفسي إنّ جنّيّتي كانت في عام ١٩٣٤ سمكة صغيرة محنيّة في جوف هذا البطن الزنبقيّ. وكان ذلك الشعر المصبوغ بدقّة، العقيم شمًّا ولمسًا، يكتسب أحيانًا، لفترة إشعاع، لون خصل «لو» إن لم أقل تركيبها. وكنت لا أنفكّ أُردّد، وأنا أُعالج هذه الزوجة بحجمها الطبيعيّ، أنّني كنت على قرب من لوليتا لم أكن أحلم

بأكثر منه، وأنّ «لوت» حين كانت في عمر لوليتا، كانت تلميذة لا تقلّ سحرًا عمّا هي عليه ابنتها وعمّا ستكون عليه يومًا ابنة لوليتا. وقد استجابت قرينتي يومًا لرجائي، فاستخرجت مجموعة من الصور يرجع عهدها إلى ثلاثين عامًا خلت، وكانت مندرجة تحت ركام من الأحذية (التي كان المرحوم السيّد هاز مغرمًا، على ما يبدو، بجمعها) فأمكنني أن أرى مَن الذي كانت تشبهه «لوت» وهي طفلة، فبالرّغم من الإنارة الرديئة ومن زينة بلا جمال، اكتشفت بغموض ـ في الهيكل والساقين والخدّين والأنف المشمّر ـ نسخة أولى من حبيبتي لوليتا ـ لوتيليتا ـ لوليتشن.

وهكذا أرسلتُ، وأنا مطلّ من فوق حواجز السنين، نظرة خاطفة عبر نوافذ شاحبة. وحين كانت شارلوت ذات الثديين النبيلين والفخذ المكتنزة تُعذّبني، بملامسات مجنونة تدعو إلى الشفقة، ملامسات شبقة بسذاجة، لتحقيق واجبي الليليّ، فإنّما كنت أبحث كذلك بكلّ يأس عن أثر جنّيّة، وأنا مدفوع في جريي المخبّ عبر تلال الغابات المظلمة المتعفّنة.

ولن أستطيع أن أصف لكم إلى أيّ حدّ كانت زوجتي مخلصة، وإلى أيّ حدّ كانت مؤثّرة. ففي أثناء فطور الصباح، عبر إشراق المطبخ المنخفض، كانت تظلّ جالسةً ملمومةً في ثوبها الطويل، مُريحةً مرفقها على الطاولة، وخدّها مُستند إلى كفِّها، وهي ترعاني بعينيها في حنانٍ لا يحتمل بينما أكون منشغلاً في التهام البيض مع اللحم. ومهما كان وجه همبرت متبرّمًا بالألم العصبي، فإنّه كان يكسف بالحيويّة والجاذبيّة دغدغة الشمس وظلّ الأغصان على بياض البرّاد. لقد كانت ترى في غيظي العظيم تعبيرًا عن صمت الحبّ. وكان رأسمالي المتواضع، مضافًا إلى عائداتها الأقلّ تواضعًا، يترك في نفسها أثر الثروة الكبيرة الضخمة، وليس مردّ ذلك أنّ حسابنا المشترك كان يكفي لتغطية حاجاتنا اليوميّة، حاجات الطبقة المتوسّطة، وإنّما مردّه أنّ مالي كان يرمز في نظرها إلى روعة رجولتي

السحريّة، وكانت تشبّه مواردنا، حين تلتقي، بتلك الشوارع الطويلة التي يغرق رصيفها، عند ساعة الظهيرة، في ظلال كثيفة.

في هذه الأيّام الخمسين من التعايش، ضغطت شارلوت نشاطات عددٍ مماثل من الأعوام. فقد كرّست الشقيّة نفسها، بحماسة، لألف شغل وشغل كانت قد تركتها منذ وقت طويل ولم تعدّ تهتمّ بها حتى الآن، كما لو أنّي (وأنا هنا أطيل هذه الأصداء البروستيّة) قد سمحت، وأنا أتزوّج أمّ الغلامة التي كنت أحبّها، بأن تستعيد امرأتي شبابها. وقد باشرتْ بحماسة زوجة فتيّة تافهة، أن «تمجّد البيت». ولمّا كنت قد آلفت كلّ زاوية من البيت ـ منذ بدأت أرفع خارطة تطوّرات «لو» من طابق إلى آخر ـ فقد اتّفق أن تعلّقت بها بالرّغم من (أو حتى بسبب) بشاعتها المتدرّنة، وكنت أتمثّل تقريبًا البيت الباشّ يتلوّى من الفظاعة أمام حمّام الوحل والقذارة والقمل، الذي كانت شارلوت تهيّؤه له. ولكنّها لم تستطع، والشكر لله، أن تمضي إلى ذلك الحدّ، غير أنّها أفسدت ثروات من الطاقة وهي تغسل الستائر وتلمّع الشعريّات ثم تشتري ستائر جديدة وشعريّات جديدة وتردّها إلى الحانوت لتشتري بدلاً منها، وهكذا دواليك في حالة مستمرّة من ابتسامات الشفتين وتقطيبات الحاجبين والتكشيرات والشكوك. وكانت تتخبّط في الأقمشة والأنسجة. وقد غيّرت نسيج الديوان ـ الديوان المقدّس الذي انفجرت فيه ذات يوم كرة صغيرة من الجنّة على صدري. وقلّبت حركة الأثاث واكتشفت بإعجاب شديد في كتاب معدّ لربّات المنازل العصريّات، أنّه «لم يعد من الضروري على الإطلاق في أيّامنا أن تُحيط بالأريكة طاولتان تؤامان تحملان مصباحين» وما لبثتُ أن كرهتُ الكراسي الصغيرة المنمنمة والطاولات ذات الأرجل الدقيقة التي تشبه أعواد تنظيف الأسنان، وكانت ترى أنّ الخلجان الواسعة والخشبيّات الكبيرة تُشكّل نموذج الديكور الرجالي، في حين أنّ النموذج النسوي كان يتميّز بنوافذ أدقّ من ذلك

وصفائح جدرانيّة رقيقة. وكانت الروايات التي تقرأها في عهد وصولي، قد أفسحت المجال لأنواع مختلفة من المجموعات المصوّرة ولفهارس مزيّني المنازل. وقد أوصت لدى شركة في جادّة روزفلت ٤٦٤٠ بفيلادلفيا على «سرير مزدوج ذي زنبركات نموذج ٣١٢» بالرّغم من أنّ السرير القديم كان يملك من الزنبركات والثبات ما فيه الكفاية.

وكان مسقط رأسها في «الميدل وست» كزوجها الأوّل، وكان لم يمضِ على إقامتها وقت طويل في «رامسدال» تلك الجوهرة الملقاة على شاطئ الأطلنطي، ولم تكن قد أَلِفت السكّان المجاورين كلّ الألفة. وكانت قد عقدت علاقات غامضة مع طبيب الأسنان البليد الذي كان يسكن قصرًا خشبيًّا مضعضعًا في الجانب الآخر من الحديقة. وكانت قد التقت في حفلة شاي رعائيّة زوجة تاجر الحديد (وهو مالك ذلك المبنى البشع ذي الأسلوب (الاستعماري) في زاوية الجادّة، وكانت بين وقت وآخر تزور «آنسة البيت المقابل». ولكنّ السيّدات الأستقراطيّات اللواتي كانت تزورهنّ أو تجاملهنّ أو تحدّثهن بالتلفون، أولئك السيّدات الرفيقات: «غلاف» و«شريدان» و«ماك كريستال» و«نايت» وأخريات، فقد كنّ قليلات الميل لردّ الزيارات لقريبتي المسكينة. والواقع أنّ الأشخاص الوحيدين الذين عقدت معهم علاقات ودّيّة حقًّا منزّهة من كلّ حساب ومن كلّ فكرة مسبقة، قد كانوا أفراد أسرة «فارلو» الذين عادوا حديثًا من رحلة تجاريّة إلى الشيلي، فحضروا عرسنا الذي دعونا إليه أيضًا عائلتَي «شاتفيلد» و«ماك كو» وسواهما. (ولكن لا «مدام دي لافري» ولا «السيّدة تالبوت» التي كانت أشدّ غرورًا). وكان جون فارلو أربعينيًّا وادعًا، عتليتًا بوداعة وميسورًا بوداعة. وكان يملك مخزنًا للبضائع الرياضيّة في «باركنتغون» على بعد ٦٠ كيلومترًا من رامسدال. وهو الذي باعني تلك الكرات وعلّمني استعمالها في أثناء نزهة عبر الغابات، وكان كذلك محاميًا «في أوقات الشرود» كما

كان يقول هو نفسه وهو يضحك. وكانت شارلوت قد كلّفته أشياء أخرى. وكانت جان زوجته (وابنة عمّه لحًا) أصغر منه قليلاً، طويلة الساقين والذراعين، وكانت تضع نظّارات تميل نحو الصدغين، وكان لها نهدان شامخان وفم كبير قرمزي. وكانت ترسم الوجوه والمناظر، وقد احتفظت بذكرى حيّة للتهاني التي قدّمتها لها يومًا على صورة لابنة أختها، روزالين هولك، وهي فتاة صغيرة رائعة كانت تلبس لباس الكشّافة، وكانت لها خصل شعر لذيذة تسترسل على كتفيها ـ وهنا صرّح جون وهو ينزع غليونه من فمه أنّه من دواعي الأسف أن لا تكون «دولّي» (حبيبتي دوليتا) وروزالين على وفاق، ولكنّه يأمل، وكنّا نأمل جميعًا، أن تتفاهما أفضل من قبل بعد عودتهما إلى المدرسة من مخيّمهما وتناقشنا في شأن المدرسة فرأينا أنّها لم تكن خالية من النقائص، ولكن كانت لها ميزاتها. وقال جون «هناك طبعًا كثير من الإيطاليّين بين تجّار المدينة ولكنّنا استطعنا أن نتفادى حتى الآن. . » فقاطعته جان بلهجة فكهة: «كم كنت أودّ لو أنّ دولّي وروزالين قضتا الصيف معًا». وفجأة. تصوّرتُ «لو» عائدة من مخيّمها ـ ملتهبة، مذهّبة خاملة، مخدّرة ـ فكدت أنبح من الهوس ونفاد الصبر.

١٩

بضع كلمات أخرى عن السيّدة همبرت، ما دامت الحديدة حامية، (فهناك حادث خطير سيقع بعد قليل) كنت قد لاحظت من اليوم الأوّل مزاجها المتملّك المتسلّط. ولكنّي لم أتوقّع أن أجدها شديدة الغيرة فيما يخصّ جميع فصول حياتي التي لم تدخل فيها. كان يبدو أنّ ماضيَّ يوحي لها فضولاً وحشيًّا غير قابل للارتواء، وكانت شديدة الحماسة لحملي على ابتعاث ذكريات حبي القديمة، لمجرّد رغبتها في أن أشتم هذه الذكريات

وأدوسها وأنكرها في جحود كامل نهائي، فأهدم بذلك كلّ ماضيَّ. وقد جعلتني أروي قصّة زواجي مع ڤاليري، ذلك الزواج الذي لم يكن طبعًا إلّا حماقة هزليّة من الطراز الأوّل، ولكنّ ذلك لم يكن كلّ شيء. فقد وجب عليَّ أن أخترع أيضًا، في إطار التزيينات الكريهة، سلسلة طويلة من الخليلات لكيّ أعرضها لتلذّذها الشهوانيّ المريض. وكان عليّ، لإرضائها، أن أقدّم مجموعة مصوّرة لأولئك العاشقات المتميّزات فيما بينهنَّ كلّ التميّز وفق القواعد المتّبعة في تلك الإعلانات الأميركيّة التي يُرى فيها فريق من التلاميذ المختلطين في مقدار دقيق من الجنسيّات، والذين يُرى واحد منهم ـ واحد فقط ليس هناك من هو ألطف منه. وهو زنجي صغير ذو عينين مستديرتين ـ جالسًا في وسط الصفّ الأوّل. وهكذا استعرضت نسائي والبسمة على شفاههنّ والردف رجراج ـ الشقراء الناعسة، والسمراء الملتهبة، والحمراء الشبقة ـ كأنّهنَّ قافلة في بيت مغلق. وكلّما كنت أظهرهنَّ تافهات، كانت السيّدة همبرت تزداد تصفيقًا للمشهد.

ولم يسبق في حياتي كلّها أن أَفَضْتُ في اعترافاتي كلّها إلى هذا الحدّ، ولا أن سمعت مثل هذا الفيض من الاعترافات. وقد كان الصدق والطهارة اللذان كانت تصف بهما ما كانت تسمّيه «تجربتها الغراميّة» منذ مغازلتها حتى المضاجعة الزوجيّة، يتناقضان تناقضًا غريبًا على صعيد الأخلاقيّة المجرّدة، مع قريحة اختراعاتي الروائيّة، ولكن هذين الشكلين من الأسلوب كانا، من الزاوية التكنيكيّة، مشتركي المصدر (روايات شعبيّة، تحليل شعبي طبّي) حيث كنت أستمدّ بطلاتي وحيث كانت تستمدّ هي طريقتها في التعبير. وقد فرحت لتصوير بعض الحركات الجنسيّة التي يبدو أنّ هارولد هاز الطيّب قد مارسها حين كان على قيد الحياة. وهي في رأيي حركات بارعة جدًّا، ولكنّ شارلوت وصفت فرحي بأنّه قليل الحشمة. وباستثناء ذلك كانت سيرتها أتفه ممّا كان يمكن لتشريح جثّتها أن يكشف

عنه. وأنا لم أرَ في حياتي امرأة تتنفس مثل تلك الصحّة، بالرّغم من حمية التنحيل التي كانت تتّبعها

وكانت قلّما تتحدّث عن حبيبتي لوليتا، كانت تتحدّث أكثر بكثير عن الطفل الذكر الأشقر الذي كانت صورته وحدها تزيّن غرفتنا المسكينة. وقد تنبّأتْ، في إحدى شطحات خيالها الماجن، بأنّ روح الطفل الميّت ستعود إلى الأرض لتتلبّس جسم الطفل الذي ستحبل به منّي. وبالرّغم من أنّي لم أرَ أيّة ضرورة أو عجلة في أن أضيف إلى سلالة أسرة همبرت نسخة طبق الأصل من مخلّفات هارولد (أمّا لوليتا فكنت قد انتهيت إلى أن أعتبرها في رعشة نشوة زانية، ابنتي الشخصيّة) فقد خطر في بالي أنّ مخاضًا طويلاً وعسيرًا، في مستشفًى للراحة، بالإضافة إلى عمليّة قيصريّة تساعدها بعض المضاعفات والتعقيدات، ستمنحني في الربيع القادم إمكانيّة البقاء وحيدًا مع لوليتا ـ ربّما لبضعة أسابيع ـ وأن أجرّع الجنّيّة الساكنة التي لا تملك الدفاع عن نفسها، كمّيّة كبيرة من المخدّرات.

أوه! ما أشدّ ما كانت تكره ابنتها! وكان أكره ما فيها استعجالها المتعصّب للإجابة عن أسئلة كتاب سخيف كانت قد اشترته «الدليل الصغير لنموّ طفلك» وهو منشور في شيكاغو على ما أظنّ. وكانت الأجوبة تتكرّر من عام إلى عام، وكان مفترضًا أن تسجّل الماما لائحة كلّ سنة. وحين بلغت «لو» الثانية عشرة، في أوّل كانون الثاني عام ١٩٤٧، كانت شارلوت هاز (المولودة «بيكر») قد وضعت خطوطًا سميكة تحت الأوصاف التالية، وهي ستّة من مجموع أربعين، في باب «شخصيّة طفلك»: عدائيّة، حذرة، تعصى الأوامر (وهذه الكلمة الجميلة كان تحتها خطّان اثنان) عنيدة وصاخبة. وقد تجاهلت كلّ التجاهل الصفات الثلاثين الأخرى الباقية ولاسيّما: نشيطة، مرحة، قابلة للخدمة إلخ. كان جديرًا بهذا أن تكزّ له أسنانك بحنق. وكانت زوجتي المخلصة تهاجم وتبعد جميع كنوز «لو» التي

كانت متناثرة في زوايا البيت لتتسمّر هنا وهناك كأنّها أرانب مُنوَّمة، كانت تفعل ذلك بقسوة تخالف طبعها الوادع، إلّا إذا كان الأمر يتعلّق بـ «لو». ولم تشكّ المرأة المسكينة حين أقعدتني آلام في معدتي ـ وهي ناتجة من التجارب التي قمت بها لأحسّن بعض مَرق المآكل ـ لم تشكّ في أنّي خنتها مع جورب صغير للوليتا. ولست أنسى أيضًا موقفها من نكهة رسائل حبيبتي:

«عزيزي هامي، ومامي،

«أرجو أن يكون كلّ شيء على ما يرام. شكرًا كثيرًا للملبّس. لقد أضعت (شُطبت هذه الكلمة ثم أُعيدت كتابتها) تبّاني الجديد. الطقس الآن أبرد ممّا كان في الأيّام الماضية. المخيّم هو من أوّل. أقبّلكما

دولّي»

وقالت السيّدة همبرت موبّخة: التائهة الصغيرة! لقد نسيت كلمة بعد «أوّل». لقد كان ذلك التبّان من الصوف الخالص. ثم إنّي أحبّ أن تستشيرني قبل أن ترسل لها السكاكر».

٢٠

على بضعة كيلومترات من «رامسدال»، كانت تقوم بحيرة في غابة أخذنا نقصدها كلّ يوم، حين هبّت علينا موجة الحرارة في آخر أسبوع من تمّوز. وأجدني الآن مرغمًا على أن أصف، بكلّ التفاصيل الباهتة، آخر سباحة قامت بها السيّدة والسيّد همبرت، ذات صباح من ثلاثاء.

لقد تركنا السيّارة في باحة وقوف، وهبطنا إلى البحيرة عبر ممرّ مشقوق بين الصنوبر، وروت لي شارلوت ونحن نسير، أنّ «جان فارلو»

كانت تبحث يوم الأحد الماضي عن بعض انعكاسات شمسيّة خارقة (وكانت تنتمي إلى مدرسة التصوير القديمة) ففاجأت الخادم «لسلي» وهو يستحمّ (ربِّي كما خلقتني ـ وهذه العبارة هي من جون ـ في الساعة الخامسة صباحًا. فقلت معلّقًا:

ـ لا بدّ أنّ المياه كانت باردة برودة فظيعة!

فأجابت الزوجة العقلانيّة المسكينة: القصّة ليست هنا! اسمع! إنّ لسلي ليس طبيعيًّا مئة بالمئة. ثم (وأخذت تتخيّر كلماتها بذلك الاجتهاد الذي كان قد بدأ يتأكّل هيكلها العصبي) ثم إنِّي أشعر بأنّ خادمتنا لويز واقعة في حبّ هذا الأبله!».

مجرّد شعور. «نشعر أنّ دولِّي لا تبذل جهودًا للدرس». إلخ. (عبارة مأخوذة من سجلّ مدرسيّ قديم).

وتابع الزوجان همبرت طريقهما، وهما يلبسان ثياب الاستحمام وحذاءه.

وقالت الليدي «هام» وهي تخفض رأسها: «اسمع يا هام! إنّ عندي حلمًا طموحًا». ثم بدأ تأثّرها بروعة الحلم واتّصلت بالأرض المذهّبة وأضافت: «أودّ أن أجد لنا خادمة مهذبة حقًّا، كتلك الفتاة الألمانيّة التي كانت أسرة «تالبوت» تتحدّث عنها وهي ستقيم في البيت».

فقلت: «لا مكان عندنا».

فأجابت، وعلى شفتيها إحدى تلك الابتسامات الغامضة: «اسمع! أرى أنّك تنتقص قدر إمكانات قصر همبرت. إنّ باستطاعتنا أن نعطيها غرفة «لو»، وعلى أيّ حال، كنت أفكّر بتحويل ذلك الملجأ إلى غرفة للضيوف، إنّها أبرد غرف البيت وأردأها».

فسألتها وأنا أشعر بجلد خدِّي يتمدّد حتى ليكاد يتفسّخ (إنّني أورد هذا

الوصف لأنّ ابنتي كانت تعاني ردّ الفعل الجلديّ نفسه حين تكون في مثل هذا الانفعال: ارتياب، اشمئزاز، غيظ) فأجابت امرأتي وهي تشير إلى هجرها الأوّل: «أذكريات رومنتيكيّة هي التي تجعلك مضطربًا على هذا النحو؟».

فقلت: «أوه لا ولكنّي أتساءل أين تُسكنين ابنتك حين تستقبلين خادمتك أو أصدقاءك؟».

فقالت السيّدة همبرت، وهي مبتسمة حالمة (مطلقة كلمة «آه» في الوقت نفسه الذي كانت ترفع فيه حاجبها وترسل نفحة هواء): «أخشى ألّا تعود «لو»، ألّا تعود أبدًا. سوف تتّجه من مخيّمها توًّا إلى معهد داخلي حيث يخضعونها لنظام شديد ذي مبادئ دينيّة صلبة. وبعد ذلك ـ جامعة برادسلي. إنّ كلّ شيء مدبّر، فلا مجال لأن تتبرّم».

وأضافت أنّها (هي السيّدة همبرت) ستحاول جهدها للتغلّب على كسلها المألوف، وأنّها ستكتب لشقيقة الآنسة فالين التي كانت تعلّم في «سانت الجبر». وبدت لنا البحيرة باهرة. وتمتمت بأنّي نسيت نظّاراتي الشمسيّة في السيّارة وأنّي سألحق بها بعد لحظة.

كنت قد حسبت أنّ عبارة «تضوّر من الألم» عبارة تخيّليّة ـ لعلّها من مخلّفات طقوس القرون الوسطى، ولكنّي إذ كنت دالفًا إلى غابة الصنوبر، تحت وطأة اليأس ووطأة تأمّل يائس، أحسست بأنّ تلك العبارة هي الوحيدة التي تستطيع التعبير بلا كلام (انظر إلى هذه القيود يا إلٰهي!) عن إرهاق روحيّ.

ولو أنّ «شارلوت» كانت «فاليري» لعرفت كيف أقبض على الموقف، وأنا أختار بكلّ وعي فعل «أقبض على». لقد كان يكفيني في الماضي أن ألوي قبضة فالتشكا الرخصة (تلك القبضة التي كسرتها حين سقطت من

على الدرّاجة) لأحملها على تغيير رأيها فورًا. أمّا مع شارلوت، فإنّ حلًّا من هذا القبيل غير وارد. لقد كانت شارلوت العذبة، شارلوت الأميركيّة ترهبني. لقد أخطأت كلّ الخطأ حين تنبّأت، في خفّة محزنة، أنّي أستطيع أن أمسكها بالعاطفة التي كانت تكنّها لي. والواقع أنّي لم أكن أجرؤ على أن أفعل أيّ شيء من شأنه أن يُبهت الصورة التي كوّنتها عنّي. لقد كنت ركعت عند قدميها إذ كانت مربّية مخيفة لحبيبتي، وقد بقي شيء من «الزحف» في موقفي إزاءها. وقد كان كلّ امتيازي جهلُها الحبّ الشيطاني الذي كنت أكنّه لابنتها. ولقد جُرحتْ إذ رأت «لو» تهتمّ بي. ولكنّها لم تكن تستطيع أن تحدس بعواطفي الشخصيّة. كان بإمكاني أن أقول لڤاليري: «اسمعي يا بليدة العقل! إنّني أنا الذي أقرّر ما يحسن أن نعمله بدولوريس همبرت». أمّا أمام شارلوت، فلم أكن أستطيع حتى أن أحتجّ بعذوبة مُداهِنة: «فأقول: «اعذريني يا صديقتي العزيزة فإنّي لا أستطيع أن أشاركك في رأيك. لنمنح هذه الغلامة فرصة أخيرة. دعيني أكون مرشدها خلال عام أو عامين. لقد سبق أن قلتِ أنت نفسك ذات يوم. .» كلّا لم أكن أستطيع أن أقول لها شيئًا بصدد لوليتا من غير أن أخونها أوه! إنّك لا تستطيع أن تتصوّر ما عساهنّ يكن نساء المبادئ هؤلاء! (وهل استطعت أنا نفسي أن أتصوّر ذلك؟) إنّ شارلوت التي لم تكن تميّز كذب جميع القوانين والمواضعات في الحياة اليوميّة ولا زيف المآكل والكتب والأشخاص، تستطيع على الفور أن تكتشف نغمة ناشزة في كلّ محاولة منّي تهدف إلى الاحتفاظ بـ «لو» في البيت. لقد كانت مثل أولئك الموسيقيّين الذين ربّما كانوا فلّاحين أفظاظًا في الحياة الجارية، عديمي الذوق واللياقة. ولكنّهم يشعرون بأقلّ نغمة ناشزة في حفلة موسيقيّة ببراعة شيطانيّة لا تُقهر. وإذا كنت أريد أن أحطّم إرادة شارلوت، فلا بدّ من أن أحطّم لها قلبها وإذا حطّمت قلبها فستتحطّم أيضًا الصورة التي كوّنتها عنّي. وإذا قلت: «إمّا أن

أكون مطلق الحرِّيّة مع لوليتا وتساعديني على الاحتفاظ بالقضيّة سرًّا، وإمّا أن نفترق فورًا» فستصبح ممتقعة الوجه مثل دمية من الزجاج المدخّن، وستجيبني بصوتها البطيء: «حسنًا جدًّا، مهما خطر لك أن تضيف أو تنقص، فقد انتهى كلّ شيء». وبالفعل يكون كلّ شيء قد انتهى.

ذلك هو المغطس الذي كنت أتخبّط فيه. وإنِّي ما زلت أتمثّلني في ساحة السيّارات تلك، أضخّ في جوف يدي ماء ذا طعم صدئ ثم أشربه بنهم، كما لو أنّه كان يستطيع أن يمنحني تبصّرًا سحريًّا، وشبابًا وحرِّيّة ومحظيّة صغيرة. وقد ظللت وقتًا طويلاً جالسًا على حافّة طاولة سميكة الألواح، عليها غطاء عقيقيّ اللون، وقد تدلّت ساقاي تحت شجر الصنوبر الذي كان يئنّ. وقبالتي، خرجت عذراوان صغيرتان في تبّان ذي قطعتين من كوخ تطبعه الشمس وقد كُتب على بابه: «للسيّدات». وامتطت «مابيل» (أو صنوها) درّاجتها ببطء وهي تعلك، ثم قفزت «ماريون» خلفها، وهي تطرد عن شعرها الذباب، وما لبثتا بعد أن ارتجّتا قليلاً في الممرّ، أن غابتا ببطء وشرود في الظلّ والضوء، لوليتا! الأب والبنت يذوبان في أعماق هذه الغابات! لقد كان الحلّ الطبيعي هو حذف ماما همبرت. ولكن كيف؟

إنّ أيّ رجل لا يستطيع أن يحقّق الجريمة كاملة، والمصادفة وحدها تستطيع ذلك. خذوا مثلاً قضيّة مقتل السيّدة «لاكور» في «آرل» بجنوب فرنسا في نهاية القرن الماضي. فقد حاذاها، ذات مساء بعد زواجها من الكولونيل «لاكور»، وكانت في شارع زاخر بالناس، رجل مجهول ذو لحية وطوله ستّ أقدام (ولم يمكن التعرّف عليه فحدسوا فيما بعد بأنّه كان عشيق السيّدة) أغمد خنجرًا في ظهرها في ثلاث ضربات، بينما كان الكولونيل، وهو رجل قصير ذو جسم مربوع يتعلّق بكلّ أسنانه بذراعه. وحدث بمصادفة عجيبة، رائعة، إذ كان القاتل يحاول أن يفكّ فكَّيْ الزوج المغتاظ، وإذ كان المارّة يهرعون للإنقاذ، أنّ إيطاليًّا أرعن يمارس عدّة حِرَف ويسكن أقرب

بيت من مكان الحادث، ألقى بصورة عارضة حزمة من المتفجّرات كان يقلّبها بين يديه. وسرعان ما تحوّل الشارع إلى ساحة للدخان والقرميد الممطر من السماء والأشخاص الفارّين. ولم يُصب الانفجار أحدًا بجرح (إذا لم يكن قد أوقع الكولونيل لاكور أرضًا) ولكنّ العاشق المنتقم هرب مع الهاربين، وعاش سعيدًا وبلا هموم حتى سنة متأخّرة.

والآن انظروا ما الذي يحدث حين يدبّر القرصان نفسه الجريمة الكاملة.

لقد عدت أهبط في اتّجاه البحيرة. وكان المكان الذي كنّا نستحمّ فيه عادة (مع بعض الأزواج «المختارين» كفارلو وشاتفيلد) خليجًا صغيرًا كانت شارلوتتي تجد له سحر «شاطئ خاصّ». وكان المسبح العامّ (المغْرَق العامّ كما أتيح لجريدة «غازيت» أن تكتب) يقوم في شمالي البحيرة. ولم يكن شاطئنا الصغير يشرف عليه. وإلى اليمين، على بعد قريب، كان شجر الصنوبر قد تخلّى عن مكانه لمنطقة مستنقعيّة كانت ترسم خطّ انحناء عريضًا قبل أن تصبح غابة على الشاطئ المقابل. واقتربت على مهل وجلست بالقرب من امرأتي بصورة خفيّة جدًّا حتى إنّها قفزت من المباغتة، وسألتني «هل نذهب؟».

ـ بعد دقيقة. إنّني أحاول أن أتابع قطارًا من الأفكار.

وتابعت قطاري وانقضى أكثر من دقيقة. حسنًا لنذهب.

ـ هل كنتُ في ذلك القطار؟

ـ بكلّ تأكيد.

ـ «أرجو ذلك». هذا ما قالته شارلوت، ودخلت الماء الذي ما لبث أن بلغ ردفيها الكثيفين، وعند ذلك طبقت كفًّا على كفّ وشدّت على شفتيها فظهرت بشعة جدًّا بقبّعتها من المطّاطيّة السوداء. ثم قذفت بنفسها إلى

الأمام فتناثر الماء من حولها بشدّة.

ورويدًا رويدًا شققنا ماء البحيرة المدغدغ. وقبالتنا، على بعد ألف قدم (شريطة أن يتمكّن المرء من السير على قدميه) تميّزت رجلين صغيرين جدًّا يعملان في الأرض بهمّة عظيمة. وكنت أعرف تمامًا من هما: شرطي متقاعد (من نسل بولوني). والمرصِّص القديم المتقاعد هو أيضًا والذي كان يملك كلّ كمّيّة الحطب التي كانت على تلك الضفّة من البحيرة. وكنت أعرف كذلك أنّهما كانا يبنيان سدًّا لمجرّد الرغبة السخيفة في البناء. وكانت ضجّة ضربات المطرقة التي تبلغ أسماعنا تبدو غير منسجمة مع ذراعَيْ هذين العفريتين وآلاتهما وكان الاختصاصيّ المكلّف إصدار هذه الأصداء الصوتيّة متّهمًا بأنّه قد اختصم حتى الموت مع مدير مسرح الدمى المتحرِّكة - بحيث إنّ صدى كلّ ضربة من ضرباته كان يتردّد وقتًا طويلاً بعد ظهورها للعين.

وكان شاطئنا (الذي كان رمله قد ابتعد بعد وصولنا إلى الماء العميق) يبقى خاليًا أيّام الأسبوع. ولم يكن في الجوار أحد، باستثناء الشبحين المنحنيين المجدَّين فوق الضفّة الأخرى، وطائرة خاصّة صغيرة ذات لون أحمر هدرت لحظةً فوقنا قبل أن تذوب في الشفق، وكان هذا هو الإطار المثالي لإنجاح عمليّة إغراق صغيرة. ومن مصادفات الحظّ الكبرى أنّ خادم القانون وخادم الماء كانا من القرب بحيث يلاحظان وقوع حادث، ومن البعد لا يريان ارتكاب جريمة؛ من القرب بحيث يسمعان مستحمًّا يائسًا يلوّح بذراعه في قوّة طالبًا نجدة لإنقاذ امرأته التي تغرق، ومن البعد بحيث لا يلاحظان (إذا لم تخطر لهما فكرة النظر أبكر ممّا ينبغي) إنّ المستحمّ نفسه كان ينجز سحق الغريقة تحت نعليه. على أنّي لم أكن قد بلغت بعدُ هذه المرحلة، وإنّما أنا أجهد للإشارة إلى بساطة السيناريو وروعة الديكور! انظروا إلى شارلوتتي وهي تسبح بعدم حذق مُجدّ (إنّها

حوريّة رديئة جدًّا!) ولكنّها كانت مع ذلك سعيدة (ألم يكن غلامها الحبيب إلى جانبها؟)، وفيما كنت أراقبها بكلّ الوعي البارد لاجتراراتي المستقبليّة، وأتأمّل البياض اللاّمع لوجهها الذي كان يقطر ماء والذي كان رديء الإسمرار بالرّغم من جميع الجهود لجعله برونزيًّا، وأتطلّع إلى شفتيها الممتقعتين وجبينها البارز المضغوط تحت القبّعة السوداء، وعنقها اللحميّ المبلّل، كنت أفكّر في أنّه كان يكفيني أن أبتعد عنها قليلاً، ثم أستنشق استنشاقًا عميقًا وألتقطها من كعبها وأغطس سريعًا مع جثّتي الأسيرة. أقول «جثّة»، لأنّ المفاجأة والضيق وانعدام التجربة، كلّ ذلك سيتحالف ليجعلها تبتلع دفعة واحدة كمّيّة مميتة من البحيرة، في حين كان بوسعي أن أبقى أنا نفسي أكثر من دقيقة تحت الماء، مفتوح العينين. واخترقت الحركة المشؤومة شاشة أفكاري الإجراميّة، كأنّها التماعة طويلة تتركها النجمة المذنّبة خلفها، وتخيّلت الراقص، في رقصة باليه صامتة مريعة، يتشبّث بقدم الحوريّة ويجرّها عبر الظلمات المائعة. لسوف يمكنني أن أصعد لأتنشّق نفحة من الهواء، من غير أن أدعها تخرج من الماء، ثم أغطس عددًا من المرّات تحتاجها العمليّة، ولا أطلب النجدة قبل أن أتأكّد أنّ الستار قد أسدل على المَيْتة. وبعد عشرين دقيقة تقريبًا، بعد أن تصل الدُميتان اللتان تكبران شيئًا فشيئًا وهما في قاربهما المطلي من جانب واحد، تكون المسكينة السيّدة همبرت التي ذهبت ضحيّة مغص في المعدة أو انسداد في العرق أو الاثنين معًا، قد بدأت ترقص مسترخية على رأسها المغطّى بالقبّعة السوداء، على بعد بضعة أمتار من سطح البحيرة الضاحك.

هذا أمر يسير، أليس كذلك؟ كلّا! سيّداتي سادتي: لقد كنت عاجزًا عن ارتكاب مثل هذا العمل!

كانت تسبح بالقرب منّي، ككلب بحر واثق عديم الحذق، وكان منطق العاطفة يهدر في أذني: إنّها اللحظة المناسبة! ومع ذلك، كلّا، سيّداتي

وسادتي! لم أكن أستطيع! وعدتُ أتّجه إلى الشاطئ بهدوء، وهي إلى جانبي تسبح بتقًى، وكان الشيطان يزداد إغراء لي، وكنت أزداد عجزًا عن إطاعته وإغراق هذه المخلوقة الشقيّة ذات الجسم الكثيف المنزلق. وأخذت الصيحات تنطفئ تدريجيًّا، وكان عليّ أن أرتدّ إلى الواقع الكئيب: فلن أستطيع اليوم ولا غدًا ولا الجمعة ولا في أيّ يوم آخر، أن أنتزع منها حياتها. أوه! كنت أستطيع أن أتصوّرني وأنا أضرب ڤاليري أو أصفعها حتى أشوّه ثدييها أو أعذبها بطريقة أخرى، وكنت أستطيع أن أراني بوضوح وأنا أفرغ تيّارًا كهربائيًّا في فرج عشيقها وأن أراه يجلس وهو يقول «آخ» ولكنِّي لم أكن أستطيع أن أقتل شارلوت ـ وقد كنت أستطيع أكثر من ذلك لو لم يكن الموقف يائسًا إلى الحدّ الذي ظهر فيه مطلع هذا النهار المسكين. ثم ماذا؟ حتى ولو كنت قبضت على رجلها الشديدة، ورأيت نظرها المشدوه وسمعت صيحاتها المؤلمة، حتى ولو أوتيت القدرة على أن أمضي في هذه التجربة حتى نهايتها ـ فإنّ شبحها سيستولي على ذهني طوال الحياة. ولو أنّنا كنّا نعيش في عام ١٤٤٧ لا في عام ١٩٤٧، لربّما كان بإمكاني أن أخدع طبيعتي الهادئة وأدسّ للسيّدة شارلوت السمّ المعهود الموجود في خاتم من عقيق أو في أيّ شراب ساحر مميت. أمّا في عصرنا البورجوازي الصغير المكشوف، فلا يمكن للقضيّة أن تمرّ بالسهولة نفسها التي تمرّ بها في الذهب أو بروكار القصور الماضية. إنّ من أراد اليوم أن يكون قاتلاً، فعليه أن يكون عالمًا لا، لا، فأنا لم أكن أيًّا منهما يا سادتي القضاة: إنّ معظم هؤلاء الخوارج في الحبّ، الذين يلتهبون ليعقدوا مع فتيات صغيرات علاقات خافقة، ذات شكاوى ناعمة، علاقات جسديّة بالتأكيد، ولكن ليس من الضروري أن تبلغ حدّ الزنى، إنّما هم كائنات بلا خبث وهم قاصرون ومعتدلون وسلبيّون، لا يطلبون من أحد شيئًا إلّا الإذن بأن يتابعوا نشاطاتهم التي يُزعم بأنّها إجراميّة ولكنّها في الواقع غير مؤذية،

وإلّا إمكانيّة الاستسلام لتسلياتهم الغامضة المحرقة، من غير أن يتعرّضوا لصواعق الشرطة والمجتمع. إنّنا لسنا شياطين يتملّكها الشبق! إنّنا لا ننتهك الأعراض قطّ كما يفعل العسكريّون الشجعان! إنّنا كائنات كئيبة عذبة ذات نظر يشبه نظر الكلاب، ونحن مهيّأون لنعرف أن نكبت رغائبنا في حضور الكبار، ولكنّنا مستعدّون للتضحية بسنوات وسنوات من حياتنا لقاء مسّ جنّيّة. إنّني أكرّر تكريرًا حاسمًا بأنّنا لسنا قتلة. إنّ الشعراء لا يقتلون أبدًا. لا تكرهيني يا مسكينتي شارلوت في جنّتك الخالدة، في خليطك الخالد من المطّاط والقطران، من المعدن والحجارة، ولكن ليس من ماء ولله الحمد، لا ماء. على أنّنا، بكلّ تجرّد، قد تفادينا هذه القضيّة في اللحظة الأخيرة. وها هي الآن عبرة هذا الرمز للجريمة الكاملة.

كنّا جالسين على مناشفنا معرّضين جسمَيْنا للشمس المعكّرة. وألقت نظرة فيما حولها، ثم فكّت حاملة نهديها وتمدّدت على بطنها، مسلّمةً ظهرها لتلك المائدة الشمسيّة، وصرّحت بأنّها كانت تحبّني. وتنهدّت بعمق. ومدّت ذراعًا متلمّسة تبحث عن لفائفها في جيبَيْ برنسها. ثم جلست على مؤخّرتها وأخذت تدخّن. وتفحّصت كتفها اليمنى. وعانقتني بقوّة فأغرقتني في الدخان تحت شفتيها المنفرجتين، وفجأة انحدر إلينا من كثيب الرمل وراءنا حجر تدحرج بين العشب والشجر وتبعه حجر آخر.

وصاحت شارلوت وهي تطبق على صدرها صدرتها الكبيرة ثم تنام فوقها «هؤلاء السوقة الكريهون الذين يحشرون أنوفهم في كلّ مكان! يجب أن أتحدّث في ذلك إلى بيتر كريستوفسكي».

وسمعت خشخشة أوراق عند مدخل الممرّ تبعها وقع أقدام، ثم تدحرجت جان فارلو نحونا وهي تحمل مرسمها ودلوها

وقالت شارلوت: «لقد أخفتِنا».

وأوضحت جان أنّها كانت جالسة في موضع مرتفع، عند مخبأ مخضوضر لترقب الطبيعة وتحاول أن تسجّل آخر لمسة في منظر، ولكنّ ذلك لم يجد شيئًا، فإنّها لم يكن لديها أيّ ظلّ لموهبة (ولم يكن هذا إلّا صحيحًا). «وأنت يا همبرت، هل حاولت أن ترسم من قبل؟» وكانت شارلوت تغار قليلاً من جان، فسألتها أسيأتي جون.

نعم. كان قد عاد لتناول الغداء فحملها وهو متّجه إلى باركنغتون، وسيصحبها في العودة، وسيكون هنا بين دقيقة وأخرى. أيّ صباح جميل! لقد كانت تشعر أنّها مذنبة تجاه كافال وميلمبوس، وكانت خيانة أن تقيّدهما في مثل ذلك الطقس الرائع. وجلست على الرمل الأبيض بين شارلوت وبيني، وكانت ترتدي سروالاً قصيرًا، وظللت أمام ساقيها الطويلتين السمراوين في مثل لامبالاتي إزاء ردفي فرس أصهب، وكانت تعرّي لثّتها كلّما ضحكت.

وقالت: «أوشكت أن أضعكما أنتما الاثنين في بحيرتي. لقد لاحظت شيئًا قد نسيته (والتفتت إلى همبرت) لقد كانت ساعتك أنت ما تزال في معصمك. أجل. يا سيّدي الطيّب».

فقالت شارلوت وهي تضمّ شفتيها كفم سمكة: «إنّها ساعة لا ينفذ إليها الماء».

وأراحت جان معصمي على ركبتها، وتأمّلت هديّة شارلوت، ثم أراحت يد السيّد همبرت على التراب مكشوفة الراحة للهواء.

وقالت شارلوت بدلال، ملغّزةً: «إنّ من كان فوق يستطيع أن يرى كلّ شيء».

وتنهّدت جان ثم قالت: «لقد رأيت هنا ذات مرّة صبيًّا وفتاة عند مغرب الشمس يتضاجعان، وكانا يخلّفان ظلالاً كبيرة. وقد سبق أن

تحدّثت إليكما عن السيّد تومسون في الفجر. وفي المرّة القادمة أتوقّع أن أجد أيفور الكبير (ربِّي كما خلقتني). والواقع أنّ هذا الرجل هو إنسان هُزأة. لقد روى لي من حين قصّة غريبة الحشمة بصدد أخيه. ويبدو.

وقذف صوت جون. «تحيّة لكم جميعًا».

٢١

في الماضي، كانت عادتي أن أظلّ أبكم حين أكون حانقًا، أو بالأصحّ أنّ البرودة الأفعويّة لصمتي الحانق كانت تغرق فاليري في خوف غبيّ، فكانت تأخذ في الأنين والانتحاب وتقول: «إنّ ما يجعلني مجنونة هو أنّي لا أعرف ما الذي تفكّر فيه حين تكون هكذا». أمّا مع شارلوت فمهما ظللت صامتًا، فإنّ ثرثرتها كانت تزداد أو أنّها كانت تدغدغ صمتي تحت ذقني، فيا لها من امرأة مدهشة! كنت آنذاك ألجأ إلى غرفتي القديمة التي أُعيدت إلى حالة «استديو»، وأنا أتمتم أنّ عليّ، في آخر المطاف، أن أكرّس نفسي لأعمالي العلميّة، وكانت شارلوت تتابع بجذل مظاهر تجميل البيت وتثرثر في التلفون أو تكتب رسائل لا تنتهي، وكنت أستطيع، من نافذتي، عبر ارتعاش أوراق الصفصاف اللّامعة، أن أراها تجتاز الشارع بخطًى راضية لتدرج ظرفًا في العلبة، رسالة إلى شقيقة الآنسة فالين.

وكان أسبوع الأمطار والغيوم تبع زيارتنا الأخيرة للرمال الجامدة في البحيرة، من أكثر الأسابيع التي أذكرها كآبةً. ثم جاءت ثلاثة إشعاعات أمل أو أربعة قبل القيظ الشديد.

وتبيّنت أنّ عقلي كان في حالة ممتازة وكان يشتغل كما يجب، ولماذا تُراني لا أحرّكه؟ فلئن كان محظّرًا عليَّ أن أتدخّل في المشاريع التي كانت شارلوت ترسمها لابنتها (التي لا بدّ أن تزداد التهابًا واسمرارًا في رياح

الغيبة الشديدة المتوحّدة) فقد كان يسيرًا عليَّ أن أؤكّد نفسي في عينيها، بصورة منتظمة، حتى اليوم الذي سأتمكّن فيه من تطبيق استراتيجيّتي العامّة على هدف خاصّ. وذات مساء، كانت شارلوت هي التي حقّقت الضربة المنتظرة.

قالت وهي تلحظ إليّ بلطف من فوق ملعقتها الملأى بالحساء: «إنّ لك عندي مفاجأة. سنذهب هذا الشتاء معًا إلى إنكلترا».

وابتلعت ملعقة الحساء وأنا أربت شفتيَّ بمنشفة من الورق الورديّ (أوه! أين قماش أوتيل ميرانا الفخم الطريّ!) وأجبت:

ـ وأنا أيضًا لكِ عندي مفاجأة يا عزيزتي. إنّنا لن نذهب معًا إلى إنكلترا.

فصاحت وهي تنظر إلى يدَيّ بقدر من الانشداد أكبر ممّا كنت أظنّ. «ماذا؟ ماذا تقول؟» (وكنت أدعك المنشفة الورديّة وأمزّقها وأفتّتها وأمزّقها أيضًا). وهدّأها بعض الشيء أن ترى وجهي يبتسم وأجبتها:

ـ «إنّ ما هناك بسيط جدًّا. فحتى في البيت الزوجيّ المتوافق السعيد، كما هو الحال عندنا، ليست جميع القرارات من صلاحيّة النصف النسائي وحده. فإنّ الزوج موجود هنا ليقرّر بعض الأشياء وأنا أستطيع أن أتصوّر أيّ سعادة ستحصلين عليها، أنت الأميركيّة المتوسّطة القويّة، في أن تتمكّني من عبور الأطلنطي على الباخرة نفسها مع الليدي بامبل ـ أو سام بامبل، ملك اللحم المثلّج ـ أو مع غانية من غانيات هوليوود. وأنا لا أشكّ في أنّنا سنضع إعلانًا جميلاً لـ «شركة سفريّات غلال الكرم» إذا صوّرونا نحن الإثنين ونحن نتأمّل «جنود القصر» أو «الحرس الأحمر» ـ أنت فاغرة الفم من الدهشة، وأنا كابتًا إعجابي الحسود. الواقع أنّي أكره العالم القديم، بما فيه إنكلترا الفرحة. وقد سبق أن قلت لكِ إنّ أوروبا القديمة المنتنة لم

تخلّف لي إلّا ذكريات كريهة، ولن تستطيع إعلانات مجلّاتكم الملوّنة أن تغيّر رأيي.

وصاحت شارلوت: يا حبيبي، إنّني حقًّا.

ـ كلّا انتظري لحظة. إنّ هذه القضيّة ليست إلّا عارضة. ولكنْ هناك مبدأ عامّ أحرص على تعميقه. حين كنت تريدينني على أن أترك دراساتي لآخذ حمّامات شمس بعد ظهر كلّ يوم على شاطئ البحيرة، خضعت بكلّ رضى، وأصبحت، من أجل إرضائك «أبولون» برونزيًّا جميلاً بدلاً من أن أظلّ عالمًا إنسانيًّا، بل فلنقلها، مربّيًا وحين تجرّينني إلى حفلات البريدج والويسكي لدى أصدقائك اللطفاء آل فارلو، فإنّي أستسلم بذلّ. وحين تقرّرين ـ حين تقرّرين أشياء مختلفة أكون غالبًا على خلاف جزئي إن لم أقل كلّي، ولكنّي لا أفتح فمي، أنا لا يهمّني الشيء الخاصّ، ولكن لا أستطيع ألّا أهتمّ بالشيء العامّ، وإنّي لأتحرّق لأن أنطوي لإراداتك الستّ والثلاثين، ولكنّ لجميع الألعاب قواعدها كلّا لست غاضبًا. لست غاضبًا على الإطلاق، لا تفعلي ذلك. إنّني أمثّل نصف هذا البيت الزوجي. وقد يكون لي صوت رفيع، ولكنّه متميّز».

وكانت قد استدارت حول الطاولة وارتمت على ركبتيها فتشبّثت بسروالي وهي تميل برأسها ذات اليمين وذات اليسار بهدوء ولكن بقوّة، وصاحت بأنّها لم ننتبه لذلك. وصاحت بأنّي كنت سيّدها وإلٰهها، وصاحت بأنّ لويز كانت قد ذهبت وأنّها كانت تريد أن تنام معي على الفور وصاحت بأنّها ستموت إن لم أعفُ عنها

وأغرقني هذا الحادث في طرب عظيم وأجبت بهدوء بأنّ القضيّة ليست بأن تطلب عفوي بل أن تصلح سلوكها، وعزمت على أن أستغلّ انتصاري وأن أنعزل بنفسي وقتًا طويلاً صامتًا بعيدًا، لأشتغل في كتابي أو أتصنّع أنّي أشتغل فيه. وكان «سرير الأستديو» لغرفتي القديمة قد حُوّل إلى

ديوان (وهو ما كان يحلم أن يصبحه دائمًا) وكانت شارلوت قد أومأت لي منذ بدء تعايشنا أنّ الحجرة ستصبح شيئًا فشيئًا خدرًا حقيقيًّا للفنّان. وبعد يومين أو ثلاثة من «الحادث البريطانيّ»، كنت جالسًا على مقعد مريح (اشتُري حديثًا) وعلى ركبتي مجلّد كبير، حين دقّت شارلوت بحيويّة باب الغرفة بخاتم إصبعها ودخلت بخطوة لامبالية. أيّ فرق بين هذه الحركات وحركات حبيبتي لوليتا حين كانت تأتي لتزوروني، فتسحرني بثوبها القديم القذر، وتُزهر حدائق البلدة بالجنّيّات، نحيلة متمايلة مُفسدة بغموض وقميصها مفكوك الأزرار من أسفله. على أنّي أحبّ أن أضيف ما يلي: لقد كان خَلْفَ فوران هاز الصغيرة، وخلف اعتدال هاز الكبيرة نُهير رقيق من الحياة له النكهة نفسها والخرير نفسه. وقد شرح طبيب فرنسي كبير لأبي ذات يوم أنّ كركرة المعدة تتشابه كلّ التشابه في صوتها لدى الأقرباء المقرّبين.

قلت إنّ شارلوت أتت إليَّ بخطوة لامبالية وكانت تشعر أنّ شيئًا ما لا يجري على ما يُرام. ففي الليلة الماضية وقبلها أيضًا تصنّعتُ النوم بمجرّد وضع رأسي على الوسادة وأفقت عند الفجر.

وسألتني بحنان عمّا إذا كانت لا تقطع عليّ عملي.

فقلت لها: «الآن، لا.» وأنا أقلّب المجلّد «ك» من «دائرة معارف الفتيات» لأتفحّص عنوانًا مطبوعًا «معكوفًا»، كما يقول عمّال المطابع.

واتّجهت شارلوت إلى طاولة صغيرة ذات أدراج ووضعت عليها يدها وقالت:

ـ أودّ منذ وقت طويل أن أسألك لماذا أرى هذا الدرج مقفلاً بالمفتاح؟ هل تحرص على أن تحتفظ بهذه الطاولة هنا؟ إنّها قبيحة جدًّا (كانت بالفعل قبيحة ولكنّها لم ترَ في ذلك أيّ بأس من قبل) فقلت لها:

ـ دعيها وشأنها

ـ هل المفتاح معك؟

ـ إنّه مخبّأ

ـ أوه. هِم.

ـ رسائلي الغراميّة. إنّ الدرج مقفل قفلتين.

ورمتني بنظرة تشبه أحدّ نظرات وعلّة جريحة، تلك النظرات التي كانت تغيظني كثيرًا، وإذا لم تتيقّن ما إذا كنت جادًّا، ولا كيف ينبغي لها أن تستأنف الحديث، ظلّت واقفة طوال الوقت الذي قلّبت فيه بضع صفحات وهي تنظر إلى النافذة (لا عبرها) وتنقر على الزجاج بأطراف أظفارها اللوزيّة.

وأخيرًا اقتربت منّي بخطًى صغيرة وتركت نفسها تسقط على ذراع مقعدي مغرقةً إيّاي بالعطر نفسه الذي كانت تستعمله زوجتي الأولى، وسألتني: «هل تودّ سيادتك أن تقضي الخريف هنا؟» مشيرة بإصبعها الصغيرة إلى صورة منظر في قلب ولاية من أشدّ ولايات الشاطئ الأطلنطي محافظة. فقلت بصوت هادئ واضح جدًّا: «لماذا؟» فهزّت كتفيها (والأرجح أنّ هارلود كان قد اعتاد أن يأخذ إجازته في تلك الفترة، فترة افتتاح موسم الصيف) القضيّة إذًا هي قضيّة ردّ فعل مشروط.

وقالت: «أظنّ أنّي أعرف هذا المكان (وكانت إصبعها لا تزال مصوّبةً إلى الخارطة). إنّني أذكر فندقًا «فندق الصيّادين المسحورين». رائع أليس كذلك؟ والطعام ممتاز، وليس هناك أحد ليزعجك.

وحكّت خدّها بصدغي. أمّا فاليري فكانت قد تحرّرت سريعًا من هذه الحركات المتكلّفة.

ـ «هل هناك شيء خاصّ ترغب فيه للعشاء يا عزيزي؟ إنّ جون وجان

سيمرّان بنا في المساء».

فأجبت بهمدرة. وزرعت لي قبلة في أعلى ذقني، وتمتمت بأنّها ستصنع قالبًا من الكاتو (وهو تقليد مستمرّ منذ أن كنت نزيلاً، وكانت تريد أن أجنّ بحلوياتها) ثم تركتني لبطالتي.

وبعد أن أرحتُ بعناية الكتاب المفتوح حيث كانت جالسة، رحت أتحقّق من مخبأ المفتاح، فإذا هو تحت آلة الحلاقة الميكانيكيّة، وهي من طراز قديم مرتفع الثمن، كنت أستعملها قبل أن تهدي إليّ آلة غيرها أسهل للاستعمال وأدنى ثمنًا وكان ذلك مخبأ مثاليًا، تحت الآلة في تجويفة العلبة المخمليّة، وكانت هذه العلبة محشورة داخل صندوق صغير أحفظ فيه مختلف أوراقي الخاصّة. أكان يمكنني أن أجد ملجأ أكثر أمنًا؟ كم هو شاقّ على الإنسان أن يخبّئ شيئًا ما، لاسيّما حين لا تكفّ امرأته عن تقليب الأثاث وزحزحته.

٢٢

أعتقد أنّه كان قد مرّ أسبوع على استحمامنا الأخير حين تلقّينا في بريد الظهيرة جواب أخت الآنسة ڤالين. وكانت تخبرنا بأنّها كانت عائدة من «سانت الجيبر» حيث حضرت جنازة أختها «كانت «أوفيمي» قد تغيّرت كثيرًا بعد أن كسرت خاصرتها». أمّا فيما يتعلّق بابنة السيّدة همبرت، فإنّها تأسف لإعلامنا أنّ أوان تسجيلها تلك السنة قد فات. غير أنّها كانت على يقين من أنّ السيّد والسيّدة همبرت إذا اصطحبا إليها دولوريس في كانون الثاني، فسيجدون الوسيلة لأخذها

وفي اليوم الثاني، ذهبت بعد الغداء أستشير «طبيبنا» وهو رجلٌ لطيف جدًّا كانت فطانته المهنيّة وثقته المطمئنة بنصف الدزينة من الأدوية التي كان

يصفها، كافيتين لإثبات اللامبالاة وانعدام الكفاءة في مادّة الطبّ. وكانت فكرة قرب عودة «لو» إلى «رامسدال» كنزًا من الاستعجال بالنسبة لي. كنت أريد أن أكون مستعدًّا لهذا الحادث. والواقع أنّي قد بدأت حملة الاستعداد قبل أن تتّخذ شارلوت قرارها الوحشي، كان ينبغي لي أن أتيقّن من أنّه سيكون لديّ، فور عودة ابنتي المحبوبة، وليلة بعد ليلة، حتى تاريخ نفيها إلى «سانت الجيبر»، الوسيلة الناجعة لتنويم مخلوقتين تنويمًا عميقًا بحيث لا تشعران باللمس ولا تسمعان الضجّة. وكنت قد قضيت معظم أيّام تمّوز وأنا أدرس جميع أنواع المخدّرات التي كنت أجرّبها في شارلوت ـ وهي مُبتلعة كبيرة للأقراص. وكان آخر شراب جرّعتها إيّاه (وقد ظنّت أنّه محلول «برومير» بسيط مهمّته تهدئة أعصابها) قد تركها نائمة زهاء أربع ساعات. وكنت قد فتحت الراديو على أعلاه، وصوّبت إلى جبينها مصباحًا مُعْميًا، وقد ضربتها وحرّكتها وقرصتها وعجنتها، فلم يعكّر شيء من ذلك إيقاع تنفّسها الهادئ العميق. ومع ذلك، فقد كانت حركة تافهة ـ قبلة بسيطة ـ كافية لإيقاظها ناضرة مخيفة كالأخطبوط (ولقد نجوت في اللحظة الأخيرة) وفكّرت في أنّ ذلك لا يستطيع أن يحقّق رغبتي، فقد كنت بحاجة إلى إكسير أقلّ قابليّة للخطأ وبادئ الأمر، بدا الدكتور بايرون غير مصدّق حين شرحت له أنّ وصفته الأخيرة لم تكن في مستوى أرقي. فاقترح عليّ أن أجرّبها من جديد، وحاول لحظة أن يُلهي انتباهي باطلاعي على صور لعائلته. وكانت له ابنة ساحرة في مثل عمر دولّي، ولكن هذه الحيل المنسوجة بالخيط الأبيض لم تخدعني قطّ، وعدت إلى مهمّتي فرجوته أن يصف لي أقوى الأقراص الموجودة. فنصحني أن ألعب كرة القدم، ثم قَبِل أخيرًا بأن يعطيني شيئًا لا يستطيع، على حدّ قوله، «أن يخطئ». وفتح خزانة صغيرة فأخرج أنبوبًا من الأقراص الزرقاء المتوّجة بدائرة بنفسجيّة، وقال إنّها وُضعت حديثًا في السوق، ولم تكن مصنوعة لأولئك العصبيّين

الذين كانت نقطة ماء صاف تُعطى في اللحظة المناسبة، كافيةً لتخديرهم، وإنّما كانت مصنوعة للفنّانين الكبار المؤرّقين الذين كان عليهم أن يموتوا بضع ساعات كلّ ليلة ليعيشوا عصورًا. إنّني أحبّ أن أتسلّى على حساب الأطبّاء، وقد تناولت الأنبوب وعلى فمي انقباضة الشكّ، وإن كنت قد أظهرت الفرح. والواقع أنّه كان عليّ أن أكون حذرًا معه. وقد حدث يومًا، في مناسبة أخرى، أنّي أفلتُّ اسم آخر مصحّ كنت فيه، فخُيّل إليّ أنّه أرهف أذنًا مهتزّة. ولم أكن مستعدًّا لكشف هذه الفترة من ماضيّ أمام شارلوت أو سواها، فسارعت أضيف بأنّي كنت قد قمت بأعمال تحقيق مع بعض البُله المعتوهين من أجل كتابة رواية. وكان ذلك عندي سواء، في آخر المطاف، ألم يكن لهذا الغشّاش العجوز غلامة من أروع الغلامات؟

وما إن تركته حتى لم أعد أتمالك نفسي من الفرح، فاتّجهت إلى طريق البيت وأنا أقود بإصبع واحدة سيّارة زوجتي. إنّ رامسدال لم تكن، بعد كلّ حساب، تنقصها المغريات. كانت الصراصير تغنّي، وكانت الجادّة قد رويت بالماء. وانعطفت السيّارة على مهل، وكأنّها على حرير، إلى شارعنا الصغير المنحدر. وكان كلّ شيء يبدو سهلاً، منسجمًا انسجامًا غريبًا بعد ظهر ذلك اليوم. كان كلّ شيء أزرق أخضر. وكنت أعلم أنّ الشمس تلتمع لأنّ مفتاح المحرّك كان ينعكس على المرآة الأماميّة. وكنت أعرف أنّها كانت الساعة الثالثة والنصف تمامًا لأنّ الممرّضة التي كانت تأتي كلّ يوم لتدلّك «آنسة البيت المقابل» كانت مارّة آنذاك على الرصيف الضيّق، بجراباتها وحذائها الأبيض. وكالعادة هاجم الكلب الهستيري للأب لافراي السيّارة لدى مروري، وكالعادة كانت الجريدة المحلّيّة مستقرّة على السطيحة بعد أن قذفتها يد «كيني» الواثقة.

وكنت قد وضعت حدًّا، عشيّة الأمس فقط، لفترة البرودة التي فرضتها على نفسي، فأرسلت هتافًا جذلاً وأنا أفتح باب الصالون ـ هتاف الزوج

الذي يعود إلى بيته. وكانت شارلوت جالسة أمام طاولة الزاوية الصغيرة تكتب رسالة، عارضة لأنظاري شعرها البرونزيّ وعنقها اللحميّ مرتدية القميص الأصفر والبنطلون العقيقيّ اللذين كانت ترتديهما عند لقائنا الأوّل. وكرّرت هتافي الحارّ من غير أن أترك قبضة الباب، فتوقّفت يدها عن الكتابة. وظلّت امرأتي لحظة مسمّرة، ثم انفتلت بهدوء فوق كرسيّها وأسندت مرفقها إلى حافّة المسند المقوّس. ولم تكن ملامحها التي لواها الانفعال جميلة على النظر، وأخفضت عينيها على ساقي وقرأت:

«إنّ الأمّ هاز، السمينة البليدة الشرسة، معكِّرة السعادة العجوز، هاز هذه العجوز البلهاء لم تعد مخدوعة بعدُ. إنّها، إنّها. . ».

وانقطعت متّهمتي الجميلة، وهي تبتلع سمّها ودموعها. وقد كان ما أجاب به همبرت همبرت ـ أو حاول أن يُجيب به ـ غير ذي جدوى، فاستطردت تقول:

«إنّك شيطان رجيم. إنّك ماكر قذر، مجرم فظيع. لا تقترب وإلّا صرخت من النافذة. لا تقترب!».

ويحسن بي هنا أيضًا كما أظنّ أن لا أذكر تمتمات هـ .هـ. الغامضة.

وأضافت: «إنّني ذاهبة هذا المساء. إنّني أترك لك كلّ شيء. إنّك لن ترى أبدًا بعد الآن ـ أبدًا، أتسمعني؟ تلك الطفلة المسكينة. أخرج من هذه الغرفة». أجل، يا قارئي. لقد أطعت. وصعدت إلى غرفتي، نصف الأستديو القديم. وبقيت لحظة طويلة عند العتبة ويداي على خاصرتي وأنا أنظر ببرودة إلى الطاولة المنتهكة ودرجها الفاغر الفمّ الذي يتدلّى من قفله مفتاح، بينما كانت أربعة مفاتيح أخرى منتشرة فوق صفحة الخشب الزائف، ثم اجتزت الممرّ، وولجت غرفة السيّد والسيّدة همبرت، فاستخرجت المفكّرة التي تضمّ مذكّراتي من تحت وسادة شارلوت وأدرجتها في هدوء

في جيبي. ثم هبطت الدرج وتوقّفت في منتصف الطريق: كانت تتحدّث في التلفون. وكنت أريد أن أسمع ما تقوله. وقد ألغت طلب لا شيء لا أدريه ثم عادت إلى الصالون، وشدّدت عزيمة تنفّسي، وعبرت الممرّ، وتوجّهت نحو المطبخ. وهناك فتحت زجاجة ويسكي. ولم تكن تقاوم الويسكي. فحملتها إلى غرفة الطعام وجعلت أتأمّل، عبر الباب المشقوق، ظهر شارلوت العريض. قلت بصوت هادئ: «إنّكِ الآن تحطّمين حياتك وحياتي، فلنتصرّف ككائنات متحضّرة. إنّه هذيان. أنتِ مجنونة يا شارلوت. إنّ المذكّرات التي وجدتها إنّما هي لرواية. وإنّ اسمك واسمي موجودان فيها بالمصادفة. لأنّهما كانا مناسبين، في متناول اليد. فكّري في هذا. سآتيك بقدح».

ومن غير أن تجيب، بل من غير أن تلتفت، تابعت الكتابة بقلم حادّ. وكانت على ما يبدو هي الرسالة الثالثة (كان ظرفان مختومان وقد أُلصقتْ عليهما الطوابع، ينتظران هناك على الطاولة). وعدت إلى المطبخ وهيّأت قدحين (لسانت الجيبر، للو!) وفتحت البرّاد، فصرّ بخشونة في أذني حين نزعت من أحشائه درج الثلج. كتابة كلّ شيء من جديد، وحملها على القراءة من جديد. إنّها لن تتذكّر التفاصيل. تغيير وتزييف. كتابة مقطع واطّلاعها عليه أو تركه. لماذا ترسل الصنابير أحيانًا أنّاتٍ فظيعة إلى هذا الحدّ؟ الحقيقة أنّه موقف فظيع. وأرسلتْ قطع الثلج الصغيرة أنّات شاكية مفرقعة معذبة تحت الماء الحارّ الذي كان ينزعها من قوالبها. وكانت تشبه في صغرها وسادات الدمى ـ وساداتٍ لدبب قطبيّة صغيرة ذات فرو أبيض، لو! ـ ووضعت القدحين جنبًا إلى جنب، وصببت الويسكي، ثم نقطة ماء غازيّ (وكانت قد كرهت مزيجي المفضّل). وعوى البرّاد مرّة أخرى ثم اصطفق وسكت. واجتزت غرفة الطعام والقدحان في يدي، واقتربت من باب الصالون، وكان مشقوقًا قليلاً فرجة بلغ من ضيقها أنّي لم أكن

أستطيع أن أدخل منها مرفقي.

وقلت: «لقد أعددت لك كأس ويسكي».

فلم تجب، العجوز العنيدة، وأرحت القدحين على الطاولة، بالقرب من التلفون الذي كان يرنّ.

«لسلي على التلفون. لسلي تومسون». (هذا ما قاله لسلي تومسون الذي لم يكن يحتقر الاستحمام عند طلوع الفجر). «إنّ مدام همبرت، يا سيّدي، قد صدمتها سيّارة ويجب أن تأتي على الفور».

فأجبت، وقد يكون ببعض المرارة، أنّ امرأتي كانت سليمة معافاة، ومن غير أن أترك السمّاعة دفعت الباب بقدمي وقلت:

«يخبرونني بأنّك قد قُتلت يا شارلوت».

ولكن شارلوت لم تكن بَعْدُ في الصالون.

٢٣

وهُرعت إلى الخارج. وكان شارعنا الصغير الصعب المنحدر يعرض مشهدًا خارقًا. كانت سيّارة «باكارد» ضخمة سوداء شديدة الالتماع قد تسلّقت حديقة «آنسة البيت المقابل»، متّبعة دربًا كان يشكّل زاوية حادّة مع الرصيف (حيث كان قد تكوّم معطف ذو مربّعات) وكانت متسمّرة هناك تشويها الشمس، مفتوحة الأبواب كالأجنحة، غارقة العجلات الأماميّة في قطعة من النبات الأخضر. وعلى يمين هذه السيّارة، فوق عشب المنحدر المقصوص حديثًا، كان رجل مسنّ ذو شارب أبيض وثياب أنيقة جدًّا ممدّدًا على ظهره، وكانت ساقاه مضمومتين على شكل جثّة من الشمع. إنّ عليّ أن أجزّئ صدمة هذه الرؤية في تسلسل من الكلمات يخفّف

تراكُمها الماديّ رونقها كما يخفف وحدة الانطباع الساطعة: غطاء متكوّم، رجل عجوز دمية، ممرّضة «آنسة البيت المقابل» صاعدة وهي تعدو، وفي يدها قدح ماء، نحو الشرفة المغلقة حيث يمكن تصوّر المرأة المنعزلة الهرمة، جاثمة بين وسائدها، هادرة بأعلى صوتها، ولكن صراخها ليس من القوّة بحيث يغطّي نباح كلب بائع الحديد، الموقّع، ذلك الكلب الذي يثب من مكان إلى آخر بين عيادة الجيران الذين كانوا قد تجمّعوا حول المعطف المربّع، والسيّارة التي أخرجها من مكمنها منتصرًا ثم حكم عليها بالإعدام، وذلك الفريق الآخر الذي كان قد تجمّع في الحديقة مع لسلي وشرطيين ورجل ضخم ذي نظّارات. ومن المفيد هنا أن نوضّح الأمور التالية: إنّ ظهور رجُلَيْ الشرطة ذلك الظهور السريع الذي عقب الحادث بدقيقة واحدة، يشرحه أنّهما كانا يسجّلان أرقام السيّارات الواقفة في مكان ممنوع في شارع معترض على بعد خطوات من بعض المنازل التحتانيّة. أمّا الرجل ذو النظّارات فكان فردريك بيل الابن، قائد «الباكارد»، ولم يكن أبوه وهو يبلغ التاسعة والسبعين، وقد مدّدته الممرّضة على السرير، لم يكن أبوه مُغمًى عليه قطّ، وإنّما كان يستريح بهدوء من أزمة قلبيّة يسيرة، أو من خوف من هذه الأزمة، وأخيرًا فإنّ غطاء السفر القابع على الرصيف (وكانت شارلوت قد أرتني فيه خطوطًا خضراء لم تكن تعجبها) فقد كان يغطّي البقايا الممزّقة للسيّدة همبرت التي كانت سيّارة الثري قد صدمتها وجرّتها عدّة أمتار، بينما كانت تعبر الطريق وهي تعدو لترمي ثلاث رسائل في العلبة القائمة في زاوية حديقة «آنسة البيت المقابل». وقد التقطت طفلة جميلة ترتدي ثوبًا ورديًّا ملوّثًا بلطخات سوداء، الرسائل ومدّتها لي فمزّقتها بعد أن وضعتها في جيبي.

ودخل الميدان ثلاثة أطبّاء مع آل فارلو وأخذوا المسألة على عاتقهم. أمّا الأرمل، وهو رجل ينعم برباطة جأش استثنائيّة، فلم يبكِ ولم يجَنْ،

صحيح أنّه ترنح قليلاً على ساقيه، ولكنّه لم يفتح فمه إلّا ليدلي بمعلومات ضروريّة لمعرفة الضحيّة وفحص الجثّة ذات الجنس الأنثوي التي كان أعلى رأسها خليطًا من العظم والمخ والخصلات الملطّخة بالدم. وكانت الشمس لا تزال باهرة الاحمرار، حين أقبل صديقا همبرت، جون اللطيف وجان ذات العينين الرطبتين، فوجداه في سرير دولِّي، ولم يريدا تركه، فدخلا غرفة الأرمل حيث لا يمكنني أن أؤكّد أنّهما قضيا ليلة كانت من الطهر بمقدار ما تتطلّبه قداسة المناسبة.

وليس هناك ما يدعوني إلى أن أفيض، في هذه المذكّرات الخاصّة جدًّا، في حديث الشكليّات الجنائزيّة، ولا الجنازة نفسها، التي كانت على مثل ما كانت عليه حفلة الزواج من السرِّيّة. على أنْ من المناسب وصف عدّة حوادث جرت خلال الأيّام الأربعة أو الخمسة التي أعقبت موت شارلوت، هذا الموت الذي لم تؤخذ له العُدَّة.

في المساء الأوّل من ترمّلي، كنت ثملاً إلى حدّ أنِّي استغرقت في نوم عميق يشبه نوم الغلامة التي كانت ترقد في هذا السرير. وصباح اليوم التالي، اتّجه فكري أوّل ما اتّجه إلى قصاصات الورق التي كان جيبي ملآن بها وقد كان من فرط اختلاطها أنِّي لم أستطع أن أؤلّف الرسائل الثلاث فيما بينها، فتنبّأت بأنّ عبارة «وتحسنين صنعًا في أن تفتّشي عليه حتى تجديه، لأنِّي لا أستطيع أن أشتري لك. .» هي من أصل رسالة موجّهة إلى لوليتا وكانت بعض القصاصات الأخيرة تنبئ ـ على ما يبدو ـ بأنّ شارلوت كانت تفكّر في أن تفرّ مع ابنتها إلى «باركنغتون» أو حتى إلى «بيسكي»، خشية أن يختطف النسر حملها الثمين. وكان فتات من قصاصات أخرى (لم أكن أعرف أنّ لي مثل هذه المخالب الشديدة) يتعلّق بطلب تسجيل، لا في «سانت الجيبر»، ولكن في معهد داخلي كانت قوانينه الصارمة السوداء الكالحة قد أكسبته لقب «إصلاحيّة الأوانس» بالرّغم من أنّ

القائمات عليه كنّ يمنحن الطالبات مباهج لعبة الكروكيت تحت ظلال الدردار. أمّا الرسالة الأخيرة، فقد كانت موجّهة لي، وقد أدركت ذلك من بعض الإشارات القاطعة: «بعد هجر يدوم عامًا قد تستطيع. .» و«أوه يا حبيبي، أوه يا. .». «إنّ ذلك أسوأ عندي ألف مرّة ممّا لو كانت لك عشيقة. .» و«إلّا فسأموت من جرّاء ذلك. .» غير أنّ جميع هذه اللقطات كانت بالإجمال غير ذات معنى، إنّ قصاصات هذه الرسائل الثلاث المستعجلة أكثر ممّا ينبغي، كانت في امتزاجها وتفكّكها، وهي في جوف يديّ، تشبه محتواها في ذهن مسكينتي شارلوت.

في ذلك اليوم، كان المفترض أن يقابل جون أحد زبائنه، وأن تنشغل جان بإطعام كلابها، فكان لا بدّ أن أحرم موقّتًا من صحبة صديقيّ. وكان هذان المخلوقان الطيّبان يخشيان أن أعرِّض نفسي للأذى إذا تركاني وحدي، ولمّا لم يكن بإمكانهما أن يصادرا حرّاسًا آخرين من الملائكة (باعتبار أنّ «آنسة البيت المقابل» كانت مغلقة على الاتّصال بالناس، وكان آل شاتفيلد قد دُعوا إلى «المين» لحلّ متاعبهم العائليّة هناك) فقد أمرا لويز ولسلي بألّا يبتعدا عنّي قيد أنملة بحجّة مساعدتي في فرز وتعليب عددٍ من الدمى أصبحت يتيمة. وفي لحظة إلهام متجلّية أطلعتُ السيّد والسيّدة فارلو الساذجين اللطيفين، (وكنّا في انتظار مجيء لسلي إلى الموعد الظريف المعوّض عليه مع لويز) على صورة صغيرة لشارلوت كنت قد وجدتها في أدراجها وكانت الصورة تمثّلها منتصبة فوق صخرتها، وهي تبتسم عبر شعرها المتطاير بالريح، وكانت قد أُخذت في نيسان ١٩٣٤، وهو ربيع لا يُنسى. وكان قد أتيح لي، في أثناء رحلة إلى الولايات المتّحدة، أن أقضي بضعة أشهر في «بيسكي». وقد أحبّ كلّ منّا الآخر حبًّا عنيفًا منذ لقائنا الأوّل. وكنت قد تزوّجت، ويا للأسف، وكانت قد خُطبت لهاز، ولكن بعد عودتي إلى أوروبا تبادلنا

الرسائل سرًّا بفضل وساطة صديق مخلص لم يعد اليوم على قيد الحياة. وهمست جان بأنّها كانت قد سمعت شائعات حول هذا الموضوع، وأخذت تتأمّل الصورة، ثم بسطتها لجون من غير أن تكفّ عن النظر إليها. وقد نزع جون غليونه من فمه ليتأمّل بدوره شارلوت بيكر الجميلة الجريئة، ثم ردّ لي صورتها، وتركاني بضع ساعات. وفي الكهف كانت لويز السعيدة قد بدأت تهمهم وتسجع وتناجي راعيها الصغير.

وما كاد السيّد والسيِّدة فارلو يذهبان، حتى مثل أمامي راهب إكليركي ذو ذقن مزرقّ، فجهدت في تقصير اجتماعنا ما وسعني ذلك من غير أن أجرح شعوره أو أثير شكوكه. نعم، سأكرّس حياتي كلّها لإسعاد الغلامة. وللمناسبة، أنظر إلى هذه التعويذة التي أعطتني إيّاها شارلوت بيكر حين كنّا صغيرين. كانت لي قريبة في نيويورك، آنسة مرموقة جدًّا. وسوف نجد هناك مدرسة خاصّة لدولّي. أوه! ما أمهر همبرت هذا!

وفتحت التلفون، ثم تصنّعت أنّي أقوم لمدّة طويلة بمحادثة خارجيّة مفصّلة مع شيرلي هولمس. كلّ ذلك ليسمع لويز ولسلي ويبلّغا جان وجون ما سمعاه (وهما لم يقصّرا في ذلك). وحين عاد السيّد والسيِّدة فارلو وقعا في الفخّ حين أخبرتهما، بعبارات قصدتها أن تكون هستيريّة، أنّ «لو» قد ذهبت في رحلة تستغرق خمسة أيّام مع فريق الصغيرات، وأنّه لم يكن ممكنًا الاتّصال بها

فقالت جان: «ما الذي ستفعله يا إلٰهي؟»

فأجاب بأنّ الأمر في منتهى السهولة: فقد كان يكفي أن نطلب من شرطة «كليامكس» أن تبحث عن فتيات المخيّم، ولن يقتضي ذلك أكثر من ساعة. ثم إنّه كان يعرف المنطقة كما يعرف جيبه و.

وأضاف: «لماذا لا أذهب لاصطحابها بالسيّارة؟ إنّك تستطيع أن تنام

مع جان. .» إنّه لم يقل ذلك تمامًا، ولكنّ جان أيّدت عرضه بحماسة شديدة بحيث إنّ هذا التفسير يبدو صحيحًا).

بيد أنّي كنت قد أوشكت أن أنهار، فرجوت جون أن يَدَع الأمور كما هي، وقلت إنّي لا أستطيع أن أتحمّل على ذراعي فتاة تبكي وتتشبّث بي، ثم إنّها كانت من قابليّة التأثّر بحيث إنّ الصدمة قد تعقب ذيولاً محزنة على مستقبلها، فإنّ حوليّات علم الطبّ النفسي تذكر حالات كثيرة مماثلة». وحدث عند ذاك صمت مفاجئ.

ثم قال جون بلهجة لا تخلو من جفاف: «طبعًا، إنّ هذا أمرٌ يعنيك. ولكنّي بعد كلّ شيء، كنت صديق شارلوت ونصيحها فنحن نودّ أن نعرف ما الذي تنوي عمله بشأن الصغيرة».

وصاحت جان: «إنّها ليست ابنة هارولد هاز، بل هي ابنته! ألم تفهم ذلك؟ إنّ همبرت هو الأب الحقيقيّ لدولّي.

فقال: «فهمت. المعذرة. أجل، فهمت. ولم أكن قد فهمت من قبل. وهذا يسهّل الموقف بالطبع. إنّ لك وحدك أن تقرّر ما يجب عمله».

وصرّح الأب المتأثّر أنّه سيذهب لاصطحاب الفتاة الرخيصة العود بعد المأتم مباشرة، وأنّه سيبذل كلّ جهده ليمنحها جوًّا مناسبًا في إطار مختلف كلّ الاختلاف ـ ربّما كان ذلك رحلة صغيرة إلى نوفومكسيك أو إلى كاليفورنيا ـ هذا إذا لم تقتله الفاجعة.

وتصنّعتُ بتفنن مدروس استرخاء اليأس والهدوء، الذي يسبق انفجار العُته، حتى إنّ السيّد والسيّدة فارلو أنزلاني قسرًا في بيتهما. وكان في بيتهما كهفٌ ممتاز ـ إذا كان بالإمكان التحدّث عن الكهوف في هذا البلد ـ وقد جلب لي ذلك عونًا ثمينًا. فقد كان يستولي عليّ الأرق، ويستولي عليّ طيف.

وينبغي لي الآن أن أشرح الدوافع الحقيقيّة لقراري بأن أُبقي دولوريس خارج القضيّة. فقبل كلّ شيء. بعد أن حُذفت شارلوت وعُدت أجتاز، كأبٍ متحرّر، عتبة البيت وأبتلع قدحي الويسكي المعُدّين وأردفهما بكيلة أو كيلتين من «مزيجي»، وألجأ إلى الحمّام فرارًا من الجيران والأصدقاء ـ كانت هناك فكرة واحدة تتملّك ذهني ودمي ـ فبعد بضع ساعات على الأكثر، ستكون لوليتا، وقد عادت محرقةً مكلّلة بذهب مظلم، ستكون لي، لي، لي، بين ذراعيّ، تذرف دمعًا سأجفّفه بقبلاتي بأسرع ممّا ينذرف. ولكنّي إذ كنت أترنّح أمام المرآة، وقد جحظت عيناي، وتقرمز خدّاي، طرق جان فارلو الباب بلطف ليسألني هل أشكو شيئًا، فأدركت على الفور أنّ من الجنون أن أستقدم «لو» إلى هنا، بين هؤلاء الفضوليّين الذين ينغلون في البيت ويتآمرون على انتزاعها منّي. والأسوأ أنّ «لو» نفسها، حبيبتي العصبيّة دولّي، قد تُظهر (من يدري؟) احتراسًا وحذرًا مفاجئين، أو نفورًا مباغتًا، أو خوفًا شديدًا فتتلاشى الغنيمة السحريّة في لحظة النصر نفسها

وما دمت أتحدّث عن الفضوليّين المزعجين، أقول إنّي استقبلت زائرًا آخر، هو الصديق «بيل» الرجل الذي حذف زوجتي. وقد أدخله عليّ جون الذي ما لبث أن انسحب وأغلق علينا الباب بمهارة ممتازة. فإذا أنا أمام رجل ذي جاه، عجينيّ، يشبه قليلاً مساعد جلّاد في مسرح، بما له من خدّين متدلّيين، وعينين سوداوين، وأنف كبير ونظّارات سميكة. وفيما كان يروي لي بصوت عذب أنّ توأميه جاك وماري كانا في صفّ واحد مع ابنة زوجتي، فتح لي ورقة طويلة رسم عليها خطًّا بيانيًّا طويلاً عن الحادث، بألوان كثيرة من الأسهم والخطوط المنقّطة بحبرٍ ملوّن. وقد قام هو نفسه بهذا الرسم الذي يعتبر «عملاً طيّبًا» إذا أردت أن أستعمل لغة ابنة زوجتي. وكانت مختلف مراحل المسافة التي قطعتها السيّدة هـ .هـ. ممثّلاً عنها بدمية صغيرة من تلك الدمى الرصاصيّة التي تساعد ـ عيانيًّا ـ على فهم

الإحصاءات. وكان هذا المحور يتّصل ـ في دقّة قاطعة ـ بخطّ انحنائي يعبّر عن رمزين متتابعين: الأوّل يمثّل انعطاف سيّارة الماليّة لتفادي كلب بائع الحديد، والثاني كان امتدادًا مبالغًا فيه للأوّل، مهمّته تفادي الفاجعة. وكان صليب شديد السواد يسجّل نقطة الرصيف التي وجد فيها الطيف الصغير راحته الأبديّة. وفتّشت بنظري عن إشارة مماثلة تدلّ على المنطقة التي وجدنا فيها والد زائري الشمعي منبطحًا، ولكنّي لم أجد أيّ أثر لذلك. وعلى العكس، فإنّ هذا السيّد قد وقّع هذه الوثيقة بصفة شهادة وأخذ تواقيع لسلي وتومسون و«آنسة البيت المقابل»، وبعض المواطنين الآخرين.

كان فريدريك، والقلم في يده يثب هنا وهناك على الخطّ البياني كأنّه عصفور نقّار نشيط ودقيق، يدلّل على براءته المطلقة وعلى جسارة زوجتي المجنونة: ففي اللحظة الذي كان يتفادى فيها الكلب، انزلقت على الإسفلت المرويّ حديثًا، وارتمت إلى الأمام بدل أن ترتمي إلى الخلف (ومثَّل «فريد» هذا كلّه وهو يلوي كتفيه المحشوّتين). ولقد رافقته على أنّه لم يكن قطّ مسؤولاً، وأثبت التحقيق رأيي.

وهزّ رأسه ويدي في حركة واحدة، وهو ينفخ نفخًا شديدًا من منخريه المزيّنين بنقاط سوداء. ثم أعلن استعداده، في اندفاعة تأدّب مثاليّة وكرمٍ أرستقراطيّ، عن دفع تكاليف الدفن. وكان يتوقّع أن يراني أرفض. ولكنّي قبلت في شهقة عرفان سكرى، فظلّ من ذلك مبهوتًا. وفيما هو يلحظ إليّ غير مصدَّق، ردَّد كلماته بصوت بطيء. فشكرته مجدّدًا وأنا أضاعف له التحيّات.

وكان من شأن هذه المقابلة أن تزيل، لفترة من الزمن، تلبّد روحي. فمن الذي يدهش لذلك؟ لقد قابلت مساعد القَدَر الحقيقيّ. بل أكثر من ذلك: لقد تلمّست لحم القدر وعظمه نفسه ـ وكتفيه المحشوّتين. لقد جرى تبديل عظيم، فجائي وشيطاني، وقد عُرضتْ آلة هذا التبديل على بصري.

وخلف تعقّد السيناريو (زوجة مستعجلة، طريق زلقة، كُليب لا يُحتمل، منحدر وعر، سيّارة ضخمة، قرد وراء المقود) تميّزت بغموض مشاركتي الشائنة. فلو لم أكن من الحمق ـ أو من الحدس العبقريّ ـ بحيث أحتفظ بتلك المفكّرة، فإنّ السوائل التي أفرزها الغضب المنتقم والخجل الملتهب، ما كانت لتعمي شارلوت في ركضها نحو علبة البريد. وحتى وقد أعماها ذلك، ما كان لشيء أن يحدث لها لو أنّ القدر الدقيق، هذا الطيف المتواقت، لم يحرِّك في أنبيقها السيّارة والكلب والظلّ والشمس والغضب والشارع والزفت والماء. وداعًا يا مارلين! إنّ قبضة يد القدر (التي بُسطت لي بواسطة «بيل» ساعة ذهابه) قد أخرجتني من الخدر الذي كنت فيه، فأخذت أبكي. سيّداتي وسادتي القضاة ـ لقد بكيت.

٢٤

حين ألقيتُ نظرةً أخيرة حولي، كانت شجرات الدردار والصفصاف تطوي ظهورها المتموّجة تحت لفحة ريح مفاجئة، وكانت غيمة مثقلة بالمطر تحلّق فوق برج «رامسدال» الأبيض. لقد غادرت البيت القبيح الذي نزلت فيه منذ شهرين، متّجهًا نحو مغامرات مجهولة. وكانت الستائر ـ الستائر السهلة الرخيصة ـ قد أسدلت. وللإسهاب في البيان نقول: إنّ تلك الأقمشة الغنيّة تمنح المأساة العصريّة معناها وحدودها، وبالمقارنة ينبغي لبيت السماء أن يبدو عاريًا تمامًا وسقطت قطرة مطر على سلاميّات فعدت إلى البيت، من غير أن أعرف السبب، بينما كان جون يراكم أمتعتي في السيّارة، ثم حدث شيء غريب في تلك اللحظة. لست أدري هل وصفت وصفًا كافيًا في هذه المذكّرات الفاجعة، التأثير الجسميّ العميق للمؤلّف على النساء من جميع الأوساط وفي جميع

الأعمار. ومن اليقين أنّ مثل هذه التأكيدات التي تطلق باسم المتكلّم تبدو مضحكة بعض الشيء على أنّه ينبغي لي، بين وقت وآخر، أن أذكّر القارئ بهيبة أسلوبي، شأني في ذلك شأن كاتب الروايات المتسلسلة الذي يضفي على إحدى شخصيّاته عاهة أو كلبًا، وعليه أن يذكر هذا الكلب أو تلك العاهة كلّما عاد ذلك الشخص إلى الظهور في أثناء الكتاب. غير أنّ لإلحاحي في الحالة الحاضرة أسبابًا أعمق. وأنّ على من يودّ أن يفهم قصّتي بوضوح أن يحتفظ بذهنه بلا انقطاع بصورة سحري الكئيب بعض الشيء. لقد كانت «لو» المراهقة تُصاب أمام جواذب همبرت بمثل ما كانت تُصاب به من جذل وإغماء أمام الموسيقى الصاخبة المرهقة، وكانت «لوت» البالغة تحبّني بهوس أوفر نضجًا، هوس امتلاكيّ لا أجرؤ على أن أقول إلى أيّ حدّ أحترمها من أجله وأرثي لها اليوم. ويبدو أنّ جان فارلو ــ وهي في الواحدة والثلاثين، عصبيّة نسبيًّا ــ قد سقطت هي أيضًا تحت تأثيري. وهي لم تكن خالية من الجمال ــ جمالٌ مقرّن لطوطم من الخشب المحفور ــ وكانت لها بشرة محروقة وشفتان تشبهان نوعًا من الكرز القرمزيّ، وحين تضحك (كما يلغ كلب) كانت تكشف أسنانًا طويلة باهتة ونيرتين صفراوين.

وكانت طويلة جدًّا، وكانت ترتدي إمّا بنطلونًا وحذاء مقطّعًا، وإمّا تنّورة واسعة ونعلاً بحريًّا، وكانت تستطيع أن تبتلع أيّة كمّيّة من أيّ مشروب، وكانت قد أجهضت مرّتين، وكانت ترسم، كما هو معلوم الآن، بحيرات ومناظر، وكانت تدغدغ السرطان الذي قتلها حين أصبحت في الثالثة والثلاثين، وكانت توحي لي لامبالاة ليس لها من علاج. فاحكموا إذن على جنوني حين كنّا معًا عند المدخل، فإذا هي تأخذ صدغيّ بين أصابعها المرتجفة أبدًا، وكانت عيناها الزرقاوان غارقتين بالدمع، وإذا هي تحاول ــ من غير نجاح ــ أن تلتصق بشفتيّ. وقالت لي وأنا أهمّ بالرحيل:

«ليحفظك الله. قبِّل عنِّي ابنتك».

وانفجر رعدٌ شديد خلال البيت، وأضافت:

«قد نلتقي ذات يوم، لا أدري أين ولا متى، في وقت أقلّ قسوة». (جان: حيثما وكيفما كنت الآن ـ مدى ـ زمان سلبيّ، أو روح ـ زمان إيجابيّ ـ سامحيني على هذا كلّه، بما في ذلك هذان الهلالان).

وبعد لحظة، شدّ جون وجان على يدي في الشارع، الشارع الوعر الذي كان كلّ شيء فيه يتطاير ويستدير أمام الطوفان القريب، وكانت شاحنة تحمل من فيلادلفيا فراشًا موشّى تتدحرج على ثقة نحو بيتٍ خالٍ، وكان الغبار يعدو ويتطاير فوق بلاط الإسمنت حيث ظهرت لي شارلوت حين رفع المعطف، منطوية على نفسها، لم يمسّ عينيها أذى، وكان جفناها السوداوان لا يزالان رطبين وملتصقين كجفنيكِ يا لوليتا

٢٥

لعلّ هناك من يتصوّر أنِّي، وقد تحرّرت من جميع العقبات وتمتّعت بنعمة إمكانيّة غبطة لا محدودة هاذية، استعدت أخيرًا حواسّي بتنهّدة عزاء منتشية، لا على الإطلاق! فبدلاً من أن أستسلم لشعاعات الحظّ الباسم، كانت تتملّكني ألوف الشكوك والمخاوف الظرفيّة. فمثلاً ألَّا يعجب الناس أن تكون «لو» قد أُبعدت إبعادًا حاسمًا عن الحفلات العائليّة سواء كانت مهرجانيّة أو جنائزيّة؟ تذكّروا أنّها لم تحضر العرس. وشيء آخر لنفترض أنّ المصادفة هي التي بسطت حقًّا ذراعها الطويلة المشعرة لتحذف امرأة بريئة، فكيف نعرف إذا كانت هذه المصادفة نفسها لم تغلق، في لحظة بربريّة، عينيها عن تصرّفات ذراعها الأخرى، فوضعت قبل الأوان في يدي «لو» ورقة نعي؟ كنت أعلم أنّ «الغازيت»، جريدة رامسدال، هي

وحدها التي نشرت خبر الحادث، فلم تتحدّث عنه جريدة «روكردر» في «باركنغتون» ولا «الهيرالد» في «كليمكس»، باعتبار أنّ مخيّم كيلت قائم في ولاية أخرى، وأنّ أخبار الوفيّات المحلّيّة لا تحمل أيّ فائدة صحفيّة على الصعيد الوطنيّ، ولكنّي لم أكن أستطيع أن أمتنع عن التفكير بأنّ دولّي هاز كانت مطّلعةً على النبأ بطريقة ما، وأنّني، في اللحظة التي قصدت فيها مخيّمها لاصطحابها، كان بعض الأصدقاء الذين أجهلهم، يعودون بها إلى رامسدال. غير أنّ هذه الشكوك والمخاوف كانت تتملّكني أقلّ ممّا تتملّكني فكرة أنّ همبرت همبرت المهاجر ذا الأصل الأوروبيّ الغامض والمواطن الأميركيّ الحديث العهد لم يقم بأيّ مسعى للحصول على الوصاية الشرعيّة على الفتاة القاصرة (اثني عشر عامًا وسبعة أشهر). أتُراني كنت أجرؤ على القيام بمثل هذه المساعي؟ كنت أرتجف رعبًا إذ أتمثّلني عاريًا تطاردني مواضعات القوانين العجيبة. لقد كانت خطّتي أثرًا رائعًا من آثار الفن البدائي: الإسراع إلى مخيّم كيلت، إخبار لوليتا أنّ أمّها ستجري جراحة خطيرة في مستشفى خياليّ ثم اصطحاب جنّيّتي الناعسة من فندق إلى فندق، بينما تستعيد أمّها صحّتها شيئًا فشيئًا ثم تموت فجأة. ولكن ضيقي كان يزداد في كلّ دورة عجلة. فإنّي لم أكن أستطيع تحمّل التفكير بأنّ لوليتا ربّما تكون قد غادرت المخيّم أو أن أجد بدلاً منها لوليتا أخرى تطالب، بصخب، حضور صديق قديم للعائلة، ليس هو من آل فارلو، ولله الحمد، فإنّها لا تكاد تعرفهم ـ ولكن قد يكون هناك آخرون لم أسمع بهم قطّ. وعزمت أخيرًا على أن أقوم بالمخابرة التلفونيّة التي كنت قد مثّلتها تمثيلاً موفّقًا قبل ذلك بأيّام.
وكانت السماء تمطر بشدّة حين أوقفت سيّارتي إزاء رصيف، في ضاحية موحلة من باركنغتون، قُبيل تفرّع الشارع (ذلك التفرّع الذي كان أحد طرفيه يحيط بالمدينة ليلتقي الطريق الذي كان يجتاز الروابي المشرفة على

بحيرة كليماكس ومخيّم كيلت) وأوقفتُ المحرّك وظللتُ لحظة طويلة جامدًا وراء المقود، متسلّحًا بالشجاعة، وجعلتُ أحدّق بالمطر وبالرصيف الغارق، محترق الفم ـ شيطان رجيم مصبوغ بالفضّة وبالحمرة الكثيفة، يبسط بقايا أعضائه المحمرّة تحت طلاء المطر الذي كان يسيل قطرات دم على سلاسله. وليس غريبًا أن يكون إيقاف السيّارات أمام تلك الزعانف الكابوسيّة ممنوعًا ولذلك حرّكت السيّارة وتدحرجت على مهل حتى محطّة بنزين. وتناولت التلفون، وحين سمعت أخيرًا قطع النقود تتدحرج، وسُمح لصوتٍ أن يجيب على صوتي، كشف لي القدر عن مفاجأة من مفاجآته.

لقد أخبرتني هولمس، مديرة المخيّم، أنّ دولّي كانت قد ذهبت قبل يوم الإثنين (وكان اليوم الأربعاء) في رحلة تسلّقيّة مع فرقتها، ولن تعود إلّا في ساعة متأخّرة من المساء. فهل أتلطّف بالعودة غدًا، وما عساه يكون السبب؟ ومن غير أن أدخل في التفاصيل، شرحت لها أنّ أمّ دولّي كانت في المستشفى، وأنّ الموقف حرج، ولكن يجب ألّا تطلع الغلامة عليه، وأنّ على دولّي أن تتهيّأ للذهاب معي بعد ظهر الغد. وافترق صوتانا في انفجار ودّي حارّ، ولا أدري بأيّ خطأ آليّ عادت جميع قطع النقود فسقطت من يدي مرّة أخرى، في ضجّة علبة آلة نقديّة تصبّ الجائزة الكبرى، وقد كدت أنفجر ضاحكًا بالرّغم من خيبتي في إرجاء شهواتي. وإنّني أتساءل أَلم يكن هناك صلة دقيقة، في ذهن ماك فاتوم، بين هذا التدفّق غير المنتظر، هذا الجواب التشنّجيّ، وبين كوني قد اختلقت هذه الرحلة الصغيرة قبل أن أعرف أنّها ستحدث بالفعل.

وبعد ذلك؟ بعد ذلك قصدت حيّ باركنغتون التجاري (وكانت السماء قد انقشعت وبدا على المدينة التي لا تزال رطبة من المطر أنّها مبنيّة من البنفسج والزجاج) وقضيت بعد الظهر وأنا أشتري هدايا جميلة لـ «لو».

وهل أتحدّث عن المشتريات السخيفة التي أوحاها حبّ التفضيل الذي كان لدى همبرت في ذلك الوقت للأقمشة الإسكتلنديّة والقطنيّات ذات الألوان الفاقعة والدوائر والأكمام القصيرة المنتفخة، والثنايا اللذيذة والقمصان والتنانير ذات السعة السخيّة؟ أوه، ألم تكوني يا لوليتا، في الوقت نفسه، ابنتي وحبيبتي كما كانت فرجينا «بو» وبياتريس «دانت» ـ وأيّ فتاة صغيرة لا تحبّ أن تدور على رجل واحدة في دوّامة من الأقمشة والتنانير؟ أكنت أرغب في شيء خاصّ؟ (هكذا كانت تسألني أصوات ساحرة) تبّانات للبحر؟ إنّ عندنا منها ألوانًا مختلفة: ورديّة حالمة، سوداء لامعة ـ وثياب اللعب؟ وقمصان الليل؟ لا حاجة إلى قمصان الليل: فقد كنّا، «لو» وأنا نستفظعها.

وكان خير دليل لي في هذا الميدان لائحة القياسات الجسميّة التي كانت قد رسمتها شارلوت في عيد ميلاد «لو» الثاني عشر (ولم ينس القارئ كتاب «نموّ ابنك») وكنت أشعر أنّ أمّها، بدوافع غامضة من الحسد والبغض، قد أضافت كيلوغرامًا هنا وسنتمترًا هناك. ومع ذلك، ولعلمي بأنّ جنّيّتي قد نمت خلال الأشهر السبعة الأخيرة، حسبت أنّ باستطاعتي أن أعتمد على قياسات كانون الثاني: دورة الخاصرتين: ٧٣ سنتم: دورة الردف تحت شقّ المؤخّرة تمامًا ٤٣، دورة ربلة الساق، ودورة العنق ٢٨. دورة القامة ٥٨، الصدر ٦٨، دورة الذراع تحت الإبط ٢٠، القامة ١,٤٥م. الوزن ٣٥ كيلو، قاسم الذكاء ١٢١، زائدة دوديّة حاضرة، الحمد لله.

بكلّ تأكيد، من غير هذه الأرقام، كنت «أرى لوليتا بذهني بصفاء مهووس» وكنت أغذّي بحبّ عميق ذلك التنمّل الرقيق حيث أسندت جبينها الحريري عند مستوى قلبي من الصدر. وكنت أحتفظ بطابع جسمها الفاتر في حجري (حتى إنّي كنت أحمل لوليتا فيّ كما تحمل امرأة طفلاً) ثم إنّي

لم أدهش قطّ إذ لاحظت فيما بعد أنّ حساباتي كادت تكون مطابقة للواقع. ثم إنِّي كنت قد درست مطوّلاً مجموعة من الموضة الصيفيّة فتفحّصت بسلطة عالم مجرّب مجموعة من الحاجات الفاتنة ومن الجرابات الرياضيّة والأحذية الصيفيّة. وقد قصرت البائعة التي كانت تدير هذه المشتريات الدقيقة (وكانت مزيّنة ترتدي السواد) قصرت الأوراق التي تسجّل المبيعات على تلميحات تجاريّة من مثل: قامة فتاة قصيرة. وبدت بائعة أخرى أكبر منها سنًّا، وكانت ترتدي ثوبًا أبيض وتتزيّن بزينة كثيفة جدًّا، بدت متأثّرة كلّ التأثّر بحسّ الأناقة عندي فيما يخصّ الأجسام الصغيرة! أتكون عشيقتي قزمة؟ وحين قدّموا لي تنّورة ذات جيبين (لذيذين) من الأمام، طرحت سؤالاً تقصّدت أن يكون ساذجًا ليكون الجواب عليه بيان كيفيّة عمل السحّاب الخلفيّ. وبعد ذلك أصبت جذلاً كبيرًا عند استعراض السراويل الصغيرة القصيرة، أشباح صغيرة للوليتا الراقصة، المتململة، القائمة القاعدة. وقد كلّلنا الصفقة بشراء منامة طاهرة كانت شائعة الأسلوب من القطن المخطّط من طراز «وكيل جزّار». همبرت، الجزّار العصريّ!

هناك ما لست أدريه من الأسطوريّ والساحر في جوّ هذه المخازن الكبرى حيث تستطيع كلّ عاملة أو سكرتيرة، إذ صدّقنا الإعلانات، أن تشكّل جهازًا كاملاً (من المكتب حتى الصالون) بينما تأتي أختها الصغيرة لتحلم باليوم الذي ستتمكّن فيه، إذ تحصل على سترتها الصوفيّة من إثارة شهوة التلاميذ الذكور الجالسين في آخر الصفّ. وكان أولاد من المادّة المطّاطة، بالأحجام الطبيعيّة، وهم ذوو وجه حيوانيّ وأنف مشمّر وخدود زيتونيّة صفراء، يدورون حولي. ولاحظت أنِّي كنت الزبون الوحيد في هذا المكان الجنّيّ حيث كنت أنتقل كسمكة في الحوض الأخضر. وكان يخيّل إليّ أنِّي أرى شكوكًا غريبة تعبر أذهان هؤلاء السيّدات الناعسات اللواتي كنّ يواكبني من طاولة إلى طاولة، وكانت الأحزمة والأقراط والأساور التي

كنت أختارها تبدو كأنّها تنزلق من أيديهن الحوريّة إلى موجة شفّافة. واشتريت أخيرًا محفظة أنيقة ضمّنتها جميع كنوزي ثم قصدت أقرب فندق وأنا شديد الفرح بيومي.

وبتسلسل خفيّ لا شكّ أنّه صادر عن بعد ظهر هذا اليوم العذب الشاعري الملآن بالمشتريات الدقيقة، تذكّرت ذلك الفندق ذا الاسم البهيج «الصيّادون المسحورون» الذي كانت قد ذكرته شارلوت قبل تحرّري. وقد علمت من دليل للرحلات أنّ ذلك الفندق يقوم في «بريسولند» وهي ضيعة صغيرة على بعد أربع ساعات بالسيّارة من مخيّم «لو». ولم أجرؤ على مخابرة الفندق، خشية ألّا أستطيع التحكّم في صوتي وأن أنطق بوقوقات لا معنى لها، ففضّلت أن أحجز برقيًّا غرفة مع سريرين لمساء اليوم التالي. وأيّ أمير ساحر عجيب كنته! أمير يحمل على السخرية وهو متردّد عديم الحذق. وكم سيضحك منّي قرّائي إذا عرفوا المشقّة التي كلّفتني إيّاها هذه البرقيّة، بأيّ عبارات أحرّرها؟ همبرت وابنته. همبرغ وفتاة صغيرة؟ هومبورغ وفتاة غير بالغة؟ همبورغ وفتاة قاصرة؟ إنّ الخطأ السخيف (هذه الـ «غ» في آخر اسمي) الذي وقع فعلاً في أثناء النقل ربّما كان صدًى تلباثيًّا لذبذباتي.

وفيما بعد، في مخمل الليلة الصيفيّة المظلمة، تملّكني هذا الشراب الذي كنت أخفيه. أوه. يا لهمبورغ البخيل! ألم أكن أنا نفسي صيّادًا مسحورًا أتأمّل هذه الزجاجة من المؤن السحريّة؟ أأمنح نفسي حقّ ابتلاع أحد هذه الأقراص من الجمَسْت لطرد شيطان الأرق؟ كان معي منها أربعون قرصًا، أربعون ليلة بالقرب من غلامة نحيلة راقدة عند خاصرتي، فهل أستطيع أن أحرم نفسي من إحدى هذه الليالي لكي أنام؟ بالطبع لا كنت أعرف أكثر ممّا ينبغي ثمن كلّ حبّة صغيرة، كلّ نظام ميكروسكوبي تواكبها مجرّتها الحيّة. أوه، دعوني أكون عاطفيًّا ولو مرّة. إنّني تعب جدًّا من هذا القناع من الوقاحة.

في الهواء الكثيف لهذه الغرفة القبريّة، كنت معذّبًا بصداع مستمرّ، ولكن عليّ أن أتابع. لقد كتبت أكثر من مئة صفحة ولم أقل بَعدُ شيئًا إنّ التواريخ تختلط في ذاكرتي. ولا بدّ أنّ ذلك كان حوالى ١٥ آب ١٩٤٧. إنّي أخشى ألّا أستطيع المضي حتى النهاية. القلب، الرأس ـ كلّ شيء. لوليتا، لوليتا، لوليتا، لوليتا، لوليتا، لوليتا، لوليتا، لوليتا، لوليتا. ويا سيّدي الطابع تفضّل بتكريرها حتى أسفل الصفحة!

٢٧

ما زلت في «باركنغتون». نجحت أخيرًا في اختلاس ساعة نوم انتزعني منها صراع مزعج ومرهق جدًّا مع خنثى ضئيلة لا أعرفها لا من حوّاء ولا من آدم. ولم تكن الساعة قد بلغت السادسة صباحًا، ولكنّي رأيت فجأة أنّ من الأفضل أن أصل قبل الساعة المحدّدة. وكان بين باركنغتون والمخيّم زهاء مئة وخمسين كيلومترًا. وكان يبقى لي بعد ذلك مثل هذه المسافة على الأقلّ لأجتاز سلسلة جبال «هازي» وأبلغ بريسولند. وكنت قد أعلنت أنّي سأصل بعد الظهر لأنّ خيالي ذا الأهواء كان يطلب أن ينغلق الليل الرحيم بأبكر ما يمكن على مخاوفي. وأنا أتنبّأ الآن بجميع ألوان سوء التفاهم؛ وأرتعش إذ أفكّر بأنّ تأخّري قد يدفع «لو» للاتّصال برامسدال تخديرًا لانتظارها المتعطّل، ومع ذلك فحين أردت أن أبدأ مسيري في الساعة التاسعة والنصف مساء، وجدتني أمام بطّاريّة مَيْتَة، وكانت الشمس قد بلغت سمتها حين غادرت أخيرًا باركنغتون.

وبلغت مقصدي حوالى الساعة الرابعة عشرة والنصف، فأوقفت سيّارتي في غابة صنوبر حيث كان شيطان صغير أحمر ذو قميص أخضر يتسلّى بقذف أنعال حصان حول وتد، واسترشدت بمعلوماته الناقصة، فطرقت باب

المكتب الواقع في مقصورة ذات طابق واحد مطليّ الجدران، وهناك، كنت في شبه احتضار، وأنا أنتظر بضع دقائق أن تطلّ مديرة المخيّم، وهي امرأة ذابلة ذات شعر بلون الصدأ وقد قالت إنَّ دولّي قد أعدَّت حقيبتها وهي على أهبّة الذهاب. وكانت تعرف أنّ أمّها مريضة ولكنّها كانت تجهل خطورة الموقف. وهل يودّ السيّد هاز، عفوًا السيّد همبرت، أن يلتقي ناظرات المخيّم، أو يلقي نظرة على مخادع الفتيات (وكلّ واجد منها مخصّص لشخص من أشخاص والت ديزني)؟ أو يزور «الويغوام» أم يفضّل أن نرسل شارلي لاصطحاب دولّي؟ لقد أنهت الصغيرات الآن تزيين غرفة الطعام لحفلة الصغار الراقصة. (فيما بعد، ستروي لإحدى موظّفاتها دون ريب: «إنّ المسكين لم يكن إلّا شبح نفسه»).

اسمحوا لي أن أقف قليلاً عند هذا المشهد، في كلّ تفاصيله المبتذلة: هولمس العجوز وهي تكتب وصلاً، وتحكّ رأسها، وتفتح درجًا في مكتبها، وتغرق راحتي النافدة الصبر بقطع نقديّة غطّتها بورقة مفتوحة بعناية وهي تضيف « . وخمسة!»، صور فتيات صغيرات، فراشة، نهاريّة أو ليليّة، ذات ألوان فاقعة، لا تزال حيّة، مسمّرة بقوّة على الجدار («دراسة على الطبيعة») شهادة مدير المخيّم المؤطّرة، يداي المرتجفتان، اللائحة التي كانت تعرضها المديرة النشيطة لتقرأ لي تقريرًا عن سلوك دولّي هاز في شهر تمّوز («لا بأس بها، تقدّم ملحوظ، مغرمة بالسباحة والتجديف») (غناء الأشجار والعصافير، طرقات قلبي. كنت واقفًا موليًا الباب المفتوح ظهري، فجأة تدفّقت موجة من الدم تحت غطاء رأسي حين شعرت بأنفاسها وصوتها خلفي. لقد وصلت وهي تجرّ حقيبة ثقيلة وتصدمها هنا وهناك، وقالت: « . الخير» وظلّت جامدة، وهي تحدّق فيّ بنظرة فرحة وماكرة في وقت واحد، وشفتاها العذبتان مفترّتان عن بسمة ساذجة بعض الشيء ولكنّها لا تقاوم.

كانت قد ازدادت طولاً ونحولاً، وللوهلة الأولى بدا لي وجهها أقلّ جمالاً من الصورة الذهنيّة التي كوّنتها وأحببتها منذ شهر: كانت وجنتاها تبدوان أكثر تجويفًا، وكانت ألوف من نقط النمش تغطّي ملامحها الورديّة، وهذا الانطباع الأوّل (المسافة الإنسانيّة الضيّقة بين نبضتين من نبضات الوحش) كان يوحي بأنّ همبرت همبرت، الأرمل المسكين، لم يكن أمامه أيّ حلّ، وأيّة رغبة وأيّ مشروع إلّا أن يمنح هذه الصغيرة الباهتة تحت هالة الشمس، هذه اليتيمة ذات العينين الناعستين (حتى الظلال المحفورة تحت عينيها كانت مجدورة بالنمش) تربية شديدة، وعهد مراهقة سعيدًا، وبيتًا أبويًّا سليمًا، وأترابًا لها من عمرها ربّما تكون بينهن (إذا تفضّلت الآلهة بالتعويض عليّ). «ماغدلين» صغيرة فاتنة تُمنح للهرّ دكتور همبرت وحده. ولكن هذا الخطّ من المسلك الملائكيّ امّحى «بطرفة عين» كما يحبّ أن يقول الألمان، فتناولتُ فريستي (إنّ الزمن يسبق أوهامنا) وعادت هي حبيبتي لوليتا ـ أجل، حبيبتي لوليتا أكثر من أيّ وقت مضى. ووضعت يدًا على رأسها الأسمر الدافئ، ورفعت محفظتها. وكانت «لو» كلّها لؤلؤًا وعسلاً، ترتدي ثوبها الأوفر دلالاً، المطبّع بإكليل من تفّاح صغير أحمر، وكانت ذراعاها وساقاها بلون الذهب المسمرّ وقد لحقت بها بعض جروح صغيرة، كأنّها خطوط منقّطة مصنوعة من ياقوت مجمّد، وكان جورباها الأبيضان مشدودين إلى الارتفاع نفسه الذي أحفظه في ذكرياتي، وكان حذاؤها المنقّط بالأبيض يبدو أكبر ممّا ينبغي لقدميها وكعبه أطول ممّا يجب. وداعًا أيّها المخيّم «كيلت»، أيّها المخيّم الطيّب القديم! وداعًا أيّتها الأشياء التافهة القذرة! وداعًا أيّها الرفيق شارلي! وجلستْ بالقرب منّي في السيّارة الدافئة، وصفعت الذبابة التي حطّت على ركبتها الرائعة، وفيما هي تعلك بقوّة حبّة من اللادن، أنزلت بخفّة زجاج السيّارة من جانبها واستعادت جلستها المطمئنّة. وانطلقت السيّارة عبر فجوات الغابة ودروبها

وسألتني بلهجة الواجب: «كيف حال أمّي؟».

فأجبتها بأنّ الأطبّاء لم يحدّدوا بعد أسباب مرضها الحقيقيّة. ومهما يكن من أمر، فإنّ مرضها خطير جدًا، وعلينا، بالاختصار، أن نبقى في الجوار فترة من الزمن. والمستشفى قائم في الريف، بالقرب من مدينة «ليبيغفيل» البهيجة، حيث أقام شاعر مشهور في أوائل القرن التاسع عشر، وسنتنقّل فيها عبر جميع دور السينما وقد وجدت الفكرة «مدهشة» وسألت هل نصل قبل الساعة التاسعة مساء. فقلت «سنصل إلى «بريسولاند» قبيل العشاء دون شكّ، وسنزور ليبيغفيل غدًا حدّثيني عن رحلتكِ في الجبل! هل تسلّيتِ جيّدًا في هذا المخيّم؟

ـ هِمْ مم.

ـ هل أنتِ نادمة على تركه؟

ـ هِمْ. مم.

ـ تكلّمي يا لو. ولا تدمدمي. قولي شيئًا

ـ ماذا أقول، يا بابا؟ (تركت الكلمة تتفتّح على شفتيها في سخرية مقصودة).

ـ أيّ شيء.

ـ هل أستطيع أن أدعوك هكذا؟ (قالت ذلك وهي تحدّق في الطريق بعينيها نصف المغمضتين).

ـ بكلّ تأكيد.

ـ إنّ هذا لعجيب، لو تدري! كم مضى من الوقت على غرامك بأمّي؟

ـ ستفهمين ذات يوم، يا لو، قوّة بعض العواطف، وبعض المواقف. من ذلك جمال العلاقات الروحيّة بين الكائنات البشريّة وانسجامها

فأجابت جنّيّتي الوقحة: الله أعلم!

فجوة في الحوار، ملأتها قِطَعٌ من المناظر.

ـ لو، انظري تلك البقرات على الرابية!

ـ إذا رأيت بقرة أخرى، فسوف أتقيّأ

ـ أتدرين يا لو! لقد اشتقت إليك شوقًا مريعًا.

ـ لا أعتقد ذلك. لقد خدعتك بطريقة منفرة. ولكن لا أهمّيّة لذلك لأنّك لم تعد تحبّني على الإطلاق. إنّك تقود السيّارة أسرع من أمّي، أيّها السيّد.

وخففت السرعة من مئة وعشرة إلى ثمانين. من قطار أعمى إلى قطار أعور.

ـ ما الذي يحملك على الظنّ بأنّي لم أعد أحبّك يا لو؟

ـ إنّك لم تحاول بعد حتى أن تقبّلني!

وفيما كان القلب يموت، وفيما كان القلب يهدر، رأيت أمامي فسحة ذات عرض معقول، فقفزت السيّارة وارتجّت وتذبذبت في العشب المجنون. تذكّر أنها طفلة، تذكّر أنّها ليست.

وما كادت السيّارة تجمد حتى طارت لوليتا إلى ذراعَيّ. ولم أجرؤ، ولم أجرؤ على المضيّ ـ لم أجرؤ حتى على أن أسمح لنفسي بالتفكير بأنّ ذلك (تلك الرطوبة الناعمة وذلك الأتون الراعش) كان يسجّل بدء حياة لا توصف، وأنّي تحقّقت من هذا أخيرًا بقوّة إرادتي ورغبتي وبمساعدة القدر ـ لم أجرؤ على تقبيلها حقًّا، فلامست بتقًى لا حدّ له شفتيها المحرقتين اللتين كانتا تنفرجان: نقرة صغيرة ليست شهوانيّة على الإطلاق. ولكنّها هي التي ألصقت فمها بفمي، في رعشة نفاد صبر، وباندفاع شديد حتى إنّي شعرت بزوايا أسنانها وتذوّقت معها عطر ريقها وبكلّ تأكيد لم يكن ذلك بالنسبة

إليها إلّا لعبة بريئة، لونًا من التمثيل لتقليد صورة من الحبّ المزيّف، وكنت أعرف (كما سيؤكّد لك جميع علماء النفس الطبّي وجميع الأعمام الفاسدين) أنّ ألعاب الفتيات هذه لها قوانين وحدود مائعة جدًّا، أو أنّها على الأقلّ من الرهافة والدقّة الطفوليّة بحيث لا يستطيع الشريك البالغ أن يميّزها. ثم إنّني كنت على خشية شديدة بأن أمضي أبعد ممّا ينبغي وأن أراها تتراجع في طفرة من الرهبة والنفور. وأخيرًا، وفوق كلّ شيء، كنت على استعجال مَرضي لأن أدخلها سرًّا في فندق «الصيّادين المسحورين» (الذي كنّا مفصولين عنه تلك الساعة بمئة وثلاثين كيلومترًا تقريبًا). حتى إنِّي قطعت فجأة عناقنا، يدفعني إلى ذلك حدس عجائبي، فبعد لحظة واحدة، توقّفت سيّارة من شرطة الطرق إزاءنا

ونظر إليَّ سائقها، وهو إيرلندي ذو جبين مقطّب قرمزيّ، وسألني: «هل رأيتما سيّارة صغيرة زرقاء كسيّارتكما تجاوزتكما قبل الضاحية؟

ـ لا

وقالت «لو» وهي تنحني فوقي ضاغطة بيدها الطاهرة على ركبتي:

ـ كلّا، يا سيّدي الشرطيّ. ولكن هل أنت واثق من أنّها زرقاء، لأنّ.

ولكنّ الشرطي وهب التلميذة أحلى بسماته واستدار راجعًا.

واستأنفنا سيرنا

وعلّقت «لو»: سخيف أحمق! كان عليه أن يسجّل عليك مخالفة!

ـ ولماذا؟

ـ لأنّه لا يحقّ للسائق أن يتجاوز الثمانين في هذه الولاية السخيفة. و. كلّا أيّها الحطبة الكبيرة، لا تتمهّل في سيرك. لقد ذهب.

فقلت: ما زال أمامنا قسم طويل من الطريق، وأريد أن أصل قبل الليل. حاولي إذًا أن تكوني طفلة صغيرة طيّبة.

فقالت بلهجة مطمئنّة: فتاة صغيرة خبيثة مريعة. طفلة منحرفة ولكنّها لذيذة وبلا مواربة. كان ذلك نارًا حمراء، فأنا لم أرَ في حياتي من يقود السيّارة على هذا النحو.

وعبرنا في صمت ضيعة صامتة.

ـ اسمع! إنَّ أمِّي هي التي سيجنّ جنونها إذا عرفت أنِّي عشيقتك!

ـ بربّك يا «لو» لا تتكلّمي هكذا!

ـ ولكنّه صحيح. ألستُ عشيقتك؟

ـ ليس لي علم بذلك. أعتقد أنّ السماء ستمطر مرّة أخرى. ألا تريدين أن تروي لي جميع الحماقات التي قمتِ بها في المخيّم؟

ـ إنّك تتحدّث كأنّك كتاب، يا بابا

ـ ماذا عملتِ؟ أريد أن تقولي لي ذلك.

ـ ولكنّك سريع التأثّر؟

ـ كلّا، تكلّمي.

ـ قف في ممرّ خالٍ، سأقول لك كلّ شيء.

ـ أطلب إليك يا «لو» بإلحاح أن لا تتصنّعي أنّكِ حمقاء. وإذًا؟

ـ إذن شاركت في جميع النشاطات التي طُلبت منّي.

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك؟ تعلّمت أن أسوق حياة مرحة وكريمة وأن أنمّي، بالاحتكاك مع الآخرين، شخصيّة سليمة وقويّة لأصبح ملاكًا حقيقيًّا صغيرًا.

ـ نعم، قرأت شيئًا من هذا في الدفتر.

ـ كنّا نحبّ أن نغني في جوقة، ونحن جالسات أمام المدخنة الحجريّة الكبيرة، أو حول نار المخيّم تحت نجوم الربّ الرحيم، وكانت كلّ فتاة تمزج بأصوات زميلاتها أصداء روحها الجذلة.

ـ إنّ لك ذاكرة ممتازة يا «لو»، ولكنّي أرجوك أن تدعي التجديفات جانبًا شيء آخر؟

فتمتمت: لقد تبيّنت شعار الكشّافات. إنّني أكرّس حياتي لأعمال خصبة مثل. لنتجاوز ذلك. إنّ واجبي هو أن أكون نافعة. إنّني صديقة جميع الحيوانات الذكور. وأنا أطيع الأوامر. إنّ مزاجي هادئ. كانت هذه سيّارة شرطة أخرى. إنّ جسمي سليم وأنا فاجرة تمامًا في أفكاري وكلماتي وأفعالي.

ـ آمل أنّكِ لم تنسي شيئًا أيّتها الصبيّة الخفيفة الروح.

ـ لم أنس شيئًا. بلى، انتظر. لقد طبخنا حلويات في فرن شمسي وكان ذلك عظيمًا

ـ أنا أفضّل مثل هذا الحديث.

ـ وغسلنا صحونًا كثيرة. آه نعم. شيء أخير، لتحلية الفمّ كما تقول أمّي. لننظر! ما هو؟ نعم. لقد عملنا ظلالاً صينيّة وما كان أمتع ذلك!

ـ هذا كلّ شيء؟

ـ نعم. باستثناء حيلة صغيرة، شيء لا أستطيع أن أحدّثك عنه مطلقًا من غير أن أحمرّ من رأسي إلى قدميّ.

ـ ستحدّثينني عن ذلك فيما بعد، أليس كذلك؟

ـ نعم. شرط أن نكون في الظلام، وأن أهمس لك به في جوف أذنك. هل أنت تنام في غرفتك القديمة، أم في السلّة نفسها مع الماما؟

ـ في الغرفة القديمة. من الممكن أن تُجرى لأمّك جراحة خطيرة جدًّا يا «لو»!

وقالت: هل تريد أن تقف لحظة أمام بائع المثلّجات هذا؟

وقفزت لوليتا إلى طاولة عالية فرأيت ذراعها العارية البرونزيّة وقد لوّحتها أشعّة شمس خفيفة، فطلبت قطعة مثلّجة مختلفة الألوان والطعم، وقد حمل هذا الأثر النفيس شابّ طويل مُزرّر، مضغوط العنق في عقدة ملطّخة بالدهن، وقد حدج الغلامة النحيلة في ثوبها الصغير المطبَّع بنظرة طمع واضحة. وكنت أزداد تعجّلاً للوصول إلى «الصيّادين المسحورين» أكثر فأكثر. ومن حسن الحظّ أنّ «لو» التهمت بسرعتها المعهودة قطعة المثلّجات.

وسألتها: «كم معكِ من المال». فقالت بحزن وهي ترفع حاجبيها وتريني جوف محفظتها: «ولا درهم».

فقلت بصوت خبيث: سنحلّ هذه المشكلة في الوقت المناسب. هل أنتِ مستعدّة؟

ـ انتظر، أريد أن أذهب إلى التواليت.

فقلت بحزم: لا هنا. لا هنا إنّ هذا مكان قذر بدون شكّ، هيّا تعالي.

وكانت بالإجمال صبيّة وادعة جدًّا، وحين عدنا إلى مقعدنا في السيّارة لامست عنقها بقبلة.

فصاحت بي وهي ترميني بنظرة اندهاش غير مصطنع على الإطلاق:

ـ «لا تفعل هذا. وكُفّ عن أن ترشّني بلعابك، أيّها العجوز المنفِّر!».

وفركت عنقها بكتفها المرتفعة.

وتمتمتُ: سامحيني. إنّ كلّ ما في الأمر إنّي أكنّ لكِ كثيرًا من الحنان.

وارتقت السيّارة، تحت سماء حزينة، شاطئًا متعرّجًا، ثم هبطنا المنحدر المقابل.

ـ «طيّب. وأنا أكنّ لك حنانًا أيضًا». قالت ذلك بهدوء، وبصوت ناعم.

وبمثل تنهّدة، ربضت إلى صدري.

(أوه، أتُرانا لن نصل أبدًا يا حبيبتي لوليتا؟).

وكان الشفق قد بدأ يغمر «بريسولند» الجميلة ومقصوراتها ذات الأسلوب الاستعماريّ ومخازنها الملأى بالآثار القديمة وأشجارها المستجلبة، حين اجتزنا شوارعها المضاءة إضاءة سيّئة بحثًا عن فندق «الصيّادين المسحورين». وكان النسيم فاترًا أخضر متلألئًا برذاذ ملح، وكانت جماعات من الناس معظمهم من الأولاد والشيوخ واقفين عند نافذة إحدى دور السينما كانت واجهتها تقطر بالجواهر الكهربائيّة.

«أوه! أريد أن أشاهد هذا الفيلم. فلنذهب إليه مباشرة، بعد العشاء. أتريد ذلك؟».

ـ «ربّما». قالها همبرت مغنّيًا وهو يعلم ـ الماكر الشيطانيّ المنتفخ! ـ أنّها في الساعة التاسعة مساء، حين يبدأ الفيلم الهمبرتي، ستكون ميّتة بين ذراعيه.

وصاحت «لو»: «انتبه!» وانقذفت إلى أمام في اللحظة التي توقّفت فيها الشاحنة الملعونة التي كانت تتقدّمنا، وكان ضوؤها الخلفيّ ينوس.

ولو لم نكن بالغين بعد لحظة المنعطف التالي، بأعجوبة، لما أمكنني ـ كما شعرت ـ أن أوقف سيّارة شارلوت بفراملها العجيبة. وكان المارّة

الذين كنت أسألهم عن الطريق، غرباء هم أيضًا عن البلدة، أو أنّهم كانوا يجيبون، وهم يقطّبون حواجبهم: «الصيّادون الـ ماذا؟» كما لو أنهم يتحدّثون إلى مجنون، أو أنّهم كانوا ينغمرون في شروح معقّدة جدًّا، بحركات هندسيّة، وعموميّات جغرافيّة وأوصاف محلّيّة بحت («ثم تتّجه جنوبًا حين تصل إلى قصر العدل. . ») بحيث كان من المستحيل عليّ ألّا أضيع في هذه اللبيرنت من الألغاز المتدفّقة. وبعد أن تناولنا العشاء، أخذت «لو» التي كانت أحشاؤها الجميلة قد هضمت بسرعة الحلويات التي تناولتها، أخذت تتثاءب وبدأت تتململ على مقعدها. أمّا أنا الذي كنت قد اعتدت أن أرى القدر يعاكس خططي، فإنّ تلك الدورات واللفتات الملمّسة في شوارع «بريسولاند» قد أغاظتني وأحنقتني كما لم أعرف الغيظ والحنق في حياتي. ولو أنّ الأمر وقع قبل بضعة أشهر، لكنت ضحكت من قلّة خبرتي وأنا أفكّر بالعناد الطفولي الذي تدرّعت به لأبحث عن ذلك الفندق ذي الاسم العجيب، ذلك أنّ الطريق الذي اتّبعناه ذلك المساء كان مزروعًا بالفنادق التي كانت تعلن خلوّها بمظاهر فاقعة من الإضاءة، وتهب نفسها لتدبير أمور الرحّالة من التجّار والمحكومين الفارّين والمسنّين العاجزين والأسر ذات الأولاد الكثر، وكذلك أمر العشّاق الفاسدين.

وحدثت أخيرًا الأعجوبة التي كنت أؤمّلها بحرارة. فقد أكّد لنا رجلٌ وامرأة كانا ملتصقين إلى حدّ ما في ظلّ سيّارة واقفة تحت الأشجار القاطرة مطرًا، أنّنا كنّا في قلب «البارك»، وأنّه يكفينا أن نستدير إلى الشمال، عند الإشارة الحمراء التالية، حتى نبلغ الهدف. ولم نرَ قطّ تلك الإشارة الحمراء (والواقع أنّ البارك كان في مثل ظلام الفضائح التي يخفيها) ولكن بعد قليل، استسلم المسافران لدعوة ربوة منحدرة، فميّزا دغدغة جوهرة عبر الضباب، ثم انعكاس بحيرة، وبرز فجأة قصر «الصيّادين» الأصفر، رائعًا شامخًا، وسط غابة صولجانيّة، عند قمّة طريق حصباء.

وقد بدا، لأوّل وهلة، أنّ صفًّا من السيّارات يمنع الدخول (وكانت تشبه الخنازير أمام حظيرتها)، ولكن سيّارة كبيرة مكشوفة ما لبثت، كأنّما حدث ذلك بطرق السحر، أن تقهقرت وهَي تلتمع تحت المطر، يقودها رجل ذو كتفَيْ مصارع، فدلفنا شاكرين في الفرجة التي أفسحها لنا، وما لبثت أن ندمت على عجلتي حين لاحظت أنّ سابقي قد لجأ إلى سقف صغير كان يمكن أن يتّسع لسيّارة أخرى، غير أنّ نفاد صبري منعني من أن أحتذي مثاله.

«لذيذ! إنّ هيئته لطيفة!» هكذا قالت حبيبتي الجافية اللهجة وهي تنظر إلى واجهة الرخام، ثم انثنت لتخرج إلى الرذاذ المطقطق، ثم شدّت ثوبها بيد ماهرة وأخرجت ثنية الثوب الداخلة في شقّ الدرّاقة ـ على حدّ تعبير روبير برلوننغ، وكانت ظلال أوراق الكستناء، تحت الدرجات الملتمعة، تغرق وتلعب على أعمدة بيضاء وفتحتُ الصندوق الخلفيّ، فأقبل زنجيّ أحدب يرتدي ثوبًا رسميًّا، فحمّل أمتعتنا مركبةً أخذ يدفعها دفعات صغيرة حتى بلغ بها الباحة التي كانت تغصّ بسيّدات عجائز وبرجال إكليروس. وتركت لوليتا نفسها تسقط متربّعة على الطنفسة المزدهرة الألوان لتداعب كلبًا صغيرًا ذا خرطوم باهت ملطّخ بالأزرق وأذنين سوداوين، فكان يسترخي تحت يدها ـ ومن ذا الذي لا يسترخي، يا قلبي؟ وفي هذه الأثناء، شققت لنفسي طريقًا بين الناس، بقوّة سُعال يرافقه الاعتذار، حتى مكتب الاستقبال. وهناك أخذ عجوز أصلع خنزيري ـ وكانوا جميعًا مسنّين في هذا الفندق العجوز ـ أخذ يدرس ملامحي ببسمة ودودة، وفتح بهدوء برقيّتي الخائنة، وصارع ضدّ شكوك عرقيّة غامضة، وبرم ياقته يستشير الساعة، وصرّح أخيرًا بأنّه آسف، وأنّه قد حجز الغرفة بسريرَيْها حتى الساعة السادسة والنصف وأنّها قد أخذت الآن، وأوضح أنّ تاريخ «معرض صالون الزهور» كان يتّفق في «بريسولند» مع احتفال للأكليروس و.

فقلت بلهجة مثلجة: «إنّ اسمي ليس هو همبورغر ولا هو همبورغ وإنّما هو هربرت، أقصد همبرت، وإنّ أيّة غرفة تناسبني فيكفي نصب سرير مخيّم لابنتي الصغيرة. إنّ عمرها عشر سنوات وهي تموت من النعاس».

وأرسل البطرك ذو الخدّين الورديين نظرة منتبهة إلى لوليتا، التي كانت لا تزال مصغية، مفترّة الفم، تستمع إلى الثرثرة التي كانت صاحبة الكلب، وهي مخلوقة عتيقة، تربط نفسها بستائر بنفسجيّة، ترسلها من جوف كرسيٍّ من الخيش.

ولئن كان العجوز القذر قد أخذته بعض الشكوك، فإنّها سرعان ما امّحت برؤية هذا الربيع الشمالي. وقال إنّه قد تكون عنده غرفة أخرى، بل عنده غرفة مكانين. أمّا سرير المخيّم.

«هل بقي عندنا أَسرَّة مخيّم، يا مسيو بوتس؟» فنهض مسيو بوتس، وهو مثله مورّد أصلع، مع باقات من الشعر الأبيض تنبعث من أذنيه ومن تجويفات أخرى، وذهب ليرى ما يمكن عمله، ونزعت غلاف قلمي. يا لهمبرت النزق!

وقال بوتس، وهو يحاذي الصبيّة إلى جانبي بتلطّف: «إنّ أسرَّتنا ذات المكانين تتّسع في الحقيقة لثلاثة. وقد جاءت ثلاث سيّدات وطفلة كطفلتك ذات مساء كان تُطلق فيه النار، فنمنا معًا. أراهن أنّ إحداهنّ كانت رجلاً متنكّرًا (التعليق من همبرت) ولنَر مع ذلك، أليس عندنا سرير مخيّم فارغ في الغرفة ٤٩، يا مسيو سوين؟

فقال سوين، وهو أوّل خنّوص يشبه الممثّلين المضحكين: ــ يبدو لي أنّه قد أخذ إلى «سوون».

فقلت: «لا بأس. سنتدبّر أمرنا. فمن الممكن أن تأتي زوجتي فيما بعد، ولكنّنا مع ذلك سنتدبّر أمرنا».

ومنذ تلك اللحظة أصبح الخنزيران في عداد خير أصدقائي. وسجّلت بيد المجرم الهادئة المطمئنّة: «الدكتور إدغار هـ. همبرت وابنته، ٣٤٢ ممرّ الحدائق، رامسدال». وتناول بوتس مفتاحًا (رقم ٣٤٢)! وتصنّع أنّه يعطيني إيّاه (كالساحر الذي يظهر الشيء الذي سيخفيه)، ثم أرجعه للعمّ توم. ونهضت «لو» عن الطنفسة، تاركةً الكلب كما ستتركني يومًا، وسقطت نقطة مطر على قبر شارلوت، وفتحت لنا زنجيّة جميلة شابّة باب المصعد، فدخلت الغلامة المحكومة، يتبعها عمّها الذي ما فتئ يسعل وتوم السرطان وهو يحمل حقائبنا.

تزوير بهو الفندق. تزوير الصمت والموت.

وصاحت «لو» اللامباليّة: «إيه. قُل لي، إنّه رقم بيتنا!».

ورأيت سريرًا بمكانين، ومرآة، وسريرًا بمكانين في المرآة، وباب خزانة في المرآة، ومرآة أخرى على باب الحمّام، ونافذة زرقاء، وانعكاس سرير على الزجاج، ومثل ذلك في مرآة الخزانة، وكرسيّين، وطاولة عليها زجاج من بلّور، وطاولتَيْ سرير، وسريرًا بمكانين: سريرًا كبيرًا ذا حلقات. وأوضح فأقول، مع غطاء للفراش من القطن التوسكانيّ، وعلى جنبيه من اليمين والشمال مصباحان صغيران ورديّان بعاكسين للنور.

وراودتني فكرة بأن أدسّ ورقة من فئة الدولارات الخمسة في الراحة السوداء، ولكنّي عدلت وأنا أفكّر بأنّ هذا الكرم قد يُساء تفسيره، فقصرت بذلي على قطعة من خمسة وعشرين سنتيمًا ثم أضفتُ إليها قطعة أخرى. وانسحب. كليك كلاك. وحدنا أخيرًا.

وسألت «لو» وهي تقلّص ملامحها بديناميّة (لا غضبًا ولا اشمئزازًا، بل رغمًا من أنّها على خطوتين من ذلك كما تفعل كلّما أرادت أن تطرح سؤالاً مرقًا ومثقلاً بالمعنى: «هل سننام في الغرفة نفسها؟».

ـ «طلبت أن يأتوا بسرير مخيّم. وسأنام فيه إذا كنت حريصة على ذلك».

فقالت «لو»: إنّك مجنون.

ـ ولماذا يا حبيبتي؟

ـ لأنّه يا حبيبي إذا علمت أمّي الحبيبة بهذا، فسوف تطلّق وتخنقني.

إنّها ديناميّة بكلّ بساطة. وهي لا تحمل القضيّة حقًّا على محمل الجدّ.

وقلت وأنا أجلس: «اسمعيني». فبقيت واقفة، على بضع خطوات منّي، وهي تنظر إلى نفسها عبر المرآة بإعجاب، وقد فوجئت بمنظرها الخاصّ ولكنّها لم تستأ، فصبغت باللون الورديّ المشمس مرآة باب الخزانة المفاجأة والمسرورة.

«استمعي إليّ يا «لو». لنحسم القضيّة مرّة وإلى الأبد. يجب أن تعتبريني كأبيك، في كلّ مناسبة. إنّني أكنّ لكِ حنانًا عميقًا. وفي أثناء غياب أمّكِ أنا المسؤول عنكِ. إنّنا لسنا أغنياء، وفي أثناء تنقّلاتنا سنكون مضطرّين. سنكون يوميًّا على اتّصال. وحين يتقاسم شخصان غرفة واحدة فلا مفرّ من أن يكون بينهما ـ ماذا أقول؟ نوع من.

فقالت «لو»: الكلمة هي «سفّاح» ومضت توًّا فدخلت الخزانة، ثم خرجت منها، في ضحكة مذهّبة، وفتحت الباب المتّصل، وكأنّما خشيت أن تكون قد أخطأت مرّة ثانية، فرمت نظرة حذرة إلى الداخل بعينين غريبتين ضبابيّتين قبل أن تغلق على نفسها باب غرفة الحمّام.

وفتحتُ النافذة ونزعت قميصي المبلّل بالعرق، وغيّرت ثيابي وتأكّدت أنّ أنبوب الأقراص كان في جيب سترتي، وبرمت مفتاح الـ.

وعادت بلامبالاة. وأردت أن أضمّها: حركة لا ذيول لها. قطرة من

حنان مكبوت قبل العشاء.

وقالت: «اسمع. لنترك تبادل القبل هذا. ولنذهب للعشاء».

وكان أن كشفتُ آنذاك عن دهشتي.

أوه. أيّ ملاك حالم! كانت تتقدّم نحو المحفظة المفتوحة ـ وحش يطارد فريسته عن كثب ـ وتمشي كأنّما هي في منظر سينمائي بطيء، تحدّق من بعيد بالكنز الذي كان قائمًا على حاملة الأمتعة (وحسبتني أكشف شيئًا غير طبيعي في عينيها الكبيرتين الرماديّتين، ولكن كنّا نحن الإثنين غارقين في بخار ساحر واحد). وتقدّمت كاشفة ربلتيها الرائعتين، رافعة كعبيها المرتفعين أكثر ممّا ينبغي، عابرة ـ بخطوات تزداد بطئًا ـ المدى الذي كان يتمدّد ـ فكأنّها طيف يمشي في قعر البحر أو يفرّ في حلم. وعند ذلك رفعت من الكتفين معطفًا ذا لون نحاسيّ، لامعًا وثمينًا جدًّا، وأخذته تمدّده تدريجيًّا بين يديها الصامتين، كصيّاد مبهور ممسكًا أنفاسه فوق الطير العجيب الذي يمسكه مبسوطًا من جناحيه الملتهبين، وبعد ذلك (بينما كنت أنتظرها) أخرجت من علبة الكنوز نطاقًا لامعًا أحمر، يشبه حيّة طويلة ناعسة، تمنطقت به.

وأخيرًا، ارتمت مشعّة مطمئنّة بين ذراعَيّ المشوّقتين، وحدجتني حدجة ملامسة بعينيها الشفقتين الناعمتين العجيبتين، اللاطاهرتين، اللامباليتين، وكانت تتصرّف، في الحقيقة، كأيّة فتاة مبتذلة من فتيات الشارع، فإنّهنّ هنَّ اللّواتي يقلّدن الجنّيّات، بينما نبكي نحن ونهلك.

وتمتمت بلهجة عامِّيّة مدلّلة وقد خرجت عن طوري وعن الكلمات قائلاً: «ألا تقبّلينني بعد؟»

فقالت: إذا كنت تريد أن تعرف، فالحقيقة أنّك تعتمد على طريقة سيّئة».

ـ أريني الطريقة الحسنة.

فأجابت واضعة حدًّا لتمتماتي: كلّ شيء في وقته.

ورحت أنطق بخليط طويل من العامِّيّة واللاتينيّة. وكان من حسن حظّي أنّها كانت قد عادت في هذه الأثناء إلى الحقيبة السحريّة.

ومن الحمّام الذي بلغته بالتقهقر بعد مشقّة لقضاء حاجة أكثر تواضعًا سمعت وأنا واقف، ممسك أنفاسي، تأوّهاتها وصرخاتها المعجبة الطفوليّة «أوه! لذيذ»!

ولم تكن قد استعملت الصابون إلّا لأنّه كان عيّنة من عيّنات الإعلان.

ـ «هيّا يا صغيرتي إذا كنتِ على مثل جوعي، فقد آن الأوان لنهبط».

واستأنفنا السير، الفتاة تؤرجح على طرف ذراعها محفظتها القديمة البيضاء، والأب يتقدّمها. (ملاحظة: وليس خلفها أبدًا، فإنّها لم تكن إلّا طفلة) وإذ كنّا في انتظار المصعد (جنبًا إلى جنب، الآن) رمت رأسها إلى خلف، وتثاءبت بلا كلفة وهزّت جدائلها.

«في أيّة ساعة كنت تفيقين في ذلك المخيّم؟».

ـ السادسة. (وخنقت تثاؤبة أخرى) والنصف، (وهناك تغلّب التثاؤب، فارتعشت من قدميها حتى ذقنها) و«النصف» (ردّدت مرّة أخرى، وانتفخت حنجرتها من جديد).

واستقبلنا غرفة الطعام ببسمة متعبة وروائح من الدهن الحارّ. وكانت قاعة كبيرة مدّعية، تزيّنها نقوش جداريّة تمثّل صيّادين مسحورين في مواقف مختلفة ودرجات شتّى من السحر، بين ركام من الحيوانات الباهتة والأشجار وحوريّات الغاب. وكان ثمّة بضع سيّدات عجائز متناثرات هنا وهناك، ورجلا دين ورجل في سترة رياضيّة، ينهون طعامهم في صمت. وكانت قاعة الطعام تغلق عند الساعة التاسعة، وكانت الخادمات المرتديات

الثياب الرسميّة الزرقاء، يظهرن شديدات الحرص على التخلّص منّا، بالرّغم من أقنعتهنّ الفارغة التي تشبه أقنعة لاعبي البوكر.

وقالت لي بصوت منخفض: «ألا ترى أنّه يشبه تمامًا «كيلتي»، (وكان مرفقها الأسمر المعروق مرتفعًا كأنّما ليدلّ على الرجل ذي السترة الفاقعة الذي كان يتناول عشاءه وحيدًا في الركن المقابل من القاعة).

ـ «تقصدين طبيب الأسنان الضخم في رامسدال؟».

فسدّت «لو» جرعة الماء التي كانت قد ابتلعتها وأراحت قدحها الشلّاليّ. ثم أجابت وهي تنثر رذاذ لعابها من شدّة الفرح: ـ كلّا! وإنّما أقصد الكاتب الذي يُرى على إعلانات «الدروم».

أوه! أيّتها المرأة!

وحين تدحرجت عُقْبَةُ الطعام على الطاولة ـ وكانت قطعة كبيرة من الحلوى بالكرز للآنسة الصغيرة، ولحاميها قطعة من المثلّجات بالفانيليا، أسرعت «لو» بضمّها كلّها تقريبًا إلى قطعتها ـ أخرجت من جيبي الأنبوب الذي يحتوي على حبوب «الزينزولين» للبابا. وإنّي أتصوّر تلك النقوش التي تبعث على الغثيان، وأتذكّر تلك اللحظة الغريبة الشيطانيّة، ولا أستطيع أن أشرح تصرّفي في ذلك المساء إلّا بهذا الفراغ الحُلُميّ الذي تطوف به الأرواح الضالّة، ولكن كلّ شيء كان يبدو لي في وقته بسيطًا ولا محيد عنه. وألقيت نظرة فيما حولي، فتأكّدت أنّ آخر متناول للعشاء كان قد ذهب، ثم فتحت الأنبوب وصببت الشراب في راحتي. وكنت قد كرّرت العمليّة طويلاً أمام المرآة: وكان كلّ ما في الأمر أن أطبق يدي على فمي المفتوح وأن أبتلع قرصًا خياليًّا وكما توقّعت، ارتمت «لو» على أنبوب الأقراص الكبيرة التي كانت ملوّنة بألوان لذيذة ومحمّلة بـ حلم الجمال» فهتفت:

ـ إنّها زرقاء! لا، بل بنفسجيّة. ماذا فيها؟

فقلت: سماء الصيف، وتين وخوخ، وشراب دم الأباطرة.

ـ لا أرجوك، تكلّم بجدّ.

ـ أوه، ليست إلّا أقراص ڤيتامين ١٠. إنّها تجعل من الإنسان قويًّا كالبقرة أو كالجزّار. هل تريدين إحداها؟

ومدّت لوليتا يدها وهي تهزّ رأسها بقوّة.

وكنت قد أملت أن يكون للمخدّر تأثير معجّل. ولم يخب ظنّي. وقد جهدت جنّيّتي المعبودة في أن تروي بأنّه كان نهارًا طويلاً، طويلاً، وهي تزداد تثاؤبًا يتمدّد فيه فكّاها بقوّة (أوه! إنّ تأثير شرابي السحريّ عجيب!). ولقد قضت ساعات الصباح وهي تجدّف مع بربارة التي كانت أختها مديرة السباحة، وقامت بألوان كثيرة من النشاط. وحين غادرنا قاعة الطعام الخالية، ونحن نسبح واقفين، كان مشروع الفيلم الذي راود ذهنها قد نسي منذ وقت طويل. وفي المصعد استندت إليّ وهي تبتسم ابتسامة صغيرة كأنّها تقول «إنّك تودّ لو أنّي أعترف لك بكلّ شيء». وأسبلت جفنيها اللذين زالت شفافيّتهما. «نعاس، إيه؟» قال العمّ توم الذي كان يصحب الجنتلمان الفرنسيّ الإيرلنديّ وابنته الصغيرة، مع عجوزين ذابلتين اختصاصيّتين في الرودولوجيا. وقد تأمّلتا بطيبة هيفائي النسرينيّة المذهّبة، المخدّرة المترنحة. وقد وجب عليّ تقريبًا أن أحملها حتى بلغنا غرفتنا. وهناك، جلست على حافّة السرير، مسترخية الجسم، وتمتمت بصوت بطيء، وبهدهدات صغيرة صمّاء:

ـ «إذا قلت. إذا قلت كلّ شيء. هل تقسم. (ناعسة، ناعسة جدًّا، حتى إنّ رأسها يترنّح وعينيها بدأتا تتحوّلان) هل تقسم لي بألّا تفعل القصّة؟

ـ فيما بعد، يا لو. يجب أن تنامي. وسأنسحب ريثما تأوين إلى

سريرك. إنّي أعطيك عشر دقائق.

وتابعت تقول، وهي تنفض شعرها وتنتزع شريطها المخمليّ بإصبع مخدّر: لقد فعلت أشياء فظيعة، ويجب أن أقول لك.

ـ غدًا يا «لو». إلى السرير. بربّ السماء، إلى السرير.

ووضعتُ المفتاح في جيبي، وهبطت الدرج.

٢٨

سيّدات المحكمة الجميلات! إنّني ألتمس منكنّ الرحمة! امنحنني جزءًا صغيرًا آخر من وقتكنّ الثمين! كانت اللحظة الكبرى قد حلّت إذن. وكنت قد تركت حبيبتي لوليتا جالسة على حافّة ذلك السرير العميق، رافعة باسترخاء إحدى قدميها لتحلّ سيرها، فتنكشف لي صفحة فخذها الداخليّة حتى تطريزة سروالها. وقد كانت دائمًا فريدة الشرود أو انعدام الحشمة أو الإثنين معًا في موضوع استعراض للساقين. ولقد أقفلت الباب على هذه الرؤية المحكمة من «لو» ـ بعد أن تحقّقت من أنّ الباب لم يكن له مزلاج من الداخل. وكان المفتاح، مع قطعة الخشب المحفور التي تتدلّى منه، هو «السمسم» الذي سيفتح لي مستقبلاً أسطوريًّا مجنونًا. وكان هو مفتاحي، جزءًا لا يتجزّأ من قبضتي العصبيّة المشعرة. فبعد بضع دقائق ـ عشرين، أو فلنقل نصف ساعة ـ سأتسلّل إلى الغرفة ذات الرقم ٣٤٢ فأجد جنّيّتي وحبيبتي وحياتي، أسيرة نعاسها البلّوريّ. أوه! يا قضاتي! لو أنّ بوسع سعادتي أن تتكلّم لملأت ذلك الفندق المكتظّ بهتافات مصمّة. وإنّ أسفي الوحيد اليوم هو أنّي لم أعلّق خفيةً مفتاح الغرفة ٣٤٢ في لوحة المفاتيح ولم أغادر المدينة، البلاد، القارّة، نصف الكرة، بل الكرة الأرضيّة كلّها، عند هبوط ذلك الليل.

إنّني أوضح أنّ إيماءات «لو» إلى آثامها الصغيرة لم تزعجني قطّ. فإنّ خططي لم تكن قد تغيّرت، وكنت مصمّمًا كلّ التصميم على أن أحافظ على طهارتها فيما أنا أعمل خفيةً. وتحت جنح الظلام، فوق عُريٍّ مخدّرٍ تمامًا. احترام واحتراس: كان هذا شعاري، بالرّغم من أنّ هذه «الطهارة» (التي يشكّ العلم الحديث في مبدأها أساسًا) قد عُطبت بعض الشيء، في ذلك المخيّم الملعون، بتمرينات من الخلاعة الطفوليّة ذات جوهرٍ واحد الاتّجاه الجنسيّ. صحيح أنّ جان ـ جاك همبرت، بصفته مواطنًا من مواطني العالم القديم، قد كان على يقين، منذ لقائه الأوّل مع الغلامة، بأنّها كانت من الطهر على مثل ما هي عليه في أيّامنا فكرة «الغلامة الطيّبة الطبيعيّة» التي ملأوا آذاننا بها منذ زوال العهد السابق للمسيحيّة وزوال عاداته الباهرة. والمؤسف أنّ تلك المغازلات الصغيرة مع الخدم، والتي كانوا يحبّون في روما القديمة أن يقوموا بها على الطائر، بين قضاء الأعمال وأخذ الحمّام، قد أُلغيت من عصرنا المتنوّر. ونحن لم نعد نقرّ، على غرار أولئك الشرقيّين الجادّين المنتمين إلى عصر أكثر بذخًا وأبّهة، تلك التسليات التي كانت تعرضها حوريّات نحيلات بين الحمل المشويّ وشراب الورد. ومصدر كلّ شيء أنّ الرباط الذي يوحّد عالم البالغين وعالم الأولاد قد قطعته قوانين عصرنا وعاداته. والحقّ أنّي، بالرّغم من معرفتي بعلم الطبّ النفسيّ وعلم الاجتماع التربويّ، لم أكن أفهم شيئًا كثيرًا في شؤون الأولاد. وبعد كلّ شيء، لم تكن لوليتا إلّا اثني عشر عامًا، وعبثًا استعرضت السلوك المخجل لتلاميذ أميركا وتلميذاتها، فإنّي لم أعدل عن التفكير بأنّ تصرّفات أولئك الفتية، أيًّا تكن، لا تتمّ إلّا في عمر أكثر تقدّمًا، وفي محيط آخر. ولكي أعود إلى خطّ شرحي أقول إنّ عالِمَ الأخلاق فيّ قد تفادى المشكلة بأن تشبّث بالفكرة التي تواضع الناس على أن يأخذوها عن الفتيات ذوات الاثني

عشر عامًا. وكان طبيب الأطفال فيّ (وهو دجّال بالطبع كجميع أطبّاء الأطفال تقريبًا، ولكن لا بأس!) قد تجشّأ جميع الخلائط النيوفرويديّة ونحت صورة «لدولّي» حالمة مولعة بالكذب ولا تزال في مرحلة الطفولة «الخفيّة». وأخيرًا فإنّ الشهوانيّ فيّ (وهو شيطان قذر جبّار) لم يكن ينفر من رؤية فريسته مطبوعة ببعض الفساد. ولكن كان وراء هذه النشوة الملتهبة خيالات مذعورة تتخبّط فيما بينها ـ وإنّي لمرير الأسف بأنّي لم أُولِها انتباهي. اسمعوا، أيّها الفانون! كان عليّ أن أفهم أنّ لوليتا قد أثبتت بأنّها لم يبق شيء مشترك بينها وبين أنابيل البريئة ـ وأنّ الشيطان الجنّيّ الذي كان ينفخ في جميع مسامات هذه الغلامة النحيلة، هذه الغلامة التي قد زيّنتها لتلذّذي الخفيّ، كان يجعل السرّ وهميًّا والتلذّذ مميتًا وكان عليّ أن أفهم من الإشارات التي كان يوجّهها لي ما لست أدريه في لوليتا (أكان هو الغلامة الحقيقيّة التي تختبئ فيها أم ملاكًا شاردًا وراء كتفها؟) بأنّ النشوة الموعودة لا يمكن أن تخلّف إلّا الفظاعة والعذاب. وماذا أقول لكم بعد، أيّها القضاة المسنّون المجنّحون؟

كان المفتاح لي، لي، في قبضتي، وكانت قبضتي في جيْبَي، وكانت لي، وكانت لي. وكنت، في أثناء الوساوس والاجترارات التي كرّست لها تلك الليالي الطويلة من الأرق، قد نجحت شيئًا فشيئًا في حذف كلّ هلاميّ سطحيّ، وفي أن أراكم صورًا من رؤية شفّافة، فأرسم منها صورة نهائيّة: عارية إلّا من جورب ومن سوار ـ تعويذة، متمدّدة على السرير، منفرجة الذراعين والساقين، في الوضع الذي أسقطها فيه شرابي ـ هكذا كنت أتخيّلها مسبقًا، وكانت لا تزال تشدّ في يدها شريط شعرها المخمليّ، وكان جسدها العسليّ اللون الذي يحمل طابع تبّان السباحة الصغير ـ وكان هذا الطابع يبدو وكأنّه سلبيّة بيضاء على الجلد الملوّح، يعرض لي براعمه النهديّة الصفراء. وكان ظلّ من الزغب يلتمع، تحت ضوء مصباح السرير

الورديّ، على رابيتها الناتئة. وكان المفتاح البارد، مع خشبته الفاترة، في جيبي.

وتهت من قاعة إلى أخرى، مبتهج الجسم، مظلم الروح: ذلك أنّ عين الرغبة هي دائمًا شرسة، إنّ الرغبة لا تطمئن أبدًا (حتى ولو كانت ضحيّتها المخمليّة مسجونة في قعر البرج) لا تطمئن أبدًا أن لن يأتي شيطان منافس أو إلٰه ذو ذراع طويلة فيهدم النصر المنتظر. وبعبارات مبتذلة، كنت بحاجة إلى شرب قدح، ولكن ذلك المكان المحترم، المكتظّ بالأثرياء الحمقى وبحاجات العصر، لم يكن فيه مشرب.

وتوجّهت نحو تواليت الرجال. وهناك رأيت رجلاً في ثوب إكليركي أسود ومشية صبيانيّة، يثبت بإصبعه، وبمساعدة ڤيينا، بأنّ شيئًا لم يكن ينقصه. وقد سألني رأيي في موعظة الأب المحترم «بويد»، وذعر بعض الشيء حين سمعني أقول بلهجة ملتهبة (الملك سيغموند الثاني) إنّ بويد كان رجلاً شجاعًا. ثم قذفت ببراعة في الوعاء المختصّ، منشفة الورق التي كنت قد مسحت بها أطراف أصابعي الحسّاسة. وتوجّهت نحو مكتب الفندق. ووضعت مرفقي وضعًا مريحًا ورجوت السيّد «بوتس» أن يتحقّق ممّا إذا كانت امرأتي قد تلفنت، وإذا كانوا قد وجدوا أخيرًا سرير المخيّم المطلوب. فأجاب أن لا، فهي لم تعطِ أيّة إشارة للحياة (طبعًا: كانت ميّتة!) «إنّهم سيأتوننا بسرير مخيّم في اليوم التالي إذا اعتزمنا البقاء. وكانت ضجّة كبيرة تنبعث من قاعة مكتظّة بالناس، قاعة الصيّادين حيث كانت أصوات كثيرة تتناقش في موضوع علم زراعة البساتين أو موضوع الخلود. وكانت قاعة أخرى (القاعة الفريزيّة)، مغمورة بالنور، ذات أفاريز ملتمعة وطاولة كبيرة ملأى بالمرطّبات، وكانت خالية إلّا من «ضيفة» (من جنس تلك النساء المهدّمات ذات ابتسامة زجاجيّة ونغمة شارلوتيّة (وقد هرعت إليّ لتسألني هل أنت الأب المحترم برادوك، الذي كانت الآنسة «بارب»

تبحث عنه في كلّ مكان. وأجبت: «أيّ اسم غريب لامرأة!»[١] ومضيت بخطوة سريعة. وشعرت في قلبي بمدّ دمي القزحي وجزره. وكنت قد عزمت على أن أمنح «لو» وقتًا يمتدّ حتى الساعة التاسعة والنصف. وحين عدت إلى بذلات سوداء يتزاحمون هنا وهناك في جماعات متلاصقة. ومنحتني مصادفة طائشة رؤية غلامة لذيذة في عمر «لو»، ترتدي ثوبًا يشبه ثوبها ولكنّه أبيض، مع شريطة بيضاء في شعرها الأسود. لم تكن جميلة ومع ذلك فقد عرفت فيها جنّيّة. وخلال لحظة لا تُنسى شكّل ساقاها العاجيّتان الصفراوان وعنقها الأملس مجاوبة لذيذة كانت تنمّ عن رغبتي في لوليتا، حبيبتي لوليتا الورديّة السمراء، العصبيّة الطائشة. وحين لاحظت الغلامة الباهتة نظري (الذي كان طارئًا ورخوًا) أخذها ضيق مضحك وفقدت تماسكها فطرفت بعينيها ولامست خدّها بظاهر كفّها ودعكت تنّورتها، ثم أولتني عظمة ظهرها المتحرّكة النحيلة لتتحدّث مع أمّها البقريّة المشية، حديثًا مصطنعًا.

وفررت من ضجّة الباحة فخرجت إلى الشرفة أتأمّل الحشرات المغبرّة التي كانت تنداح بالمئات حول المصابيح، في الليل الأسود المبلّل المهتزّ بالرعشات والصخب. إنّ كلّ ما كنت أستعدّ لعمله ـ كلّ ما كنت أجرؤ على عمله ـ كان شيئًا قليلاً جدًّا.

وشعرت فجأة في الظلام بوجود رجل جالس على كرسيّ بين أعمدة المدخل المسقوف. ولم أكن أستطيع أن أراه قطّ، ولكنّه كشف عن نفسه بصرير سدّادة مفتوحة تبعتها قرقرة خفيّة ثم عاد أخيرًا صوت السدادة وهي تنغلق بيد قويّة. وكنت أهمّ بالابتعاد حين أمسكني صوته:

ـ تكفي ليلة واحدة لإفساد البكر.

(١) كلمة «بارب» تعني «لحية». (المترجم).

ـ عفوًا، ماذا قلت؟

ـ كنت أقول يكفي مطر غزير لفتح السماء.

ـ أنت على حقّ.

ـ من هي هذه الصغيرة؟

ـ ابنتي.

ـ كذّاب. هذا غير صحيح.

ـ عفوًا. ماذا قلت؟

ـ كنت أقول أيّة رطوبة، إنّ هذا فظيع! أين أمّها؟

ـ ماتت.

ـ فهمت. آسف. هل تريدان أن تتناولا معي الغداء غدًا؟ سيكون هذا الجمع الكريه قد رحل.

ـ سنكون نحن قد ذهبنا أيضًا. تصبح على خير.

ـ اعذرني. لقد شربت كثيرًا. تصبح على خير، إنّ ابنتك الصغيرة بحاجة إلى نوم ليلة طويلة. إنّ النوم وردة كما يقول الفرسُ. سيكارة؟

ـ الآن، لا

وفرك عودًا ولكنّ الشعلة أضاءت وجهًا غير وجهه، وجه عجوز باهت ـ أحد هؤلاء المسنين الذين يقيمون في الفنادق القديمة كما أضاءت مقعده الهزّاز. ولم يعد أحد يتكلّم. وسقطت الظلمات مرّة أخرى على المكان. وبعد قليل سمعت العجوز يسعل ويتخلّص من روبة مخاط مصفرّ.

ودخلت. وكان قد انقضى نصف ساعة. وكنت آسف أنّي لم أطلب من رجل الشرفة جرعة خمر. وكانت أعصابي ثائرة. ولئن كان لوَتَرَ كَمان أن يتعذّب، فإنّي كنت ذلك الوتر. ولكنّه كان يكون غير لائق أن أظهر نفاد

صبري. وإذ كنت أشقّ لنفسي طريقًا عبر مجموعة من ذوي الرجلين، رأيت بريقًا يغشي النظر ـ وإذا ببرادوك المشعّ، وبامرأتين مزدانتين بالزهور وبالغلامة البيضاء وبالكلاليب المكشوفة لهمبرت همبرت (الذي كان يترنّح بين التلميذة المرتدية ثوب الزوجة وبين الواعظ المسحور) إذا بهؤلاء جميعًا قد أصبحوا مخلّدين، وإذا كان بالإمكان أن تشرف بهذه العبارة صور جريدة ريفيّة. ومرّة أخرى اخترت السلّم فقد كان درج الإنقاذ قائمًا على بعد خطوتين من الغرفة ٣٤٢. وكنت ما أزال أستطيع ـ ولكنّ المفتاح كان قد دخل القفل وكنت أنا قد دخلت الغرفة.

٢٩

كان نور الحمّام يتسرّب من الباب المشقوق وكان ضوء مصابيح الشرفة يتسلّل بين ألواح الستائر، وكانت هذه الشعاعات المتشابكة تعيث في ظلام الغرفة فتكشف لي اللوحة التالية. كانت حبيبتي لوليتا راقدة على جنبها في وسط السرير موليةً إيّاي ظهرها، وهي ترتدي أحد تلك القمصان القديمة. وكان جسمها الذي لم يكد يكون مستورًا يرسم مع أطرافها العارية حرف Z. وكانت قد وضعت الوسادتين تحت رأسها المشعّث المظلم، وكان خيط من الشعاع الباهت يحيط بفقراتها العُليا

واستطعت أن أنتزع ثيابي وألبس منامتي بتلك السرعة العجيبة التي تُلاحظ في السينما حين يُنقّى تسلسل تغيير الثياب من جميع المراحل المتخلّلة، وكنت وضعت ركبتي على حافّة الفراش حين لفتت لوليتا رأسها ونظرت إليّ عبر الظلمات الممزّقة.

وكان هذا شيئًا لم يكن الخاطف يتوقّعه. لقد كانت غاية الأقراص (وهي حيلة أقلّ ما توصف به أنّها قذرة، أقول هذا فيما بيننا) أن تؤدّي إلى

نوم عميق جدًّا لا يؤثّر عليه حتى مرور جحفل ـ وها هي ذي تحدجني محدِّقة وهي تمتم «برباره» بصوت مائع. وتسمّرت «برباره» ـ المحبوسة في منامتي ـ في مكانها، متماسكة فوق النائمة اليقظة. وبهدوء، وعلى مهل، وفي تنهّدة ضيق، انفتلت دولِّي واستعادت وضعها الأوّل. وانتظرت دقيقتين طويلتين، وقد تشنّج جسمي على حافّة الهاوية، مثل ذلك الخيّاط الذي قفز قبل أربعين سنة من أعلى برج «إيفل» بمظلّة من صنعه. وأخيرًا حسبتني أجد في تنفسها إيقاع النوم. فتسلّلت في الهامش الضيّق الطفيف الذي منحتني إيّاه، ورددت خلسة ركام الغطاء فوق كعبيَّ الباردين كالعاج ـ وعادت لوليتا فرفعت جبينها وحدجتني بنظرة بليدة.

وأعلمني صيدلاني لطيف فيما بعد أنّ أقراصي الملوّنة ليست من فئة المخدّرات القويّة، فربّما كانت تستطيع أن تدفع إلى النوم عُصابيًا مقتنعًا بفعاليّتها التخديريّة، ولكن مقدارها كان أضعف من أن يكون له تأثير طويل على جنّيّة متعبة ولكنّها متيقّظة. أكان طبيب «رامسدال» دجّالاً إذن، أم ثعلبًا حذرًا؟ إنّ هذا غير مهمّ على الإطلاق. لقد كنت مخدوعًا مضلّلاً، وهذا وحده كان ذا أهمّيّة. وحين فتحت لوليتا عينيها من جديد، ارتددت إلى الحقيقة: حتى ولو فعل المخدّر فعله في الليل، فيما بعد، فإنّ عدم القصاص الذي كنت أنتظره كان شيئًا وهميًّا وتقلّبتْ ببطء، ثم سقط رأسها على الوسادتين اللتين احتكرتهما بأنانيّة. وكنت متسمّرًا عند حافّة السرير، أنظر إلى شعرها المشعّث وإلى انعكاس بشرتها الجنّيّة (نصف الخاصرة ونصف الكتف المعروضين) وأجهد في تقدير عمق نومها بالنسبة لإيقاع تنفّسها الذي كنت لا أكاد أسمعه. وأنصتُ بضع دقائق، ولم يحدث شيء، فخُيّل إليّ إنّ بإمكاني أن أجازف للاقتراب أكثر من ذلك الانعكاس الباهر، ولكنّي ما كدت أقترب من هالته الدافئة حتى قطعت دولوريس الصغيرة تنفّسها، فشعرت على مضض بأنّها كانت يقظة تمامًا، وأنّها ستنفجر هادرة

لدى أوّل احتكاك منّي. وأرجوك يا قارئي، مهما كان نفورك من بطل هذا الكتاب ذي القلب الرقيق، مهما كان اشمئزازك من حساسيّته المريضة واحتراسه الذي لا شبيه له، أرجوك ألّا تقفز عن هذه الصفحات الجوهريّة! اسمعني! إنّني لا أستطيع أن أوجد إذا لم تكن تراني، فحاول أن تميّز الوعلة التي تكمن فيّ، وهي ترتجف في غابة طغياني. بل لنحاول أن نبتسم: فإنّ بسمة صغيرة لن تؤذي أحدًا تصوّر مثلاً أنّي لم أكن أعرف أين أضع رأسي، وأنّ احتراقات معدتي كانت تُضاف إلى آلامي.

وأمّا جنّيّني، فقد عادت إلى النوم مقفلة اليدين، ومع ذلك فإنّي لم أكن أجرؤ على أن أباشر طوافي المسحور. «النائمة الصغيرة أو العاشق المضحك». وفكّرت في أنّي سأملأها غدًا من تلك الأقراص الأخرى التي حذّرت أمّها تحذيرًا عظيمًا. ولكن أين تراني قد وضعتها: في علبة السيّارة أم في محفظة السفر؟ أكان ينبغي لي أن أصبر ساعة أو ساعتين، ثم أعود إلى المهمّة على خفية؟ إنّ علم الجنّيّات علم دقيق، وإنّ ملامسةً حقيقيّة تُبلغني غاياتي في لحظة. أمّا فجوة مليمتر واحد، فقد تقتضيني عشر ملامسات أخرى. فلنصبر!

ولست أعرف شيئًا أشدّ صخبًا من فندق أميركي، ولا تنس أنّ هذا الفندق يعتزّ بأنّه عائلي يجلب الألفة، وأنّه صامت وأنّه لذيذ ـ نُزُلٌ من الطراز القديم يؤمِّن «حياة القصور» وأشياء كثيرة أخرى. لقد كان صخب باب المصعد (على بعد عشرين مترًا من الشمال الشرقي من رأسي، ولكنّه من شدّة الإرنان كما لو كان يعمل في جوف صدغي بالذات). كان ذلك الصخب يصاحب ضجيج الآلة الذي امتدّ حتى، بعد منتصف الليل. وبين وقت وآخر (لنفترض أنّني كنت راقدًا على ظهري، غير مجترئ على أن أصوّب جانبي الأسوأ تجاه خاصرة رفيقتي) كان الممرّ، شرقيّ أذني اليسرى، ينفجر بالأصوات الحادّة الفرحة التافهة التي كانت تنتهي برشّاش

من «تصبحون على خير». وحين كفّ ذلك، استأنف العمل مرحاضٌ كان يقع إلى الشمال الجغرافي من مخّي. وكان يبدو أنّ مضخّة الماء ـ وكان لها صوت جهير أو نشيط ـ تعمل باستمرار، حتى إنّ بقبقة مياهها وصخب امتلاء المرحاض كانا يهدّدان الجدار خلفي. ثم إنّه كان هناك، في جهة ما من الجنوب، زبون مُصاب بعسر الهضم، فكان يقيء روحه مع شراب الويسكي، وما لبثت مضخّته المائيّة أن حملت كلّ شيء، متدفّقة كأنّها شلّال نياغرا خلف حمّامنا. وحين صمتت الشلّالات بعد ذلك، وحين نام الصيّادون المسحورون، أخذت الطريق المحترمة اللطيفة التي تحفّ بها الجدران، تلد تحت نافذة أرقي رحلات كريهة للشاحنات التي كانت تصرّ عبر الأمطار وعبر رياح الليل.

وهناك، على بعد أقلّ من عشر أنامل منّي ومن حياتي الملتهبة، كانت لوليتا الكوكبيّة تنام! ومرّة أخرى، بعد انتظار طويل مسمّر، بسطتُ إليها خيوطي، فلم يوقظها هذه المرّة صرير السرير. وكانت كتلة جسمي النهِمة في تلك اللحظة قريبة جدًّا منها، حتى إنّي شعرت بإشعاع كتفها العارية كنَفَس فاتر على خدّي. وفجأة، جلستْ في سريرها مستقيمة تمامًا، فشهقتْ وأرسلتْ سيلاً من الشتائم بخصوص القوارب، وشدّت اللحاف مجدّدًا وارتمت مرّة أخرى في كثافة لا وعيها الفتيّ. وكانت تتململ في مدّ النوم العميق. حين سقطت ذراعها فجأة على وجهي. وقد ظللت طوال لحظة قصيرة معانقًا إيّاها ثم تخلّصت من ظلّ عناقي ـ تخلّصًا غريزيًّا من غير عنف ولا نفور. ولكن بتمتمة محايدة شاكية. تمتمة طفلة تحتجّ على أيّ مساس براحتها الطبيعيّة. وعادت الأمور إلى نقطة الانطلاق: لوليتا مولية همبرت ظهرها المقوّس، وهمبرت، تعذّبه الرغبة. وهو باسط يديه تحت رقبته.

وقد حملني جفاف حلقي على أن أنهض لأشرب قدح ماء في الحمّام

ـ أنجع دواء أعرفه في هذه الحالة. باستثناء دواء الفجل المبلّل بالحليب، وحين عدت إلى البرج الغريب المخطّط بالخطوط الصفراء، حيث كانت ثياب لوليتا، القديمة والجديدة، متناثرة في وضع مسحور فوق أثاث متناثر بلا نظام. نهضت غلامتي العصيّة على مؤخّرتها وطلبت ماءً تشربه بدورها. وتناولت العطيّة بين يديها الليليّتين فجرعتها مرّة واحدة، بعرفان، بينما كان جفناها الطويلان يلامسان حافّة القدح البارد. ثم عمدت لوليتا الصغيرة، في حركة طفوليّة كانت أشدّ تأثيرًا من أيّة ملامسات شهوانيّة، إلى مسح شفتَيْها بكتفي. وسقطت مرّة أخرى فوق وسادتها (وكنت قد اختلست وسادتي بينما كانت تشرب) واستغرقت في النوم على التوّ.

ولم أكن قد جازفت بإعطائها قرصًا آخر، مؤمّلاً أن يعمّق القرص الأوّل نومها بعد. ورسمت مناورة أخرى للاقتراب، وأنا مدرك سلفًا أنّها ستُعاكَس، ومدركٌ أنّ الأفضل التذرّع بالصبر، ولكنّي كنت غير قادر على الانتظار. وكان لوسادتي رائحة شعرها. ودنوت من حبيبتي الساطعة اللون، متوقّفًا أو متراجعًا كلّما كنت أحسبني أراها تتحرّك أو تهمّ بذلك. وبدأ نسيم خفيف قادم من بلاد العجائب، يتخلّل أفكاري، فتميل هذه الأفكار إلى النوم، كما لو أنّ الماء الذي كان يعكسها قد تجعّد بتأثير هذا النسيم العجيب. وكان وعيي يترنّح أحيانًا، فينتكس جسمي المتلمّس في فلك النوم، ثم يخرج متثاقلاً، وقد فاجأتُ نفسي مرّة أو مرّتين وأنا أطلق شخيرًا كئيبًا. وكانت غمائم من الحنان تقنّع قمم الرغبة. وداخلني الشعور بضع مرّات بأنّ فريستي تزحف نحوي فوق رمل شاطئ أسطوريّ بعيد، ولكنّ النائمة الصغيرة كانت تغيّر فجأة وضعها باسترخاء، فأفهم أنّها كانت أبعد من أيّ وقت آخر.

ليعذرني القرّاء إذا ألححت هذا الإلحاح على ارتعادات تلك الليلة التي لا تنسى، فإنّي أودّ أن أثبت أنّي لست، ولم أكن قطّ ولم يكن بوسعي

أن أكون قطّ، وحشًا وغدًا. إنّ هذا البلد الرحيم الملهم الذي كنت أطوف فيه بالسرّ، هو ملك الشعراء، وليس على الإطلاق أرض صيد المجرمين. ولو أنّي بلغت غايتي، فإنّ شهوتي كانت تكون العذوبة كلّها، نوعًا من الاحتراق الداخليّ لم تكن لوليتا ـ حتى ولو استيقظت ـ لتشعر به. وكنت ما أزال آمل أن تغرق رويدًا رويدًا في خدر كامل أستطيع أن أحبّه أكثر من هذا الانعكاس منها؛ وهكذا، بين محاولتين متردّدتين، كنت أخضع لتيه حسّي كان يجعل منها أضمومة من أشعّة القمر أو باقة من الزهور المخمليّة، فأحلم أنّي أستعيد وعيي وأترصّدها مفتوح العينين.

وفي الساعات الأولى ما بعد منتصف الليل، حلّ الهدوء محلّ صخب الفندق. ثم، حوالى الساعة الرابعة صباحًا، سمعت اصطفاق الباب وشلّال مرحاض الممرّ. وبعد الساعة الخامسة بقليل، تصاعد إليّ من الحديقة أو من المرأب حديث فردي ذو أصداء منتشرة. وليست كلمة «حديث فردي» هي الكلمة المناسبة، لأنّ الخطيب كان يصمت كلّ ثماني ثوانٍ أو عشر، وذلك على الأرجح ليستمع إلى محدّثه، ولكنّ صوت هذا المحدّث لم يكن ليُسمع، ولهذا كان ما أسمعه غير منسجم، على أنّ نبرات هذا الحديث اللامبالية عجّلت في مجيء الفجر، فإذا بالغرفة قد تلوّنت باللون الرمادي حين عادت مضخّات المياه تدور، واحدة بعد الأخرى، واستعاد المصعد رحلته الصاخبة من تحت إلى فوق، ومن فوق إلى تحت، محَمّلاً بالزبائن الذين أفاقوا باكرًا وهبطوا باكرًا، واستغرقتُ بضع دقائق في نوم يُرثى له، وكانت شارلوت حوريّة في حوض باهت، وفي مكان ما من الممرّ، صاح الأب «بويد»: «صباح الخير، صباح الخير»! بصوته الفاكِهي وأخذت العصافير تتشاجر على الأغصان وفجأة تثاءبت «لوليتا».

سيّداتي القاضيات النبيلات الضعيفات! كنت قد تصوّرت أنّ أشهرًا ستمضي بل ربّما سنوات، قبل أن أجرؤ على أن أكشف قناعي أمام

دولوريس هاز، والواقع أنّها قد استيقظت في الساعة السادسة صباحًا وفي الساعة السادسة والربع كانت ـ تكنيكيًا ـ عشيقتي، والآن، سأقول لكم شيئًا غريبًا جدًّا: إنّها، سيّداتي، هي التي أغوتني.

ما إن سمعت هذا التثاؤب الصباحي الأوّل حتى تصنّعت وجهًا أبولونيًا نائمًا. والحقيقة أنّي لم أكن أعرف ماذا عساي أن أفعل. أتُراها ستصدم إذ تراني إلى جانبها، لا في سرير آخر؟ أتُراها ستقفز إلى ثيابها وتغلق باب الحمّام خلفها إغلاقًا مُحكمًا؟ أتُراها ستطلب أن ترجع فورًا إلى «رامسدال» ـ أو إلى سرير أمّها المريضة ـ أو إلى مخيّمها؟ ولكن حبيبتي لوليتا كانت لاعبة بارعة. لقد شعرت بنظرها عليّ، وحين أطلقت تلك النقنقة الصغيرة التي كنت أحبّها كثيرًا، علمتُ أنّ عينيها كانتا تضحكان. وتدحرجت عليّ، فلامس شعرها المذهّب الدافئ ترقوتي. وتصنّعت بعدم حذقي أنّي أستيقظ، وظللنا صامتين لحظات طويلة. ولامست شعرها بحنان، وتعانقنا بحنان. وقد أظهرت ـ إزاء ارتباكي المنتشي ـ حيلاً هزليّة دقيقة ـ وكان لقبلاتها ما لست أدريه من النقر والوثب، فاستنتجت من هذا أنّها كانت قد دُرّبت على ذلك في وقت مبكّر. وطبعًا لم يكن الصديق شارلي هو الذي علّمها ذلك! وأخيرًا، كأنّما لتتأكّد أنّي ارتويتُ وأنّي تعلّمتُ درسي، تخلّصت وجعلتْ تتفحّصني بعينيها وكانت وجنتاها ورديّتين، وكانت انحناءة شفتها السفلى الممتلئة تلتمع ـ وكان محلولي قريبًا وفجأة، وفي شهقة من الجذل المجنون، أدنت فمها من أذني ـ ولكن مضى عليّ وقت طويل قبل أن أستطيع تجزئة دوّامة تمتمتها المحرقة إلى كلمات مفهومة. ثم انفجرت ضاحكة. ونفضت خصلة من جبينها وعادت إلى الهجوم، وشيئًا فشيئًا، فهمت ما كانت تقترحه، فأخذني شعور غريب بأنّي أعيش في عالم من الأحلام، عالم جديد موسوس كلّ شيء كان مسموحًا فيه. وأجبت بأنّي كنت أجهل الألعاب التي سبق أن مارستها

مع شارلي. «ماذا؟ إنّك أبدًا لم؟ .» والتوى وجهها في تعبير نفور وعدم تصديق. ورددت: «أبدًا لم؟ .» وأردت أن أتمهّل وأنا ألامسها بطرف شفتيّ، فأنّت تقول بصوت مخنّ: «لا تفعل هذا!» وأبعدت كتفها السمراء عن شفتيّ بحيويّة. (وكانت لها طريقة غريبة ـ احتفظت بها أشهرًا طويلة ـ أن تنظر إلى جميع الملامسات، باستثناء قبلة الفمّ والمجامعة المحض ـ كأمور «غير طبيعيّة»، أو «رومانتيكيّة»).

وألحّت تقول، وقد أصبحت الآن راكعة فوقي: «هل صحيح؟ ألم تفعل ذلك قطّ حين كنت صغيرًا؟».

فأجبتها «أبدًا» وكنت في ذلك صادقًا

وقالت لوليتا «أوكاي. إليك كيف يُعمل هذا».

لا، لن أكبّد قرّائي العلماء روايةً مفصّلة لادّعاءات لوليتا المزهوّة. فحسبنا أن نعرف أنّي لم أستطع أن أكشف أيّ أثر من الحشمة لدى هذه الغلامة الصغيرة الفاتنة التي لم تكتمل أبعادها بعد، هذه الصبيّة التي أفسدتْها كلّيًا، وبما لا مجال معه للشفاء طرقُ التربية المختلطة الحديثة، والأخلاق الطفوليّة، ومصنع مخيّمات العطلات. لقد كان الفعل الجنسيّ، في نظرها جزءًا لا يتجزّأ من عالم الطفولة الخفي، بينما كان البالغون يجهلون كلّ أموره. ولم يكن يهمّها على الإطلاق ما يفعله الكبار من أجل الحمل والولادة. وكانت «لو» الصغيرة تحرّك حياتي بطاقة ساذجة. كما لو كانت تحرّك آلة لا تحسّ، آلة غريبة عنّي. على أنّها، مع نفاد صبرها لتحملني على الإعجاب بعالم الصبيّة الصلب، لم تكن قطّ مهيّأة لبعض الاختلافات بين أبعاد صبيّ وأبعادي. والكبرياء وحدها التي منعتها من أن تترك، لأنّني كنت، في الموقف الغريب الذي وجدتُني فيه، أجهد في تصنّع طهارة عظمى، ما وسعني تحمّلها على الأقلّ. ولكنّ هذه التفاصيل هي خارج الموضوع، إنّ القضايا الجنسيّة، ما دامت تُدعى بهذا الاسم، لا

تدخل في موضوعي. وأنّ كلّ من يرغب أن يتصوّر على هواه هذه العناصر الحيوانيّة البحت. إنّ مطمحًا أرفع من هذا يقودني: هو أن أثبت إلى الأبد سحر الجنّيّات الخطر.

٣٠

يجب عليّ أن أتقدّم بحذر، وأتكلّم بصوت منخفض. أوه، أيّها العالم الحقوقيّ الباحث، وأنت أيّها الحاجب المرموق، وأنت أيضًا يا سيّدي الشرطي الذي أنت اليوم في الزنزانة، بعد أن زيّنت بوجودك الرائع المدلّل ملتقى الطرق عند مدخل المدرسة، وأنت أيّها الاشتراكي البغيض الذي يقرأ له صبيّ مراهق، سيكون من قلّة الحذر وقلّة الحكمة أن أدعكم تحبّون حبيبتي لوليتا! ولو كنت رسّامًا، ولو فكّرتْ إدارة «الصيّادين المسحورين» يومًا بأن تعهد إليّ إعادة رسم قاعة الطعام، فهذه هي الرسوم التي كنت أتصوّرها (وأنا لا أعطيكم هنا إلّا بعض الخطوط)، كنت سأرسم بحيرة. وكنت سأرسم خيمة من المصابيح، ودراسات عن الطبيعة ـ نمرًا يطارد عصفورًا من عصافير الجنّة، وحيّة تختنق، وهي تبتلع خنزيرًا صغيرًا حيًّا كنت سأرسم سلطانًا ذا سحنة شديدة الألم (تكذّبها ملامساته الشهوانيّة) وهو يساعد جارية صغيرة على أن تمتطي عمودًا من العقيق. وكنت سأرسم تلك الكرويّات الملتهبة التي نراها تصعد على جدران الآلات الثلجيّة. وكنت سأرسم فريق الصغار منشغلاً بألف عمل وعمل في المخيّم، وكنت سأرسم شجر صفصاف وتفّاح في يوم أحد بالريف. وكنت سأرسم دائرة من النار تذوب في مستنقع مكلّل بالتجعّدات، وتشنّجة عظمى ولطخة أخيرة من اللون الأحمر الملتهب، الورديّ المعذب، وتنهّدة وغلامة تلفت رأسها

٣١

إذا كنت أجهد في وصف هذه الذكريات على هذا النحو، فليس لكي أعيشها من جديد في ضيق وجودي الراهن الذي لا قرار له، وإنّما لكي أحدّد المناطق الجهنّميّة والمناطق في هذا العالم الغريب الرهيب ـ عالم الجنّيّات. إنّ الجمال والحيوانيّة يلتقيان فيه عند نقطة، وهذه الحدود هي التي أحاول أن أعيّنها ومع ذلك، أشعرُ بأنّي أُخفق تمامًا في هذه المهمّة. لماذا؟

لقد تبنّت الكنيسة بنود القانون الروماني التي تسمح لقاصرة بأن تتزوّج وهي في الثانية عشرة، وما زالت هذه البنود سارية المفعول، بطرق صامتة، في بعض الولايات الأميركيّة. وسن الخمسة عشر تعتبر شرعيّة في كلّ مكان. ويجمع الناس على القول، في نصف القارّة الأرضيّة، أنّ من المشروع تمامًا أن يتخلّص فلّاح ريفيّ أربعينيّ قد باركه الكاهن المحلّيّ وامتلأ بالخمر من ظباء العيد المبلّلات بالعرق وأن يلج في زوجته الشابّة إلى أبعد الحدود. (وفي بعض المدن كسان لويس وشيكاغو وسينسيناتي ـ كما تقول مجلّة قديمة كانت في مكتبة السجن ـ يبدو أنّ للجوّ المعتدل تأثيرًا محرّكًا جدًّا حتى إنّ الصبيّات الصغيرات يدخلن سنّ البلوغ في آخر عامهن الثاني عشر) وقد ولدت دولوريس هاز على بعد أقلّ من خمسمئة كيلومتر من سينسيناتس المنعشة وأنا لم أفعل إلّا أن أُطيع الطبيعة وأن أتبعها خطوة خطوة ككلب أمين. فلماذا إذًا هذا الشعور من الفظاعة الذي لا أستطيع أن أتخلّص منه؟ هل فضضت بكارة هذه الغلامة؟ أوه يا سيّدات المحكمة الحسّاسات أكثر ممّا ينبغي، إنّني لم أكن حتى عشيقها الأوّل.

٣٢

لقد روت لي كيف أُفسدت. كشفت لي عن كلّ شيء بينما هي تأكل موزًا طحينيًا لا طعم له وخوخًا ذابلاً وتفّاحًا لذيذًا. وكانت تكشيرة فكاهيّة تطلقها هنا وهناك تركّز قصّتها المسهبة المتفكّكة. وأحسب أنّي قد ذكرت بأنّ الصورة الحيّة التي حفظتها منها هي صورة وجهها الصغير المكشّر كما لو كانت تقول: «بواه؟» بفمها الممتلئ الملتوي جانبيًّا، وعينيها المتحرّكتين، في مركب من النفور والخضوع والرحمة تجاه عدم عصمة الطفولة.

وقد بدأت اعترافاتها المريعة ببضع ملاحظات أوّليّة عن الغلامة التي كانت تقاسمها خيمتها في مخيّم الصيف السابق ـ وأوضحت أنّه مخيّم للنخبة. وكانت رفيقة الخيمة (وهي داعرة صغيرة نصف مجنونة، ولكنّها طريفة) قد عوّدتها على مختلف المعالجات اليدويّة. وقد رفضت «لو» أوّل الأمر أن تكشف عن اسمها.

وسألتها: «هل هي غراس إنجيل؟» فهزّت رأسها نفيًا، وإنّما كانت.

ـ ربّما كانت إذًا روز كارمين؟

ـ لا، طبعًا لا إنّ أباها

ـ لعلّها إذن أغنيس شريدان؟

فالتهمت لقمة وهزّت رأسها من جديد بالنفي ثم قفزت فجأة: «قلْ لي من أين تعلّمت أسماءهنّ؟».

فشرحت لها

وقالت: «هكذا إذن؟ كلّا! إنّ فتيات صفي هنّ صاخبات، ولكن ليس إلى هذا الحدّ. فإذا كنت حريصًا فعلاً على معرفتها، فإنّ اسمها «أليزابيت تالبوت» وهي الآن في معهد خاصّ، علبة فخمة. وأبوها رجل أعمال مرموق.

وتذكّرت، منقبض القلب، أنّ شارلوت المسكينة كانت تُدرج في أحاديثها بعض الإشارات إلى رفيقات «لو» وأنّها قالت يومًا: «نعم، كان هذا في العام الماضي حين كانت ابنتي تتزحلق مع «تالبوت» الصغيرة.

وسألتها هل كانت أمّها أو أمّ رفيقتها على علمٍ ببعض تسلياتهما، فأجابت: «طبعًا لا!».

ورسمتْ حركتين للذعر والعزاء، ضاغطة على قلبها يدًا مرتعشة.

ولكن علاقاتها بالجنس الآخر هي التي أثارت بالغ اهتمامي. وكانت لا تزال في الحادية عشرة، حين دخلت مدرسة رامسدال، قادمة من «الميدل ويست». فما الذي كانت تعنيه إذن بقولها «صاخبات»؟

تعني أنّ الشقيقتين أنطوني وڤيولا ميراندا كانتا قد نامتا في سرير واحد طوال أعوام، وأنّ دونالد سكوت الذي كان أشدّ صبيان المدرسة بلاهة كان قد فعل «الشيء» مع هازل سميث في مرأب عمّها، وكان كينيت نايت يتنزّه في مكان قريب و.

وقلت: «لنتحدّث عن معسكر «كيلت».

وسرعان ما عرفت القصّة كلّها

كانت «بربارة بورك» الشقراء القويّة التي تكبرها بعامين، والتي كانت أبرع سبّاحة، تملك قاربًا من المطّاط لا شبيه له، كانت تُركب فيه «لو» وحدها، «لأنّي كنت الفتاة الوحيدة الجديرة بالذهاب حتى جزيرة «سول» (وتصوّر أنّ في ذلك بعض تمرينات السباحة). وصباح كلّ يوم من أيّام

تمّوز (اسمع جيّدًا أيّها القارئ، كلّ صباح كان الربّ الرحيم يصنعه) كانت برباره ولو تحملان قاربهما إلى بحيرة أريكس أو أونيكس (في الغابة) يساعدهما شارلي هولمس، وهو ابن مديرة المخيّم، ويبلغ الثالثة عشرة، وهو المخلوق الوحيد الذي ينتمي إلى الجنس الخشن على بعد ميل حول المخيّم (باستثناء عجوز متواضع أصمّ كان يصلح لكلّ شيء، ومزارع يملك سيّارة فورد قديمة ويبيع لفتيات المخيّمات بعض البيض، على غرار جميع مزارعي العالم) إذن، يا قارئي، كانت بربارة ولو وشارلي يسلكون كلّ يوم طريقًا مختصرًا عبر الغابة الجميلة البريئة التي كانت تغصّ بجميع شعارات الفتوّة ـ الندى وأغاني العصافير ـ وهناك، تحت أوراق الأشجار الغزيرة، كانت «لو» تقوم بالحراسة بينما كان الشقيّ يضاجع برباره خلف أحد الأدغال.

وفي البدء، رفضت «لو» أن ترى «كيف كان ذلك يتمّ»، ولكنّ الفضول والزمالة تغلّبا آخر الأمر، وما لبثت البنتان أن أخذتا تتقاسمان حظوة شارلي الذي لم يكن ليتعب، وهو صبيّ كثير التمتمة والصمت، خشنٌ عديم الجاذبيّة الجنسيّة، ولكنّه كان يحتفظ بمجموعة عجيبة من «الأكياس الواقية» كان يصطادها من بحيرة مجاورة أوفر سعة وأحفل بالناس، هي بحيرة «كليماكس» التي أطلق عليها هذا الاسم اقتداء باسم المدينة الصناعيّة الزاهرة التي كانت تنمو حولها وقد أقرّت «لو» بأنّ شارلي كان «ظريفًا» وكان «ممتازًا بلون بشرته»، ولكنّها كانت تشعر باحتقار كبير، ويروقني أن أسجّل ذلك، لتفكيره وتصرّفاته. ثم إنّ هذا الزقاقي القذر لم يعرف أن يوقظ حواسّ لوليتا ـ بل أظنّ، على العكس، أنّه بردّها بالرّغم من مظاهره الماجنة.

كانت الساعة قد بلغت العاشرة. وقد تجمّع في داخلي، إلى جانب جَزْر الشبق (كان يُفاقمه اصفرار صباح كئيب شديد الواقعيّة) كمطر من

الرماد كان ينقر نقرًا أصمّ خلف صدغي، وكانت «لو» بسمرتها ونحولها وعريّها، واقفةً أمام مرآة الباب، راحتاها على خاصرتيها، ورجلاها متباعدتان، موليةً إيّاي بياض ردفها الضيّق، ووجهها المكشّر منحنٍ على انعكاسه، وكانت تتأمّل نفسها في دهش مبتذل على الخصلة الطويلة التي تتدلّى على جبينها وسمعت أصوات الزنجيّات المدمدمات اللواتي كنّ ينظّفن الممشى، وفجأة حاولت يد ناشطة عذبة أن تفتح الباب. وصرفتُ لوليتا إلى الحمّام وأنا آمرها أن تنظّف جسمها تحت الرشّاش، وكانت بحاجة شديدة إلى ذلك. وكان السرير الذي نثرت عليه القشور يوحي ـ بمنظره ـ وقوع هزّة أرضيّة. وعادت «لو»، وجرّبت «تايّورًا» أزرق، ثم قميصًا بلا أكمام وتنّورة ذات مربّعات دوّاميّة، ولكنّ التايور كان أضيق ممّا ينبغي، بينما كان القميص أوسع ممّا ينبغي ـ وحين رجوتها أن تعجّل (فإنّ التحوّل الذي طرأ على الموقف بدأ يقلقني) قذفت، بسوء تصرّف، هداياي الجميلة إلى زاوية من الغرفة. وعادت ترتدي ثوب الأمس. وحين أصبحت على استعداد، أعطيتها محفظة يد فاتنة من الجلد (كنت قد وضعت فيها قطعة من فئة المئة سنت وأربعة نكلات جديدة) واقترحت عليها أن تذهب فتشتري مجلّة من مكتبة الفندق.

وأضفتُ: «سألحق بك بعد دقيقة. ولو كنت بدلاً منك، يا عزيزتي، فإنّي لا أوجّه الكلام إلى الأجانب».

ولم يكن أمامي شيء أرتّبه، باستثناء هداياي المتواضعة، على أنّي ضحّيت بوقت ثمين (ماذا كانت تفعل تحت؟) وأنا أصلح ما فسد من السرير، لكي أوحي بصورة عشّ لطيف تركه أبٌ مؤرّق وابنته الصاخبة، لا صورة ليلة حمراء لمحكوم قديم مع بغيّين سمينتين. ثم انتهيت من ارتداء ثيابي وناديت الحمّال ليحمل حقائبنا.

وكان كلّ شيء على ما يرام. وكانت في القاعة، مستغرقة في قعر

أريكة حمراء تقرأ في مجلّة للسينما. وكان هناك شخص في مثل عمري يرتدي «التويد» (وكان جوّ المكان قد تغيّر بين ليلة وضحاها وهو يحاول الآن أن يوحي بموعد يلتقي به بعض الأثرياء) وكان يرقب حبيبتي لوليتا من فوق سيكاره المطفأ، ومن فوق جريدة قديمة، وكانت هي تحمل سمات حالتها: جوارب قصيرة بيضاء، وحذاء من الجلد ملوّن بالأبيض والبلاذر، وثوبها الجميل المطبّع العاري الكتفين، وكان النور المتعب لثريّا فندقيّة ينعش الزغب المذهّب على أطرافها الحارّة، كانت هناك، جامدة لا تهتمّ بساقيها المتشابكتين المرتفعتين أكثر ممّا ينبغي، وهي تطرف قليلاً بجفونها، وتلامس العناوين بنظرها الممتقع. لقد كانت امرأة «بيل» تحبّه، من بعيد، قبل أن تعرفه بمدّة طويلة، ففي كلّ مرّة كان الممثّل الأوّل المشهور يذهب لتذوّق الفاكهة المثلّجة عند «شووب» كانت ترقبه بالخفية. وما الذي كان أكثر طفوليّة من هذا الأنف الصغير المشمّر، ونقط النمش على الخدّين، وذلك الطابع البنفسجيّ على عنقها (حيث كان قد أَوْلم شبحٌ لقصص الجنّيّات) وطرف اللسان ذلك النشيط الذي كان يبحث بلا وعي عن الشقّ الورديّ الذي كان يكلّل شفتيها الريّانتين؟

أيّ شيء أبرأ من قراءة قصّة «جيل»، النجمة الشجاعة التي كانت تقصّ هي نفسها أثوابها ولا تقرأ إلّا كتبًا رصينة؟ وهل هناك ما هو أطهر من فرق شعرها الكستنائي وهذا التموّج الحريريّ على صدغيها! وأيّ شيء أكثر سذاجة. ولكن أيضًا أيّ طمع مرَضي كان سيستشعره هذا الأربعينيّ الخليع ـ فمن ذا يكون؟ أظنّ أنّه كان يشبه قليلاً أحد أقربائي السويسريين، العمّ «غوستاف» الذي كان هو أيضًا هاويًا كبيرًا من هواة «الاكتشاف» ـ لو عرف أنّ كلّ عصب من أعصابي كان ما يزال مُحاطًا ومصبوغًا بطابع هذا الجسم غير البالغ ـ جسم شيطان لا يموت، متنكّر في غلامة ذات اثني عشر تمامًا.

هل كان الصديق «سوون»، الخنزير الورديّ، على يقين تامّ من أنّ زوجتي لم تتلفن؟ «نعم، يا سيّدي»، وإذا خابرت، هل يريد أن يقول لها إنّنا ذاهبون إلى منزل الخالة «كلير»؟ «طبعًا، يا سيّدي» ودفعت الأجرة ورحت أخرج «لو» من مقعدها. وتوجّهت نحو السيّارة دون أن تكفّ عن القراءة. وتركتني أقودها، وهي ما تفتأ تقرأ، إلى ما يسمّى «المهى» بعد بضعة شوارع منحدرة. أوه! لقد أكلت، فاطمئنّوا! بل هي تركت مجلّتها لتلتهم الطعام في راحة أوفر، ولكن بشاشتها امّحت ليحلّ محلّها جمود غريب. ولمّا كنت أعرف أنّ «لو» الصغيرة كانت تكشف أحيانًا عن أظافر محدّدة جدًّا، شددت عضلاتي وأخذت أنتظر العاصفة وأنا أبتسم بشجاعة. ولم أكن قد اغتسلت ولا حلقت ذقني، بل لم أكن قد ذهبت إلى المرحاض. وكانت أعصابي متشنّجة. وحاولت أن أعقد حديثًا مع عشيقتي النحيلة، ولكن ارتفاع كتفيها وخفقان منخريها لم يبشّراني بالخير. أتُرى كانت «فيليس» على علم بنشاطهن عندما التحقت بأهلها في «المين»؟ هذا هو السؤال الذي طرحته على «لو» بلهجة فَكِهة، فأجابتني بتعبير هادر: «اسمع! لنغيّر الموضوع، هل تريد؟» وحاولت حينئذٍ أن أحملها على الاهتمام بخطّة رحلتنا ولكنّي حاولت عبثًا أنّ ألحس شفتي وأصفق لساني، وينبغي أن أذكّر قارئي الصابر (الذي كان يحسن بـ «لو» أن تقتدي به في سماحته) بأنّ هدفنا كان مدينة «ليبنغفيل» البهيجة، بالقرب من مستشفى وهمي. وكان هذا الهدف (كما ستكون أهداف كثيرة أخرى مع الأسف) اعتباطيًّا إلى أبعد حدّ، وكنت أرتجف وأنا أتساءل كيف أجعل الأمر مقبولاً وكيف أخترع بعد ذلك أهدافًا أخرى موافقة بعد أن نكون قد طفنا بدور السينما كلّها في «ليبنغفيل». لقد كان همبرت همبرت يزداد ضيقًا ساعة بعد ساعة. وكان هذا شعورًا خاصًّا جدًّا، لونًا من الانزعاج الكريه الضاغط كما لو أنّي كنت أجالس شبح مخلوقة صغيرة قمت بقتلها

وحين استعادت «لو» مكانها في السيّارة، رفّ على وجهها ظلّ من الألم، ثم رفّ مرّة أخرى بتنبّه ملحوظ حين جلست على المقعد. ولا شكّ أنّ هذا الترديد كنت أنا المقصود به. وسألتها ببلادة عمّا بها. فأجابت: «لا شيء على الإطلاق، أيّها الوحش». ـ «أيّها ال ماذا؟» ـ وظلّت صامتة. وقرأنا لوحة: «إنّكم تغادرون بريسولند». كانت «لو» الثرثارة بكماء. وتسرّب الضيق إليّ، كأنّه عناكب باردة تزحف على صلبي. إنّها كانت يتيمة ـ وهذه الغلامة المتروكة بلا أهل لها في العالم هي التي قام رجل ناضج، ذو أعضاء كثيفة وإبطين نتنين، بمجامعتها بقوّة ثلاث مرّات متوالية هذا الصباح! وإذا كان تحقيق حلم حياتي كلّها قد كسف آمالي أم لا، فقد تجاوز، على نحو ما، غايته وانقلب إلى كابوس. لقد كنت غير حذر، وكنت دنيئًا عديم الحذق. بل أكثر من ذلك (وأريد أن أكون صريحًا) فإنّ رغبتي في هذه الجنّيّة الشقيّة بلغت درجة من الشيطانيّة كنت أشعر معها، في أعماق هذه الدوّامة الفظيعة، بأنّ تشنجات الشبق تولد فيّ من جديد. وكان يمتزج بأهوال الندم التفكيرُ المرهق بأنّ مزاجها قد يمنعني من أن أمتلكها مرّة أخرى حين أجد طريقًا ريفيّة صغيرة أتوقّف فيها بعيدًا عن الأنظار. وبالاختصار كان همبرت المسكين في حالة العذاب. وفيما كان متوجّهًا نحو «ليبنغفيل» بعناد بلغ من السخف ما بلغه من الوعي كان يحفر ذهنه، باحثًا بلا جدوى عن بعض الالتماعات الفكريّة التي تمكّنه من أن يلتفت إلى رفيقة رحلته الصغيرة. وكانت هي التي قطعت الصمت أخيرًا فقالت:

«أوه سنجاب مسحوق! هذا فظيع».

فردّد همبرت على عجل وهو يلتهب أملاً ـ نعم. فظيع حقًّا!

وقالت حينذاك: لنقف في المحطّة القادمة، أريد أن أذهب إلى التواليت.

فقلت: سنقف حيث تريدين.

وفجأة انبعثت غابة فاتنة غامزة (فكّرت أنّها من شجر السنديان لأنّ أشجار أميركا كانت تتجاوز في هذه الفترة إدراكي) فواكبت السيّارة بصداها المخضوضر، ولاحظت إلى اليمين ممرًّا من الأرض الحمراء يرقد بين الأعشاب ويبدو أنّه يلفت رأسه قبل أن يغرق في الغابة، وتمتمت أنّنا قد نستطيع.

فصاحت «لو» بصوت نافذ:

ـ لا تخفّف السير.

ـ حسنًا. لا تثيري أعصابك!

ونظرت إليها خفية. وكانت الغلامة تبتسم ولله الحمد.

وقالت لي بابتسامة مداعبة: «وحش! إنّك قذر. لقد كنت نقيّة نضرة كالأقحوانة. فانظر ماذا فعلت بي. كان عليّ أن أستدعي الشرطة وأخبرهم بأنّك قد اغتصبتني. أوه! إنّك رجل عجوز تدعو إلى الاشمئزاز».

هل كانت تمزح حقًّا؟ لقد حسبتني أكتشف في ثرثرتها السخيفة نبرة مهدّدة، هيستريّة تقريبًا وبعد ذلك أخذت تُحدِث بين شفتيها نوعًا من الكزّ المرطّب وبدأت تتشكّى. كانت متألّمة. وكانت لا تستطيع أن تجلس. وكانت على يقين من أنّي (مزّقت لها شيئًا ما في الداخل) وسال العرق فجأة على رقبتي. وكدنا نسحق حيوانًا صغيرًا كان يعبر الطريق مرتفع الذنب، وقذفتني رفيقتي الشرسة باسم كريه، وحين توقّفنا أمام محطّة خدْمة قفزت إلى الأرض من غير أن تقول كلمة، وظلّت وقتًا طويلاً غائبة. وتقدّم صديق قديم ذو أنف مكسور فأخذ يمسح زجاج السيّارة بهدوء ولطف ـ إنّ لكلّ مرأب طريقته الخاصّة: فواحد يستعمل جلد الغزال والآخر فرشاة صابونيّة، أمّا هذا فكان يستعمل إسفنجة ورديّة.

ورجعت «لو» أخيرًا وقالت لي بذلك الصوت الشارد الذي كان

يؤلمني كثيرًا: «أعطني بعض قطع النقود. أريد أن أتّصل بأمّي في ذلك المستشفى. ما هو الرقم؟

فقلت: ادخلي السيّارة. إنّه ليس واردًا أن تتلفني هناك.

ـ ولماذا؟

ـ أدخلي واغلقي الباب.

فدخلت وصفقت الباب. ووجّه إليها عجوز المرأب بسمة مشعّة. وأقلعت على عجل واستأنفنا المسير.

ـ «لماذا لا أستطيع أن أتلفن إلى أمّي إذا كنت راغبة في ذلك؟

فأجبتها: لأنّ أمّكِ قد ماتت.

٣٣

وفي مدينة «ليبنغفيل» البهيجة اشتريت لها أربع صحف مصوّرة، وعلبة من الملبّس، وزجاجتَيْ كوكا كولا ومحفظة للمانيكور وساعة صغيرة للسفر ذات وجه مشعّ، وخاتمًا مزيّنًا بزمرّدة حقيقيّة، ومضرب تنس ومزلاجين مع حذائين أبيضين، ومنظارًا مكبّرًا، وآلة راديو نقّال وعلكة، ومشمّعًا شفّافًا، ونظّارات شمسيّة، وأثوابًا أخرى ـ تبابين وسراويل قصيرة وأنواعًا مختلفة من أثواب الصيف. وفي الفندق أخذنا غرفتين منفصلتين، ولكنّها في منتصف الليل دخلت إلى غرفتي وهي تنتحب فتصالحنا بكلّ لطف. لقد كانت وحيدة تمامًا في العالم، كما ترون.

القسم الثاني

١

في تلك الفترة بدأت رحلتنا الكبرى عبر الولايات المتّحدة، وقد فضّلت بسرعة بين مختلف أنواع مساكن السوّاح نُزل «مونيل فونكسيونيل» النظيف العملي، وهو ملجأ مثالي للنوم أو للخصام وللمصالحات وللغراميّات غير المشروعة والتي لا تشبع. لم أتردّد أوّل الأمر، خشية أن أوقظ الشكوك، في استئجار جناحَيْ مقصورة كان لكلّ منهما سرير لشخصين. وإنِّي لأتساءل لأيّ تركيبة رباعيّة كان هذا المسكين مرصودًا، فإنّ الرغبة في أن يكون المرء «في منزله» لم تكن إلَّا حجّة فريسيّة بالنسبة إلى نصف الحاجز الذي كان يقسم الغرفة إلى عشّين للحبّ متّصلين. وشيئًا فشيئًا جعلني التفكير بالإمكانات التي كان يوحيها هذا الاختلاط اللامبالي (زوجان يتبادلان الشركاء، أو صبيّ يتصنّع النوم ليفاجئ المناجاة الغراميّة لوالديه) جعلتني تلك الفكرة أكثر جسارة. فجرؤت أحيانًا على استئجار غرفة ذات سريرين مزدوجين أو حتى سرير واحد لمكان واحد وسرير مخيّم صغير، حصن نعيمي صغير كانت ستائره الصفراء تخلق وهم فينيسيا تحت الشمس بينما كنّا في بانسيلفانيا تحت المطر.

وقد عرفنا كوخ الحجر المبنيّ تحت أغصان عالية، وبيت اللبن القرميديّ أو البلاطيّ القائم في مكانين، والذي كان دليل السيّاح لجمعيّة

السيّارات يصفه بأنّه «واسع» و«ظليل» و«مبنيّ بطريقة بارزة». وكانت مقاصير جذوع الشجر التي كانت تنتهي بألواح صنوبريّة معقّدة ذات رونق أسمر مذهّب، تذكّر «لو» بمدقّات للدجاج المشويّ. وكنّا نحتقر الأكواخ المبتذلة المبيّضة بالكلس التي كانت تتجشّأ روائح نتنة ولا تملك شيئًا هامًّا تقدّمه (باستثناء «أسرّة مريحة»)، مع سيّدة شرسة مستعدّة أبدًا لأن ترى سخاءها مرفوضًا. («أعتقد أنّي أستطيع أن أعطيكم. .»).

وقد عرفنا إغراءات اللّافتات ـ وكلّها متشابهة: ـ (بارك بلازا كورتس) النبيل، أو (ماكس) الظريف، أو (أو ـ بيم) حيث تشعّون، أو (هيلكرست، وبين فيو، وماونتان فيو، وسيكلاين) التي تعبّر عن خصائص البلد. وكان في هذه اللّافتات أحيانًا إشارات خاصّة من مثل «نرحّب بالأولاد، ونسمح بالكلاب» وكانت الحمّامات مقتصرة غالبًا على غرف «دوش» بسيطة ذات جدران مبلّطة، ومعدّة بعدد لا يُحصى من الآلات المتدفّقة التي كانت تشترك بخاصّيّة لم تكن تسمح لها بكلّ تأكيد أن تكتسب حقّ المواطنيّة في «اللاويديسه» الفاترة، وهذه الخاصّيّة هي: القدرة على أن تقيء فجأة، في أثناء الاستعمال، دفقة ماء محرقة أو مثلجة، وفقًا لمزاج جارك في أن يفتح صنبور الماء الساخن أو صنبور الماء البارد، فيسلب بهذه الطريقة مزاج «الدوش» الذي كنت قد نظّمت حرارته من قبل. وكانت بعض النُزُل تعلّق إعلانًا فوق المراحيض (التي كانت مضخّاتها المائيّة مكلّلة بركام من المناشف) ترجو به الزبائن ألّا يرموا الأوساخ ولا الأوراق ولا زجاجات البيرة، ولا الأطفال الذين يولدون ميّتين، بينما كانت بعض النُزُل الأخرى تُلصق إعلانات خاصّة أو «اقتراحات إلى زوّارنا». (الفروسيّة: «غالبًا ما تلاحظون فرسانًا يهبطون شارع القرية بعد عودتهم من نزهة رومانتيكيّة في ضوء القمر». وتضحك «لو» قائلة: «غالبًا؟ تصوّر ذلك في الساعة الثالثة صباحًا!».

وقد عرفنا مختلف نماذج مُديريّ النُزُل، فبين الرجال: اللصّ الذي اشترى لنفسه سلوكًا جديدًا، والمعلّم المتقاعد، والتاجر الفاشل. وبين النساء: مختلف أنواع الأمّهات ونساء المجتمع المزيّفات والخليلات. وكانت بعض قطارات تقذف في حرارة الليل الرطبة أحيانًا شكوى فاجعة ومهدّدة، أنينًا طويلاً يائسًا يمتزج فيه العنف بالهستيريا.

وكنّا نتفادى الغرف الخاصّة، الشبيهة بالغرف القبريّة، وهي أمكنة مغطّاة بالأبيض والورديّ التافه الكالح ليس فيها حمّام، وقد انتثرت على جدرانها صور جميع أولاد المؤجّرة في مختلف مراحل تطوّرهم. وكان يتّفق لي أحيانًا أن أخضع لرغبة «لو» في «الفنادق الحقيقيّة»، فكنت أوقف السيّارة في صمت شارع صغير متفرّع، فألامس «لو» على مقعدها بينما تكون منهمكة في البحث ـ بين أوراق الدليل ـ عن قصر مشرف على بحيرة، موصًى به بحرارة، ومتميّز بألف ميزة وميزة (كانت تزداد روعة تحت ظلّ المصباح الكهربائي الذي كانت تُمرّه فوقها): الزبائن شديدو اللطف، مسلّيات بين وجبات الطعام، نزهات في الهواء الطلق. أمّا أنا، فإنّ تلك الفنادق لم تكن توحي لي إلّا برؤى بشعة: طلّاب يرشحون عرقًا في تبابينهم، ووجنة قرمزيّة تحتكّ بوجنة «لو»، بينما يكون الدكتور المسكين همبرت يحيط بذراعيه ركبتيه المعروقتين، ويهدهد بأسى بواسيره فوق العشب المندّى. وكانت حبيبتي لوليتا مغرمة كذلك بتلك الفنادق ذات الأسلوب «الاستعماري» التي كانت تَعِدُ ـ خلافًا «للجوّ الحفيّ» وللمناظر البحريّة الجماعيّة ـ بفيض لا مثيل له من «الوجبات اللذيذة جدًّا». وكانت ذكرى فندق أبي الفخم التي ما تزال حيّة في ذهني تدفعني أحيانًا إلى التماس شبيه له في ذلك البلد الغريب الذي كنّا نجتازه من مكان إلى آخر. غير أنّ حماستي سرعان ما فترت، ولكنّ «لو» كانت ترفع أنفها في الهواء وتتابع جميع الإعلانات المعلّقة في الجوّ، بينما كان اختياري يتّجه (لا

بدافع من الاقتصاد فحسب) إلى تلك اللافتات الطريقيّة التي تعلن «فندق الأرز، الأولاد تحت سن الرابعة عشرة بالمجان». وبالمقابل، ما زلت أرتعش إذ أتذكّر فندق «الميدل ويست» وهو من فئة «الفنادق الفخمة جدًّا» على زعمهم، والذي كان زبائنه، إذا أردنا تصديق الدعاية، مدعوّين بكلّ ابتهاج إلى سلب خزانة الطعام في كلّ ساعة من ساعات النهار والليل، والذي أراد مديره المرتاب، الذي شكّ في لهجتي، أن يعرف اسم ابنة زوجتي وزوجتي المرحومة. ولم نبق في هذا الفندق إلّا يومين، وقد كلّفني ذلك مئة وأربعة وعشرين دولارًا! وتذكّري جيّدًا، يا ميراندا، تلك المغارة الأخرى الممتازة، مغارة اللصوص، التي كانت تقدّم إدارتُها قهوةً صباحيّةً، وماءً مثلّجًا جاريًا، ولا يُسمح هناك بدخول الأولاد الذين هم دون السادسة عشرة ـ إذن، ليس من لوليتا!

وكنّا ما إن نصل إلى نزل أشدّ تواضعًا من الفنادق التي كانت قد أصبحت ملاجئنا المألوفة، حتى تحرّك «لو» المروحة الكهربائيّة، أو تطلب منّي أن أضع قطعة نقود في آلة الراديو الأتوماتيكيّة، أو تقرأ جميع اللّافتات والإعلانات، وتسألني بصوت منتحب لماذا لا أسمح لها بأن تقوم بالنزهة الموصى بها على طريق الجبل أو أن تذهب للاستحمام في حوض الماء المعدني القائم في تلك الناحية. وكانت تستغرق معظم الوقت، وهي على تلك الحالة من اللامبالاة العابسة التي كانت حريصة على تعقيمها، في كرسيّ هزّاز أحمر، أو مقعد طويل أخضر، أو أرجوحة قماشيّة مخطّطة ذات مسندين للقدمين، أو سرير معلّق، أو أيّ مقعد آخر من مقاعد الحديقة تحت مظلّة الشرفة. وكان عليّ أن أقضي ساعات طويلة من التدليل والتملّق والتهديد والوعود لتوافق على أن تعيرني أعضاءها السمراء بضع لحظات، قبل أن نستسلم للغباوات التي كانت تفضّلها على سعادتي المسكينة.

وكانت حبيبتي لوليتي، المصنوعة من السذاجة والمكر، ومن الجاذبيّة

والابتذال، ومن الفرح الورديّ والتكشير الرماديّ، تبدو حين يروق لها، شيطانة تثير الغيظ. والحقيقة أنّي لم أكن مهيّأً لسورات ضجرها الشرود، ولا لعنف معاتباتها ولا لطريقتها في التدحرج، إذ يتثاقل جفنها وتسترخي حركاتها، ولا لحيلها وتهريجاتها التي كانت تودّ أن تقلّد بها براعات الممثّلين الهزليّين في الأحياء الدون. ولم تكن ـ فكريًّا ـ إلّا فتاة صغيرة اصطلاحيّة بصورة كريهة. كان «الجاز» الحارّ في شكله الشيطانيّ والرقصات الشائعة بين المهرّجين، والمثلّجات الأميركيّة على اختلاف أنواعها، وأفلام الاستعراض الموسيقي، ومجلّات هوليود. كان ذلك كلّه النقاط الرئيسيّة الماثلة على لائحة أشيائها المفضّلة. والله وحده يستطيع أن يحسب عدد القطع النقديّة التي ألقمتها الصناديق المشعّة التي كانت ترافق كلّ وقعة من وقعاتنا بالموسيقى. وما زلت أسمع الأصوات الخنّانة لتلك المخلوقات غير المرئيّة التي كانت تهدي إليها أغانيها من مثل: سامي وجو وإيدي وتوني وبيغي غي وباتي وركس، وما زلت أسمع تلك الأغاني العاطفيّة الشائعة التي كانت تتشابه كلّها في مسمعي كما تتشابه في حلقي جميع الحلويات المختلفة التي كانت تجنّ بها «لو». وكانت تقدّس كلّ إعلان أو اقتراح منشور في مجلّات للسينما كمجلّتي «موفيلف» و«سكريلبد» من مثل عبارات: «استراسيل يزيل أمراض الجلد»، أو «انتبهن أيّتها الأوانس، لا ترتدين بعد الآن قميصكنّ فوق السراويل الزرقاء، لأنّ الصديقة «جيل» تقول: إنّ هذا أصبح باطلاً». وكانت إذا قرأت على إعلان: «زوروا فرع الألعاب» كان يجب علينا أن نزوره. وكان يجب علينا أن نشتري من أثريّاته الهنديّة ومن ألعابه ومن حلوياته. وكانت كلمتا «أشياء جديدة» و«ذكريات» تغرقانها في النشوة. وكان يكفي للافتة في مقهى أن تُعلن «مشروبات مثلّجة» حتى تسقط حبيبتي لوليتا تحت سحرها بالرّغم من أنّ المشروبات هي مثلّجة في كلّ مكان. والحقّ أنّ الإعلانات إنّما كانت

تَنْصبُ لمثلها أشراكها، فقد كانت هي المشترية المثاليّة، وكانت موضوعًا وهدفًا لكلّ إعلان ولكلّ دعاية سالبة. بل هي قد حاولت ـ بلا نجاح ـ ألا تقصد إلّا المطاعم التي طبع فكر اختصاصيّ الدليل بطابعه الكوكبي مناشفها الورقيّة المزيّنة وسلَطتها المتوّجة بالجبن الأبيض.

وفي تلك الفترة، لم نكن قد وضعنا بعد خطّة «الرشوات» التي أحدثت فيما بعد إتلافًا كبيرة في أعصابي وفي ضميري. وكنت قد عمدت آنذاك إلى ثلاث طرق للاحتفاظ بخليلتي الصغيرة غير البالغة في وضع من الطاعة والرضى. وكانت قبل سنوات قد مضت صيفًا طويلاً ماطرًا تحت نظر مسّ فالين الشزر، في مزرعة مخرّبة في جبال «أبالاش» كان يملكها أحد أجداد هاز الأقدمين. وكان الكوخ ما يزال قائمًا في حقل من نبات عصا الذهب ومن العشب القاسي عند تخوم غابة لا أزهار فيها، في أقصى شارع موحل دائمًا، على بعد ثلاثين كيلومترًا من أقرب بيت هناك. وكانت «لو» تتذكّر ذلك الكوخ المرعب ـ العزلة، المراعي القديمة القاحلة، الريح، ذلك الامتداد الواسع الكئيب ـ كانت تذكره بغثيان في الاشمئزاز كان يلوي فمها ويطلع منه لسانًا مقلوبًا وقد أنبأتها بأنّها ستعيش هناك منفيّة طوال شهور بل طوال أعوام إذا لزم الأمر لتدرس تحت رعايتي الفرنسيّة واللاتينيّة، إذا لم تتغيّر تصرّفاتها. أوه. لقد بدأت أفهمك يا شارلوت!

وكانت «لو» السريعة التصديق تصيح: لا! وتجهد بجنون لكي تجمّد يدي على المقود في كلّ مرّة أضع حدًّا لأزمات مزاجها السيّئ، بأن أتوقّف في منتصف الطريق وأدير السيّارة وفي نيّتي أن أُعيدها توًّا إلى ذلك الكوخ المخيف الذي لا أمل فيه. غير أنّنا بمقدار ما كنّا نبتعد نحو الشرق، كان التهديد يخفّ حدّة، فكان عليَّ أن أتبنّى وسائل أخرى للإقناع.

وهنا، أرسل صيحة خجل طويلة حين أفكّر بتهديدها بالإصلاحيّة. وقد كنت متبصّرًا بما فيه الكفاية، منذ بدء علاقتنا، لكي أفهم أوّل الأمر أنّ

عليّ أن أقنعها بأيّ ثمن لتساعدني على حفظ السرّ حول علاقتنا، وأنّ الشعور بهذه الضرورة ينبغي أن يكون لديها فيما بعد بمثابة طبيعة ثانية، من غير أدنى تحفظ، مهما كانت مآخذها عليّ، ومهما كانت نشاطاتها أو ميولها الأخرى.

وكنت أقول: «تعالي قبّلي أباك، وكفّي عن الحرد الأحمق! حين كنت معبود أحلامك، كنت تسقطين في مثل الإغماء حين تستمعين إلى أسطوانات المغنين. وكنت تقولين إنّ ذلك المغني المحبوب لدى جميع أترابك يملك صوتًا شبيهًا بصوت الصديق همبرت. أمّا الآن، فلم أعد إلّا أبًا شيخًا يحمي فتاة أحلامه.

«إنّي أريد، يا عزيزتي دولوريس، أن أحميك من جميع الفظائع التي تترصّد الفتيات الصغيرات في الأزقّة وفي أقبية الفحم وفي جوف أحراج الآس في زرقة الصيف، كما تعرفين ذلك، وآحسرتاه! سوف أبقى وصيًّا عليكِ بالرّغم من الرياح والمستنقعات، وإذا كنتِ عاقلة فإنّي آمل أن تحكم المحكمة عمّا قريب بشرعيّة هذا الوضع. ولكن لننسَ يا دولوريس هاز هذه اللغة الشرعيّة، وهذه العبارات السخيفة التي تقرُّ جميلاً مثل «تعايش شبقيّ داعر» أنا لست معترًا جنسيًا، ولا منحرفًا مريضًا يقوم بتصرّفات لاأخلاقيّة على جسم غلامة. لقد كان شارلي هولمس هو المغتصب يا «لو»، وأمّا أنا، فإنّي الشافي. إنّني أبوكِ، أبوكِ العجوز! أنظري. إنّ معي هنا كتابًا قيّمًا جدًّا يتحدّث عن الفتيات الصغيرات. اسمعي ما يقوله يا عزيزتي. أستشهد: «يُلاحظ لدى كلّ صبيّة طبيعيّة (طبيعيّة، أتسمعين؟) رغبة حارّة في أن تروق لأبيها. فالصبيّة تميّز فيه ممهِّد الحبيب المنتظر والذي لا يُدرك. وإنّ على الأمّ المتبصّرة (ولو عاشت أمّكِ المسكينة لكانت حتمًا متبصّرة) أن تشجّع هذه الصلات بين الأب وابنتها، مدركة أنّ الصبيّة تشكّل مفهومها المثالي للحبّ وللرجال بالنسبة لعلاقاتها مع أبيها». فما هي العلاقات التي

يصفها هذا الكتاب البهيج ويوصي بها؟ إنِّي أقرأ من جديد: «إنّ العلاقات الجنسيّة بين الأب والابنة تعتبر في صقلية ظاهرة مألوفة، وإنّ الصبيّة لا تتعرّض قطّ، من جرّاء ذلك، لنقمة المجتمع الذي ينتمي إليه». وأنا شديد الإعجاب بالصقليين ـ إنّهم عتاليت كبار، وموسيقيّون كبار، وكائنات ذوو استقامة عظيمة يا «لو» وعشّاق لا يُجارَوْن. ولكن لا بدّ من هدنة واستطرادات. لقد قرأنا في الصحف منذ أيّام فقط قصّة ذلك الأربعينيّ الذي اعتُقل بتهمة انتهاك حرمة الأخلاق وحرمة قانون «مان» إذ عمل على أن تجتاز فتاة في التاسعة من عمرها حدود الولاية من أجل غاية لاأخلاقيّة. وأنتِ يا دولوريس العزيزة، لست بَعْدُ في التاسعة، وإنّما ستبلغين قريبًا الثالثة عشرة، وأنِّي أشجب بكلّ قوّة أن تصبحي عبدة متنقّلة. أجل، أنا أبوكِ، وأنِّي لا أتكلّم الصينيّة، وأنا أحبّكِ.

«ولنرَ أخيرًا ما عساه يحدث للوليتا الحبيبة ـ وهي قاصرة متّهمة بإفساد فضيلة رجل بالغ في فندق مناسب ـ إذا ذهبتِ تروين للشرطة أنِّي اختطفتك واغتصبتكِ. لنفترض أنّ الشرطة صدّقتكِ. فحين تسمح قاصرة لشخص يزيد عمره على واحد وعشرين عامًا أن يعرفها جسديًّا، فإنّها تدفع ضحيّتها تحت عبء تهمة اغتصاب مميّز، أو سادوميّة مع سابق تصميم، وفق العبارة المستعملة. ويمكن أن يبلغ العقاب عشرة أعوام حبس. فإنِّي أذهب إذن إلى السجن. حسنًا أذهب إلى السجن، وأنتِ، ماذا يحدث لكِ يا مسكينتي اليتيمة؟ صحيح أنّ حظّكِ خير من حظّي! فأنت توضعين تحت وصاية دائرة الصحّة العامّة ـ وأخشى أن لا يكون في ذلك شيء كئيب فاجع. وهناك ستراقبكِ امرأة طيّبة قاسية كالآنسة ڤالين، ولكنّها أدقّ وأخشن، وهي ستصادر أحمر شفاهكِ وثيابك الجميلة. وينتهي الضحك! وتنتهي الوثبات والتنقّلات. ولست أدري هل سبق أن سمعتِ بالقوانين المتعلّقة بقاصريّ الدولة، أي الأولاد المتروكين والمنحرفين والذين هم غير قابلين

للإصلاح. فبينما أكون أنا متعلّقًا بقضبان زنزانتي، بيدي الإثنتين، تُخيّرين أنتِ، الصبيّة السعيدة المهجورة، بين عددٍ من المساكن يشبه بعضها بعضًا: مركز الإصلاح الطفولي، أو سجن الأولاد، أو ملجأ الإحسان أو حتى إحدى تلك الدور الجميلة لليتيمات حيث يدرّبن على خياطة الجوارب وغناء الأناشيد، وتقدّم لهن في غداء يوم الأحد معجّنات زنخة. هناك سينتهي بك المقام يا لوليتا، حبيبتي لوليتا هذه اللوليتا الصغيرة ستترك «كاتولها» وتغلق عليها الأبواب هناك. وبعبارات أوضح، إذا افتضح أمرنا يا حلوتي فستُفحصين وتُحلّلين وتُسلَّمين أخيرًا إلى دائرة المساعدات الاجتماعيّة. وهذا كلّ شيء. وستعشين، ستعيش حبيبتي لوليتا في مخدع قذر (تعالي إليّ يا زهرتي السمراء) مع تسع وثلاثين طفلة أخرى بلهاوات (لا، اتركيني أُلامسك قليلاً، رجاءً) تحت حراسة نساء شرسات فظيعات. هذا هو الموقف، وذلك هو الخيار. وفي هذه الحالة ألا تظنّين أنّ من مصلحة دولوريس هاز أن تتعلّق بأذيال أبيها العجوز؟».

وتوصّلت على هذا النحو، وبترديد هذه التهديدات بمختلف الأنغام، إلى إرهاب «لو» التي لم تكن ذكيّة كما يومئ بذلك دفترها المدرسي، بالرّغم من تصرّفاتها النشيطة الفاجرة ومن نفحاتها الفكاهيّة. ولكن إذا تمكّنت من نصب هذه الشاشة من الخجل والصمت المتبادل حولنا، فقد كنت أقلّ توفيقًا في جهودي الرامية إلى الاحتفاظ بها في وضع الاستعداد الطيّب. كان عليّ كلّ صباح من أصبحة ذلك العام من السفر المستمرّ أن أخترع هدفًا جديدًا، وإغراءً خاصًّا في الزمان والمكان لكي أبقيها لاهثة الأنفاس، ولكي أبقيها حيّة حتى ساعة النوم، وإلّا فإنّ هيكل يومها كان يترنّح ويسقط حين يحرم من دم الأمل وعصبه. وكان ذلك الهدف يتغيّر باستمرار ـ مغارة في ڤرجينيا، أو مغارة في «الأركانساس» حوّلت إلى مقهى، أو مجموعة من آلات الكمان والأسلحة الناريّة في مكان ما من

أوكلاهوما، أو نسخة من مغارة «لورد» في لويزانيا، أو صورة رديئة من عصر الباحثين عن الذهب في متحف صغير في «الجبال الصخريّة» ـ أيّ شيء آخر ولكن هذا الهدف كان يجب أن يبقى أبدًا نصب أعيننا، كأنّه نجمة ثابتة، حتى لو اصطنعت «لو» النفور حين نبلغه.

وكنت أقضي الساعات الطوال أمام خارطة الولايات المتّحدة وأنا أتفنّن في إقناعها بأنّنا لا نمضي وفق المصادفة، بل نحو غاية واضحة، نحو لذّة استثنائيّة. وإنّي لم أرَ في حياتي طرقًا أجمل أو أعذب من الطرق التي كانت تنشقّ أمامنا عبر تشابكات الولايات الثماني والأربعين الهندسيّة. وكنّا نلتهم بوحشيّة تلك الطرق الطويلة، فكانت السيّارة تسير في صمت منتشٍ على سطحها الأسود الأملس الذي يشبه حلبة رقص. والمؤسف أنّ لوليتا لم تكن تحتقر مفاتن الطبيعة فحسب، ولكنّها كانت تحتجّ بغضب حين كنت أستلفت انتباهها حول ذلك الخطّ الساحر أو سواه من المناظر الطبيعيّة التي لم أتعلّم أنا نفسي أن أتذوّقها إلّا بعد أن تعوّدت مدّة طويلة على الجمالات الدقيقة التي كانت تُضاف إلى هامش هذه الرحلة العاقّة. وكنت قد سجّلت في البدء، بفعل تناقض اللمس الصوري، المنظر النموذجيّ للريف الأميركي، في طفرة من الاجترار الرضيّ، متذكّرًا تلك «الديكورات» المرسومة على لوحات مشمّعة كانت تُجلب من وراء البحار لتعلّق فوق طاولات التواليت في غرف الأولاد بأوروبا الوسطى، والتي كانت في المساء تبهر الأطفال الناعسين بمنظوراتها الريفيّة المخضوضرة ـ أشجار كثيفة مقطوعة، ومكدَس وساقية، وقطيع، وبياض حقل مزدهر، وربّما جدار حجريّ صغير أو رواب زيتونيّة. وفيما بعد أصبحت نماذج هذه الريفيّات البدائيّة تزداد غرابة ما تعمّقت في معرفتها لقد كانت القضيّة، فيما وراء حقول مفلوحة، وما وراء سقوف بيوت منمنمة، انبثاقًا بطيئًا لجمال لا فائدة منه، وشمسًا منخفضة في محالة بلاتينيّة كان لونها الخوخيّ

الفاتر ينفذ من فرجة غمامة ذات حدّ واحد كانت تذوب بعيدًا في الضباب العاشق. إنّه صفّ أشجار متباعدة يخترق السماء كأنّه ظلال صينيّة، حرارة الظهر الجامدة فوق أوقيانوس من الدرّاق، غمائم تشبه رسوم «كلود لورين» منبثّة في بخار السماء مع موجاتهما السحابيّة التي كانت تنفصل وحدها أمام رماديّة الأفق الجامد، أو هو أخيرًا منظر مظلم من مناظر غريكو ملطّخ بالمطر مع مزارع مومياني وحوله شرائط من الماء الفضّي متشابك في أمداء من الذرة الخضراء عبر رسم يتفتّح كأنّه مروحة، في مكان ما من سهول كنساس.

وأحيانًا أخرى، كانت أشجار كبيرة في قلب المدى اللامحدود تتقدّم للقائنا وتتزاحم جماعات خجولة حتى طرف الطريق، فتغطّي بظلالها السمحة طاولة نزهة مرقّشة بالشمس وأقداحًا من الورق المقوّى المنبسط، وبلّوطًا وجناحيّات وأوراقًا وعيدانًا من بقايا المثلّجات ملقاةً على الأرض السمراء. وكانت «لو» قليلة الخبرة في شؤون الطرق، وكانت تأخذها النشوة إزاء لافتاتها: «هي ـ هو»، «جون ـ جان»، «أولاد بنات» وحتى «أرانب ـ أرنبات»، وكنت في انتظارها، أضيع في حلم فنّان، فأتأمّل تزاويق مضخّة البنزين إزاء روعة غابة للسنديان مخضوضرة، أو رابية بعيدة فارّة، أمام المدى الشاسع الذي كان يحاول أن يبتلعها

وفي الليل كانت شاحنات مزيّنة بأنوار مختلفة الألوان، كأنّها أشجار ضخمة من أشجار الميلاد، تنبعث من الظلمات وتلتقي في صخب عاصفي بسيّارتنا الصغيرة المتأخّرة في الطرقات. وفي اليوم التالي، كانت السماء الخالية بشفقها الذي حلّلته الحرارة، تذوب من جديد، وكانت «لو» تطلب ماءً تشربه، وكانت وجنتاها تنحفران بصلابة على القشّ، وكان داخل السيّارة يشكّل أتونًا ملتهبًا حين كنّا نعود إليه، فتبدو لنا الطريق كأنّما هي ترفّ أمامنا، وكانت تُرى في البعيد سيّارة تتغيّر شكلاً عند الأفق الملتمع

كأنّه سراب. ثم تبقى لحظة معلّقة وقد تشوّه منظرها في الريح المحروقة. وكنّا ما نزال نسير نحو الغرب، حين شاهدنا الأراضي البور الأرطماسيّة، ثم منعطفات الروابي المنبسطة كالطاولات، ثم المنحدرات الحمراء الملطّخة بالعرعر، ثم سلسلة من الجبال تتغيّر ألوانها من الحمرة إلى الزرقة، ومن الزرقة إلى لون الحلم، وكانت تُرى في السهل الجافّ خِرَقٌ من الأوراق التي تشبه زهورًا كالحة، والتي تكون معلّقة بأشواك الأرومات الذابلة المعذّبة بالريح، على طول طريقنا ـ التي كان يُرى في وسطها أحيانًا بقرات بريئات مسمّرات، أذنابها إلى اليسار، وجفونها الطويلة البيضاء إلى اليمين، كأنّها تحتقر جميع القوانين البشريّة المتعلّقة بالسير.

لقد نصحني محاميّ أن أرسم وصفًا واضحًا وصريحًا لطريق رحلتنا وليس في الإمكان بَعْدُ، وقد بلغت هذه النقطة، أن أهرب من هذه السخرة. وبالإجمال، في هذه السنة المعتوهة (من آب ١٩٤٧ إلى آب ١٩٤٨) انعطفت طريقنا ثم استوت عبر «نوفيل إنكلترا»، ثم استدارت في الجنوب ودلفت عميقًا إلى ما يُدعى «ديكسيلاند» واكتنفت فلوريدا (لأنّ أسرة فارلو كانت فيها) ثم دارت نحو الشمال وتلوّت عبر بلاد الذرة والقطن (أخشى أن يكون هذا بحاجة إلى توضيح، أيّها الصديق كلارنس، ولكنّي في الواقع لم أكن قد سجّلت ملاحظات وليس تحت تصرّفي اليوم، للتحقّق من هذه الذكريات، إلّا دليل سياحي في ثلاثة أجزاء، مقطّع تقطيعًا مريعًا، وهو يكاد يكون رمزًا لماضيّ المتداعي الممزّق) واجتازت في الاتّجاهين «الجبال الصخريّة»، وتاهت بحثًا عن المغامرة في صحارى الجنوب حيث قضينا الشتاء، وبلغت الباسيفيكي، وعادت تصعد إلى الشمال بين الآس المزرقّ الذي كان يزدهر على حفافي دروب الغابة، ولامست الحدود الكنديّة، ثم انفتلت فجأة إلى الشرق، عبر أراضٍ طيّبة أو فاسدة، ملتقيةً بالزراعة على الصعيد الصناعيّ، متجنّبة، بالرّغم من احتجاجات «لو»

الحادّة، مسقط رأس هذه الصغيرة «لو» نفسها، في منطقة غنيّة بالذّرة والخنازير والفحم. وعادت الطريق أخيرًا فالتقت بحصن الشاطئ الأطلنطيكي لتنطفئ في مدينة «باردسلي» الجامعيّة.

٢

والآن، على القارئ، قبل المضيّ في سرد ما يلي، أن يتذكّر الطريق المرسوم أعلاه، بصورة إجماليّة، بمنعطفاته المتعدّدة ونزهاته وشراكه السياحيّة وكلاليبه العجيبة واستداراته الثانويّة، وليس هذا فقط بل عليه أن يفهم أيضًا أنّ هذه الرحلة بعيدة أن تكون نزهة تسلية متوانية، فإنّها من الدمّل الغائي الوعر المتعرّج. كان سبب وجوده الوحيد يكمن في أن أحفظ على رفيقتي الصغيرة، بين قبلة وأخرى، مزاجًا محتملاً

إنّني أقلّب دليلي القديم الممزّق فأتمثّل بغموض (بارك مانيولياس) في (ولاية وسطى) الذي كلّفني الدخول إليه أربعة دولارات والذي ينبغي لكلّ مسافر أن يزوره لهذه الأسباب الثلاثة التي يعدّدها الدليل: لأنّ جون غلاثورثي (وهو كاتب مكثر سخيف مات ودُفن) قد وصفه بأنّه أجمل حديقة في العالم، ولأنّ بيدكر، في طبعته لعام ١٩٠٠، قد علّق له نجمة، وأخيرًا لأن ـ احزر يا قارئي! ـ لأنّ «الأولاد (أَوَلَمْ تكن حبيبتي لوليتا ولدًا؟) سيعبرون باحترام مبهور هذه الجنينة الصغيرة التي كانت تحتفظ في كلّ خطوة بصورة كمال سيطبع حياتهم كلّها». وقد قالت «لو»: (وهي تجلس على مقعد واضعةً جريدتين كبيرتين مصوّرتين على ركبتيها الجميلتين): ولكنّه لن يطبع حياتي أنا».

وقد زرنا جميع مطاعم أميركا القائمة على الطرق، ابتداءً من مطعم «كسر الصفرة» الرديء الذي رُسمت عليه صورة رأس الأيّل (وهي أثر مظلم

لدمعة طويلة عند ملتقى المدمع) مع بطاقات بريديّة فكاهيّة بأسلوب «كوروروت» الشائع، وفواتير وشكّات مخوزقة ونظّارات شمسيّة، وملبّس يتّخذ لنفسه شكل واسم «عوّامات الإنقاذ» وصورة نعيميّة دعاويّة لمثلّجات فكاهيّة، ونصف قطعة حلوى بالشوكولا تحت جرسها الزجاجي، ونصف دزّينة من الذباب المجرّب الفظيع الذي يثلّم السكريّة المرقّتة الموضوعة على طاولة المكتب القبيحة ـ حتى المطعم الفخم ذي الأنوار الملوّنة وقماش الطاولات ذي الخشونة التي لا تصدّق والخدم البُله (طلبة أو محكومون فارّون) وطلب ممثّلة للسينما وحاجبي عشيقها السمّوريين، وجوقة من الصِبية البالغين ذوي الأبواق المسدودة والأكتاف المحشوّة.

وقد تفرّجنا على أكبر راسب كلسيّ في العالم، في مغارة أقامت ثلاث ولايات جنوبيّة مجلسًا استشاريًّا عائليًّا لها وكانت تعرفة الدخول وفق الأعمار: الكبار، بدولار، والأولاد قبل البلوغ بستّين سنتًا وكانت المسلّة الصوّانيّة تخلّد ذكرى معركة «الملحيّين الزرق» مع عظام قديمة وآنية هنديّة في المتحف المجاور. وكانت بقايا جذوع الشجر المقطوعة حديثًا تنقل بجذل البقايا المرحومة التي وُلد فيها لينكولن. ونحن الآن في كارولين الشماليّة وقد بلغنا «بوبلر كاف» عبر ما يسمّيه دليلي (الذي هو بالعادة كثير التسامح والودّ والاعتدال في أحكامه) طريقًا ضيّقًا ووعرًا جدًّا، وهو تعريف أقرّه عن رضًى بالرّغم من قلّة اكتراثي لأعمال «كيلمر»، وكانت هناك صخرة عليها صحيفة تخلّد ذكرى مؤلّف «الأشجار». وكنّا في قارب استأجره وسيّره روسي أبيض يُقال إنّه بارون، وهو في عمر ناضج ولكنّه فاتن فتنة مفضوحة. (ولقد ترطّبت من جرّاء ذلك راحتا «لو»، الإوّزة الصغيرة) وكان قد عرف في كاليفورنيا صديقي القديم ماكسيموفيتش وزوجتي السابقة ڤاليري ـ شاهدنا من ذلك القارب «مستعمرة أصحاب المليارات» قائمة فوق جزيرة في عرض شاطئ جورجيا ورأينا كذلك

مجموعة من بطاقات الفنادق البريديّة في متحف من متاحف المسيسبي مخصّص للأفراس الغربيّة اكتشفت بينها في نفحة من الاعتزاز المحرق صورة ملوّنة لفندق أبي (الميرانا) بستائره وسقوفه المخطّطة وجناحه المنتصب فوق أشجار البلح المصحّحة بريشة. وضحكت «لو» وهي تلحظ إلى العتليت البرونزيّ الذي لحقنا، وهو وراء مقود سيّارة فخمة حتى بلغنا قصر «الماروت»، ثم قالت: «وبعد ذلك؟» ثم رأينا بقايا أخرى من جثث «عصر القطن» ودخلنا غابة في الأركانساس ورأيت على كتف «لو» الأسمر حدبة صغيرة بنفسجائيّة (هي لدغة بعوضة) فحرّرتها من سمّها ذي الشفافيّة اللذيذة بين ظفرَيْ إبهاميَّ المستطيلين، قبل أن أحمل إليها شفتَيَّ لأقتات من دمها المعطّر الحامز. وهذا شارع «بوربون ستريت» (في مدينة تُدعى لانوفل أورليان) يقول دليلي إنّ أرصفته تكشف أحيانًا (تعجبني هذه الأحيانًا) عن مشهد بارز لزنوج صغار مستعدّين دائمًا (وهذه الدائمًا أجمل أيضًا) للقيام برقصاتهم ذات المصفقات مقابل بضع قطع من النقود (أيّ وليمة؟)، وتغصّ علب هذا الشارع الليليّة وهي صغيرة وصميميّة، بالسيّاح. (داعرون). ذكريات من عهد الروّاد. بيوت ترجع إلى ما قبل حرب التحرير، بشرفاتها المزيّنة بنقش حديدي وسلالمها المحفورة باليد ـ هذه السلالم ذات الفرجات التي تهبطها بطلات السينما (وعلى أكتافهن البيضاء قبلة شعاع من الشمس) في أتون من التكنيكولور، وهنّ يرفعن أذيال تنانيرهنّ المنتفخة بين أيديهنّ الصغيرة في حركة مدروسة بحذق، بينما تهز الزنجيّة المخلصة العجوز رأسها بحزن على السطيحة. هناك مؤسّسة مانينجر (وهي عيادة لعلم الطبّ النفسيّ) لأنّي لم أكن أريد أن أفوّت عليّ هذه التسلية. سهل من الصلصال متآكل تآكلاً مدهشًا، يُكّة مزدهرة ذات شمع نقيّ نخرها عث بشع زحّاف. الأنديباندانس في الميسوري، نقطة انطلاق طريق (الأوريغون القديمة)، و«إبيلين في كنساس» مهد «روديو ويلدبيل» الشهير. جبال بعيدة.

جبال قريبة. جبال أخرى. عجائب شفقيّة لا تدرك قطّ أو أنّها تتجزّأ إلى نظريّات لا تنتهي في الروابي الصحراويّة. سلسلة الشاطئ الأطلنطي وهي تلال تافهة لا تستحقّ قطّ لقب الألب! تماثيل ضخمة من الحجارة الرماديّة متآكلة بالثلج، نابعة عند منعطف الشارع، قمم شامخة تنفذ إلى قلبك إذ تنفذ إلى الغيوم، ضخائم مشجّرة، مخطّطة بعقد من الصنوبر الأسود يقطعها هنا وهناك بخار دقيق للحور الأصفر، براعم زنبقيّة ووورديّة فرعونيّة «ممعنة في ما قبل التاريخ إمعانًا لا يسمح بالكلام عنه» براكين صغيرة ذات سائل سخامي، الجبال الربيعيّة ذات الصلب المسترخي الشبيه بصلب الفيل الوليد. والجبال الخريفيّة التي تطوي أعضاءها، أعضاء التماثيل المصريّة تحت الأقمشة المصفرّة من القطيف المنحوت. تلال ذات لون شعيريّ منقّشة بخضرة السنديان المستدير، جبل أخير مقنطر على بساط من البرسيم الغزير.

ولقد رأينا أيضًا بحيرة «أيسبورغ» في جهة ما من كولورادو، ركام جليد ووسائد من زهور صغيرة البنية، ومزيد من الثلج كانت «لو» تتزحلق عليه وتصيح، وتترك لبعض الصِبية أن يقذفوها بكومات منه فتردّ لهم بالمثل. هياكل من الحور المكلّس، بقع من الترمس الأخضر عناصر نزهة متنوّعة: مناظر سياحيّة بالمئات، ينابيع كبريتيّة بالألوف، حدائق الدببة. التكساس سهل كبير قاحل. قاعة البلّور، في أعمق مغارة في العالم، يُسمح بالدخول للأولاد دون الثانية عشرة. «لو» أسيرة صغيرة. مجموعة من النقوش مطبوخة من قبل سيّدة من البلدة، الإغلاق يوم الإثنين، صباح اثنين يُرثى له بسبب الغبار والريح والجفاف. بلد الجفاف. برك الكونسيبسيون في مدينة الحدود المكسيكيّة التي لم أجرؤ على اجتيازها. هناك، وفي مكان آخر عند الشفق مئات من أبي الهول الرماديّة تبحث في حنجرة زهور مظلمة. شكسبير مدينة شبحيّة في «نوڤو مكسيك» حيث شنق الشقي «بيل لو

روسكي» بحفلة فخمة منذ سبعين عامًا مؤسّسات لتربية السمك. مساكن سكيكوليّة. غلامة محنّطة (معاصرة بياتريس الفلورنتينيّة) وجهة نظرنا الخمسون حول عجيبة حقيقيّة أوصى بها الدليل (الذي كان قد فقد غلافه منذ وقت طويل). قرادة عالقة في أربيّتي. ثلاثة من الشيوخ بقبّعاتهم وقمصانهم العارية يقتلون بعد ظهر كلّ يوم من أيّام الصيف تحت أشجار ينبوع عامّ. قمّة جبل. مع منظر جماعيّ غامض مزرقّ فيما بعد الحاجز، وظهور عدد من أفراد أسرة تتأمّل المنظر. وترسل «لو» تنهّدة محرقة، مسحورة، وحشيّة، تنهّدة أمل بائس: «انظر، إنّها أسرة ماك كريستال، فلنذهب أرجوك (أجل! يا قارئي، التحدّث معها!) أرجوك! سأفعل كلّ ما تريد، أوه أبتهل إليك. .» رقصات طقسيّة هنديّة، تجاريّة إلى أبعد حدّ. فنّ: شركة البرّادات الأميركيّة. ديكور الأريزونا البارز جدًّا، صور محفورة من صنع المحلّيين، آثار «دينوسور» في شقّ من شقوق الصحراء يرجع تاريخها إلى ثلاثين مليون سنة، حين كنت ما أزال طفلاً مراهق هزيل ممتقع طولة ستّ أقدام، وحنجرته مقلوبة، يلحظ شزرًا إلى حبيبتي لوليتا وإلى بطنها العاري بين النطاق والصدريّة، بشرة حمراء قبّلتها بعد خمس دقائق، يا عزيزتي! الشتاء في الصحراء، والربيع عند أقدام الروابي الأولى، وأشجار اللوز مزدهرة. «رينو»، مدينة كئيبة في «النيڤادا» حيث يقال إنّ حياة الليل «عالميّة ومرهفة». قرية منتجة للكرم في كاليفورنيا، فيها كنيسة بشكل برميل. وادي الموت. آثار فنّيّة جمعها على مرّ السنين شخص يُدعى «روجرز». مقصورات بشعة لممثّلات فاتنات. آثار أقدام روبرت ـ لويس ستيفنسون على حافّة بركان خامد. بعثة دولوريس: عنوان جيّد لكتاب. مجموعة من أحجار الحُث قطّعها ارتداد الأمواج. رجل مذعور بصرع شديد في حديقة «روسيان غولش» المحلّيّة. بحيرة كراتير بلون شديد الزرقة. حوض للسمك في «أيداهو» وسجن للدولة. حديقة «يللوستون»

المظلّة، مع ينابيع مائها في حالة الغليان وأقواسها القزحيّة الموحلة ـ جميع رموز عاطفتي المهووسة. سربٌ من الظباء، سجن للحيوانات الوحشيّة. مغارتنا المئة، دولار للكبار، لوليتا خمسون سنتًا. قصر بناه مركيز فرنسي مهاجر في «داكوتا» الشماليّة. قصر الذرة في داكوتا الجنوبيّة، ووجوه رؤساء أميركا الضخمة المحفورة في صلصال الجبل. الإعلانات على الطريق: «المرأة الملتحية ستتزوّج لأنّ صابون سام يعرف أن يحلق شعرها». حديقة للحيوانات في الأنديانا مع جيش من القرود تعيش فوق صورة طبق الأصل من الإسمنت المسلّح لسفينة كريستوف كولومب. مليارات من البشر أموات أو محتضرون ينبعث منهم نتن السمك في جميع واجهات المقاهي والمطاعم عند شاطئ طويل. يوم سمين جاثم على صخور كبيرة ويُرى بالعين المجرّدة من جسر «سيتي أوف شيبوغان»، الذي كان دخانه الصدئ المائع يتموّج متثاقلاً فوق ظلّه المخضرّ فوق زبرجد البحيرة. نزل تمرّ أنانيبه فوق البلّوعة البلديّة. بيت «لينكولن» الذي أُعيد بناؤه تقريبًا وفيه رفوف كتب وأثاث من ذلك العهد كان معظم الزوّار يعتبرونه كأنّه مُلك خاصّ لهم.

وقد وقعت بيننا مشاحنات صغيرة وكبيرة. كان أخطرها تلك التي حدثت في مقصورة «الدانتيل» بڤرجينيا، وفي وسط «بارك أفينيو» في «ليتل روك» بالقرب من مدرسة، وعلى قمّة «ميلز» التي يبلغ ارتفاعها ١٠٧٥٩ قدمًا، بالكولورادو، وفي زاوية «الطريق السابع» و«السنترال أفينيو» في فونيكس، عاصمة الأريزونا وفي «الشارع الثالث» بلوس أنجلوس، لأنّي لم أستطع الحصول على تذاكر لزيارات أحد استديوهات السينما، وفي نُزُل في «أوتاه»، «في ظلّ الصفصاف» (ستّ شجيرات أطول قليلاً من حبيبتي لوليتا) وهناك سألتني، من غير سبب، عمّا إذا كنّا سنقضي وقتًا طويلاً في العيش على هذا الشكل الفظيع في غرف حقيرة لا نقوم فيها إلّا بفعل

القذارات بدلاً من أن نعيش كسائر الناس، وفي «بيرنز» (أوريغون) عند زاوية «نورث برودواي» و«وست واشنجتون»، أمام دكّان «سافوي» للسمانة، وفي مدينة صغيرة بوادي الشمس (إيداهو) وعند مدخل فندق من القرميد (قرميد أصفر وعقيقي ممزوج ببراعة) تجاه صفصافة كانت ظلالها المرقّة تتلاعب على القبور، وفي بور أرطماسي بين «بيندال» و«فارسون»، وفي مدينة من مدن نيبراسكا نسيت اسمها، على رصيف الشارع الكبير، على بعد خطوتين من «فيرست ناسيونال بنك» الذي أُسّس عام ١٨٨٩ أمام منظور للمرور على مستوى آخر الطريق، وخلفه، ظلّ أنابيب الأرغن، وأخيرًا في مدينة من مدن ميشيغان تحمل اسم الرجل الذي قتله.

وقد شاهدنا ذلك القرد الغريب الذي يكثر على جوانب الطرق، وذلك المسافر بالأوتوستوب، على مختلف أشكاله وأجناسه. العسكري المتواضع الذي صُقل ولُمّع من جديد، وهو ينتظر بهدوء، معتمدًا بهدوء على «الكاكي» كأنّما يعتمد على آمن وسائل العيش، والطالب الذي يريد أن يذهب مسافة شارعين فقط، والقاتل الذي يريد أن يذهب مسافة ألفي كيلومتر فقط، والسيّد العجوز العصبيّ الذي يحمل حقيبة جديدة وشاربًا كثيفًا يشبه فرشاة الأسنان، وثلاثيّ المكسيكيين المتفائلين، والطالب الذي تنبعث منه رائحة دهن صيفٍ من العمل في الحقول، مع اعتزاز لا يقلّ عن اعتزازه باسم الجامعة المخيّط على قميصه، والسيّدة المأزومة أمام سيّارتها التي فرغت بطّاريّتها

وكانت «لو» تقول: «لنأخذه» وهي تفرك ركبتيها بحركة مألوفة، كلّما كانت ترى رجلاً واقفًا في الطريق ينتظر أن تحمله سيّارة ولا سيّما إذا كان مُنفرًا، وإذا كان في عمري وجسمي برأس يشبه رأس ممثّل هزليّ عاطل يمشي على الطريق في اتّجاه سير السيّارة.

أوه أجل، كان عليّ أن أراقب عن كثب حبيبتي «لو»، «لو» الصغيرة

الناعسة. فبالرّغم من جسمها الذي ما يزال صبيانيًّا، فإنّها كانت تشيع رونقًا شهوانيًّا غريبًا (ولعلّ ذلك بسبب تمريناتها الغراميّة اليوميّة) كانت تُغرق عمّال المرائب وصبيان الفنادق والفسّاق الذين يركبون السيّارات الفخمة والمستحمّين على الشواطئ الشفقيّة ـ كانت تغرقهم جميعًا في رهبة شهوانيّة كان يمكن أن تدغدغ غروري لو لم تكن غيرتي قد بلغت ذلك الحدّ من الإيثار. ذلك أنّ «لو» كانت تعي هذا الإشعاع الداخليّ. وكنت أفاجئها غالبًا وهي تحدج ذكرًا مستعجلاً، عاملاً قويًّا مشمّر الذراعين، والساعة في معصمه ـ ولا أكاد أبرم ظهري لأشتري سكّرًا تمصّه خليلتي الصغيرة حتى أسمعها تستهلّ مع عامل المرآب الأشقر حوارًا شبه غزليّ من المزاح.

وكنت أتمنّى أحيانًا، في أثناء محطّة طويلة، أن أشرد في السرير بعد صبحيّة عنيفة جدًّا، فكنت أسمح لها، بدافع من طيبة نفسي التي هدأت سورتها ـ أوه يا لهمبرت السمح! ـ أن تزور حقل الورد القريب أو مكتبة الأطفال في الجهة الأخرى من الشارع بصحبة ابنة جار النزل وهي صغيرة تُدعى ماري وأخيها (ثماني سنوات على الأكثر) وحين كانت «لو» تعود، وقد تأخّرت ساعة، كانت ماري الصغيرة تلهو خلفها، وكان أخوها الصغير قد تحوّل إلى شابّين من مدرسة الناحية أحمرين مترنحين بارزي العضلات. وبوسع القارئ أن يتصوّر جوابي حين تطلب منّي حبيبتي ـ بلهجة غير واثقة وأعترف بذلك ـ السماح لها بالذهاب لكي تتزلّج مع «آل» و«كارل» اللذين كانا ينتظرانها لدى الباب.

وإنّي لأذكر ذلك الأصيل ـ المثقل بالريح والحرارة والغبار ـ الذي قبلتُ فيه للمرّة الأولى بأن أدعها تذهب وحدها إلى مكان التزلّج. وكانت قد أومأت لي، بخبث شديد، أنّ اصطحابي لها سيفسد كلّ شيء، نظرًا إلى أنّ الحلبة كانت مخصّصة للصغار في تلك الساعة من النهار. وبعد مساومات شديدة توصّلنا إلى تسوية: فقد بقيت في السيّارة، بين سيّارات

أخرى فارغة متوقّفة أمام مكان التزلّج في الهواء الطلق، أو يقيها من الشمس غطاء جلدي ممدود، وكان زهاء خمسين من الفتيان يدورون زوجًا زوجًا ويتدحرجون إلى ما لا نهاية على صوت جوقة آليّة، وكانت الريح تذرّ الأشجار بالفضّة. وكانت دولّي، كمعظم الفتيات الأخريات ترتدي سروالاً قصيرًا ونعلاً أبيض. وكنت أعدّ عدًّا آليًّا كلّ دورة من هذه السلسلة المطوّفة ـ وفجأة لم أعد أرى لوليتا. وحين مرّت بعد ذلك بالقرب منّي، كانت بصحبة ثلاثة أنذال صغار كنت قد رأيتهم قبل ذلك خارج الحلبة وهم يقارنون بين مزايا المتزلّجات الصغيرات ويهزأون من غلامة رائعة ذات ساقين ملتفّتين كانت ترتدي سروالاً قصيرًا

وفي مكاتب حدود الأريزونا الاتّحاديّة أو حدود كاليفورنيا، كان هناك بعض الأشخاص المرتابين، من أقرباء رجال الشرطة، يحدجوننا حدجًا كثيفًا، حتى إنّ قلبي المسكين كان يتخبّط في صدري، وكانت الساذجة الصغيرة تنفجر بضحكة عصبيّة حين تُطرح علينا أحيانًا أسئلة ملتبسة عَرَضًا وما زلت أذكر صورة «لو» فوق صهوة حصان عند ممرّ وعر، شبيهةً بحلقة صغيرة في سلسلةٍ من الفرسان أثناء نزهة منظّمة: كانت لوليتا على البرذعة تثبت وفق طفرات الحصان، وهي تتبع فارسًا ذا عنق مجعّد، وقد كنتُ أنا خلف هذا الأخير، أشعر له بكراهية لا تقلّ عمقًا عن كراهية سائق تجرجر شاحنة ثقيلة دواليبها أمام سيّارته. وما زلت أذكر كذلك كيف ابتعدت «لو» عنّي ـ بعد أن كنّا في ملجأ بالجبل ـ فراحت تقفز وتتّجه إلى أعلى نحو القمّة اللامعة حيث كان بعض الشباب الأقوياء النازعي القمصان ينتظرونها وهم يضحكون.

وفي جميع المدن التي كنّا نقيم فيها، كنت أدقّق بلطفٍ أوروبيّ عن الموارد المحلّيّة، وأين كانت المسابح والمدارس والمتاحف، وكم هو عدد الطلّاب الذين يتردّدون إلى أقرب مدرسة، إلى آخره. وكنت أوقف

سيّارتي في ملتقى استراتيجي للطرق، ساعة خروج التلميذات من الصفوف، والبسمة على شفتيّ، والرعشة في جفنيّ (ولم أكن لأُلاحظ هذه الحركة لو لم تقلّدني فيها «لو» بقسوة) وكانت تلميذتي الصغيرة التي قطعت دروسها تجلس إلى جانبي لتتأمّل الصغيرات الخارجات من اللّيسيه ـ وهو منظر لم يكن يضجرني قطّ. ولكن هذه اللذاذات الصغيرة ما لبثت أن أزعجت رفيقتي السريعة الغضب، فكانت تشتمني بتلك القسوة التي يظهرها جميع الأولاد إزاء أذواق الآخرين، وتتمرّد على رغبتي في أن ألامسها، فتدفع عنها يدي حين كانت الطالبات السمراوات ذوات العيون والسراويل الزرقاء، أو الحمراوات ذوات المعاطف الخضراء، أو الشقراوات ذوات السراويل الباهتة الزرقة والشعر المنسرح والمشية الصبيانيّة ـ حين كان جميع هؤلاء يمررن أمامنا تحت الشمس المتواطئة.

وكنت أشجّعها بلا تحفظ، على سبيل التعويض، حين كان المكان والزمان يسمحان بذلك، على أن تمارس مباهج السباحة بصحبة فتيات صغيرات أخريات. وكانت تعشق ماء الأحواض اللامعة، وكانت غطّاسة باهرة. وكنت أنا نفسي أتدثّر بمنشفتي بعد غطسة قصيرة متواضعة، فأجلس على هواي في ظلّ الأصيل السَمِح، وفوق حضني كتاب ـ ذريعة، أو كيس من الملبّس أو الاثنان معًا، أو لا شيء آخر غير أعضائي المرتعشة، فكنت أنظر إليها وهي تنطنط، وعلى رأسها قبّعة الكاوتشوك، متلألئة بالماء، ملساء مذهّبة، جذّابة كالإعلان، مشدودة شدًّا ضيّقًا في قماش تبّانها ذي القطعتين. إلٰهةٌ غير بالغة! وكان يلذّني، في شيء من الإحساس بالغرور، أنّها كانت لي، لي أنا، فكنت أنعش، على سجع الحمام الأخير، شهوات الصباح، وأستبق شهوات المساء ـ وأقارن لوليتا، وعيناي نصف مغمضتين تحت لذع الشمس، مع سائر الجنّيّات اللواتي كان القدر الشحيح يجمّعهن أحيانًا حولها في أضمومة موهوبة لتحكيمي ولتلذّذي، واليوم أيضًا، أؤكّد

ويدي على قلبي المريض، أنّ أيّة واحدة منهنّ لم تكسف قطّ سحر لوليتا وفتنتها ـ باستثناء مرّتين أو ثلاث مرّات، في نورٍ ما، وتحت سماء مليئة بعبيرٍ ما ـ مرّة في قصّة يائسة لغلامة إسبانيّة شاحبة، ابنة أرستقراطي ذي فكّين مربّعين، ومرّة أخرى؟؟؟ ولكنّي أهذي.

كنت بالطبع أظلّ على حذري، معترفًا في غيرتي المتبصّرة، بخطر هذه النزهات الواثبة الزاهية، وكان حسبي أن أنصرف لحظة واحدة ـ ابتعاد بضع خطوات لأرى مثلاً إذا كانت غرفتنا قد رُتّبت في الصباح ـ حتى أرى «لو»، بعد عودتي، مسترخيةً على الحجر الحارّ، شاردة العينين، على حافّة الماء حيث كانت تبلّل وتخفق قدميها بأصابعهما الكبيرة، يترصّدها مراهقٌ أسمر كنت أعرف مسبقًا أنّه محكوم عليه بأن يلتوي على نفسه في كوابيس لا ترحم، طوال أشهر وأشهر، عائشًا في ذكرى جميلته المتوحّشة وذكرى الالتماع الفضّيّ الذي كان ينوس في هاوية بطنها الطفولي.

وأردت أن أعلّمها فنّ التنس لأشاطرها مباهج أخرى، ومع ذلك فقد أحسستني أستحقّ الشفقة في دوري كمدرّب، بالرّغم من أنّي كنت لاعبًا مرموقًا في أيّام شبابي، ولهذا جعلتها، في كاليفورنيا، تتلقّن سلسلة من الدروس المرتفعة الثمن على يد أستاذ مشهور، جندي قديم ضامر، كثير التجاعيد كان يحيط به حريم لاقطات الكرات، ولم يكن خارج الدرس إلّا خرقة بشريّة بالية، ولكنّه كان أحيانًا في أثناء الدرس يحرص على إبقاء الكرة في اللعب، فيرسلها إلى تلميذته بضربة دقيقة مرنة، كزهيرة ربيعيّة تنبثق على غصنها، وفي كلّ مرّة كان الجمال فوق الطبيعي لهذا العلم المطلق يذكّرني أنّي كنت قد رأيت في «كان» منذ ثلاثين عامًا هزيمة «غوبير» الشهير. وقبل هذه الدروس كنت قد يئست من أن أرى «لو» تتعلّم. وكنت بين فترة وأخرى أُخضعها للتجربة وأحاول أن أعيش الماضي، فأتذكّر لفحة الريح الشماليّة، وذلك الضباب المغبّر، والضجر الغريب الذي كان يثقل

علينا، بينما كنت أرسل الكرة إثر الكرة نحو أنابيل البريئة البهيجة، حبيبتي المدلّلة (انعكاس نور سوارها، وتلك التنّورة البيضاء، وذلك الشريط من المخمل الأبيض في شعرها). ولكن كلّ كلمة من كلماتي، وكلّ نصيحة ثقيلة، كانت تزيد سورة غضب «لو». والغريب في الأمر أنّها كانت (حتى وصولنا إلى كاليفورنيا) تفضّل، على أن تلعب معي، أن تشارك في تلك التمرينات التافهة ـ تمرينات مطاردة الكرات التائهة لا لعب التنس الحقيقي ـ مع إحدى زميلاتها، وهي غلامة منمنمة نحيلة ذات وجه ملائكي رائع. وكان شاهدًا مستعدًّا للمساعدة، فكنت أُسارع إلى الصبيّة الأخرى متنشّقًا رائحة جسمها المسكيّ، وألامس مرفقها، أو أمسك بمعصمها ذي المفصلين الناتئين، أو أدفع ردفها النضر من الجهتين لأبيّن لها خير أوضاع الجسم للقيام بالردّة. وفي هذه الأثناء تنحني «لو» إلى الأرض، فيتدحرج كستناء خصلها الناريّة على جبينها، وتستند إلى مضربها كما يستند مريض إلى عصاه، وتحتجّ على تدخّلي بعبارة «بواه» رمزًا لنفور شديد. فكنت أتركهما للعب، وأقارن وأعجب بجسميهما المتحرّكين، وحول عنقي غلالة معقودة من الحرير، وكان هذا يجري، على ما أظنّ، في جنوبي الأريزونا حيث كانت الأيّام مغلّقة بدفء كسول. وكانت «لو» تحاول أن تضرب الكرة فتخطئها، فإذا هي تشتم وتُرسل حركة تمثيل إلى الشبكة، وترفع مضربها بيأس، فتكشف عن التماع رطب في زغب إبطيها الفتيّ، وكانت زميلتها، وهي أقلّ منها حذقًا، تجري بجدّ وراء كلّ طابة دون أن تردّ أيًّا منها. ولكنّهما كانتا تتسلّيان كأنّهما مجنونتان، وتحسبان حسابًا دقيقًا لأغلاطهما بأصوات ثاقبة رنّانة.

وعرضتُ ذات مرّة، على ما أذكر، أن آتيهما بشراب مرطّب من الفندق، ودلفت إلى الممرّ الأحصب وعدت بعد قليل بقدحين كبيرين من عصير الأناناس الممزوج بالثلج والماء الغازيّ، وفجأة داخلني شعور فراغ

في صدري فسمّرني في مكاني حين لقيت الملعب مهجورًا وانحنيت لأضع القدحين على مقعد، وفي اللحظة نفسها، رأيت كما لو كان ذلك في مرآة مبلورة، وجه شارلوت الميّت، ونظرت حولي فرأيت «لو» بشورتها الأبيض، تختفي في عتمة الطريق إلى جانب رجل طويل كان يحمل مضربين للتنس على ذراعه. واندفعت في اللحاق بهما وأنا أسحق العشب في طريقي، وفجأة ـ وكان الشأن في ذلك شأن مجرى الحياة نفسها المتفرّع أبدًا ـ رأيت «لو» في سروالها وكذلك رفيقتها، تمشيان فوق العشب المرتفع وتضربان الأدغال بمضربيهما، بحثًا عن كرتهما الأخيرة المختفية.

إنّ هذا التعداد الطويل لأشياء صغيرة مشمّسة غايته الرئيسيّة هي أن أثبت لقضاتي أنّي قمت حقًّا بكلّ ما في وسعي لأجعل حبيبتي لوليتا سعيدة. وكم كان معطّفًا أن أراها، وهي الغلامة، تعرض أمام غلامة أخرى، إحدى مواهبها النادرة: من مثل طريقتها الخاصّة في القفز بالحبل، وكانت تلك الجنّيّة الأخرى، وهي ذات جمال شفّاف، تضع يدها اليمنى على ذراعها اليسرى خلف ظهرها البرونزيّ، ثم تحملق بعينيها، فتحملق الشمس أيضًا بعيونها التي لا تحصى فوق الطريق المحصبة بين الأغصان المزدهرة العالية ـ وفي قلب هذه الجنّة العينيّة، كانت فتاتي الصغيرة المذهّبة تحت نقاط النمش، تقفز بحيويّة، مقلّدةً حركاتِ عددٍ من الفتيات كنت قد حدجتهنّ بنظري النهم على الأرصفة (المرويّة بماء غزير واللامعة في الشمس والمشيعة الرطوبة) وفي الممرّات وعند أفاريز أوروبا القديمة. ثم إنّها كانت تردّ الحبل إلى رفيقتها الإسبانيّة وترقب الدرس الذي كانت تلك تردّده، وتزيح خصلة عن جبينها، وتشبك الذراعين وتضع طرف إحدى قدميها على أصابع الأخرى، أو تترك يديها تتدلّيان على خاصرتيها الضيّقتين ـ وأكون أنا قد تأكّدت أنّ الخادمات الشيطانات قد تركن أخيرًا جناحنا، فكنت أرشق آنسة شرف أميرتي، تلك

السمراء الخجول، بنظرة مشعّة، وأغرز من الخلف أصابعي الأبويّة في شعر «لو»، وأحيط عنقها بيد لطيفة، ثم أقود حبيبتي المتمرّدة نحو ملجأنا المتواضع من أجل التقاء قصير.

ـ «أيّ قطّة قد خمشتك أيّها السيّد المسكين؟». هكذا كانت تسألني جارة الطاولة المجاورة (من تلك الفئة المغيثة من نساء الصالون ذوات الأشكال الممتلئة الآخذة في الانحلال، وكان من سوء حظّي أنّي سحرتها) في أثناء العشاء الذي كانت السهرة الراقصة الموعودة لـ «لو» ستتبعه. وكان ذلك أحد الأسباب التي كانت تدفعني لأتفنّن في الهرب من الناس، بينما كانت لوليتا على العكس تبذل جميع جهودها لتجذب إلى فلكها أكبر عدد ممكن من الشهود.

وكانت تبدأ في تحريك ذنبها، إذا صحّ التعبير، وكلّ عجيزتها، كأنّها كلبة صغيرة، بمجرّد أن يحاذينا أجنبيّ ببسمة عريضة، ويبدأ الحديث بدراسة مقارنة عن لوحات تسجيل سيّارتنا: «إنّكما بعيدان كلّ البعد عن بلدكما!» وكانت بعض الأُسَر المفرطة في الاستقصاء تحاول اصطحاب «لو» إلى السينما مع أولادها لتستطيع سؤالها عنّي؟ وقد كنّا، في بعض الظروف، على بعد خطوتين من الكارثة. وقد سبق أن تحدّثتُ عن فظاعة الشلّالات الصحّيّة، تلك الفظاعة المخيفة التي كانت تتبعني من خان للقوافل إلى خان آخر، ولكنّي لم أقلق قطّ من رقّة الحواجز التي كانت تفصلنا عنها ـ حتى المساء الذي أحببتُ فيه عزيزتي لوليتا حبًّا صاخبًا أكثر ممّا ينبغي، فملأ سعال النزيل المجاور السكون التالي بشكل قوي جدًّا كما لو أنّ ذلك السعال الشديد كان ينبثق من رئتيّ أنا بالذات. وفي صباح اليوم التالي بينما كنت أتناول الإفطار في مقهى المحلّة (وكانت عادة «لو» أن تستيقظ متأخّرة جدًّا، وكنت أحبّ أن أحمل لها فنجان قهوة ساخنة إلى السرير) نجح جار الليل، وهو أبله قردي على أنفه الأشمّ نظّارة بزجاجة

واحدة، وعلى جانب معطفه علامةُ «أخويّة» سياسيّة أو دينيّة، نجح في أن يعقد نوعًا من الحديث، وسألني فورًا هل تنام زوجتي، شأن زوجته إذا لم تكن في المزرعة، تنام إلى ساعة متأخّرة من الصباح، ولو لم أختنق نصف اختناق بفكرة الخطر المريع الذي كان يحيق بي لاستخفّ بي الفرح إذ رأيت تعبير الجزع المرتبك الذي كان يلوي سحنته المجففة ويعضّ على شفتيه الرقيقتين حين أجبته بجفاف، وأنا أغادر مقعدي العالي، بأنّي، ولله الحمد، أرمل منذ وقت طويل. أجل كم كنت أحبّ أن أحمل لها هذه القهوة. وأرفض أن أقدّم لها حتى تتمّ واجبها الصباحي. لقد كنت لها صديقًا يقظًا. وأبًا مهووسًا واختصاصيًّا بارعًا في أمراض الأطفال. وكان هذا الهمبرت الطويل يحسن الاستجابة لأدنى رغبة لكلّ ذرّة من ذرّات جسمها الكستنائيّ الصغير المذهّب. وقد كان مأخذي الوحيد على الطبيعة أنّي لم أكن أستطيع أن أقلّب «لو» كما أقلّب قفّازًا لأطبق بفمي المفترس على رحمها الفتيّ وعلى لؤلؤة كبدها وعلى قلبها المجهول، وعلى عناقيد رئتيها البحريّة وعلى كليتيها الدقيقتين. وكنت في بعض الأصائل الاستوائيّة، ساعة القيلولة الصميميّة اللزجة. أتذوّق بافتنان رطوبة المقعد الجلدي إزاء عريّي الكثيف وحرارة لوليتا على ركبتي. كانت ابنتي آنذاك غلامة كأيّة غلامة أخرى تنظّف أنفها وهي تقرأ رسوم الجريدة، وقد بلغت لا مبالاتها بنشوتي كما لو أنّها كانت جالسة على حاجة ما، حذاء أو لعبة أو ذراع مضرب لم تكن لديها طاقة الانفصال عنه. وكان نظرها يتابع مغامرات بطلاتها وأبطالها المفضّلين: وكانت إحداهنّ، وهي غلامة مثلها، وهي «بوبيسوكسر» شعثاء الشعر، مرسومة رسمًا بارعًا، ذات وجنتين بارزتين وحركات مقرّنة، ولم أكن أستشعر أنا نفسي الخجل من أن أجد بعض اللذّة في مشاركتها اللعب. وكانت «لو» أحيانًا تتأمّل النتائج التصويريّة لاصطدامات السيّارات. ولم تكن تشكّ قطّ في صحّة الفذلكة

التي كانت ترافق الصور الإعلانيّة عن الجميلات ذوات السيقان العارية: وكانت مغرمة جدًّا بالصور التي تمثّل العرائس في ثياب فخمة، لدى خروجهنّ من كنيسة القرية، يحملن باقة في اليد، ويضعن نظّارات على العينين.

وكانت ذبابة تأتي آنذاك فتطوف في جوار سُرّتها أو تتحرّى انتفاخ لعواتها فكانت «لو» تحاول أن تقبض عليها بقبضتها (طريقة شارلوت). ثم كانت تطالع مقالة: «اسبرن غور ضمائركنّ».

ـ «اسبرن غور ضمائركنّ. ألا تعتقدنّ أنّ جرائم الساديين أو المنحطّين ستقلّ حتمًا إذا كان الأولاد يراعون بعض القواعد البسيطة جدًّا؟ لا تلعبن في جوار البيوت العامّة. إذا عرض مجهول عليكنّ ملبّسًا أو دعاكنّ للقيام بنزهة في السيّارة ارفضن بقوّة. وحين تختطفن سجّلن رقم السيّارة».

وأضفت قولي: «ماركة الملبّس».

وتابعت القراءة، وخدّها (المتقهقر) قبالة خدّي (الهاجم) ـ وسجِّل يا قارئي أنّه كان يومًا طيّبًا

«إذا لم يكن معكنّ قلم ولكن تحسن القراءة. . ».

وقاطعت بقولي: أنا الموقّع اسمي أدناه، بحريّ من القرون الوسطى، أعرض أنِّي حبست في هذه الزجاجة.

فكرّرت القراءة ـ «إذا لم يكن معكنّ قلم ولكن تحسنّ القراءة والكتابة ـ وهذا ما كان يعنيه القائل، أيّها الأبله! ـ حاولن أن تحفرن الرقم على جانب الطريق».

ـ «بمخالبكِ الصغيرة يا لوليتا».

٣

كانت قد دخلت عالمي، ذلك العالم الهمبرتي الظليل الأسود، بفضول غير محترس، وكانت قد زارته، وعلى وجهها تعبير من الواقعيّة رضي، وأنّه ليُخيّل إليّ الآن أنّها لم تكن تحلم إلّا بالفرار منه، بدافع من شعور يقارب النفور. إنّها لم ترتعش مرّة واحدة تحت لساني، وكلّ ما كنت أجنيه مقابل مشقّاتي، عبارة حادّة: «ماذا دهاك؟ لا تفعل هذا؟». وكانت البلهاء الصغيرة تفضّل على العالم العجيب الذي كنت أقدّمه لها أتفه الأفلام وأسخف الحلويات. وهل هناك أقسى من غلامة تُحَبّ؟ أتُراني قد ذكرت اسم ذلك المقهى الذي دعوتكم منذ حين إلى زيارته؟ لقد كان يُدعى «الملكة الرخيصة العود». وقد لقّبت «لو»، ببسمة حزينة بعض الشيء: «أميرتي الرخصة العود» ولكنّها لم تكتشف مرارة هذا التعريض. أوه لا تحدجني أيّها القارئ، بهذه النظرة الحانقة، فأنا لا أسعى قطّ إلى إقناعك بأنّي لم أكن سعيدًا أعلم أنّ المسافر المسحور الذي كان سيّدًا وعبدًا لجنّيّة، يجد نفسه، على نحو ما، فيما وراء السعادة. ذلك أنّه ليس على الأرض شهوة أكبر من مداعبة جنّيّة. إنّه سُكر لا يعادله سكر، وهو يبلغ عالمًا آخر، سلّمًا آخر من الحساسيّة. وقد كنت بالرّغم من كلّ شيء، بالرّغم من منازعاتنا ومزاجها الحامز وحردها ومشاحناتها، وبالرّغم من خطر هذا اليأس الذي لا مخرج له، كنت أظلّ مشدودًا بعمق إلى هذا النعيم الذي اخترته، وهو نعيم قد تكون السماوات تملك منه لون لهيب الجحيم ولكنّه، مع ذلك، نعيم. إنّ الطبيب النفسي المتنوّر الذي يدرس حالتي ـ والذي أتصوّره الآن مسحورًا بالدكتور همبرت كما يُسحر أرنب ساذج أمام أفعى ـ ينتظر دون شكّ بنفاد صبر أن أصطحب لوليتا إلى شاطئ

البحر لأجد هناك أخيرًا «حُلوان» رغبة حياتي كلّها «وتدفّق» ذلك «التمسّك المهووس» الذي كان يستولي على «نصف وعيي» منذ غراميّاتي المكبوتة الناقصة مع الغلامة الأولى الآنسة الصغيرة «لو».

اسمع أيّها الرفيق، دعني أقول لك، إنِّي بحثت حقًّا عن شاطئ، ولكن ينبغي أن أعترف بأنّنا حين بلغنا سراب أمواجه الرماديّة، كانت رفيقة السفر الصغيرة قد نثرت عليّ كثيرًا من السعادات بحيث أصبح البحث عن هذه المملكة قرب البحر، هذا «الكوت دازور» الرائع، سمّه ما شئت، ملاحقةً عقليّة للذّة كانت حتى ذلك الحين نظريّة بحتًا. ولم يكن دافعًا من نصف وعي. ولم يكن الساروفيم يجهل هذا، فإذا هو يهيّئ الأرض العاقبة. وقد أفسد الطقس وقوفنا عند حدود «سيرك» مناسب على شاطئ الأطلنطي: سماء كثيفة مثقلة بالمطر. أمواج موحلة، كآبة ضباب مبتذل. أيكون هناك ما هو أشدّ نقضًا للسحر النافذ وللظروف القزحيّة ولإمكانات مغامرة الريڤييرا البنفسجيّة؟ لقد كان هناك فيما بعد هذان الشاطئان أو الثلاثة في خليج المكسيك، شواطئ مشمسة بالفعل ولكنّها تزخر بالحيوانات السامّة، وتكتسحها العواصف التي لا تهدأ وأخيرًا، على شاطئ كاليفورني، أمام شبح الباسيفيك، استغللتُ صميميّة غرفة تشبه المغارة، كانت تُسمع منها هتافات فريق من الفتيات الكشّافات اللّواتي كنّ يغتسلن في أمواج الشاطئ المقابِل، خلف أشجار متحلّلة. ولكن كان يغلّفنا ضباب مشؤوم كأنّه غطاء مبلّل، وكان الرمل لزجًا مقشوطًا، وكانت «لو» مقشوطة ولزجة وعلى بشرتها علامات البرد، للمرّة الأولى في حياتي لم أشعر لها بأكثر ممّا كنت أشعر من الرغبة لأحد كلاب البحر. ولعلّ قرّائي العلماء يروقهم أن يعلموا أنّنا حتى ولو اكتشفنا شاطئًا مناسبًا، فإنّ ذلك سيكون بعد الأوان، لأنّ تحرّري الحقيقيّ كان قد حدث قبل ذلك بكثير تمامًا في اللحظة التي كانت «أنابيل هاز» المسمّاة دولوريس لي، المسمّاة

لولي بيل قد بدت لي سمراء مذهّبة راكعة نصف ركعة على تلك «البيازا» رافعةً عينيها في انسجام يُذكّر تذكيرًا مقنعًا بشاطئ على حافّة البحر (بالرّغم من أنّه لم يكن في الجوار إلّا بحيرة تافهة. وهذا ما يصفي حساب هذه الانفعالات الغريبة التي نظمتها، إن لم نقل خلقتها خلقًا، أصولُ علم النفس الطبّي الحديث). وبالاختصار انصرفت ـ وصرفت حبيبتي لوليتا عن هذه الشواطئ ـ التي كانت شديدة الاكفهرار تحت الضباب أو كثيرة الروّاد تحت الشمس. غير أنّي كنت قد احتفظت (من الزمن الذي كنت أتردّد فيه بلا انقطاع وبلا أمل إلى حدائق أوروبا العامّة) بكآبة حركات النشاط في الهواء الطلق، وكنت أتمنى بحرارة أن أجد ميادين للعب مكشوفة السماء في الأمكنة التي عانيت فيها من قبل كثيرًا من ألوان الحرمان المخجلة. ولقد قُدّر عليّ مرّة أخرى أن أحرم. إنّ خيبتي، التي ينبغي لي أن أسجّلها هنا (فيما أنا أنظم هذه القصّة في عرض تدريجي للمخاوف والمخاطر المستمرّة التي كانت تكمن تحت جذلي) لم تؤثّر أيّ تأثير على جمال «عزلات أميركا»، ذلك الجمال الغنائيّ أو الملحميّ أو المأسويّ ولكنّه ليس قنطريًّا قطّ. ذلك أنّها رائعة، تلك العزلات، روعة تكاد تكون ممزّقة، مع نبرة ذهوليّة من الهجر لا تحتفظ بها بعد قراي السويسريّة، تلك الدمى اللامعة ولا جبال طفولتي الممجّدة أكثر ممّا ينبغي. إنّ عشّاقًا لا يُعدّون قد تعانقوا على العشب المقطوع في جبال العالم القديم فوق طنافس من الحشيش، بالقرب من ينبوع متواضع معقّم، على مقاعد ريفيّة في ظلّ أشجار من السنديان حُفرت عليها الأحرف من بعض الأسماء، وفي أكواخ الغابات المتعدّدة. ولكن سيجد العاشق الحقليّ في «عزلات» أميركا مشقّة كبيرة ليقترف جرمًا، فإنّ نباتًا سامًّا يلتهم ردف حبيبته، وإنّ حشرات لا اسم لها تزعج عجيزتها، وإنّ أشواك أرض الغابة الحّادة تلدغ ركبة العاشق كما يلدغ البعوض ركبة جميلتي، وحولهما يرود فحيح الأفعى أو الغيلان

المختفية وتتعلّق حبّات الزهور القاسية التي تشبه السراطين ذات الأفكاك القابضة، بالجورب الأسود الطويل أو بالجورب الأبيض القصير.

إنّني أبالغ قليلاً ذات يوم من أيّام الصيف، كنت أنا ولوليتا في الجبل، فوق خطّ أعلى الأشجار، بالقرب من ساقية صغيرة كانت أغنيتها تهدهد ملايين ذوات الألوان السماويّة، فاكتشفنا زاوية منعزلة رومانتيكيّة فوق الطريق الذي تركنا فيه سيّارتنا وكان يبدو أنّ أيّة قدم بشريّة لم تطأ قبل الآن ذلك المنحدر الوعر. وكانت هناك شجرة صنوبر أخيرة، منحنية، تستعيد أنفاسها فوق الصخرة التي جرؤت على تسلّقها. وألمّ بنا مرموط فصفّر عند أنفينا واختفى. وتحت غطاء السفر الذي كنت قد بسطته للوليتا، كانت البراعم المجفّفة تتكسّر على مهل. ومرّت فينوس. وكانت الصخرة الممزّقة التي تعلو قمّة المنحدر، وتحتها رواب متشابكة، تقينًا في الوقت نفسه من الشمس والبشر. غير أنِّي للأسف لم أحسب حساب الممرّ المعترض الذي لم يكن ليُرى، والذي كان يتسلّل خفية بين الصخر والعشب، على بعد خطوات منّا

لقد كنّا ذلك الصباح أقرب إلى أن يُكشف قناعنا ممّا كنّا في أيّ وقت مضى، ولن يدهش أحد بأن يكون من شأن هذه التجربة أن تنفّرني إلى الأبد من الشهوات القرديّة.

أذكر أنّ العمليّة كانت قد انتهت، انتهت تمامًا، وأنّ «لو» كانت تبكي بين ذراعَيّ، عاصفةً من الدموع المالحة، إثر إحدى تلك الأزمات المزاجيّة السيّئة التي ستزداد زيادة كبيرة في تلك السنة الرائعة على كلّ حال. وكنت قد تراجعت عن وعد سخيف انتزعته منّي في لحظة هوسٍ عاطفي أعمى ونافد الصبر، فأخذت تتقلّب على الأرض، تهزّها الدموع، غارزة أظفارها بيدي التي كانت تلامسها، وكنت أضحك برقّة، وأنّ الهول القاسي الظالم الذي أعرفه اليوم لم يكن بعدُ إلّا نقطةَ ظلٍّ في لازورد سعادتي. كنّا إذن

على الأرض متقاربين. وإذ بي فجأة ألتقي ـ في تشنّجه من الهول، وقفزة من تلك القفزات التي انتهت إلى تمزيق قلبي المسكين ـ أعينًا سوداء محدّقة لولدين غريبين جميلين، جنّيّة وثعلب صغير، كانت ملامحهما المتشابهة (شعر أسود منبسط وخدود محمرّة) تعلن أنّهما أخٌ وأخت إن لم يكونا توأمين. وكان كلاهما يحدّق فينا، فاغر الفم، وقد اقتعدا الأرض ممتزجين بالزهور الجبليّة. والتقمت زاوية الغطاء، في جهد يائس، لإخفاء جسديْنَا، وفي اللحظة نفسها، على مقربة منّا، أخذ شيء يشبه كتلة كرة بحريّة كبيرة ضائعة في الأدغال، أخذ يتدحرج، ثم نهض، فإذا هو هيكل سيّدة ضخمة ذات شعر قصير أسود، قطفت بصورة آليّة زنبقة وحشيّة ضمّتها إلى باقتها وهي تتأمّلنا من فوق كتفها

إنّني أعلم أنّ الشجاعة لا تنقصني اليوم، إذ أرى أنّ على ضميري ورطة أخرى، أمّا في ذلك العهد، فلم أكن على وعي، وأذكر أنّي شُدهت برباطة جأشي. وتمتمت بكلمة آمرة، أمرٌ موجز هادئ يُعطى، في أدقّ ساعات الخطر، لحيوان منتصب مبلّل بالعرق ومنطوٍ على نفسه من الرعب (أيّ أمل مجنون، وأيّ حقدٍ يرعشان جنّيّات الوحش الفتيّ، وأيّ نجوم مظلمة تخترق قلب المروِّض؟) وأنهضت «لو» ومضينا بخطى مزهوّة، ثم تدحرجنا حتى بلغنا السيّارة فإذا بسيّارة صغيرة «عائليّة» واقفة خلفها، وإذا بآشوري ذي لحية سوداء ملتمعة بالزرقة، سيّد أنيق يرتدي قميصًا من حرير، يصوّر برصانة العَلَم الذي يشير إلى ارتفاع الجبل، وكان هذا الارتفاع يتجاوز ثلاثة آلاف متر، وأحسستني مرهقًا لاهثًا وهبطنا الطريق المحصب، وسرعان ما انطلقنا، بينما كانت «لو» لا تزال تتخبّط بثيابها وهي تشتمني بعبارات لم أكن أتصوّر أن تمرّ بخيال فتاة صغيرة، بلّه بشفتيها

وقد وقعت لنا حوادث أخرى عسيرة. من ذلك حادث السينما.

وكانت «لو» في تلك الفترة مغرمة جدًّا بالسينما (وقد تحلّل هذا الغرام وانقلب فيما بعد إلى فتور غريب) وقد تجرّعنا في ذلك العام بشهوة مبرّأة من كلّ تمييز، مئة وخمسين أو مئتي فيلم، وفي خلال أكثف فترات افتتاننا السينمائي كنّا نشاهد المناظر ستّ مرّات أو سبعًا، تلك المناظر التي كانت ترافق جميع الأفلام وتطادرنا من مدينة إلى أخرى. وكانت «لو» تفضّل الهزليّات الموسيقيّة والأفلام البوليسيّة و«الوسترن». ففي الأولى كان فنّانون حقيقيّون، مغنّون أو راقصون، يقومون بأدوار فنّانين خياليين، وسط عالم لا يدخله الألم ولا يعرفه الموت والحقيقة. وأخيرًا، نرى والد البطلة المأخوذة بالموسيقى، ذلك الوالد الذي كان يرفض أشدّ الرفض مهنة ابنته أوّل الأمر، ينتهي به الوضع، وقد ابيضّ شعره وترطّب جفنه، إلى أن يذهب ليصفّق لذروة الفنّ التي بلغتها ابنته تحت أنوار برودواي الأسطوريّة. أمّا عالم الجريمة فكان في القطب الآخر: هناك نرى محقّقين أبطالاً يعذبون، ونرى فواتير التلفون تبلغ ملايين الدولارات، ونرى الخونة، في جوّ من الأنوار الباهرة، يطاردون عبر البلاليع والأقبية من قبل رجال من الشرطة فقدوا الإحساس بالخطر (وسوف أكلّفهم أنا جهودًا أقلّ). ويأتي «الوسترن» أخيرًا: منظر البلاذر، والكوبوي الشجاع ذو العينين الزرقاوين في وجه قرمزيّ، والمعلّمة الفاتنة التي تأتي لتتسلّم وظيفتها في «مخيّم الشيطان»، والحصان الذي يشبو، والمسدّس المصوّب عبر الزجاج المتطاير شظايا، والمنازعة الزائفة بالقبضات، وانهيار الأثاث المغبرّ المصطفق، وفنّ تحويل طاولة الشرب إلى سلاح للقتال، والقفزة الخطرة الموقّتة توقيتًا عجائبيًّا، واليد المطبقة على الأرض والباحثة عن الخنجر المتروك، وأنين الألم، وصفقة القبضة الجاسية على الذقن، وركلة الحذاء في البطن، والهجوم فيما بين الساقين، وبعد هذه الدورة من أعمال العنف الدمويّة التي ترسل «هرقلاً» إلى المستشفى (وعندي من ذلك الخبر اليقين)

لا نرى إلّا جرحًا بسيطًا على خدّ البطل البرونزيّ الذي يعانق، بعد أن التهب قليلاً، حبيبته المنتظرة. إنّني أذكر إذًا تلك الجلسة الصباحيّة، في دار صغيرة للسينما كانت تغصّ بالأولاد وتزخر بروائح «المنفوش»، وكان قمر أصفر يلمع فوق الحقول في غلالة شاعريّة، وكانت إصبعه على القيثارة، وقدمه على أرومة من شجر الأرز، وكنت قد أحطت بذراعي كتفَيْ «لو» وأدنيت من صدغها فكّي الأسفل، حين أخذت امرأتان خبيثتان جالستان خلفنا ترسلان تعليقات مريعة، لا أدري إن كنت قد سمعتها مضبوطة، ولكن ما حسبت أنّي فهمته جعلني أنزع يدي الملائكيّة، ولم يكن باقي الفيلم في نظري، بعد ذلك، إلّا ضبابًا مختلطًا. وأذكر حادث هول آخر مرتبطًا في ذاكرتي بتلك الضاحية التي كنّا نجتازها ذات ليلة في طريق العودة. وكنت قد حدّثتها، قبل ذلك بثلاثين كيلومترًا، عن بردسلي والمدرسة التي ستدخلها، وهي مؤسّسة من الطراز الأوّل لا تُفعل فيها إلَّا الحماقات العصريّة، من مثل التعليم المختلط وألوان أخرى من العبث الشائع، وقد كافأتني «لو» على ذلك بخطاب هائج كانت تملك أسراره ويختلط فيه الشتم بالابتهال والثرثرة بالكلام البذيء والسبّ بالضيق الصبياني. وقد أصبت بدوار من هذا الصراخ («أفضل أن أموت.

سأكون بلهاء إذا نظرت إليك نظرة جدّ. إنّك تبعث على الاشمئزاز. أنا لا أتلقّى أوامر منك. إنّي أحتقرك..» وأكتفي بهذا) فاجتزت المدينة النائمة بالسرعة العاديّة (ثمانون في الساعة على الأقلّ)، فإذا بسيّارة شرطة تصوّب علينا ضوءها الكشّاف وتجبرني على التوقّف. وأسكتّ لوليتا التي كانت ما تزال تتدفّق بخطابها بصوت آليّ. وحدجها الشرطيّان بفضول سيّئ النيّة. وفجأة قفزت على خدّيها غمّازتان، وابتسمت لهما بلطف، تلك البسمة المشعّة التي لم تمنحها قطّ لرجولتي السحلبيّة. ذلك أنّ لوليتا كانت أشدّ منّي خوفًا من القانون، وحين أطلقنا هذان الشرطيّان الطيّبان مضينا نسير في

بطء مُذلّ، كانت لوليتا صورة التخشّب نفسها، لولا جفناها المسبلان الراعشان.

وهنا يجب أن أكشف لكم عن اعتراف مدهش. وسوف تضحكون ـ ومع ذلك، بكلّ صراحة، لم أنجح قطّ، لسبب أو لآخر، في أن أستعلم عن المظهر الشرعي لحالتنا ـ ولست اليوم أعلم منِّي بالأمس، أوه، طبعًا، التقطت من هنا وهناك بعض المعلومات. ففي «الباما» مثلاً لا يستطيع الوصيّ أن يغيّر مسكن الموصى عليه أو عليها من غير أمر صريح من المحكمة. أمّا مقاطعة «مينسوتا» التي أرفع لها قبّعتي، فهي تنصّ على أنّه إذا تولّى قريب مهمّة ومسؤوليّة قاصر دون الرابعة عشرة، فإنّ المحكمة لا شأن لها بذلك. سؤال. عمٌّ غلامة غير بالغة ذات جمال ساحر، عمّها بالاسم منذ شهر تقريبًا، أرمل عصابيّ ناضج العمر، ومتواضع الثروة ولكنّه مستقلّ بها، وخلفه أفاريز أوروبا القديمة، وطلاق عدّة مصحّات عقليّة. هل يمكن اعتباره قريبًا ومن ثم وصيًّا طبيعيًّا؟ إذا كان الجواب بالسلب فهل ينبغي لي وهل أستطيع أن أجرؤ على أن أخبر الإدارة المختصّة وأقدّم استدعاء (كيف يقدّمون ذلك؟) لتعيّن المحكمة محقّقًا يضع تقريرًا عن همبرت المتواضع والمريب، ودولوريس هاز الخطرة؟ إنّ مختلف المؤلّفات عن الزواج والاغتصاب والتبنّي إلخ. التي استشرتها بعيني المجرمة في المكتبات العامّة في مختلف المدن، صغيرة أو كبيرة، لم تقدّم لي أيّ عون، لأنّها كانت تقتصر على النصّ بحروف مهدِّدة أنّ الدولة هي نوع من الوصيّ الأعظم على جميع الأولاد القاصرين. وإذا لم تخني ذاكرتي، فإنّ «بيلفل» و«زابيل» قد خصّصا كتابًا هامًّا عن مظاهر الزواج المشروعة، ولكنّهما لم يهتمّا أقلّ اهتمام بحالة أبٍ له بنت على ذراعيه وركبتيه وليس لها أمّ. علمًا أنّ أوثق صديق لي، وهو مذكّرة نشرتها دائرة المساعدة الاجتماعيّة (شيكاغو ١٩٣٦) واستخرجتها آنسة عجوز بريئة بمشقّة كبيرة من

جوف صندوق مغبّر، هذه المذكّرة تنصّ: «إنّ القانون لا يفرض أن يُعهد بكلّ قاصر إلى وصيّ، والمحكمة تبقى بلا عمل ما لم يتهدّد وضع الصبيّ خطرٌ ظاهر». واستنتج من ذلك أنّ الوصيّ لا يُعيّن إلّا إذا عبّر عن رغبته في ذلك تعبيرًا علنيًّا رسميًّا، ولكن قد تمرّ أشهر طويلة قبل أن يُدعى للمثول أمام المحكمة لينشر جناحيه المريّشين، وبانتظار ذلك تظلّ الغلامة الجميلة الشيطانة متروكة شرعيًّا لنفسها (وهذا بالإجمال هو وضع دولوريس هاز). ويأتي آنذاك يوم الجلسة. بضعة أسئلة من القاضي، بضعة أجوبة مطمئنة من المحامي، بسمة، هزّة رأس، رذاذ خفيف في الخارج، ثم يُعيّن الوصيّ. ومع ذلك، فإنّي لم أكن أجرؤ على العزم. اختبئ أيّها الفؤير الخائف، وابقَ محشورًا في ثقبك! لقد كنت أعرف أنّ المحاكم لا تظهر حماسة مستعجلة إلّا إذا كانت هناك دعوى ماليّة: وصيّان شَرِهان، يتيمة منهوبة، لصّ ثالث أشدّ نهمًا. أمّا في حالتي، فقد كانت الأمور قانونيّة تمامًا، وكانت الجردة تامّة، وكانت المخلّفات المتواضعة التي تركتها الأمّ تنتظر بلوغ دولوريس. وكان يبدو أنّ الحلّ الحكيم هو أن أمتنع عن أيّ تدبير. ومع ذلك، ألّا أوشك، إذا ظللت صامتًا أكثر ممّا ينبغي، أن أوقظ تنبّه مؤسّسة خيريّة فضوليّة أو جهة أخرى تحبّ التدخّل؟

لقد كان بوسع الصديق «فارلو» الذي يعتزّ بأنّه محامٍ، أن ينصحني نصيحة مفيدة، ولكنّه كان من شدّة الانهماك بسرطان «جان» بحيث لم يكن يستطيع أن يفعل أكثر ممّا وعد بفعله، أي أن يدير رأسمال شارلوت الهزيل، بينما كنت أصعد خطوة خطوة منحدرات الهاوية التي أوقعني فيها موتها وكنت قد جعلته يؤمن بأنّ دولوريس كانت ابنتي غير الشرعيّة، ولم أكن أستطيع أن أنتظر أن يرتاب في موضوعها.

وقد أدرك القارئ أنّي رجل أعمال يُرثى له، غير أنّ الجهل ما كان له أن يمنعني من التماس النصائح المسموح بها والواقع أنّ ما منعني من

ذلك هو التفكير الذي لم أكن أطيقه، بأنّي إذا حاولت أن أضغط على القدر، على أمل أن أثبت عقليًا هبته العجيبة، فإنّ هذه الهبة ستتلاشى سريعًا، كذلك القصر الذي كانت تروي قصّة شرقيّة أنّه كان يختفي فجأة في قمّة الجبل كلّما سأل مالك جديد حارسه لماذا كان يمكن أن تُرى من أسفل الوادي رقعةٌ من السماء حمراء بين الصخر الأسود وأسسه؟

وفكّرت في أنّنا حين نصل «برادسلي» وهي مدينة الجامعة النسائيّة التي تحمل الاسم نفسه، سيمكنني أن أراجع المصادر التي لم أستطع أن أستشيرها من قبل، لكتاب «ورنر» عن «الوصاية في القانون الأميركي» ومنشورات أخرى لـ «مكتب الأولاد». وفيما يخصّ لوليتا كان يُخيّل إليّ أنّ كلّ شيء سيكون خيرًا من البطالة المفسدة التي كانت تعيش فيها وأنا الذي كنت أستطيع أن أقنعها بأن تفعل أشياء كثيرة ـ سينال تعدادها إعجاب أعلام التربية والاجتماع ـ كنت عاجزًا، بالرّغم من ابتهالاتي المتحمّسة وتهديداتي الشديدة، عن حملها على الاهتمام بمطالعة أشياء أخرى غير «الكتب الهزليّة» وروايات المجلّات النسائيّة المتسلسلة. وكان أيّ نثر آخر، ولو ارتفع قليلاً في الأسلوب، يبدو لها قصاصًا مدرسيًّا كريهًا وبالرّغم من أنّها بدت (نظريًّا) مستعدّة لقراءة «ألف ليلة وليلة» أو «ابنة البور» أو «النساء الصغيرات» فقد كانت تحتجّ بأنّها لم تكن ترغب في إضاعة «عطلتها» بمثل هذه الأشياء الأدبيّة التي تكسّر الرأس.

وأعتقد اليوم أنّها كانت غلطة مشؤومة أن أعود إلى الشاطئ الشرقي وأن أُلحق لوليتا بذلك المعهد الخاصّ في بيردسلي بدلاً من أن أجتاز بها الحدود المكسيكيّة ثم نعيش عامين من السعادة في الخفاء، إلى اليوم الذي أتمكّن فيه من أن أتزوّجها بلا خوف. فيجب أن أعترف بأنّه كان يحدث لي أحيانًا، في اليوم نفسه، وفق حالة هياج غددي، أن أمرّ من قطب غباوة إلى قطب آخر ـ من التفكير بأنّه ينبغي لي حوالى ١٩٥٠ ـ أن أجد الوسيلة للتخلّص من مراهقة

عسيرة ستكون حالتها الجنّيّة قد تبخّرت، إلى التفكير بأنّي قد أوافق، إذا خدمني الحظّ وأعاني الصبر، إلى أن أستولدها بدورها جنّيّة، لوليتا الثانية الصغيرة، يكون دمي في عروقها الدقيقة، ولا يتجاوز عمرها ثمانية أعوام أو تسعة حوالى ١٩٦٠، إذ أكون ما زلت في قوّة العمر، والواقع أنّ ملكات حساسيّتي التليسكوبيّة كانت من القوّة بحيث أستطيع أن أميّز في أفق الزمن، عجوزًا ما يزال أخضر العود هو الدكتور همبرت الشاذّ العذب المحدث الرضاب وهو يطبق على مفاتن لوليتا الثالثة فنّ أن يكون جدًّا.

ولم أكن أشكّ في عهد تلك الرحلة العجيبة بأنّي قد أخفقت إخفاقًا ذريعًا كأب للوليتا الأولى. بالطبع كنت أبذل كلّ ما في وسعي، وكنت أقرأ وأكرّر قراءة كُتَيّب صغير بعنوان «اعرف ابنتك» وجدته في المكتبة التي اشتريتها بمناسبة العيد الثالث عشر لـ «لو»، وطبعة فخمة ذات رسوم فاتنة، إذا تحدّثنا تجاريًّا، من «الحوريّة الصغيرة» لأندرسون. على أنّنا حتى في أحسن فتراتنا، حين كنّا نقرأ جنبًا إلى جنب، ذات أصيل ممطر (وكان نظر «لو» ينزلق من النافذة إلى ساعتها ثم يعود سريعًا إلى الطريق، أو حين كنّا نجلس إلى الطاولة بشهيّة مفترسة في فندق يغصّ بالناس،، أو حين كنّا نطوف بالمخازن، أو حين كنّا نتسلّى بلعبة ورق طفوليّة أو ننظر بصمت، بصحبة سائقين آخرين مع أولادهم، إلى سيّارة مبعوجة وملطّخة بالدم وإلى حذاء امرأة في الحفرة (فتقول «لو» حين نستأنف السير: «هذا هو نموذج الجلد الذي كنت أقتل نفسي لأصفه لذلك الحذّاء البليد»). أقول في جميع هذه المناسبات الطارئة، كانت شخصيّتي الأبويّة تبدو لي على مثل ما كانت تبدو عليه شخصيّة «لو» نفسها في دورها البنويّ من قلّة الاحتمال. أتُرى ملحمتنا المجرمة كانت تساعدني على إضعاف مواهبنا كمقلّدين، وفي هذه الحالة أكان بإمكاني أن أرجو أن يستطيع مسكن ثابت ونظام المدرسة اليومي ردّ هذه المواهب لنا؟ لقد اخترت «برادسلي» بدافع من التفكير بأنّ

المدينة لم تكن تضمّ فقط مدرسة للفتيات تُدار بأساليب محافظة نسبيًا، ولكنّها تضمّ أيضًا تلك الجامعة النسائيّة التي تحدّثت عنها قبل لحظة. وكنت، بدافع من رغبتي في أن أستقرّ، وأن أتعلّق بسطح مبرقش بحيث يمكن لخطوطي المتنوّعة أن تمتزج فيه، قد فكّرت برجل كنت أعرفه، أستاذ في قسم فرنسيّ من الجامعة، وكان من اللطف بحيث استعمل كتابي لدروسه بل جهد يومًا لأن يستقدمني إلى برادسلي لإلقاء محاضرة ولم أكن أرغب أيّة رغبة في أن أستجيب لدعوته، لأنّي أعتقد، كما سبقت الإشارة في هذا الاعتراف، بأنّه ليس هناك ما هو أردأ، في نظري من حوض ثقيل مقتعد، وربلتين كثيفتين لطالبة نموذجيّة لعلّني كنت أرى فيها التابوت الحيوانيّ للحم امرأة تكفّن فيه جنّيّاتي وهي حيّة، ولكنّي كنت أرغب رغبة حارّة بطابع أو بقماش أو برمز، وكانت لي أسبابي ومبرّراتي، كما سيظهر فيما بعد، لأن أعتبر مجاورة غاستون غودين العجوز حمايةً فعّالة جدًّا.

وكانت هناك أخيرًا القضيّة الماليّة. فقد كانت عائداتي تتبخر تحت عبء هذا العُطَل التي كنت أطيلها. صحيح أنّنا كنّا نكتفي بالفنادق المتواضعة، ولكن كان هناك بين وقت وآخر فندق فخم متطلّب أو جناح للكوبوي في يوم الأحد، وكانت ميزانيّتنا تتأثّر من هذه النفقات الإضافيّة، ثم إنّي كنت أصرف مبالغ مخيفة في النزهات وفي شراء الثياب لـ «لو»، كما أنّ سيّارة شارلوت القديمة كانت تتطلّب، بالرّغم من إخلاصها الذي لا يُجارى، تصليحات جديدة لا تنقضي كبيرةً كانت أم صغيرةً. وقد وجدتُ، على زاوية خريطة قديمة للطرق، لا أدري كيف بقيت بين الأوراق التي سمحت السلطات بأن تتركها لي لأتمكّن من كتابة هذه المذكّرات، وجدتُ بعض الملاحظات السريعة التي أستطيع بفضلها أن أعطي المعلومات التالية: لقد كلّفتني السكنى والطعام، خلال هذا العام من التيه، آب ١٩٤٧ ـ آب ١٩٤٨، حوالى ٥٥٠٠ دولار، وكلّفني البنزين والزيت والتصليحات

١٢٣٤، وكلّفتني نفقات إضافيّة مثل هذا المبلغ. وهكذا أنفق صاحب هذا الدخل المتواضع، خلال ١٥٠ يومًا من السير (لقد قطعنا أكثر من ٤٣,٠٠٠ كيلومتر) و٢٠٠ يوم من المحطّات بين مختلف البلاد، زهاء ٨٠٠٠ دولار، لنقل ١٠,٠٠٠، لأنّي لا بدّ أن أكون قد نسيت طائفة أخرى من النفقات، نظرًا لضعف ذاكرتي العمليّة.

وإذن فقد عدنا نحو الأطلنطيك، وأنا أشعر بأنّ إرضاء شهوتي قد زاد في إتلافي أكثر ممّا أنعشني، وهي تفيض صحّة، ما يزال إكليلها الخاصريّ دقيقًا بالرّغم من أنّها قد طالت خمسة سنتيمرات وزاد وزنها أربعة كيلوغرامات. لقد كنّا في كلّ مكان، ولم نَرَ شيئًا. وإنّي لأفاجأ اليوم إذ أفكّر بأنّ رحلتنا لم تفعل إلّا أنّها لطّخت، بمنعرجات طويلة من الوحل، هذا البلد الشاسع المعجب، أميركا هذه الواثقة الزاخرة بالأحلام التي لم تعد بالنسبة إلينا، إذا ارتددنا إلى الماضي، إلّا مجموعةً من الخرائط الممزّقة الزوايا، ومن الأدلّة الممزّقة، ومن العجلات التالفة. ومن دموع «لو» في الليل، كلّ ليل، كلّ ليل، بمجرّد أن أتصنّع أنّي أنام.

٤

حين بلغنا، عبر ألعاب من الظلال والأنوار، الرقم ١٤ في «تاير ستريت»، استقبلنا صبيّ فنّي ذو عينين رصينتين وقدّم لنا المفاتيح مع كلمة من غاستون الذي كان قد استأجر لنا البيت. ومن غير أن تلقي حبيبتي لوليتا نظرة على بيتها الجديد، أضاءت بحركة عمياء الراديو الذي كانت غريزتها قد قادتها إليه باندفاع مستقيم، ثم تركت نفسها تسقط على ديوان الصالون مع مجموعة من المجلّات القديمة التي اكتشفتها بتلك النزعة التي لا تخطئ، والتي كان حسبها أن تمدّ بها يدها إلى طاولة لتستخرج ما تشاء ممّا تطلب.

وكان اختيار مسكننا لا يهمّني شخصيًا إلَّا قليلاً، شريطة أن أتمكّن من حبس «لو» في ظلّه. على أنّ الرسائل التي كنت قد تبادلتها مع غاستون المبهم، المبهم جدًّا، قد أوحت لي بطريقة مبهمة صورة مقصورة من القرميد يغطّيها اللبلاب. والواقع أنّ المكان كان يشبه شبهًا كئيبًا منزل هاز (الذي يبعد زهاء ستمئة كيلومتر فقط): كان النموذج نفسه من هيكل خشبي ذي لون رمادي، مريض، مع سقف من الحطب وستائر من الخنيف خضراء لا تقلّ مرضًا. أمّا الغرف فقد كانت بالرّغم من أنّها أصغر وأنّها مؤثّثة بأسلوب «الريش والخزف على الجدران»، مبنيّة بطريقة واحدة تمامًا. غير أنّ مكتبي كان حجرة أوسع جدًّا، وكان مغطّى من الأرض إلى السقف بزهاء ألفَيْ كتاب للكيمياء، وهو العلم الذي كان صاحب المنزل (وهو الآن في عطلة أبحاث لمدّة عام) يدرّسه في جامعة برادسلي.

وكنت قد أمّلت أن يكون من همّ «معهد الفتيات» (وهو معهد خارجيّ خاصّ مرتفع التكاليف، يقدّم وجبة الغداء وألعاب الرياضة) لا أن يربّي تلك الأجسام الفتيّة غير البالغة فحسب، بل أن يغذّي عقولها بالمبادئ الجوهريّة للتربية التقليديّة. وكان غاستون غودين، الذي لم يكن حكمه على السكنى الأميركيّة ينطبق على الوقائع، قد أعلمني (وكان له غرام خاصّ بالحِكَم الموجزة يتميّز به عدد من الشيوخ الأوروبيّين) بأنّ المعهد قد يتكشّف عن كونه أحد هذه المعاهد التي لا تتعلّم فيها الفتيات «أن يكتبوا جيّدًا، بل أن يحسّوا جيّدًا». وأعتقد أنّ هذه المعاهد لم تكن تنجح حتى في هذا.

وفي أثناء لقائي الأوّل بالآنسة «برات»، المديرة، امتدحت لي «عينَيْ ابنتي الزرقاوين الجميلتين» (عينان زرقاوان! لوليتا!) كما امتدحت الصداقة الجميلة التي كانت تربطني بهذا العبقريّ الفرنسيّ (غاستون! عبقريّ!)، ثم عهدت بدولِّي إلى آنسة تدعى «كورموران»، ثم قطّبت حاجبيها تقطيبة مدرّبة، وفتحت النار:

«إنّنا قلّما نهتمّ، يا سيّد همبيرد، بأن نجعل من طالباتنا حميرًا عالمةً قادرة على أن تسرد لائحة جميع عواصم أوروبا التي لا يعرفها أحد، ولنقلْ هذا فيما بيننا، أو أن تحفظ عن ظهر قلب تواريخ المعارك الغارقة في النسيان. إنّ همّنا الأكبر هو أن نساعد أولادنا على أن يتعوّدوا العيش في المجتمع. ولهذا نلحّ على هذه المبادئ الأربعة: المسرح والرقص والمناقشة والموعد. إنّنا مجابهون ببعض المعطيات التي لا يمكن ردّها إنّ ابنتك الجميلة دولّي ستبلغ عمّا قريب السن التي يصبح فيها موعد اللقاء والقوانين التي تحكمه ـ طريقة تحديد الموعد، وطريقة اللبس، طريقة التصرّف، وأكتفي بهذا ـ في مثل الأهمّيّة التي تعلّقها أنت على الأشغال التجاريّة ـ علاقاتك التجاريّة ومكاسبك التجاريّة ـ وفي مثل الأهمّيّة التي أعلّقها أنا (بسمة) على سعادة طالباتي وصحّتهنّ، إنّ دوروتي همبيرد قد أصبحت الآن سجينة هذه الدوّامة الاجتماعيّة التي تدور، شئنا أم أبينا، حول البارات والحانات، والمثلّجات والكوكا كولا والسينما ورقص الكوبوي وما نسمّيه «نزهات الأغطية» على الشاطئ وحتى نزهات الشامبونغ المشتركة! هناك بالطبع بعض ألوان النشاط الذي لا نسمح به في معهدنا، وهناك ألوان أخرى نُعيد توجيهها إلى غايات أكثر بناء. ولكنّا نبذل جهودنا لكي نولي الغيوم ظهورنا، ولكي نتعرّض بشجاعة لنور الشمس. وبالاختصار، إنّنا نسعى، فيما نحن نراعي بعض طرق التدريس، إلى تنمية حسّ الاتّصال قبل كلّ شيء بدلاً من حسّ التأليف. وبعبارات أخرى، نريد، بالرّغم من الاحترام الكلّي الذي نكنّه لشكسبير وأمثاله، أن «تتّصل» بناتنا اتّصالاً حرًّا بهذا العالم الحيّ الذي يحيط بهنّ، بدلاً من أن يغرقن في كتب قديمة عفنة. وربّما كنّا ما نزال نتلمّس، ولكنّنا نتلمّس بذكاء، كما يتلمّس عالم الأمراض النسائيّة دمّلة من الدمامل. اسمع، يا دكتور همبورغ، إنّنا نفكّر تفكيرًا «عضوانيًّا» و«تنظيميًّا عضويًّا» ولقد أبعدنا تلك

الكتلة من الموضوعات اللامجدية التي جرى العُرف في الماضي على فرضها على الفتيات، والتي لم تكن تترك أيّ مجال للمعارف وللمواهب وللأنظمة التي لا بدّ منها إذا أُريد للفتيات أن يحسنّ، فيما بعد، توجيه حياتهن وحياة أزواجهنّ، كما قد يقول بعض الوقحين لنضع النقاط على الحروف يا سيّد همبرسون: إنّه من المهمّ أن نعرف تحديد موضع كوكب على خريطة السماء، ولكنّ الوضع المثاليّ للبرّاد في المطبخ ربّما كان أهمّ بالنسبة لصاحبة البيت الناشئة. إنّه يروق للناس أن يقولوا إنّه ليس للمدرسة من مهمّة إلّا إعطاء الأولاد تربية متينة. ولكن ماذا يعنون بكلمة تربية؟ كان ذلك يقتصر في الماضي على طريقة كلاميّة بحت، وهكذا فإنّ صبيًّا أو صبيّة مجبرة على تعلّم دائرة معارف عن ظهر قلب كان يعرف بمقدار ما كانت المدرسة ستلقّنه إيّاه، إن لم يكن أكثر. وإنّي أتساءل يا دكتور همّر عمّا إذا كنت تلاحظ أنّ البرامج المدرسيّة، بالنسبة لفتاة مراهقة من فتيات اليوم، هي أقلّ أهمّيّة من برامج دار السينما المحلّيّة (إشعاعٌ في نظرها) إذا شئنا أن نردّد المزاح الذي أطلقته عالمة الطبّ النفسي في جامعة برادسلي منذ أيّام. إنّنا لا نعيش فقط في عالم فكري، وإنّما كذلك في عالم مادّيّ. فإذا لم تكن الكلمات قائمة على تجربة عمليّة، فإنّها تفقد كلّ معناها إنّ دوروتي همرسون ليس لها ما يبرّر على الإطلاق أن تهتمّ باليونان والشرق وما فيهما من حريم وجوارٍ!».

ولقد ارتعت لهذا المفهوم للتربية ـ ولكنّي التقيت فيما بعد سيّدتين رصينتين كانت لهما صلات بالمعهد، فأكّدتا لي أنّ الطالبات كنّ يدرّسن الدروس التقليديّة كما هو الأمر في أيّ معهد آخر، وأنّ الموعظة المتعلّقة بـ «الاتّصال» لم تكن أكثر أو أقلّ تدجيل هدفه إضفاء صبغة عصريّة مربحة على طابع القدم الذي اشتهر به معهد برادسلي، حيث كانت تتبع في الواقع أرصن المبادئ التربويّة.

وقد كان للجاذبيّة التي مارسها هذا المعهد عليّ سبب آخر قد يُضحك ذِكْرُه بعض القرّاء، ولكنّه يتلبّس في نظري أهمّيّة حاسمة، لأنّي هكذا خُلقت. فقد لاحظت في الجهة الأخرى من الشارع مقابل بيتنا تمامًا رقعة أرض يكتسحها العشب الرديء، مع بعض أدغال ذات ألوان حيّة، وركام من القرميد، وأخشاب قديمة منتثرة، وزبد تلك الزهيرات التي يطلعها الخريف على حفاف دروب الريف. وكان يُرى عبر هذه الأرض طرف ملتمع من شارع المدرسة الذي كان يوازي شارعنا «تاير ستريت». وكان خلفه تمامًا ملعب تلك المدرسة. فبصرف النظر عن الراحة النفسيّة التي كان وضع تلك الأمكنة يعدُني بها إذ أحتفظ بنشاطات «دولّي» النهاريّة متّفقة مع نشاطاتي، فقد تعجّلت فورًا اللذّة التي سأحصل عليها حين أحدّد، عبر نافذة مكتب غرفتي للنوم، وبواسطة نظّارات مكبّرة، النسبة العديدة الدقيقة للجنّيّات الحقيقيّات بين سائر الفتيات اللواتي يلعبن حول حبيبتي دولّي في أثناء الفرص، ومن سوء الحظّ أنّ عمّالاً جاءوا، يوم عودة الدراسة، فأقاموا سياجًا عند تخوم الأرض، وما لبث بناء خشبي مصغر أن انتصب انتصابًا لئيمًا فيما وراء السياج، مقنّعًا حقل نظري السحريّ، وما إن راكَم هؤلاء البنّاؤون المزعجون عددًا كافيًا من الألواح لإفساد كلّ شيء، حتى أوقفوا أعمالهم واختفوا إلى الأبد.

٥

في شارع كشارع «تاير ستريت»، بين المذهّب الأشقر والأخضر المنتثر في مدينة جامعيّة صغيرة ودودة، لم يكن المستطاع الإفلات من صراخ اختصاصيّي الجوار من علماء الأحوال الجوّيّة. وكنت أعتزّ بأن أعقد معهم صلاتي على مستوى من الحرارة لا ينخفض: فإنّهم ليسوا فقط

غير متأدّبين، وهم دائمًا على مسافة كافية مني، وكان جاري الغربي، الذي ربّما كان رجل أعمال أو أستاذ جامعة أو الأمرين معًا، يكلّمني أحيانًا فيما هو يقلّم حواشي أزهاره الآتية في آخر الفصل، أو يسقي سيّارته، أو فيما بعد، يمهّد الطريق أمام مرآبه، ولكن تمتماتي المتقطّعة التي كانت تبدو عبارات عُرفيّة للموافقة أو أسئلة لسدّ الثقوب، كانت تقطع الطريق على كلّ تطوّر نحو الألفة. وكان أحد البيتين القائمين في الأرض المقابلة فارغًا، بينما كان الثاني يؤوي معلّمتين للإنكليزيّة: الآنسة «ليستر» (شعر قصير) والآنسة «فابيان» (شديدة الأنوثة ولكن في طور الذبول) ولم يكن لهما حديث رصيفي آخر إلّا التكلّم عن جمال ابنتي الطفولي وجاذبيّة «غاستون غودين» الطاهرة. أمّا جارتي الشرقيّة، وهي أخوف مَنْ في الحيّ، فقد كانت امرأة شرّيرة ذات أنف مدبّب، وكان أخوها المرحوم أمين صندوق الجامعة: وما زلت أتمثّلها توقف دولّي ساعة خروجها من المدرسة، بينما كنت أنتظر عند نافذة الصالون عودة حبيبتي وأنا أترقّبها بنفاد صبر عصبي وكانت المرأة الكريهة تجهد في إخفاء فضولها الجنسيّ المريض تحت قناع من العذوبة اللطيفة فتسدّ عليها الطريق، معتمدةً على مظلّتها الدقيقة، (وكان هطول الثلج الذائب قد انقطع وكانت شمس مبلّلة حادّة تتسلّل بضعف، (وكانت «دولّي» بمعطفها الأسمر المفتوح بالرّغم من البرد الثاقب، وبمجموعة الكتب والدفاتر التي تشدّها على صدرها وبركبتيها المورّدتين فوق حذائها المطّاطيّ البشع، وبطيف ابتسامتها الذي يرفّ على وجهها الصغير ذي الأنف المشمّر فيبدو (ربّما كان ذلك بسبب ضوء الشتاء الكابي) شبه تافه وريفيّ. وكانت دولّي، وقد وقعت في الشرك، تتخبّط أمام أسئلة «آنسة الشرق»: «وأين هي أمّكِ يا حلوتي؟ وما هي مهنة أبيكِ المسكين، وأين كنتما تعيشان من قبل؟». وذات مرّة أخرى حاذتني المخلوقة المريعة وهي ترسل وعوعة دمثة ولكنّي استطعت أن أفرّ منها، وبعد بضعة أيّام تلقّينا

رسالة ضمن ظرف أزرق، خليطًا دقيقًا من السمّ والشراب، تدعو فيها دولّي إلى زيارتها يوم الأحد، وإلى الجلوس في مقعد مريح للتفرّج على «مجموعة الكتب الرائعة التي أعطتني أمّي إيّاها عندما كنت فتاة صغيرة. بدلاً من أن تتركي الراديو يزعق حتى ساعات غير مناسبة».

وكان عليّ أن أحترس أيضًا من السيّدة «هوليغان»، الطبّاخة الخادمة التي تنازل لي عنها المستأجرون الأسبقون كما تنازلوا عن المكنسة الكهربائيّة. وكانت دولّي تتناول وجبة الظهر في المدرسة ممّا كان يبسّط الأمور، وكنت قد تدرّبت على أن أقدّم لها فطورًا صباحيًّا لذيذًا وأن أسخّن العشاء الذي كانت السيّدة هولغان تعدّه قبل أن تذهب. وكانت هذه السيّدة اللطيفة التي لا تؤذي ذات نظر بلغ من شدّة اضطرابه، ولله الحمد، أنّه لم يكن يُلاحظ التفاصيل، وكنت قد أصبحت اختصاصيًّا كبيرًا في فنّ ترتيب السرر، ومع ذلك فقد كان يستولي عليّ، بلا انقطاع، خوف مهووس من أن أكون قد نسيت في جهة ما لطخة مشؤومة أو من أن أفاجئ «لو» البريئة، في المناسبات النادرة التي كان وجودها فيها يطابق وجود هوليغان، وهي تكشف لها عن خبيئة صدرها في أثناء ثرثرة حميمة بالمطبخ. وكنت دائم الشعور بأنّنا كنّا دائمًا نعيش في بيت من الزجاج المُضاء، وأنّ وجهًا شاحبًا ذا شفتين دقيقتين قد ينبعث من العدم وينحني على نافذة ذات ستائر عدم الحكمة بينها ليقتات مجّانًا من مشهد يدفع أكثر المشاهدين ضجرًا ثمنًا ذهبيًّا له.

٦

كلمة بصدد «غاستون غودين»، فلئن كنت أتذوّق صحبته، أو كنت على الأقلّ أحتملها بشيء من العزاء، فقد كان ذلك بسبب شعور الاطمئنان

المطلق الذي كانت شخصيّته السمينة تنشره فوق سرِّي كأنّه السحر. ولا يعني ذلك أنّه قد اطّلع على ذلك السرّ، فلم يكن هناك أيّ مبرّر خاصّ لأن أعترف له. وكان أشدّ أنانيّة وشرودًا من أن يكشف أو يرتاب بأيّة علامة من شأنها أن تحمله على أن يسألني بصراحة وعلى أن أجيبه بالصراحة نفسها. وكان يتغنى، وهو المبشر اللطيف، بالثناء عليّ بين سكّان بردسلي. ولو أنّه حذر نزعاتي وأدرك وضع لوليتا، فإنّ ذلك الاكتشاف ما كان ليهمّه إلّا من أجل إضاءة بساطة موقفي منه، ذلك الموقف الذي كان في الحقيقة مبرّأ من الزينة ومن المضمرات الوقحة. ذلك أنّه ربّما كان يشعر، بالرّغم من ذهنه الباهت وذاكرته المتبخرة، بأنِّي كنت أعرف من شؤونه أكثر ممّا كان يعرف جميع مواطني المدينة. لقد كان أعزب كئيبًا، ذا ملامح مشوّهة مترهّلة. وكان جسمه يضيق منذ قامته حتى حنية كتفيه الضيّقتين غير المتوازيتين تمامًا، وحتى مخروط مخّه الإجاصي الشكل، المزيّن بخصل سوداء ناعمة في أحد جانبيه وبنقوش حلزونيّة صغيرة متموّجة في الجانب الآخر. وكان القسم الأسفل من جسمه ضخمًا، وكان يمشي بصورة غريبة بخطوة ملبّدة صفيقة فوق ساقين كثيفتين. وكان دائمًا يرتدي السواد. وكانت ربطة عنقه سوداء: وكان نادرًا ما يستحمّ، وكان يتكلّم إنكليزيّة الروايات الصغيرة الخفيفة. ومع ذلك فقد كان جميع الناس يجدونه رائعًا ساحرًا عجيبًا! وكان الجيران يدلّلونه، وكان يعرف أسماء جميع صبيان الحيّ (وكان يعيش على بعد بضعة شوارع منّا) وكان يُصادر بعضهم لتكنيس الرصيف أمام بيته ولحرق الأوراق الميّتة في حديقته، ولجلب الخشب لناره، بل وحتى للقيام ببعض الأعمال المنزليّة، مقابل علفهم بالشوكولا الممتازة (ذات المشروب الحقيقي)، في ظلّ قبوه الذي كان قد حوّله إلى حجرة شرقيّة ملأى بالأسلحة والمسدّسات والخناجر المعلّقة على الجدران العفنة، تلك الجدران التي كانت مزيّنة ببيارق تغطِّي أنابيب الماء الساخن. وكان قد

حوّل الطابق الأعلى إلى مرسم ـ كان هذا الدجّال العجوز يتحسّس الرسم أيضًا! ـ وغطّى الجدران بصور كبيرة: أندره جيد متفكّر، تشيكوفسكي، نورمان دوغلاس، كاتبان إنكليزيّان آخران مشهوران، نيجنسكي، هارولد دوبلونيم، وهو رجل ذو نظر ضائع ونظريّات يساريّة كان يعلّم في جامعة بالميدل ويست ومارسيل بروست. وكان يبدو أنّ جميع هؤلاء المساكين كانوا على وشك فقدان توازنهم، وهم معلّقون على الجدار المعوجّ، والسقوط على رأس الزائر. وكان غاستون يملك أيضًا مجموعة من الصور التي تمثّل جميع أولاد الجوار. وكان يتّفق لي أن أقلّب هذه المجموعة مع بعض التعليقات البريئة فكان يقطّب شفتيه الممتلئتين ويتمتم بتعبير كئيب «نعم إنّهم لطفاء». وكانت عيناه السوداوان تشردان آنذاك حول الحجرة وحول طاولة اللعب وحول تفاهة لوحاته الخاصّة (قيثارات مقطّعة، عينا ساذج طابعي. نهود زنجيّات وزخارف هندسيّة من ذلك العهد)، ثم كان يقول بحركة غامضة يشير بها إلى قطعة من الخشب المدهون أو آنية معروقة لدى الجانبين: «خذ إحدى هذه الإجاصات. فإنّ سيّدة البيت المقابل تعطيني منها أكثر ممّا أستطيع أكله». أو يقول: «أعطتني الآنسة تيلور زهور الأضالية هذه التي أكرهها». غامض مرهق مثقل بكلّ ما في الدنيا من مرارة. وكنّا نلعب الشطرنج مرّتين أو ثلاثًا في الأسبوع، وكنت أحرص، لأسباب واضحة، على أن يكون ذلك في بيتي لا في بيته. وكان يجلس كتمثال خشبيّ مقطّع ويلقي يديه السمينتين على ركبتيه وهو يتأمّل رقعة الشطرنج كما لو أنّها جثّة تحت التشريح، وكان يتأمّل زهاء عشرة دقائق وهو ينفخ بمنخريه ثم يرتكب خطأ فظيعًا. أو أنّ الرجل الطيّب كان يقول بعد تأمّل أطول: «إلى الملك» بصوت يشبه وعوعة كلب عجوز يموت في قرقرة رقيقة يرتجف لها حنكاه، ثم يرفع حاجبيه المقنطرين بنتهّدة عميقة حين ألاحظ أنّه كان مخطئًا

وكنت أستطيع أحيانًا ونحن جالسان في ركن مكتبي الثلجيّ، أن أسمع قدمَي «لو» الصغيرتين بينما هي تقوم برقصة باليه في الصالون المنخفض. ولكن حسّ الاستقبال الخارجيّ لدى غاستون كان مكتظًّا ولذلك كان يبقى غير واعٍ لهذه الإيقاعات العارية ـ واحد اثنان وواحد اثنان، كلّ الثقل على الساق اليمنى الممدودة، ساق مرفوعة وملقاة جانبًا وواحد اثنان ـ وحين تبدأ في القفز، فاتحة ساقيها في ذروة الوثبة طاوية إحداهما، باسطة الأخرى، طائرة ثم مترجّلة على رؤوس أصابعها، آنذاك كان خصمي الممتقع السمين يحكّ مخّه أو خدّه كما لو كان خلط بين هذه الصدمات البعيدة وبين انتفاضات ملكتي، تلك الانتفاضات المدهشة المخيفة.

وكان يحدث أحيانًا أخرى أن تدخل «لولا» بقدمها المتثاقلة حين نكون منغمرين في دراسة رقعة الشطرنج، وكانت تسلية لذيذة أن أرى غاستون ينهض بأبّهة، وما يزال نظره الفيلي محدّدًا في قطعة، ليشدّ على يدها. ثم يدرك أصابع «لو» الجامدة ويدع نفسه يسقط على مقعده ليتخبّط في الكمين الذي كنت قد نصبته له. وذات يوم، حوالى عيد الميلاد، سألني بعد أن انقطعنا خمسة عشرة يومًا عن اللقاء: «وجميع بناتك، كيف حالهنّ؟» وأدركت أنّه قد ضاعف حبيبتي الوحيدة لوليتا وفق التمثّلات الملبّسيّة التي ميّزتها عينه الشقيّة في أثناء تلك التجلّيات المتتابعة: «لو» وهي في السروال الأزرق. وفي التنّورة، وفي الشورت، وفي البرنس الناعم».

إنّني أطيل وقفتي على مضض، إزاء هذا الرجل المسكين (وما هو أشدّ مضضًا: أنّه وجد نفسه في السنة التالية، خلال إقامة في أوروبا لم يرجع منها، مشتركًا في قصّة قذرة، والأدهى من ذلك أنّ الحادث وقف في «نابولي»!) ولو لم يكن وجوده في برادسلي ذا علاقة غريبة بقضيّتي

لأوشكت ألّا أذكره. والواقع أنّي أذكره بصفة شاهد نفي. فيا أيّها القضاة، انظروا إلى هذا اللواطيّ الدهنيّ السوداويّ المنفّر الذي لا يملك مقدار ذرّة من الموهبة، أنّه مُربٍّ يُرثى له، وشارح تافه، وهو يحتقر احتقارًا شديدًا «طريقة الحياة الأميركيّة»، ويجهل اللغة الإنكليزيّة جهلاً فاضحًا ـ انظروا إليه جالسًا بكبرياء في هذه المدينة من مدن «نوفيل إنكلتير» الحيية، يهدهده الشيوخ ويدلّله الشبّان، فيخدعهم جميعًا، ويجد في ذلك فرحة كبيرة ـ ثم انظروا إليّ.

٧

يجب عليّ الآن أن أشير على مضض أيضًا، إلى هبوط لا يُناقش في مسلك لوليتا الأخلاقي. ولئن لم تكن قد شاركت قطّ مشاركة فعّالة في الغلواء التي كانت تشعلها فيّ، فإنّها لم تظهر كذلك، حتى ذلك التاريخ، أيّ افتتان بالمكسب الماديّ. ولكنّني كنت مجنونًا ضعيفًا، وكنت عبدًا لجنّيّتي الجميلة لا هوادة. ومع غروب العنصر الإنساني، كان الحبّ والحنان والعذاب تزداد، وقد عرفتْ كيف تفيد من ذلك.

كان مصروف جيبها، الذي لم تكن تتسلّمه إلّا شريطة مراعاة واجباتها الأساسيّة، يبلغ واحدًا وعشرين سنتًا في الأسبوع، في مطلع عهد برادسلي ـ وقد ارتفع إلى دولار وخمسة سنتات قبل نهاية ذلك العهد. وقد كان هذا المبلغ كريمًا، بالنظر إلى أنّي كنت أقدّم لها باستمرار ألوانًا مختلفة من الهدايا الصغيرة، وأنّه كان يكفيها أن ترفع إصبعها الصغيرة لتحصل على ما تريد: أيّة حلوى أو أيّة جلسة سينمائيّة ـ بالرّغم من أنّه كان يحدث لي، طبعًا، أن أطلب بشغف قبلة إضافيّة، أو حتى سلسلة من الملامسات المناسبة، حين كنت أعلم أنّها كانت تطمع بهذه اللذّة الصبيانيّة أو تلك.

غير أنّها لم تكن في ذلك كلّه أكثر من مسايرة. ولم تكن تبذل أدنى جهد لتستحقّ قطعها الثلاث من ذوات السنت الواحد ـ أو قطعها الثلاث من ذوات السنتات الخمسة اليوميّة ـ. وكانت تبدو مساومة من أكبر المساومات كلّما كان في وسعها أن ترفض ما كانت تحدثه بعض الشرابات النعيميّة من آلام فريدة تدريجيّة ومؤثّرة، ولولاها لما كان باستطاعتي أن أقاوم أكثر من بضعة أيّام، وما كان باستطاعتي أن أنتزع الحبّ منها بالقوّة، بسبب من استرخاء هذا الحبّ نفسه. وكانت تدرك إدراكًا عميقًا السحر العظيم الذي كان يكمن في فمها اللذيذ، ومن جرّاء ذلك استطاعت ـ خلال عام مدرسيّ واحد ـ أن ترفع مبلغ مكافأتها ـ مقابل طريقة ملامسة معيّنة ـ إلى ثلاثة أو حتى أربعة دولارات. أوه! لا تضحك يا قارئي، أنت الذي تتصوّرني مسمّرًا بعذاب الحبّ، وأنا أستفرغ قطعًا من ذوات العشرة سنتات أو الخمسة والعشرين ودولارات فضّيّة كأنّي آلة مجنونة ذات أجراس تقيء ثروتها وكانت هي ـ على هامش هذا الصرع المرتجّ ـ تشدّ بإحكام في يدها الصغيرة قبضة من الدراهم كنت (أسارع في انتزاعها منها) حين كانت لا تنجح في الفرار لإخفاء غنيمتها، وكنت أذهب كلّ يوم لأطوف في جوار المدرسة فأشرد بخطوة حائرة بين الحانات والمقاهي مترصّدًا الأزقّة المكفهرّة، متسمّعًا عبر خفقات قلبي وخشخشة الأوراق المتساقطة، إلى ضحكات الطالبات المنطنطات، وكذلك كنت بين وقت وآخر أدخل غرفة «لو» وأعيث فيها وأتفحّص الأوراق الممزّقة في السلّة المزيّنة بورود مرسومة وأفتّش تحت وسادة السرير الذي كنت قد سويّته. واكتشفت يومًا ثماني أوراق من فئة الدولار في أحد كتبها (وكان كتابًا يناسب المقام إذ كان عنوانه: «جزيرة الكنوز») وفي مرّة أخرى كشف لي عشّ محفور في الجدار خلف كتاب «الأمّ» لويستلر أربعة وعشرين دولارًا وستّين سنتًا استولت عليها بالخفية، وفي اليوم التالي وصفت «لو» الآنسة هوليفان الشريفة بأنّها

سارقة قذرة. غير أنّها فيما بعد دلّلت على حيويّة فكرها، هذه الحيويّة التي كان تعزوها لها علامتها في الذكاء إذ وجدت مخبأ عجزت عنه كلّ أبحاثي، ولكنّي كنت قد خفضت تعرفتي بطريقة ظالمة، وكنت لا أسمح لها الآن إلّا لقاء جهود شديدة ومغيثة، بالاشتراك بالتمثيليّة المدرسيّة، والواقع أنّ ما كنت أخشاه ليس هو أن تفلسني وإنّما هو التفكير أنّ بوسعها أن تجمع مبلغًا كافيًا من المال لتلوذ بالفرار. وإنّي أعتقد بأنّ هذه الصبيّة المسكينة ذات العينين الشاردتين قد حسبت بأنّ خمسين دولارًا ستمكّنها من بلوغ هوليود أو برودواي أو مطبخ منتن لمطعم على الطريق (مطلوب خادمة) في ولاية مظلمة من ولايات «فار وست» المتغيّرة، تحت أعاصير الرياح والنجوم التي تطرف في المساء، والحانات والمحطّات، فيتلطّخ كلّ شيء ويُكتسح ويموت.

٨

ولقد بذلت كلّ جهدي يا سيّدي الرئيس، لأحلّ مشكلة الصبيان. بل لقد انتهى بي الأمر إلى دراسة «منبر الفتيان» في جريدة «ستار» ببرادسلي، لأعرف أيّ مسلك ينبغي لي أن أتبع!

«بضع كلمات إلى الآباء. لا ترعبوا رفيق ابنتكم. قد تجدون مشقّة في الإقرار بأنّها ربّما كانت تروق للصبيان. فهي ما تزال في نظركم بنتًا صغيرة. ولكنّ الصبيان يجدونها في الوقت نفسه مرحة وفاتنة، محبوبة وظريفة، وبكلمة واحدة يجدونها جذّابة. وأنت أيّها الأب الذي يوقّع اليوم عقودًا في مكتب السيّد الكبير لم تكن حتى أمس إلّا ج. الصغير، طالبًا يحمل كتب «رفيقته» المدرسيّة. إنّك لم تنس هذا، أليس كذلك؟ فهل سترفض لابنتك، وقد جاء الآن دورها، فرحة أن تتذوّق إعجاب الصبيان

الذين يروقون لها ورفقتهم؟ وهل ستراك ستحرمهم من ألعابهم المشتركة ومن نزهاتهم البريئة؟».

نزهات بريئة؟ يا إلٰهي!

«لماذا لا تستقبلون هؤلاء المراهقين في بيوتكم كأنّهم مدعوون من قبلكم؟ ولماذا ترفضون أن تثرثروا معهم وأن تكسروا المرآة وأن تضحكوهم وتوفروا لهم الانبساط؟».

أهلاً وسهلاً أيّها الشابّ، في هذا الماخور:

«وإذا انتهكت القاعدة، فلا تدع غضبك ينفجر أمام شريكها الفتيّ. انتظر ريثما تكون معها وحدك لتعبّر عن غضبك. واسهر على ألّا تُشعر أصدقاءها بأنّ أباها غول عجوز مخيف».

وقد كتب هذا الغول العجوز، قبل كلّ شيء، لائحة لما هو «ممنوع تمامًا» ولائحة أخرى لما هو مسموح به مع الاشمئزاز. وكان ممنوعًا تمامًا اللقاءات الفرديّة أو المزدوجة أو المثلّثة. وكان التدرّج التالي هو طبعًا الفسق العامّ. وكنت أسمح لها أن تجلس في مقهى مع رفيقاتها وأن تثرثر هناك مع ذكور صغار طارئين بينما كنت أنتظرها في السيّارة على مسافة خفيّة، وكان إذا دعاها فريق من الذكور مسموح به اجتماعيًّا مع فريقها الخاصّ إلى حفلة الرقص السنويّة لأكاديميّة «باتلر» للصبيان كنت أعد بدرس ما إذا كانت فتاة في الرابعة عشرة تستطيع أن ترتدي أوّل ثوب للسهرة (وهو ثوب يضفي على المراهقات ذوات الأذرعة النحيلة أكثر ممّا ينبغي من مظهر الطيور الورديّة الطويلة الأرجل) ووعدت كذلك بتنظيم أمسية عندنا تستطيع أن تدعو لها أجمل رفيقاتها ونخبة من الصبيان تكون قد تعرّفت عليهم في حفلة أكاديميّة «باتلر». غير أنّي لم أسمح لها قطّ، وكنت حاسمًا في هذه النقطة، ما دام عهدي قائمًا بأن تذهب إلى السينما مع صبيّ

ثقيل، ولا أن تغازل آخر في السيّارة، ولا أن تحضر حفلات مختلطة عند إحدى زميلاتها، ولا أن تخابر في وجودي شابًّا بالتلفون ولو كان الأمر «مناقشة علاقاتي مع إحدى صديقاتي».

وكان ذلك كلّه يثير غضب «لو» التي كانت تصفني بأنّي غشّاش قذر، وبأكثر من ذلك، وقد كنت سأغضب على الأرجح غضبًا شديدًا لو لم أكتشف آنذاك أنّ ما كان يثيرها حقًّا أن ترى أنّها محرومة لا من لذّة خاصّة ولكن من حقّ مبدئي. وهكذا كنت أعاكس البرنامج التقليدي وجميع موادّ التسلية «والأشياء التي تُعمل» ومجرى الشباب، ذلك أنّه ليس ثمّة من هو تقليديّ كغلامة ولاسيّما كصبيّة صغيرة، ولو كانت متوحّشة وذهبيّة سمراء، ولو كانت أشدّ الجنّيّات أسطوريّة وكانت تجري في ضباب حقول أكتوبر.

ولكن لا تخطئوا. فأنا لا أستطيع أن أؤكّد بطريقة يقينيّة أنّها لم تنجح في ذلك الشتاء بعقد علاقات سيئة مع شبّان لا أعرفهم. كنت أكتشف بلا انقطاع، مهما بلغ من مراقبتي لأوقات فراغها، فجوات من الزمن كانت تجهد في أن تملأها بتبريرات مدروسة أكثر ممّا ينبغي. وكانت مخالب غيرتي الحادّة تتعلّق أبدًا بثوب ثنائيّتها الجنّيّة الرقيق. ولكنّي كنت أشعر شعورًا واضحًا ـ أستطيع اليوم أن أثبت أساسه الحقيقيّ ـ أنّه لم يكن ثمّة سبب جدّي لإعلان ناقوس الخطر. ولم يكن هذا الاعتقاد يستند قطّ إلى أنّي لم أقبض على عنق مراهق حقيقيّ صلب بين الوجوه التي كانت ترفّ في الخلف، وإنّما كان يستند إلى «دليل تفضيليّ»، على حدّ تعبير مفضّل للعمّة «سيبيل»، وهو أنّ جميع أنواع الطلّاب ـ ابتداء من الأبله الذي كان يُغشى عليه بمجرّد أن تمسّ يده، حتى الفاجر الخالع العذار ذي الدمامل ـ كانوا يزعجون على حدّ سواء عشيقتي الصغيرة المزيّفة. وكانت قد خربشت على إحدى صفحات كتبها المدرسيّة: «إنّ جميع قصص الأولاد هذه تزعجني جدًّا»، وكانت صديقتها مونا التي ستظهر على المسرح بعد قليل قد

كتبت تحت تلك العبارة بيد مرائية: «نعم؟ وروحيّة؟» (وسيأتي دوره أيضًا).

وإذن، فإنّ أولئك المتظرّفين الصغار الذين كنت أفاجئهم بصحبتها كانوا بلا وجه. فقد كان هناك مثلاً «التبّان الأحمر» الذي صحبها حتى بابنا (يوم سقط الثلج الأوّل)، ولقد رأيتهما يثرثران أمام الحاجز من مرصدي على نافذة الصالون. وكانت ترتدي معطفها الأوّل ذا الياقة الفرائيّة وقبّعة صغيرة سمراء على قصّة شعرها التي كنت أفضّلها ـ فرق على الجبين، تموّجات صغيرة من الجهتين وخصل طبيعيّة على الرقبة ـ وكان حذاؤها أسود وجوربها أبيض مشدودًا أكثر من أيّ وقت مضى. وكانت على عادتها تشدّ كتبها على صدرها فيما هي تتكلّم أو تصغي، وتحرّك رجليها بلا انقطاع، فتضع إصبعها اليمنى على قدمها اليسرى، ثم ترفعها فتلتقي بالكعبين، وتترنّح قليلاً، ثم تسير بضع خطًى قبل أن تُعيد هذه التمثيليّة. وكان هناك أيضًا «المعطف الجلدي» (اسم صبيّ صغير) الذي حدّثها أمام باب مطعم ذات أحد، بينما كانت أمّ أخته تحاول أن تجرّني في أثرها للكلام، وتبعتها بخطوة سلحفاة وأنا ألتفت كلّ لحظة لأتأمّل حبيبتي الوحيدة. وكانت تمارس عددًا كبيرًا من التصرّفات العرفيّة كتلك الطريقة التي يخفض بها المراهقون رؤوسهم ليظهروا أنّهم حقًّا «منطوون إلى اثنين من فرط الضحك». ـ وحين أدركت أنّي أناديها، وفيما هي ماضية في حماستها الجذلة، تراجعت خطوتين أو ثلاثًا ثم انفتلت ولحقت بي، وقد ماتت البسمة على شفتيها. وبالمقابل، كان يُجنّ جنوني من طريقة تنهّدها «أوه يا ربّي» ـ ولعلّ ذلك لأنّها كانت تذكّرني باعترافها الأوّل الذي لا يُنسى (وكانت تقول ذلك بكآبة مضحكة إزاء ضربات القدر) أو من نطقها بكلمة «لا . » طويلة، بلهجة عميقة صمّاء تشبه التوبيخ حين يكون القدر قد ضرب فعلاً ضربته. وفوق كلّ شيء ـ ما دمنا نتكلّم عن الحركة والشباب ـ كنت أحبّ أن أراها تركب درّاجتها الجديدة وتقطع بها الشارع، وهي منحنية انحناءة رائعة تحرّك قدميها بقوّة فائضة ثم تسقط على صهوتها

باسترخاء ناعم ليمضي حتى نهاية اندفاعها. وكانت تقف آنذاك أمام علبة البريد ثم تسحب مجلّة، وهي ما تزال على الصهوة، فتقبّلها وتعيدها إلى مكانها ثم تضغط طرف لسانها على زاوية شفتها العليا وتندفع بضربة رجل وتجري جريًا سريعًا بين الشمس والظلّ الباهت. وبالإجمال كانت تبدو منسجمة مع محيطها أكثر ممّا كنت رجوت في كاليفورنيا في الشتاء الماضي، حين كنت أترصّد خادمتي الصغيرة المدلّلة أكثر ممّا ينبغي وارتكاسات سلوكها المدوّمة كأنّها جوهرة سوار. ولئن كنت عاجزًا عن عدم تعوّد تلك الحالة من الضيق المستمرّ التي يعيشها المجرمون والمفكّرون الكبار وأصحاب القلوب الحسّاسة أكثر ممّا ينبغي، فقد كنت أشعر مع ذلك بأنّي أصبحت أستاذًا في فنّ الانسجام البيئي. كنت معتادًا أن أتمدّد فوق ديوان مكتبتي الضيّق بعد جولة من التعبّد واليأس في غرفة «لو» المثلّجة لاستعراض اليوم المنتهي وأدرس صورتي الذاتيّة التي كانت تطوف أمام عين خيالي المحمرّة. وهكذا كنت أتمثّل همبرت (الأنيق، الغامض، صاحب المذهب الإنكليكانيّ، إن لم يكن الرومانيّ) وهو يقود ابنته إلى المدرسة. وكنت أتمثّله وهو يحيي بابتسامة هادئة وبتقطيبة ودّيّة من حاجبيه الأسودين الكثيفين، حاجبَيْ نجم سينمائي، الآنسة الطيّبة هوليفان التي كانت منتنة كالطاعون (وكنت لا أجهل أنّها سترتمي في أوّل فرصة على زجاجة السيّد) وبمنظار السيّد دو بونون صاحب الأعمال الرفيعة المتقاعد أو مؤلّف الكرّاسات الدينيّة الكبيرة ـ من ذا الذي يهتمّ بها؟ ـ كنت أتمثّل الجار، الذي فاتني اسمه، وهو فرنسيّ على ما أظنّ أو سويسريّ، يتأمّل، وهو فوق آلته الكتابيّة خلف نوافذ مكتبه، وهو رجل ذو سحنة مكفهرّة وجبين ممتقع تتهدّل عليه خصلة صغيرة على غرار خصلة هتلر. وكان بالإمكان في عطلة نهاية الأسبوع أن يُرى الأستاذ هـ. بمعطفه الأنيق وقفّازيه الكستنائيين متّجهًا مع ابنته الصغيرة إلى «ولتون أين» (المشهورة بأرانبها البورسولينيّة ذوات الشرائط البنفسجيّة،

وعلب من الشوكولا كان ينبغي لتناولها انتظار فراغ طاولة لشخصين ملطّخة بفتات الزبون السابق) وكان يُرى في أثناء الأسبوع حوالى الأولى ما بعد الظهر يحيي بندامة جارته ذات العينين النفّاذتين، «آنسة الشرق» بينما هو يُخرج سيّارته من المرآب ويرجُّها بين الأعشاب الخضراء قبل أن يصل بها الشارع العامّ. وكان يُرى وهو يرفع نظرًا باردًا من كتابه إلى الساعة، في جوّ مكتبة الجامعة الخانق بين فتيات ثقيلات مستغرقات ومشلولات بجزر المعلومات الإنسانيّة. وكان يُرى كذلك وهو يجتاز حديقة الجامعة بصحبة الكاهن الأب المحترم «ريغر» (الذي كان يدرّس أيضًا الكتاب المقدّس في مدرسة الفتيات): «لقد انزلقتُ فقلتُ: إنّ أمُّها كانت ممثّلة مشهورة قُتلت في حادثة طيران. آه صحيح؟ لقد أسأت الفهم. هل هذا ممكن يا إلٰهي؟ فهمت. كم هذا محزن!» وكان يُرى وهو يدفع عربته بخطوات صغيرة في إثر البروفسور «و»، وهو أرمل آخر جميل ذو عينَيْ تيس، مشمّر الذراعين يدفع الثلج، وحول عنقه غلالة كبيرة سوداء وبيضاء. داخلاً البيت من غير أن يظهر استعجالاً شرهًا (بل هو يتمهّل في مسح قدميه على العتبة) وراء التلميذة الصغيرة. مصطحبًا «دولّي» إلى طبيب الأسنان ـ حيث تستقبله ممرّضة جميلة ذات بسمة مشعّة. مجلّات قديمة ـ «لا تكشفي عن ساقيكِ».
وكان من الممكن رؤية السيّد إدغار هـ. همبرت يتناول العشاء في المدينة مع دولّي ويأكل بفتاكه على الطريقة الأوروبيّة، الشوكة في يده اليُسرى والسكّين في اليمنى، مستمعًا إلى حفلة موسيقيّة: فرنسيّان بملامح مرمريّة جالسان جنبًا إلى جنب، ابنة السيّد هـ. هـ. المولعة بالموسيقى إلى يمين أبيها، وابن الأستاذ «و» (الذي يقضي أمسية «صحّيّة» في مدينة البروفيدنس المجاورة) إلى يسار السيّد «ج. ج». فاتحًا المرآب: مربّع من النور يُغرق السيّارة ثم ينطفئ. في منامة ذات لون فاقع مسدلاً فجأة ستار غرفة دولّي. صباح السبت، لا يُرى، يزيّن باهتمام على ميزان الحمّام الجميلة التي غيّر الشتاء ألوانها يُرى،

ويُسمع أيضًا، صباح الأحد، (هو لا يذهب إلى القدّاس، في نهاية المطاف) قائلاً لـ «دولّي» التي تذهب إلى ملعب التنس «لا تتأخّري». فاتحًا الباب أمام زميلة تراقب دولّي مراقبة مدهوشة: «إنّها المرّة الأولى التي أرى فيها رجلاً وهو في الثياب الداخليّة ـ يا سيّدي ـ باستثناء السينما، طبعًا».

٩

تبدّت صديقاتها، اللواتي نظّمت لهن حفلة للقاء، مخيّبات جدًّا بالإجمال. وكانت بينهنّ «أوبال كيلكشوز» و«ليندا‌هال) و«آفي شابمان» و«إيفا روزن» و«مونا دال» مخلوقة خجولة وبلا شكل، ذات مرض جلدي ونظّارات، وكانت تكنّ لدولّي إعجابًا مهووسًا، بينما كانت دولّي تهاجمها بلا هوادة. وأمّا «ليندا هال»، بطلة المدَرسة في التنس، فقد كانت دولّي تناقشها في موضوع «السذج» مرّتين في الأسبوع على الأقلّ: ورأيي أنّ «ليندا» كانت جنّيّة حقيقيّة، ولكنّها، لأسباب أجهلها، لم تأتِ قطّ ـ أو لم يسمح لها أن تأتي ـ إلى بيتنا، وهي ليست في ذهني إلّا شعاعًا من الشمس الحقيقيّة فوق ملعب للتنس. ولم يكن بين الأخريات أيّة واحدة يمكن أن تضاف إلى الجنّيّات، باستثناء «إيڤا روزن». ورأيي أنّها صبيّة سمينة ذات ساقين زغباوين وبرعم جانبيّ. وأمّا «مونا»، فالبرّغم من فتنتها بطريقتها الشهوانيّة الخشنة، وبالرّغم من أنّها تكبر عشيقتي بعام، فمن الواضح أنّها كانت قد فقدت «جنّيّتها» منذ زمن طويل، إذا كان لديها «جنّيّة» ما. وعلى العكس، فإنّ «إيڤا روزن»، النازحة الفرنسيّة الأصل، قد كانت مثلاً حيًّا لتلك الفتيات الجميلات بلا رونق، ولكنّهنّ يكشفن أمام عينَيْ الهاوي المتبصّر بضعة ملامح رئيسيّة من الجاذبيّة الجنّيّة. والهيكل الكامل للجسد غير البالغ، والخدود المرتفعة، والنظر الناعس. وكان لشعرها النحاسيّ

التماع شعر لوليتا، ولم يكن لوجهها الناعم ذي الطابع الحليبي، بشفتيه الورديّتين وجفنيه الملتمعتين بالفضّة، لم يكن له تلك السحنة الثعلبيّة التي كانت لشبيهاتها من فئة الحمراوات. وبدلاً من ذلك الثوب الأخضر الذي كنّ يرتدينه، كان لها هي، إذا لم تخنِّي الذاكرة، تفضيل واضح للألوان السوداء واللون الكرزيّ الغامق - من مثل فستان أسود لامع وحذاء أسود طويل الكعبين وصبغة أظفار عقيقيّة. وكنت أحدّثها دائمًا باللغة الفرنسيّة (ممّا كان يثير نفور «لو») وكانت لهجتها ما تزال صافية معجبة. ولكنّها كانت تعمد فيما يتعلّق بلغة المدرسة أو اللعب إلى العبارات الأميركيّة، وكانت كلماتها تحمل آنذاك لهجة خفيفة من لهجة أحياء نيويورك الشعبيّة، ممّا كان مسلّيًا في فم باريسيّة صغيرة لاجئة إلى مؤسّسة «رفيعة» في «نوفل إنكلوتير» حيث كان المفترض تلقين الفتيات اللغة والعادات البريطانيّة. ولست أدري لماذا «تخلّت» «لو» عن الفرنسيّة الصغيرة بالرّغم من أنّه كان للطفلة خال ملياردير، ولم يتح لي قطّ أن أتذوّق على طريقتي المتواضعة، إطلالات «إيڤا» العطرة تحت سقف قصر همبرت الخفيّ. وأنّ القارئ ليعرف الأهمّيّة التي كنت أعلّقها على حضور سرب من آنسات الشرف - جنّيّات للتعزية - حول حبيبتي لوليتا. وقد جهدت فترة من الزمن لحمل حواسّي على الاهتمام «بمونا دال» التي كانت غالبًا ما تزورنا، ولاسيّما في فصل الربيع الذي شغفت هي «ولو» فيه بالمسرح إلى حدّ بعيد. وقد تساءلت مرارًا عن الأسرار التي باحت بها دولوريس هاز الماكرة لـ «مونا»، كما انزلقت ساعة وأخبرتني بذلك، على أثر إلحاحي الشديد الذي كنت أكافئه بالمال لمعرفة التفاصيل التي كانت لا تُصدّق حقًّا حول المغامرة التي عرفتها «مونا» مع جنديّ بحريّ على شاطئ البحر. وكان ذا مغزى أن تختار، كصديقة حميمة لها، هذه الأنثى الصغيرة المجرّبة أكثر ممّا ينبغي، الأنيقة الباردة الشبقة التي سمعتها يومًا تقول لـ «لو» التي كانت تريها تبّانها

الصوفي البكر: «إنّ هذه هي البكارة الوحيدة التي تبقى لك يا صغيرتي. . » وكان لـ «مونا» صوت محجّب بصورة غريبة وشعر أسود باهت ذو تموّجات مصطنعة، وحلق في الأذنين، وعينان بارزتان بلون العنبر، وشفتان شرهتان، وكانت «لو» تقول: إنّ معلّمات «برادسلي» قد وبّخنها على ميلها المفرط للزينة والبهرجة. وكانت «مونا» تعاني قلسًا من الذكاء مرتفعًا أكثر ممّا ينبغي. وكانت يداها ترتجفان وكنت أعلم أخيرًا أنّ لها شامة كبيرة بلون القهوة على ظهرها رأيتها عن كثب ليلة ارتديا ثوبين شفّافين لحفلة أكاديميّة بتلر الراقصة.

إنّني أتعجّل قليلاً، ولكنّي لا أستطيع أن أمنع ذاكرتي من الشرود بين طرف وآخر من أطراف رقعة تلك السنة الدراسيّة. لقد كنت ذات مساء أبذل جهودًا كبيرة لأعرف نوع الصبيان الذين كانت «لو» تعاشرهم، فأخذت الآنسة دال تظهر تدلّلاً خفيًا. وكانت «لو» قد تلفنت لتخبرني بأنّها ستتأخّر بعض الوقت (وكانت قد قصدت نادي «ليندا» لتعلب فيه التنس)، فهل أتلطّف بمؤانسة «مونا» التي كان من المفترض أن تأتي إلى البيت لتتمرّن معها على مسرحيّة «المرأة الشرسة المروّضة»؟ وحين أتت «مونا» وسألتها عن الصبيان الذي كانت تعاشرهم «لو» عمدت إلى جميع التنغيمات وترقيقات الصوت والحركات وأخذت تنظر إليّ نظرة حسبتُ أنّ فيها ـ وهل كان يمكنني أن أخطئ؟ ـ بريق سخرية شفّافة، ثم أجابت: «الحقيقة يا سيّدي أنّ الصِبية الذين هم في سنّنا لا يهمّون دولّي أبدًا والواقع أنّها منافستي الكبيرة ـ فكلتانا تحبّ حبًا جنونيًا الأب المحترم ريغر». (كانت هذه مزحة، وقد سبق لي أن تحدّثت عن ذلك العملاق الحزين، ذي الفكّ الحصانيّ، الذي كاد يهلكني ضجرًا بحديثه عن انطباعاته في سويسرا خلال حفلة شاي لذوي التلميذات أراني عاجزًا عن أن أحدّد في الزمن وقتها تمامًا).

كيف كانت الحفلة الراقصة؟ أوه، كانت عاصفة. وكيف؟ حلوى

حقيقيّة، رائعة، بكلمة واحدة. هل رقصت «لو» كثيرًا؟ أوه بلا مبالغة، رقصت فقط إلى أن سقطت. وما رأي «مونا» الناعسة بابنتي «لو»؟ نعم، يا سيّدي؟ هل كانت تعتقد أنّ «لو» تُحرز تقدّمًا في المدرسة؟ أوه إنّ «لو» فتاة هكذا! ولكن بصورة عامّة أكثر، هل كانت «لو» تعمل. ؟ أوه ليس هناك من يعمل خيرًا منها. إيضاح؟ «أوه، إنّها ملاك!» هكذا أنهت «مونا» الحديث ثم تناولت، وهي ترسم تنهّدة مفاجئة، كتابًا كان قريبًا من يدها. ثم غيّرت لهجتها وقطّبت حاجبيها برياء وسألت: «حدّثني عن بلزاك هذا يا سيّدي، هل هو عظيم كما يقولون؟» واقتربت من مقعدي اقترابًا جعلني أشعر برائحة بشرتها التافهة تحت المساحيق والعطور. وفجأة خطر في رأسي سؤال مريب: أتُرى حبيبتي لوليتا تلعب دور السمسارات؟ إذا كان الجواب نعم، فإنّها قد أخطأت كلّ الخطأ في اختبار من يحلّ محلّها! وتفاديت نظر «مونا» البارد وحدّثتها بضع لحظات عن الأدب. وبعد قليل وصلت دولّي ونظرت إلينا بعينيها الباهتتين وجفنيها نصف المغلقين. ونهضتُ تاركًا الرفيقتين لمكرهما وكان في زاوية السلّم نافذة صغيرة اكتسحتها خيوط العنكبوت. وكان لإحدى حلقاتها مربّع ياقوتي اللون. وكلّما كنت أرى هذا الجرح الحيّ بين سائر المستطيلات التي لا لون لها، وكلّما كنت أرى وضعه الشاذّ ـ كحركة فارس على رقعة الشطرنج ـ كنت أستشعر اضطرابًا غريبًا

١٠

بعض المرّات. كم مرّة على الضبط، يا برتي؟ هل يمكن أن تتذكّري أربع مناسبات أو خمسًا أو أكثر، أم أنّ القلب البشريّ لن يستطيع أن يعيش بعد المرّتين أو الثلاث الأولى. ؟ بعض المرّات، (ليس عندي

ما أجيب به عن سؤالك) بينما كانت لوليتا تكتب فروضها، وهي تمصّ قلمها، مستلقية فوق أريكة كبيرة، وساقاها تمتطيان المسند. وطرحت عنّي تحفّظي الأكاديمي ونسيت جميع خلافاتنا، وتنازلت عن عزّتي الرجوليّة ـ وزحفت إليك على ركبتي يا حبيبتي لوليتا وعند ذاك رميتني بنظرة، نظرة مخمليّة رماديّة، وكأنّها علامة استفهام، وقلت: «أوه كلّا! بعد؟» (عدم التصديق، الغيظ)، لأنّك لم تتنازلي قطّ للاعتراف برغبتي (من غير أيّ غاية خاصّة، يا حبيبتي) في أن أغمر وجهي في ثنايا تنّورتك الاسكتلنديّة. إنّ ذراعيك العاريتين الرخصتين ـ كم كنت أتحرّق لضمّهما، لضمّ أطرافكِ الأربعة معًا، أطرافكِ الرائعة الرائقة (مهرة صغيرة متجمّعة على نفسها) وفي أن آخذ رأسكِ بين يدَيَّ الماجنتين، وأن أبعد على مهل صدغَيْك إلى الوراء، وأن أضع شفتَيَّ على عينيك المسبلتين فجأة، وكنت تقولين «أبتهل إليك، دعني وشأني! بحقّ السماء، حلّ عنّي!» وكنت أنهض آنذاك فتتبعينني بنظركِ وقد اكفهرّ وجهكِ لتقلّدي تكشيرتي العصبيّة. ولكنّ الأمر سواء، الأمر سواء، إنّني لست إلّا وحشًا، الأمر سواء، وعليّ أن أتابع هذه القصّة التي تُثير الشفقة.

١١

ذات صباح من شهر كانون الأوّل، على ما أعتقد، رجتني الآنسة «برات» أن أجيء إلى المدرسة. ولم أكن أجهل أنّ آخر دفتر مدرسيّ لدولّي كان يشير إلى تأخّرها. ومع ذلك، فبدلاً من أن أكتفي بدافع معقول كهذا لأبرّر هذه الدعوة أخذت أتصوّر ألوانًا من الأمور الرهيبة، وكان لا بدّ لي من أن أتناول جرعة من مزيجي لأستمدّ الجرأة على مواجهة تلك المقابلة. ورقيت على مهل درجات البناية.

استقبلتني امرأة قويّة، ملح وفلفل، مهملة، ذات أنف كبير أفطس وعينين صغيرتين خلف نظّارتيها السوداوين. وقالت: «تفضّل» وهي تشير بإصبعها إلى مقعد محشو خشن مذلّ، بينما جلست هي بحيويّة متثاقلة على ذراع مقعد سندياني. ونظرت إليّ دقيقة أو دقيقتين بفضول مبتسم. وأذكر أنّها قد فعلت كذلك في لقائنا الأوّل، ولكنّي لم أكن أستطيع أن أسمح لنفسي بأن أردّ لها من البضاعة نفسها وتركني نظرها فاستغرقت في أفكارها، المصطنعة على الأرجح. وفيما هي تحسب حساب الربح والخسارة أخذت تحكّ ركبتها، ثنية إثر ثنية، تنّورتها من الفلانيل الأنتراسيت، لتمحو أثرًا من حكّ أو لطخة أخرى. وتكلّمت أخيرًا، من غير أن ترفع رأسها، ولم تكفّ عن الفرك:

ـ «اسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً بلا مواربة يا سيّد هاز. أنت أب أسرة أوروبيّ، أب على الطريقة القديمة. أليس كذلك».

فأجبت: «ليس هذا على علمي. قد أكون محافظًا، ولكنّي لست على الإطلاق ما تسمّينه على الطريقة القديمة».

وتنهّدت، وقد تجعّد جبينها فجأة ثم صفّقت إحدى يديها المحمرّتين على الأخرى، كأنّما تومئ لي «لنذهب توًّا إلى القضيّة» ثم حدجتني من جديد بعينيها الثاقبتين. وقالت:

ـ «إنّ دولّي هاز صبيّة لطيفة، ولكن يبدو أنّ تفتّح مراحل البلوغ يثير عندها بعض الصعوبات».

فهززتُ ذقني هزًّا خفيفًا وماذا عساني كنت أفعل غير ذلك؟
وقالت الآنسة «برات» (وهي تصف الحركة بيديها الحمراوين):

ـ إنّها لا تزال تتأرجح بين منطقة النموّ الشرجيّة والمنطقة الرحميّة. إنّها بالأساس لطيفة.

ـ «عفوًا، أيّ منطقتين؟»

ـ «آه، أترى إنّك أوروبيّ من المدرسة القديمة؟» (هكذا صاحت وهي تضرب ساعة يدي براحتها وتكشف فجأة عن أسنانها) «أريد أن أقول بكلّ بساطة إنّ الدوافع البيولوجيّة والفيزيولوجيّة ـ هل تدخن؟ ـ لم تختلط بعدُ عندها ولم تشكّل بعدُ، إذا صحّ التعبير، صورة مستديرة». (وأحاطت كفّاها ببطّيخة غير مرئيّة).

«إنّها لطيفة لامعة جدًّا بالرّغم من أنّها طائشة بعض الشيء. (وبعد أن عدّدت هذه الصفات وهي تنفخ بقوّة، انحنت من غير أن تغادر متّكأها، نحو زاوية مكتبها اليمنى، ثم استشارت لائحة الصبية اللطيفة المدرسيّة). «إنّ علاماتها تتأخّر باستمرار، وأنا أتساءل يا سيّد هاز. .».

تقليد جديد للتأمّل.

ثم استطردت بلهجة فَكِهَة: «أمّا أنا، فإنِّي أدخن! وكما يقول طبيبنا العزيز الدكتور «بيرز»: إنّ هذا لا يشرّفني، ولكنّه يلذّني كثيرًا، (وأشعلت سيكارتها ونفثت الدخان الذي خرج من أنفها كزوج من سهمَيْ الفيل).

ـ «دعني أعطيك بعض التفاصيل. إنّ ذلك لن يقتضي إلّا لحظة. لنبحث قليلاً (تقلّب بعض أوراقها) إنّها غير مطيعة مع الآنسة «ريدكوك»، وهي وقحة جدًّا تجاه الآنسة «كورموران». وهذه لائحة من لوائحنا التحليليّة الخاصّة: تحبّ الغناء مع فريقها غناء جوقيًّا، ولكن ذهنها يبدو وكأنّه لا ينقطع عن الشرود. تشبك ركبتيها وتقوم بالإيقاع بساقها اليسرى. مفردات بالية. لغة مؤلّفة من مئتين واثنتين وأربعين عبارة تنتمي إلى أكثر اللغات الطلّابيّة بذاءة، يعزّزها عدد من العبارات الطويلة ذات الأصل الأوروبيّ. تميل إلى التنهّد في ساعات الدرس. لنبحث قليلاً أجل إنّنا نصل إلى آخر أسبوع من تشرين الثاني. تتنهّد غالبًا في أثناء الدروس، تمضغ العلكة

بعنف. لا تأكل أظفارها، ولكنّها إذا فعلت فإنّ ذلك ينطبق على شخصيّتها العامّة. العادة الشهريّة طبيعيّة بشهادتها. غير منتمية حتى اليوم إلى أيّ اتّجاه دينيّ. بالمناسبة يا سيّد هاز: هل كانت أمّها. ؟ أوه! إنّي أرى. وأنت؟ أحبّ أن أفكّر بأنّ ما لا يعني أحدًا يعني الله وحده، آه! شيء آخر نودّ أن نعرفه: فهمت أنّ ليس لها أيّة مهمّة في البيت. فهل نعامل عزيزتنا دولّي يا سيّد هاز كأميرة صغيرة؟ حسنًا ماذا عندنا أيضًا؟ تقلّب كتبها بلطافة. صوت عذب. تميل إلى الهمس والانفجار بالضحك. حالمة بعض الشيء تستسلم لفكاهات من صنعها: فمثلاً تتسلّى بنقل الأحرف الأولى من أسماء بعض الأساتذة، شعر كستنائيّ برّاق، حريريّ. (ضاحكة) أعتقد أنّك تعرف هذا! منخران غير مسدودين، قدمان متقوّستان، عينان. لنرَ شيئًا آخر، كان عندي لائحة أحدث في مكان ما. آه، هذه هي! تنس: تشير الآنسة «غولد» إلى أنّ «دولّي» تملك جسمًا يراوح بين «ممتاز» و«كامل»، وهو خيرٌ من جسم «ليندا هال»، ولكنّ التركيز يراوح بين «الوسط» و«الضعيف». لا تنجح الآنسة «كورموران» في تحديد ما إذا كانت دولّي تملك إرادة استثنائيّة أم أنّها خالية من أيّة إرادة. وتلاحظ الآنسة «هورن» أنّها ـ أي دولّي ـ عاجزة عن التعبير بالكلام عن انفعالاتها، وترى الآنسة «كول» أنّ لدى دولّي تغيّرًا غذائيًّا في الخلايا يبلغ الدرجة المناسبة. وتعتقد الآنسة «مولار» بأنّ دولّي حسيرة النظر وأنّ عليها أن تستشير طبيبًا للعيون، ولكنّ الآنسة «ريدكوك» تدّعي بأنّها إنّما تتصنّع ضعف البصر لتغطّي ضعفها المدرسيّ. وأخيرًا، فإنّ محقّقينا يتساءلون، يا سيّد هاز، عن نقطة هامّة. ولهذا أودّ أن أطرح عليك سؤالاً: أودّ أن أعرف ما إذا كانت زوجتك، أو كنت أنت نفسك، أو بعض الأقرباء الآخرين ـ فقد سمعت أنّ لها عدّة خالات وجدّ لأمّها في كاليفورنيا. إنّنا نتساءل جميعًا هل أطلع أيّ فرد من العائلة دولّي على عمليّة تناسل الضرعيّات. إنّ شعورنا العامّ هو أنّ

دولّي، ما تزال، وقد بلغت الخامسة عشرة، تظهر لامبالاة مَرَضيّة بشأن القضايا الجنسيّة ـ أو أنّها، على الأصحّ، تشجب فضولها على أمل حماية طهارتها وعزّتها في الوقت نفسه. حسنًا، حسنًا. أربعة عشر عامًا فقط. اسمع، يا سيّد هاز، نحن لا نؤمن في مدرسة برادسلي بقصص الملفوف والورود والأرانب وسواها، بل نحن مقتنعون كلّ الاقتناع بفائدة إعداد طالباتنا لفكرة اتّحاد جسديّ يرضي الجهتين، وفكرة أمومة لا غيوم في سمائها. ونعتقد أنّ دولّي ستكون طالبة مرموقة إذا كانت تريد حقًّا أن تهتمّ بعملها. وتقرير الآنسة كورموران في هذا الصدد ذو معنى. إنّ دولي ذات مزاج أقلّ ما يُقال فيه إنّه ماجن، هذا إذا تسامحنا. فنحن نعتقد جميعًا بأنّ عليك أوّلاً، أن تطلب من طبيب الأسرة أن يشرح لها حقائق الحياة، وثانيًا، أن تسمح لها بأن تعقد صلات رفقة مع إخوة زميلاتها في نادي الصغار، أو في الاجتماعات التي ينظّمها الأب المحترم ريغر أو في صالونات أقربائنا الحفيّة. فقلت: «إنّها تستطيع أن تلتقي الصبيان في صالون بيتها الذي لا يقلّ حفاوة».

فقالت برات باندفاع: «أتمنى ذلك من صميم قلبي. لقد سألناها عن همومها الصغيرة، فرفضت الكلام عن وضعها العائلي، ولكنّنا ثرثرنا مع بعض زميلاتها، ولعمري!. إنّنا نرجوك مثلاً وبإلحاح أن تعدل عن رفضك بأن تدعها تشترك بنشاط فرقتنا المسرحيّة، إنّ عليك أن تسمح لها بأن تمثّل في مسرحيّة «الصيّادون المسحورون» فقد تكشف عن جنّيّة صغيرة لذيذة لدى الاختيار الأولى للممثّلات. ثم إنّ مؤلّف هذه المسرحيّة سيقضي بضعة أيّام في جامعة برادسلي في الربيع القادم، وسيحضر تجربتين أو ثلاثًا في قاعتنا الجديدة، وهذا كلّه، كما ترى، جزء من فرحة الحياة ومن فرحة الشباب والجمال. وينبغي أن تفهم أن.

فأجبتها: لقد اعتبرت نفسي دائمًا أبًا متفهّمًا جدًّا.

ـ أوه، ليس في ذلك أدنى شكّ، أدنى شكّ. ولكنّ الآنسة «كورموران» تعتقد، وأميل إلى الاعتقاد معها، بأنّ «دولّي» موسوسة بهمّ جنسيّ لا تجد له بالطبع متنفّسًا، وأنّها تميل إلى تعذيب وإزعاج جميع رفيقاتها، بل حتى أصغر معلّماتها، اللواتي تكون لهنّ مواعيد بريئة مع الشبّان الصغار».

فهززت كتفي. المهاجر الدنيء!

«لنحاول أن نتفهّم يا سيّد هاز. إنّ فكرين خير من فكر واحد. أنّ هذه الغلامة ليست طبيعيّة. فماذا هناك؟». فقلت: «إنّها تبدو لي طبيعيّة وسعيدة جدًّا» (أتُرى قد دقّت أخيرًا ساعة الكارثة؟ وهل افتضح أمري؟ أو تُراهنّ قد استنجدن بمنوّم ما؟).

وقالت «برات» وهي تلقي نظرة على ساعتها وتستعدّ لاستعادة تحقيقها منذ البدء: «إنّ ما يقلقني هو إجماع الكلّ، طالباتٍ ومعلّماتٍ، على اعتبار دولّي هجوميّة خبيثة شرسة، وليس مفهومًا لماذا ترفض هذا الرفض الحاسم أن تسمح لها بالتسليات المألوفة عند جميع الأولاد الطبيعيين؟

فسألتها بلهجة لامبالية: (جرذ عجوز مطارد، يائس): هل تعنين ألعاب الجنس؟

فصاحت «برات» بابتسامة: آه إنّني سعيدة بأن أراك تستعمل لغة العصر الحديث ولكن ليس هذا ما أعنيه بالضبط. فتحت رعاية مدرستنا ليس للمسرح والرقص وسائر النشاطات الطبيعيّة الأخرى أيّة علاقة بالجنسيّات، بالرّغم من أنّ فتياتنا يكنّ غالبًا على احتكاك بالصبيان. ولكن أهذا هو الذي يصدمك يا ترى؟

فقلت: «برافو لقد ربحتِ! (وأرسلتُ تنهّدة متعبة). إنّني أوافق على أن تمثّل في هذه المسرحيّة، شريطة أن تمثّل أدوار الصبيانِ فتيات. ـ «أنا

متأكّدة بأنّ الآنسة غولد ستجنّ فرحًا. فهي التي تقود فرقتنا المسرحيّة. وقد لاحظت أنّها إحدى المعلّمات النادرات القادرات على احتمال. عفوًا على توجيه دولّي. حسنًا. هذا ما يحلّ المشاكل العامّة! ولكن أمامنا الآن مشكلة أخصّ. وهنا تعود الصعوبات».

وصمتت «برات» فجأة وحكّت بسبّاتها أسفل منخريها حكًّا شديدًا حتى إنّ أنفها تلوّى في نوع من الرقص الحربيّ.

وقالت أخيرًا: «إنّني لم أعتد أن أمضغ كلماتي. ولكنّ العرف هو العرف، ويشقّ عليّ أن. لنتحدّث عن الأشياء كما يلي. لقد عهدت أسرة «وولكر» التي تسكن ذلك البيت الرماديّ القائم على الرابية، عهدت بابنتيها الصغيرتين لمؤسّستنا، وعندنا أيضًا حفيدة الرئيس «مور» وهي صبيّة لذيذة، بصرف النظر عن بنات عدد من الأشراف وفي هذا الوضع، أنّ ما يصدم صراحة أن نرى دولّي، وراء مظهرها كابنة أسرة طيّبة، تستعمل لغة لا تعرفها أنت نفسك أو لا تفهم معناها أنت الأجنبيّ أو الأميركيّ المستوطن. فمن الأفضل. هل تريد أن أستدعي دولّي لنحسم هذه القضيّة على الفور؟ كلّا؟ اسمع. فليكن. ولنتحدّث بصراحة، لقد كتبت دولّي بأحمر شفاهها كلمة داعرة، كلمة مريعة من أربعة أحرف (وهي تعني كما يقول طبيبنا كتلر، مبولة عموميّة بالعاميّة المكسيكيّة) كتبتها على كرّاسات الصحّة التي وزّعتها الآنسة ريدكوك، وهي ستتزوّج في حزيران، على فتياتنا؛ وقد بدا لنا من المناسب أن نحتجز دولّي بعد ساعات الصفّ لمدّة نصف ساعة على الأقلّ. ولكن إذا كنت ترى من الأفضل.

فقلت: كلّا، فأنا لا أريد أن أخالف قواعد المدرسة. وسأحدّثها فيما بعد. فأنا حريص على أن أستوضح هذه القضيّة.

فقالت وهي تنهض عن مسند مقعدها: فكرة طيّبة. وربّما كان باستطاعتنا أن نتقابل قريبًا، فإذا لم تجر الأمور كما ينبغي، فسيكون بإمكاننا

أن نطلب إلى الدكتور كاتلر أن يكشف عنها.

ما العمل؟ هل أتزوّج برات ثم أخنقها؟

«. ولعلّه سيكون من الخير أن يجري عليها طبيبك المختصّ فحصًا طبِّيًا ـ زيارة عاديّة. إنّ دولِّي في قاعة «خبز الأرض» ـ وهي آخر قاعة في أقصى الممرّ».

ولنُشِر بهذه المناسبة أنّ مدرسة برادسلي قد عمّدت مختلف الصفوف بألقاب «تقليديّة»، على غرار معاهد إنكلترا القديمة المشهورة. وقد رأيت في صفّ «خبز الأرض» الذي كانت تنبعث منه رائحة العفونة صورة تمثّل «سنّ الطهارة» لرينولدز، كانت معلّقة فوق اللوح الأسود، وبضعة صفوف من الطاولات الثقيلة. وكانت حبيبتي لوليتا جالسة على إحداها وهي تقرأ فصل «حول الحوار» من كتاب «تكنيك المسرح» لبيكر، ولم يكن هناك أدنى ضجّة، وكانت فتاة أخرى ذات عنق عارية بيضاء، وشعر فاتن بلاتينيّ، جالسةً أمامنا، تقرأ هي أيضًا، مستغرقةً خارج العالم، وكانت تفتل بلا غاية خصلة طريّة حول إصبعها. وقد تسلّلت بالقرب من دولِّي، تمامًا وراء تلك العنق العارية والشعر الأشقر، وبعد أن فككت أزرار معطفي، أقنعت دولِّي مقابل خمسة وستّين سنتًا والإذن لها باللعب في القاعة، بأن تزلق من تحت الطاولة، يدها ذات الأصابع المحمرّة، يدها الصغيرة الملطّخة بالحبر والحكّ. أوه! أجل، كان ذلك عملاً أخرق غير حكيم، ولكن كان لا بدّ لي، بعد العذاب الذي عانيته، أن أفيد بأيّ ثمن من تواطؤ للظروف كنت موقنًا أنّه لن يحدث مرّة أخرى أبدًا.

١٢

أُصيبت حوالى عيد الميلاد ببرد مؤذٍ فاضطررت إلى استدعاء الدكتورة

الصديقة الآنسة ليستر، واسمها الحقيقي إيلس تريسترامسون (تحيّة لك يا إيلس، تحيّة، لقد كنت ملاكًا من اللطف والتحفّظ، وقد لمست يمامتي بعذوبة لذيذة). فشخّصت نزلة رئويّة، وربتت على كتفَيْ لو (اللتين كانت الحمّى قد أوقفت زغبهما) ودعتها إلى لزوم السرير لمدّة أسبوع على الأقلّ. ومنذ البدء ارتفعت الحرارة لدى «لو»، ولم أستطع أن أقاوم حرارة الشهوات الجديدة، ولكن كان ذلك مع «لوليتة» مسترخية كانت تسعل وتئنّ وترتجف بين ذراعَيَّ. وما إن شُفيت حتى نظّمت ليلة راقصة يحضرها الصبيان.

وربّما أكون قد أفرطت في الشرب لأهيّئ نفسي لهذه التجربة، ولعلّني تصرّفت تصرّفات مضحكة. وكانت الفتيات قد زيّن صنوبرة ميلاد صغيرة على الطريقة الألمانيّة، باستثناء أنّ اللّمبات الملوّنة قد حلّت محلّ الشموع. وقد مُلئ فونوغراف صاحب البيت بالأسطوانات، وكانت حبيبتي الرشيقة تلبس بذلة رماديّة مع قميص ضيّق وتنّورة واسعة. وانسحبت، وأنا أدمدم، إلى مكتبي بالطابق الأوّل ـ ثم كنت أهبط منه كالأبله كلّ عشر دقائق أو عشرين لبضع لحظات، لآخذ في الظاهر غليوني من على المدخنة أو لأحمل الجريدة. وكانت هذه الحركات البدائيّة تزداد صعوبة في كلّ رحلة. وأنّي لأذكر هول الأيّام المقبلة التي كان عليّ أن أعصب فيها إرادتي لأتمكّن من أن أدخل بخطوة طبيعيّة في تلك الغرفة من منزل رامسدال حيث أجد صغيرتي كارمن.

ولم تكن السهرة ناجحة قطّ. فمن الفتيات الثلاث المدعوّات لم تأتِ إحداهنّ، وقد اصطحب أحد الصبيان قريبة روي، بحيث كان هناك صبيّان أزيد ممّا ينبغي، وكان القريبان يعرفان جميع خطوات الرقص، في حين أنّ الآخرين لم يكونوا يعرفون الرقص عمليًّا. ومضت السهرة كلّها تقريبًا في قلب المطبخ رأسًا على عقب وفي التناقش لمعرفة لعبة الورق التي ستُلعب، وفيما بعد وُجدت فتاتان وأربعة صبيان جالسين على بلاط الصالون أمام

النوافذ المفتوحة وهم يسردون ألغازًا كانت «أوبال» تصرّ على ألّا تفهمها، بينما كانت «مونا» و«روي» وهو صبيّ وسيم ذو جسم ممشوق، يشربان البيرة الممزوجة بالزنجبيل جالسين على الطاولة متدلّيي السيقان يتناقشان بحرارة في موضوع الاستعداد وقانون الاحتمالات. وحين ذهب الجميع قالت «لو»: «بواه»! واسترخت على مقعد، مسبلة الجفنين، متمدّدة الأطراف الأربعة في وضع نفور وإرهاق شديدين. وأكّدت لي أنّه لم يسبق أن رأت صبيانًا أكثر تنفيرًا من هؤلاء، ومن أجل هذه الملاحظة وحدها، اشتريت لها مضرب تنس جديد.

وكان كانون الثاني دافئًا ورطبًا، غير أنّ شباط قلب الأمور، ولم يسبق لأحد في برادسلي أن رأى طقسًا كذلك الطقس. وتلقّت «لو» فيضًا من الهدايا الأخرى. وبمناسبة عيد ميلادها، أهديت إليها درّاجة، تلك الآلة الطاووسيّة السير التي تحدّثت عنها، وأضفت إليها كتاب «تاريخ الرسم الأميركي المعاصر». وكان «الأسلوب الدرّاجي» للو (أعني طريقتها في الاقتراب، وحركة خاصرتيها حين ترتقي الصهوة، وخفّتها وما إلى ذلك) كان هذا الأسلوب يمنحني بهجة قصوى. وبالمقابل، فإنّ جهودي لإرهاف ذوقها في الرسم قد خابت تمامًا: كانت تسأل هل كان الرجل الذي ينام في كومة تبنِ «دوريس لي» أبا الغلامة المزيّفة الشهوة ذات المشية الصبيانيّة، والتي كانت تُرى في أوّل الصورة؟ ولم تكن تستطيع أن تفهم ما الذي كان يحملني على القول إنّ «غرند وود» أو «بيتر هارد» كانا طيّبين، وإنّ «ريجينالد مارش» أو «فريدريك ووغ» كانا حقيرين؟

١٣

حين أقبل الربيع يمسّ «تاير ستريت» بالخضرة والصفرة والورد، كان

حبّ المسرح قد انتصر على لوليتا انتصارًا كاملاً وقد لمحتُ «برات» بالمصادفة في يوم أحد عند «والتن»، حيث كانت تتناول الغداء مع مجهولين، فلمحتني وصفّقت بيديها تصفيقًا متحمّسًا بينما كانت «لو» شاردة النظر. إنّني أحتقر المسرح وأعتبره، من وجهة نظر تاريخيّة، كظاهرة بدائيّة عفنة تجاور طقوس العصر الحجريّ وغباوات طائفيّة أخرى، هذا بالرغم من بعض اللّقاحات الفرديّة النادرة من مثل شعر العصر الإليزابيتيّ، الذي يستطيع القارئ أن ينزع منه الحشو أوتوماتيكيًّا. وكنت في تلك الفترة، شديد الاستغراق في أعمالي الأدبيّة، فلم أهتمّ بقراءة النصّ الكامل لـ «الصيّادين المسحورين» المسرحيّة الهزليّة التي كانت «دولوريس» تمثّل فيها دور ابنة مزارع تعتبر نفسها ساحرة من ساحرات الغابات أو ديانا الصيّادة أو لست أدري ماذا أيضًا، والتي تُغرق فريقًا من الصيّادين التائهين في أهوال متنوّعة ومسلّية بوحي من كتاب عن التنويم وقعتْ عليه قبل أن تسقط بدورها تحت سحر شاعرٍ شارد (مونا دال). وإنّي أستطيع أن ألتقط هذه الإشارات القليلة فوق رقع النصّ المجعّدة والمطبوعة على الآلة الكاتبة طبعًا رديئًا، والتي كانت «لو» تنثرها في كلّ زاوية من البيت. وقد أوحى لي تلاؤم عنوان المسرحيّة مع اسم فندق لا يُنسى، لذّةَ كئيبة بعض الشيء. ولكنّي فكّرت بمرارة بأنّ من الخير ألّا أنبّه ساحرتي الصغيرة المرتابة حول هذه النقطة لأتجنّب اتّهامًا «بالعاطفيّة» قد أعاني منه بأقسى ممّا كنت سأعاني من استخفافها من هذه المصادفة القدريّة. وحدست بأنّ التمثيليّة لم تكن إلّا مزيجًا شبه مغفّل من أساطير تافهة. ولم يكن شيء ليمنعني طبعًا أن أتصوّر أنّ مالك الفندق قد فُتن أصلاً بإلهام رسّام المنطقة الثانية الذي عهد إليه في رسم النقوش، وكان يبحث عن عنوان جذّاب فأطلق على الفندق هذا الاسم الذي أوحى للمؤلّف بعنوان المسرحيّة، من غير أن أولي القضيّة مزيدًا من الاهتمام، بأنّ الرسوم واللافتة والاسم صادرة جميعًا عن ينبوع

مشترك أصله تقليد محلّي لا يمكن لأجنبي مثلي يجهل فولكلور «لا نوفل إنكلتار» أن يكون قد سمع باسمه. ولهذا ظللت أشعر (بصورة عارضة، وبدون مغزّى حقيقيّ) بأنّ هذه المسرحيّة الملعونة لم تكن إلّا أحد هذه الآثار المقتبسة للاستهلاك الصبياني على غرار «هنسل وغريتر» لـ «ريتشارد رو» أو «جميلة الغابة النائمة» لـ «دوروثي دو» أو «ثوب الإمبراطور» لـ «موريس فرمون» و«ماريون رامبلير». هذا اللغو الذي نجده في جميع البرامج التي هي من نوع «سكيتش للتلاميذ» أو «النمثّل المهزلة». وبعبارات أخرى لم أكن أعرف ـ ولو عرفت لما اهتممت ـ أنّ «الصيّادين المسحورين» كان في الحقيقة مؤلّفًا حديثًا جدًّا ومبتكرًا مثّلته فرقة طليعيّة في نيويورك قبل ثلاثة أشهر أو أربعة. وكانت القصّة في ذهني ـ إذا حكمنا على ذلك وفق دور ساحرتي الصغيرة ـ فاصلاً بسيطًا بأصداء «ماترلينك» و«لو نورمان» ومختلف الحالمين البريطانيين. وكان الصيّادون الستّة يلبسون قبّعات حمراء وثيابًا متشابهة، وكان أحدهم صاحب مصرف، والثاني مرضّصًا، والثالث شرطيًّا، والرابع متعهّدًا لمواكب الدفن، والخامس صاحب شركة تأمين، والسادس مجرمًا فارًّا (إنّكم تقدّرون من هنا الإمكانات!) وكانوا جميعًا يصابون بتغيّرات فكريّة كاملة حين يمرّون بمغارة دولّي، بحيث إنّ حياتهم الحقيقيّة تكفّ عن أن تبدو لهم إلّا كحلم أو كابوس كانت «ديانا» الصغيرة قد انتزعتهم منه. وهنا يتدخّل صيّاد سابع (وكان الساذج بقبّعة خضراء!) هو في الواقع شاعر شابّ كان يعتقد، لسوء حظّ «ديانا»، بأنّ التسليات المقدّمة (رقصات الحوريّات والجنّيّات والعفاريت المختلفة) وأنّ الساحرة نفسها كانت من خلقه الخاصّ، ثمرة اختراعه الشعريّ. وفي آخر المطاف، إذا لم تخني الذاكرة، تقود دولوريس ذات القدمين العاريتين الصيّاد المدّعي (مونا في بنطلون ذي مربّعات) إلى المزرعة الأبويّة، فيما وراء غابة «الألف خطر» لتثبت له أنّها لم تكن قطّ

خيال شاعر، وإنّما هي مجرّد فتاة ريفيّة ذات صلات متينة بالأرض ـ وتأتي في النهاية قبلةٌ ترمز إلى مغزى القصّة العميق، وهو أنّ «السراب» و«الواقع» يلتقيان ليخلقا «الحبّ». وقد بدا لي حكيمًا أن أعدل عن نقد هذا الأثر العظيم أمام «لو»: فقد كانت مستغرقة جدًّا في قضايا التعبير، وكانت لها طرق جذّابة جدًّا لضمّ يديها الطويلتين، ولخفق جفنيها، وهي تبتهل إليّ ألّا أجيء لحضور تمرينات التمثيل، خلافًا لبعض الآباء المضحكين، لأنّها كانت تريد أن تفاجئني بصورة نجمة باهرة ـ ولأنّني أيضًا، في الحقيقة، كنت أتدخّل دائمًا في كلّ شيء، وأقول ما لا ينبغي أن أقوله، وأحرمها من جميع وسائلها أمام الناس.

ثم جرى ذلك التمرين التمثيلي الخاصّ ـ أوه، يا لقلبي المسكين! ـ ذات يوم من أيّار قطعته لفحات طويلة من الانفعال والضحك ـ فإذا بكلّ شيء يجري بعيدًا، بعيدًا عن حياتي، وخارج حدود ذكرياتي، وحين رأيت «لو» في المساء توقف درّاجتها وتشدّ راحتها على قشرة شجرة صغيرة في أسفل حديقتنا، اضطربت وتأثّرت بالغ التأثّر لحنان بسمتها حتى حسبت أنّ جميع آلامي تضمحلّ. لقد قالت: «أتذكر اسم ذلك الفندق. إنّك تعرفه جيّدًا (وهنا تفرك طرف أنفها) تعرفه جيّدًا بأعمدته الكبيرة البيضاء، وعلى مدخله صورة الإوّزة المرمريّة؟ أنت تعرفه تمامًا (وهنا تصفّر بصخب) الفندق الذي اغتصبتني فيه! حسنًا، حسنًا، لننتقل. ألم يكن اسمه «الصيّادين المسحورين؟» أليس كذلك؟ (حالمة) هذا إذن ما كان يعنيه؟» ثم إذا هي تصفع بيدها جذع الشجرة اللامع، وهي تطلق ضحكة ثاقبة، ضحكة ربيعيّة، مُحبّة، ثم تنطلق نحو الشارع وتعود فتهبط بسرعة، وقدماها جامدتان على المدوسين، وجسمها على استرخاء، وقد وضعت يدًا حالمة على فخذيها الملتفّتين بثوبٍ قطنيّ مزهر.

١٤

كنت قد سمحت لـ «لو» أن تتلقّى دروسًا في البيانو مع مدرّسة تدعى الآنسة «لامبرور» بحجّة أنّ ذلك كان ينسجم وحبّها للمسرح والرقص. وكانت المدرّسة تعيش على بعد كيلومترين من «برادسلي» في بيت صغير ذي مصاريع زرقاء، وكانت «لو» تقصده على الدرّاجة مرّتين في الأسبوع. ومساء يوم جمعة، حوالى آخر شهر أيّار، وكان ذلك بعد أسبوع تقريبًا من ذلك التمرين التمثيلي الذي منعتني «لو» من حضوره، رنّ التلفون فجأة في مكتبي، حيث كنت أهزم ملك غوستاف ـ أقصد غاستون ـ فسألتني الآنسة «لامبرور» أَستأتي «لو» يوم الثلاثاء القادم إذ إنّها قد فوّتت درس الثلاثاء الماضي ودرس اليوم. فأجبت بأنّها ستأتي بكلّ تأكيد، ثم عدت إلى الشطرنج. ومنذ تلك اللحظة، كما يمكن للقارئ أن يتصوّر، اضطربت أحاسيسي اضطرابًا خطيرًا، ورأيت فجأة بعد ضربة أو ضربتين، وكان دور اللعب لغاستون، أنّه كان يستطيع أن يأخذ ملكتي، وقد لاحظ هو ذلك أيضًا، ولكنّه خشي أن يقع في شرك نصبه له خصمه البارع جدًّا وفكّر فترة طويلة وهو يشخر وينخر ويهتزّ حنكاه، ثم أخذ يحدجني حدجًا سريعًا وهو يقرب شبكة أصابعه الملتمعة، ثم ما يلبث أن يتقهقر بها وهو يتحرّق لخطف هذه الملكة اللذيذة، ولكنّه لا يجرؤ على المجازفة، وفجأة انقضّ عليها ـ فمن يدري أنّه لم يجد آنذاك نكهة بعض الجسارات القادمة؟ ـ ثم قضيت ساعة من الجهود المضجرة لأخرج لا غالب ولا مغلوب. وأفرغ قدحه وذهب أخيرًا بخطوته الثقيلة سعيدًا بهذه النتيجة (يا صديقي المسكين! إنّني لم أرك بعد ذلك قطّ، وبالرّغم من أنّه قد يكون ثمّة بعض الحظّ في أن ترى كتابي، فاسمح لي بأن أقول إنّي أشدّ على يدك بصداقة، وأنّ جميع بناتي

يسلّمن عليك). ووجدت دولوريس هاز جالسة أمام طاولة المطبخ تلتهم مثلّثًا كبيرًا من المعجّنات، وعيناها منخفضتان تقرآن دورها في السيناريو. ورفعت رأسها فاستقبل نظرها نظري بضياع سماوي تقريبًا وظلّت رابطة الجأش حين واجهتها باكتشافي، وقالت بلهجة مزيّفة الندم إنّها كانت تعرف جيّدًا أنّها كانت صبيّة قذرة ــ وأنّها كانت بكلّ صراحة عاجزة عن مقاومة الجذل، وأنّها قضت ساعة درس الموسيقى في حديقة مجاورة ــ أجل! يا قارئي! ــ لتراجع مع «مونا» فصل الغابة السحريّة. وقلت «حسنًا!» ثم قصدت التلفون توًّا وأجابت أمّ مونا «نعم إنّها هنا» ثم امّحت بضحكة أموميّة قصيرة، قصيرة، ضحكة حياديّة من المرح المؤدّب، ونادت بصوت مرتفع: «إنّ روي يسأل عنك!» وأسرعت مونا وهي تدمدم، وأخذت تعاتب روي، ولكن بلا حرارة، لبعض ما قاله أو فعله بالأمس، وقاطعتها فأسرعت مونا تقول بصوت مسترخٍ عذب: «نعم، يا سيّدي»، «طبعًا يا سيّدي»، «إنّني أتحمّل وحدي تبعة هذا الحادث المؤسف، يا سيّدي» (أيّة طلاقة! وأيّة ثقة بالنفس!)، «إنّني أشعر حقًّا بأنّي مذنبة» إلخ. إلخ.

وهبطت وأنا أتنحنح وأتمالك أعصابي. وكانت «لو» قد دخلت الصالون وجلست تستريح في أريكتها المفضّلة. وحين رأيتها مسترخية على ذلك النحو، تعضّ على شفتيها، مستهزئة بي بنظرة جامدة كثيفة، ورافعة إحدى ساقيها لتدرك بها طاولة صغيرة كانت تهزّها بلا انقطاع بطرف كعبها، تبيّنت فجأة، بالتماعة راعشة، كم تغيّرت منذ رأيتها للمرّة الأولى قبل عامين. أم ترى ذلك قد حدث خلال الأسبوعين الأخيرين؟ حنانها؟ كفى! لقد طال بهذا الوهم الأمد! وتأمّلتها مسمّرة على قطب أتون غضبي. وكان حجاب شبقيّ قد نُزع، فلم يدع إلّا هذا الوعي العاري. أوه! أجل، كم قد تغيّرت! إنّ لها الآن سحنة هاتيك الطالبات المبتذلات المهملات اللواتي يطلين وجوههن الوسخة بطلاء يشتريه الناس بالاشتراك، واللواتي لا يهمّهن

أن يعرفن أيّ مزيج قذر وأيّ قشرة دمليّة تحتكّ بجلدهنّ. أين تُراها كانت العذوبة السابقة، عذوبة تلك الورقة الحقيقيّة التي تنعشها الدموع، حين كنت أدحرج رأسها لعبًا فوق ركبتي؟ لقد حلّ محلّ ذلك الإشعاع الطاهر إحمرار خشن. وكان الالتهاب الذي يُسمّى هنا «زكام الأرانب» قد صبغ بلون ورديّ حارّ أطراف منخريها المحتقرين. وخفضت رأسي، موزّع الفكر، وانزلق بصري آليًّا تحت منحدر فخذها العارية. ما أشدّ ما أصبحت هاتان الفخذان ناعمتين بالعضلات! وكانت ما تزال تحدجني بعينيها المتباعدتين الملوّنتين برماد زجاج مدخن، المحتقنتين احتقانًا بالدم. وحسبتني أرى فيهما فكرة خفيّة تنزلق بأنّ «مونا» ربّما كانت بعد كلّ حساب محقّة وأنّها ـ «لو» اليتيمة كانت تستطيع بيسر أن تفضحني من غير أيّ خطر تواجهه. لكم كنت مخطئًا! وما أشدّ جنوني! إنّ كلّ شيء فيها كان يصدر عن الجوهر المغيظ نفسه الذي لا يُنفذ إليه ـ صلابة ساقيها المتعرّجة، وكعب جوربها الأبيض الوسخ وتبّانها السميك الذي كانت تلبسه بالرّغم من حرارة الغرفة، ورائحة الغلامة تلك ـ ولاسيّما انغلاق ذلك الوجه ذي الرونق الغريب والشفتين المطليّتين منذ قليل. وكان الأحمر قد خلّف آثارًا على ثناياها جعلتني أهتزّ لذكرى كريهة: إنّها لم تذكّرني بـ «مونيك» وإنّما بصورة بغي صغيرة أخرى التقيتها في بيت سرّي قبل بضعة أعوام أغراني بها شخص آخر قبل أن أستطيع الحكم بما إذا كانت حداثة سنها كافيةً للتعويض عن خطر شرٍّ معيب، وكان لها مثل هاتين الوجنتين البارزتين وأسنان أماميّة كبيرة وطرف خبيث من شريط أحمر في شعرها الأسمر القروي.

وقالت «لو»:

ـ «وإذن. هل تأكّدت ممّا كنت تبحث عنه؟».

فقلت:

ـ «أوه. نعم، أجل. هذا ممتاز. وأنا مقتنع بأنّكما أنتما الاثنين قد

اخترعتما هذه الحجّة. بل أكثر من ذلك. أنا مقتنع بأنّكِ قد رويتِ لها كلّ شيء فيما يخصّني».

ـ «ماذا؟»

وتمالكت أنفاسي وأضفت:

ـ «إنّ هذا الوضع يجب أن ينتهي فورًا يا دولوريس. إنّني مستعدّ لانتزاعكِ من برادسلي وحبسكِ حيث تعلمين، فيجب أن ينتهي هذا، إنّني مستعدّ لأخذك دون أن يشعر أحد ولا أحتاج إلى أكثر من إقفال محفظة. يجب أن ينتهي هذا، وإلّا فلن أكون مسؤولاً عن أيّ شيء».

ـ «عن أيّ شيء؟ تصوّر هذا! .»

وانتزعت الطاولة التي كانت ما تزال تهزّها بطرف قدمها، فسقط كعبها على البلاط بضجّة صاخبة.

وصاحت: «هيه: على مهلك!»

وصرختُ بدوري: «اصعدي إلى فوق. قبل كلّ شيء».

وقبضت عليها وانتزعتها من مقعدها ومنذ تلك اللحظة لم أعد أفكّر بخفض صوتي، فإذا بنا نتصايح ونتنافس في الصراخ، وإذا بها تطلق كلمات غير قابلة للنشر. وصرخت بأنّها كانت تكرهني، وأظهرت لي تكشيرات مريعة، نافخة خدّيها ثم باصقة الهواء بصخب ضاجٍّ شيطانيّ. وصاحت بأنِّي حاولت مرارًا أن أغتصبها حين كنت نزيلاً عند أمّها، وصاحت بأنّها كانت على يقين من أنِّي قتلت أمّها المسكينة، وصاحت بأنّها ستنام مع أوّل شخص يطلب منها ذلك وأنِّي لن أستطيع منعها. وأمرتها أن تصعد إلى غرفتها وأن تكشف عن جميع مخابئها لقد كان مشهدًا قاسِيًا عاصفًا وكنت أمسكها من مرفقها المعظم، وكانت تشدّه وتلويه في جميع الاتّجاهات محاولة أن تجد نقطة ضعف لتتمكّن من التخلّص في اللحظة

المناسبة، ولكنّي كنت أشدّها بصلابة بل كنت أوجعها، ممّا جعلني أتمنى أن يتلف قلبي في الجحيم، ومرّة أو مرّتين نفضت ذراعها بعنف شديد حسبت معه أنّ معصمها سيتحطّم، وكانت لا تني تتأمّلني بتينك العينين اللتين لا تُنسيان، واللتين كان فيهما غضب بارد مع دموع محرقة، وكان صوتانا يغطّيان رنين التلفون. وحين سمعت أخيرًا هذا الرنين فرّت «لو» منّي كالسهم.

إنّني أشعر بأنّي أقاسم أبطال السينما حظوة آلة التلفون وإلٰهها غير المتوقّع. وهذه المرّة كانت جارة هائجة. وكانت غرفة الصالون مفتوحة على سعتها بالمصادفة، بالرّغم من أنّ الستار كان مسدلاً برحمة من الله. وكانت خلفه ظلمات الربيع تترصدّنا لاهثة لزجة. وكنت قد ظننت دائمًا بأنّ شخصيّة الفتاة العانس ذات الحنكة السميكة والذهن الفاجر لم تكن إلّا أسطورة أدبيّة صادرة من التأثير الداعر للرواية العصريّة (ولكنّه تأثير كبير) غير أنّي مقتنع اليوم بأنّ «آنسة الشرق» أو بالأحرى الآنسة «فونتون لو بون» كانت جالسة منذ وقت طويل أمام نافذة غرفتها باذلة كلّ جهد لئلّا تخسر أيّة ذرّة في نزاعنا

فقد سمعت صوتًا يخرّ في السمّاعة: «إنّ هذا الضجيج يعوزه قدر كبير من. إنّنا نحسبنا في خان لبائع العربات. إنّ من غير المقبول أن. .».

وقدّمت لها اعتذاراتي عن الضجيج الذي يصدر عن أصدقاء ابنتي. فأنت تعرفين ما هم الأولاد ـ وهكذا قطعتُ على الرنين التالي.

وفي الأسفل، اصطفق الباب الخارجي فجأة! «لو»؟ لاذت بالفرار؟

وانحنيتُ فوق الدرج، فرأيتُ طيفًا صغيرًا ينسلّ باندفاع عبر الأعشاب والليل، نقطة فضّيّة ـ عجلة درّاجة، تنزلق وتخفق، وتختفي

«لو». ويشاء القدر أن تكون السيّارة ذلك المساء بالذات في مرآب بالمدينة، ولم يكن أمامي أيّ خيار، لقد كان عليّ أن ألحق بصغيرتي الهاربة المجنّحة ركضًا وما زلت حتى الآن، بعد انقضاء ثلاثة أعوام، لا أستطيع أن أتذكّر تلك الليلة الربيعيّة وذلك الشارع المثقل بالأوراق من غير أن يستولي عليّ انزعاج شديد. وكانت الآنسة «ليستر» تُنزّه تحت سطيحتها كلب الآنسة «فابيان». وأوشك المستر «هايد» أن يسحقه بقدميه. ثلاثة أعوام من السير وثلاثة من الركض. وأخذ رذاذ فاتر يدقّ أوراق شجر الكستناء. وفي زاوية الشارع، كان مراهق غامض يشدّ حبيبتي لوليتا عند حاجز حديدي ويقبّلها ـ كلّا، خطأ، لم تكن هي. واستعدت ركضي وأنا أحسّ بالتآكل في بواسيري التي كانت ما تزال متشنّجة.

وعلى بعد ثمانمئة متر شرقيّ الجادّة ١٤ كان شارع «تاير ستريت» ضائعًا بين حديقة خاصّة وطريق معترض يؤدّي إلى المدينة، وأمام أوّل مقهى رأيت ـ ويا لها من أنشودة من أناشيد الرحمة! ـ درّاجة لوليتا التي كانت تنتظر سيّدتها الصغيرة. ودفعت بدلاً من أن أشدّ. وشددت، ودفعت. وشددت أيضًا ودخلت. انتبه! على بعد عشر أقدام. خلف زجاج غرفة التلفون، كانت لوليتا منحنية على السمّاعة ضامّة حولها يدها، وقد خفضت عينيها حين رأتني ثم انفتلت فعلّقت السمّاعة بسرعة وخرجت بخطوة منتصرة.

وقالت بمرح:

ـ «كنت أحاول أن أتّصل بك في البيت، فلقد عزمت على أمر خطير. ولكن ادفع لي أوّلاً ثمن قدح، يا بابا».

ونظرت إلى الخادمة الصفراء الغافلة وهي تملأ القدح بالثلج ثم تسقيه بالكوكاكولا وتضيف إليه شراب الكرز ـ وكان قلبي المحتضر يتحطّم من الحبّ. ذلك المعصم الطفوليّ. وغلامتي اللذيذة. «إنّ لك غلامة لذيذة. يا

سيّد همبرت. ونحن نتأمّلها معجبين دائمًا حين نراها تمرّ». ونظر السيّد «بيم» إلى «بيبا» وهي تشرق شرابها. وفي هذه الأثناء كان المطر قد تحوّل إلى طوفان شهوانيّ.

وقالت وهي تمتطي درّاجتها إلى جانبي تاركة نعلها على البلاط الملتمع بالماء الأسود:

ـ «اسمع، هذا ما قرّرته. أريد أن أترك المدرسة. إنّني أستفظع تلك العلبة. وأستفظع أيضًا التمثيليّة. أستفظعها جدًّا. إنّني لا أريد العودة إلى هناك. سنبحث عن مدرسة أخرى. لنذهب فورًا في رحلة كبيرة أخرى. ولكن هذه المرّة سنذهب فقط إلى حيث أريد، أليس كذلك؟

ووافقت برأسي. حبيبتي لوليتا وسألت وهي تتمايل وتهتزّ بالقرب منّي:

ـ «أنا الذي أختار، أليس كذلك، مفهوم؟».

مفهوم. والآن هوب. هوب. هوب. إذا لم تريدي أن تتبلّلي. (كانت دوّامة من الغصص تئنّ في صدري).

وكشفتْ عن أسنانها، ثم انحنت على مقودي بطريقتها اللذيذة ومضت تطير، أو يا لعصفوري الصغير!

وكانت يد الآنسة «ليستر» الرهيفة تحتفظ بالباب مشقوقًا لكلبها العجوز الذي كان يبوّل في الخارج.

وكانت «لو» تنتظرني إلى جانب شجرة الدردار.

وصاحت بأعلى صوتها:

«إنّني أتلوّى. هل أنت مسرور؟ ليأخذوا غرفتهم السخيفة. هل فهمت ما أعنيه؟».

وفوق كانت مخالب ساحرة لا تُرى تصفق مصراع نافذة.

وفي غرفتنا الملتمعة بالنور الحفي نزعت حبيبتي لوليتا تبّانها ونفضت شعرها المتموّج الألوان المجوهرة وبسطت نحوي ذراعيها العاريتين ورفعت إحدى ركبتيها:

ـ «احملني إلى فوق، أرجوك. أشعر هذا المساء بأنّني رومنتيكيّة».

لعلّ علماء الفيزيولوجيا سيعجبون إذا علموا، عند هذه النقطة، بأنّ لديّ ملكة ـ يخيّل إليّ أنّها فريدة جدًّا ـ بأن أذرف سيولاً من الدموع في أثناء العاصفة الأخرى.

١٥

كان بابا همبرت رجلاً محترسًا، بالرّغم من أنّه لم يكن يملك كفاءة ميكانيكيّة، فشحّم الفرامل ونظّف خزّان الماء، وجرّب المنافس وقام بعدّة إصلاحات أخرى وتدقيقات بحيث إنّ سيّارة المرحومة السيّدة همبرت وجدت نفسها في حالة مشرّفة جدًّا عند مباشرتنا الرحلة الجديدة.

وكنّا قد أقسمنا لمدرسة «برادسلي»، هذه المدرسة العزيزة القديمة، بأن نعود إليها فور انتهاء عقدي في هيوليوود (وكان همبرت المحتال قد أومأ بأنّه عُيّن مستشارًا تكنيكيًّا لفيلم يخرجونه عن «الوجوديّة»، التي كانت لا تزال منتشرة في ذلك العهد) والحقيقة أنّ الفكرة كانت تراودني بأن أجتاز سرًّا حدود المكسيك ـ كنت أشجّع من العام الماضي ـ وهناك أقرّر مصيري مع خليلتي الصغيرة التي أصبح طولها الآن ستّين بوصة ووزنها أربعين كيلوغرامًا. وكنّا قد استخرجنا الأدلّة وخرائط الطرق، وكانت «لو» قد رسمت خطّ رحلتنا بحماسة مدهشة. تُرى، هل فقدت، بفضل تأثير المسرح، مزاجها اللامبالي الطفولي، وأصبحت تظهر نافدة الصبر باكتشاف عجائب الحياة والواقع؟ وأتى اليوم الكبير (يوم أحد) فاستشعرت في دفء

الصباح الباهت إحساسًا غريبًا باللزوجة الحلميّة حين تركنا بيت أستاذ الكيمياء وجرينا عبر المدينة باتّجاه الشارع الكبير ذي الفروع الأربعة. ولم تكن القبّعة النزقة الزرقاء التي كانت تضعها حبيبتي وثوبها القطني المخطّط بالأسود والأبيض، وجراباتها البيضاء وحذاؤها الموكسان، لم تكن كلّها متوافقة مع حبّة الزبرجد الكبيرة (المقصوصة والمعلّقة بسلسلة من الفضّة ـ هديّة يوم من المطر الربيعيّ) التي كانت تلتمع على عنقها الأسمر. ومررنا بـ «نيو أوتيل» فانفجرت ضاحكة، وقلت: «درهم للكشف عن أفكارك» فبسطت سريعًا راحتها المفتوحة ولكنّني في اللحظة نفسها اضطررت إلى التوقّف فجأة أمام نور أحمر. وإذ كنّا إزاء الموقف، أتت سيّارة أخرى فتوقّفت إلى جانبنا، ونظرت إلينا امرأة شابّة ذات قوام ممشوق (أين تُراني قد رأيتها؟) وبشرة مورّدة وشعر ذي انعكاسات برونزيّة كان يسترسل على كتفيها، فحيّت «لو» بـ «صباح خير» مرنّة ثم انفتلت نحوي باندفاع وقالت وهي تشدّد على بعض الكلمات:

ـ «من المؤسف أن تنتزع دولّي من دورها، وليتك سمعت التهاني المذهولة من المؤلّف بعد إجراء التجربة. . ».

«هذه هي الإشارة الخضراء، أيّها الأبله!» هكذا همست «لو» بين أسنانها، وفي الوقت نفسه، حرّكت الأخرى ذراعًا مبتهجة مثقلة بالأساور علامة الوداع (على شاكلة «جان دارك» التي مثّلت دورها في تلك المسرحيّة التي شاهدناها على مسرح برادسلي) ثم تجاوزتنا بصخب لتستدير بفظاظة في شارع الجامعة.

ـ «من هي على الضبط؟ ڤيرمون أم رامبلماير؟».

ـ «كلّا، إنّها «أدوزا غولد» الناظرة التي تشرف على التجارب.

ـ «إنّني لا أتحدّث عنها، بل عن تلك التي طبخت هذه المسرحيّة».

ـ «أوه، بكلّ تأكيد. إنّها امرأة طيّبة مسنّة، «كلار كيلكشوز» على ما أظنّ. وقد كان هناك جمع غفير من الناس».

ـ «وهي التي قدّمت لك التهاني؟».

ـ «نعم يا عيني! لقد وضعت قبلة على جبيني الطاهر. . ».

ثم أرسلت حبيبتي تلك الصرخة الضاحكة بطريقة جديدة تستعملها منذ وقت قصير. (طريقة اكتسبتها منذ صعودها إلى «خشبة المسرح»).

وعند ذلك، صارحتها بقولي:

ـ «إنّكِ مخلوقة غريبة يا لوليتا إنّني سعيد بالطبع لأنّكِ عدلتِ عن تلك النشاطات المسرحيّة التي لا معنى لها. ولكن يدهشني أنّكِ تخلّيتِ عنها قبل أسبوع واحد من نهايتها الطبيعيّة. أوه! احترسي يا حبيبتي لوليتا من هذه الارتكاسات! فأنا أذكر أنّكِ تركتِ «رامسدال» لتذهبي إلى المخيّم، وتركتِ المخيّم لتقومي برحلة في السيّارة. وأستطيع أن أعدّد تغييرات مفاجئة في مشاريعكِ الأخرى. احترسي. هناك أشياء يجب ألّا يتخلّى عنها المرء. ويجب أن تكوني أكثر ثباتًا. ثم إنّ عليك أن تكوني أوفر لطفًا معي، يا لوليتا، ويجب أن تحافظي على حميتكِ. أنتِ تعرفين جيّدًا أنّ دورة فخذيكِ يجب ألّا تتجاوز أربعة وأربعين سنتمرًا. أمّا أكثر من ذلك، فقد يكون الأمر مشؤومًا (وكنتُ أمزح بالطبع) ولكن ها أنتِ ذي منطلقة في رحلة طويلة رائعة. وإنّي لأذكر. . ».

١٦

إنّي لأذكر طموحي، طموح الصبيّ الأوروبيّ، بينما كنتُ يومًا أنظر إلى خارطة لأميركا الشماليّة كانت حروف «جبال أبالاش» السوداء مكتوبة

عليها بكبرياء منذ «الألباما حتى «نيو برانشفيغ»، بحيث إنّ الأراضي التي كانت هذه الحروف تعبرها ـ وادي التنيسي ومقاطعتي ڤرجينيا وبانسلڤانيا ونيويورك والڤيرمون والنيو همبشير والمين ـ كانت تبدو في مخيّلتي كأنّها سويسرا ضخمة أو كأنّها التيبيت، الجبل العظيم، سلسلة فخمة من القمم الماسيّة الصلابة واللمعان أمام لازورد السماء، مع صنوبريّات عملاقة، وذلك الجبلي المهاجر المرتدي جلد الدبّ. أمّا أن يتحوّل هذا كلّه، في الواقع، إلى حديقة صغيرة في الضاحية، وإلى شريط من الدخان ينبعث من محرق أعشاب رديئة ـ فإنّ ذلك ليثير الغيظ! فوداعًا يا جبال أبالاش! ثم اجتزنا الأوهيو و«الألفات» الثلاثة (أنديانا، إيليناوا، وأيوا) ثم النبراسكا ـ آه، هذه اللفحة الأولى من سهول الغرب! وكنّا نجري بلا عجلة، وأمامنا أكثر من أسبوع لندرك «واس» والحاجز القارّيّ الكبير (حيث كانت «لو» ترغب بهوس في مشاهدة الرقصات الطقوسيّة التي كانت تفتتح موسم «المغارة السحريّة») وثلاثة أسابيع على الأقلّ لبلوغ «ألفنستون» جوهرة إحدى الولايات الغربيّة الرائعة، حيث كانت تتحرّق لتسلّق منحدرات «ريد روك» الوعرة التي ارتقتها نجمة ناضجة وقذفت بنفسها من أعلاها بعد اختصام سُكْرٍ مع حبيبها.

ومرّة أخرى استقبلتنا فنادق مرتابة بلافتات كانت تعلن:

«إنّ أعزّ ما نطمح إليه هو أن تشعروا هنا بأنّكم في منزلكم. إنّ جميع الأثاث قد فحص وروقب بدقّة قبل مجيئكم. إنّ رقم تسجيل سيّارتكم يؤخذ في مكتب الاستقبال. لا تبذروا الماء الحارّ. إنّنا نحتفظ بحقّ طرد أيّ شخص يثبت أنّه غير مستقيم. الرجاء عدم إلقاء أيّة نفايات في المرحاض. شكرًا إنّنا نرجو زيارتكم القادمة. الإدارة».

«ملاحظة: إنّ زبائننا هم في نظرنا نخبة العالم المتمدّن».

في تلك الأمكنة المنفرة التي كانوا يتقاضون منّا فيها عشرة دولارات

لقاء غرفة صغيرة بسريرين، كان جيش من الذبابات مصطفًّا أمام الباب المجرّد من الزجاج. وتنجح كلّها في أن تدخل مختلطة، وكان رماد الزبائن الذين سبقوا ما يزال يملأ المنافض، وكانت شعرة امرأة متمدّدة على الوسادة. وكان الجار يُسمع وهو يعلّق معطفه في خزانته. وكانت الأقواس مثبّتة بزنبرك إثباتًا ماهرًا لتنبّه إلى اللّصوص. وقد لاحظت أيضًا تطوّر الأسلوب التجاريّ. فقد كان هناك ميل لصفّ المقاصير على طريقة الخانات. وقد دُهشت (وسخرت «لو»، ولكن ذلك قد لا يهمّ القارئ)، حين رأيت أنّ طابقًا ثانيًا بدأ يرتفع هنا وهناك، وأنّ صالونًا كبيرًا يولد، وأنّ السيّارات كانت تُراكم في مرأب جماعيّ. وأنّ النزل يعود فيصبح فندقًا تقليديًّا.

وهنا أرجو القارئ ألّا يسخر منّي ومن اختلاطي العقليّ. فمن اليسير عليه وعليّ أن يتنبّأ منذ الآن بمصير بلغ نهايته، ولكنّ قدرًا في المخاض لا شأن له بسذاجة قصص الملاحقات حيث يكفي بكلّ بساطة النظر باستمرار إلى العلامات والإشارات. لقد قرأت وأنا شابّ رواية بوليسيّة كانت الدروب فيها مشارًا إليها بأحرف مائلة. ولكن هذه ليست هي طرق «ماك فاتوم» حتى ولو كانت الغاية اكتشاف بعض الإشارات النجميّة.

فأنا لا أستطيع التأكيد بأنّ «لو» لم تنجح مرّة على الأقلّ، قبل مرحلة «الميدل ويست» أو في مطلعها، بأن تعطي معلومات لشخص واحد أو عدّة أشخاص غير معروفين، إن لم تتّصل بهم اتّصالاً مباشرًا وكنّا قد توقّفنا عند محطّة للخدمة عليها إشارة «فرس طائر» فانتهزت فرصة انحناء لأراقب حركات العامل الذي كلّفته برفع الغطاء، لتتسلّل آنيًا من السيّارة وتهرب خلف المبنى. ولمّا كنت بطبيعتي نزّاعًا إلى الرحمة، فقد اكتفيت بأن أهزّ جبيني الوديع بالرّغم من أنّ مثل هذه الانحرافات كان حقًّا محظورًا، لأنّ عزيزتي كانت تنبّهني باستمرار إلى أنّ أمكنة التواليت وكذلك أجهزة التلفون

كانت، لأسباب غير واضحة، النقط التي يوشك مجرى قَدَري أن يكبو عندها إنّ لكلّ منّا علاماته التي تكشف قدره ـ فهي رقمٌ لهذا، وهي منظر ترجيعي لذاك ـ علامات تبدو وكأنّ الآلهة اختارتها بدقّة لخلق أحداث محمّلة في نظرنا بمعنى خاصّ: فهنا يتعثّر جان دائمًا، وهناك يتحطّم قلب تيريز أبدًا

وبالاختصار، كانت سيّارتي مستعدّة للمسير، وكنت قد حِدْت بها بضعة أمتار لأترك لشاحنة أن تأخذ محلّي أمام مضخّة البنزين، حين تثاقل عليّ فجأة حِمْلُ غياب لوليتا المتزايد. ولم تكن تلك المرّة الأولى ولا الأخيرة التي كنتُ، ويا للأسف، أتأمّل فيها، منقبض الفكر بضيق أصمّ، بعض التوافه الراكدة التي تبدو مشدوهة لكونها في حقل نظر مسافر مأزوم: كتلك القمامة الخضراء، وتلك الإطارات للبيع، وهي ثلاثة سوداء ذات جوانب بيضاء، وبراميل الزيت تلك اللامعة، وتلك الثلّاجة الراشحة مع مشروباتها المختلفة، وتلك الزجاجات الأربع أو الخمس أو السبع الفارغة التي ترسم، وهي في خلاياها الخشبيّة، مشبكًا من الكلمات المتقاطعة غير الناجزة، وتلك الذبابة التي تتسلّق بصبر الصفحة الداخليّة لزجاج المكتب. وكان جهاز الراديو يبصق، عبر الباب المفتوح، لحنًا راقصًا كان إيقاعه من شدّة النشاز مع خفقان الأشجار الذي كانت الريح تحييه بحيث شعرت بأنّي كنت أرى أحد هذه الأفلام الصامتة يجري وحده من جهته بينما كان البيانو أو كمان المصاحبة يتبع خطًّا غنائيًّا غريبًا كلّ الغرابة على رعشة الأوراق وتموّج الأغصان. واهتزّ فيّ صدى آخر، إنّة لشارلوت في اللحظة نفسها التي طلعت فيها عليّ لوليتا من جهة لم تكن قطّ متوقّعة، وثوبها يتطاير. لقد كانت تواليت المحطّة مشغولة، فاجتازت الشارع إلى محطّة عليها إشارة «الصَدَف» حيث كانوا يعتزّون بتقديم مراحيضِ نظيفة كمراحيض البيت. ثم إنّ تلك البطاقات البريديّة الملصقة بالطوابع كانت، على ما يقولون أيضًا،

مخصّصة لانطباعاتك وتعليقاتك. ولكن لم تكن هناك بطاقات بريديّة، ولا صابون، ولا تعليقات، ولا شيء.

في ذلك اليوم، أو في اليوم التالي، بلغنا، بعد أن اجتزنا منطقة لا تنتهي من المحصولات المؤونيّة، ضيعة «كاسبيم» اللطيفة، وتوقّفنا لقضاء الليل في نزل قريب، هو نزل «الشاتينيه» ـ غرف مريحة، حديقة كبيرة محصبة، شجر تفّاح، أرجوحة قديمة، غروب للشمس رائع لم تستطع المسكينة الصغيرة المرهقة حتى النظر إليه. وكانت قد ألحّت على أن نلمّ بـ «كاسبيم»، التي كانت واقعة على بعد خمسين كيلومترًا شمالي مسقط رأسها، ولكنّي في الصباح وجدتها غير مكترثة وغير راغبة بأن ترى مرّة أخرى الرصيف الذي كانت تلعب عنده قبل خمس سنوات. ولقد أوحى لي هذا الانقلاب بكره يسهل فهمه، بالرّغم من أنّنا كنّا قد اتّفقنا على ألّا نظهر ظهورًا ملحوظًا، وأن نبقى في السيّارة وألّا نطرق قطّ أبواب الأصدقاء القدامى. على أنّ عزائي من رؤيتها تعدل عن ذلك المشروع قد أضعفه التفكير بأنّ «لوليتا»، إذا كانت قد كشفت عندي الآن ما كشفته من نفور في العام الماضي بالنسبة لمنظورات زيارة «بيسكي»، فإنّها لم تعدل عن خطّتها بملء رضاها وحين عبّرت، وأنا أتنهّد، عن هذه الملاحظة، تنهّدت بدورها واشتكت من أنّها «ليست على ما يرام». وكانت تودّ أن تبقى في السرير حتى ساعة تناول الشاي على الأقلّ مع مجموعة من المجلّات، وإذا شعرت بتحسّن بعد ذلك كان باستطاعتنا أن نستأنف سيرنا نحو الغرب من غير أن نتوقّف بعد هنا وهناك.

وينبغي أن أقول إنّها بدت ملائكيّة، بالرّغم من أنّها كانت متراخية، وكانت من شدّة الافتتان بالثمرات النضرة بحيث قرّرت أن أذهب فآتيها من السوق بوجبة منعشة. وكنّا نرى من نافذة فندقنا المزروع على قمّة رابية طريقًا تنحدر ثم تأخذ في الجري، مستقيمة كأنّها فرق رجل أنيق، بين

صفّين من شجر الكستناء، حتى تبلغ المدينة اللطيفة التي كانت تنتصب بعيدًا كأنّها قرية دمًى شديدة الوضوح في شفافيّة الصباح. وكان بالإمكان رؤية فتاة على درّاجة، كعفريت صغير يمتطي شرنقة، وكان يتبعها كلب كبير بالنسبة لها ـ وكلاهما مرسوم بوضوح يشبه الوضوح الذي رُسم به أولئك المسافرون الذين يرتقون على ظهور البغال دروبًا بيضاء في اللوحات الأوّليّة وحولهم روابٍ مزرقّة وقوافل ذات أشخاص صغيرة حمراء. وقد كانت لديّ تلك العادة الأوروبيّة بأن أترك في المرآب سيّارتي كلّما كان بوسعي أن أذهب مشيًا، ولهذا هبطت الشارع بخطوة متنزّهة، فالتقيت راكبة الدرّاجة نفسها، وهي فتاة سمينة بلا جمال، وكلبها الضخم الأسود ذا المحجرين المخمليين. وفي «كاسبيم» قصّ حلّاق عجوز شعري قصًّا رديئًا، وكان لا يني يتحدّث عن انتصارات ابنه في لعبة الكرة. ولدى كلّ حرف ساكن، كان يشدّني من رقبتي، ويتوقّف بين لحظة وأخرى ليمسح نظّارتيه على القماش، أو أنّه كان يقطع حركة مقصّه الراجف ليريني قصاصات قديمة من الجرائد، وكنتُ من قلّة الانتباه بحيث إنّه حين مدّ إصبعه نحو صورة مؤطّرة بين زجاجات العطر القديمة المرمّدة، ارتعشتُ إذ أدركتُ أنّ العتليت الشابّ ذا الشاربين قد مات قبل ثلاثين عامًا

واحتسيت فنجان قهوة غاليًا لا طعم له، واشتريت بعض الموز لصغيرتي، وقضيت عشر دقائق أخرى في أحد المخازن. وكان قد مضى على الأقلّ ساعة ونصف الساعة حين سلكت الطريق المتعرّجة التي تفضي إلى قصر «الشاتينيه».

وكانت الفتاة التي رأيتها في الذهاب محمّلة الذراعين بالغسيل، تساعد رجلاً ذا هيئة مشوّهة، وكان مخّه الكبير وملامحه الكثيفة يذكّران بـ «برتولدو» بطل الفكاهات الإيطاليّة ـ كانت تساعده في ترتيب المقاصير. وكان هناك زهاء اثنتي عشرة مقصورة منثورة بين أشجار الكستناء

المخضوضرة، وكان معظمها قد خلا من زبائن الليل فأغلقت أبوابه عند الظهيرة. وكان عجوزان يشبهان زوجًا من المومياء يدلفان على مهل خارج أحد المرائب المتّصلة، وإلى جانب جناحنا كان ثمّة فتى جميل ممشوق ذو شعر أسود وعينين زرقاوين يحمّل برّادًا على سيّارته الصغيرة، وقد وجّه لي، لسبب لا أدريه، ابتسامة منزعجة. وعلى الطريق المحصب قبالتنا، في ظلّ الأشجار الوافرة كان الكلب يحرس درّاجة سيّدته. وهناك كانت امرأة فتيّة في حالة الحمل قد نصبت أرجوحة وضعت فيها طفلاً منتشيًا كانت تهدهده على مهل بينما كان طفل ذو عامين أو ثلاثة، مأخوذًا بالغيرة، يزعج الجميع إذ يحاول أن يشدّ الأرجوحة ويدفعها بلا نظام، ونجح أخيرًا في أن يتعثّر فسقط على العشب مرتفع اليدين والرجلين في الهواء وهو يرسل صراخًا ثاقبًا، بينما كانت أمّه تستمرّ في الابتسام من غير أن تنظر إلى أيّ من ابنيها الحاضرين. وقد كان عليّ أن أسجّل جميع هذه التفاصيل بعد ذلك بدقائق، ومن أجل ذلك أتذكّرها اليوم بمثل هذه الدقّة، ثم إنّ شيئًا ما كان ما يزال متنبّهًا في أعماقي منذ تلك الليلة الرهيبة في «برادسلي» ولهذا جلت دون أن يحملني على الشرود إحساس الرضى الذي أحدثته نزهتي والنسيم الصيفي الذي كان يلفح عنقي وطقطقة الحصى الرطب، بل وحتى عبء ما كنت أحمله من مؤن وكان وضع قلبي يحرّم عليّ أن أحمله، ووصلت أخيرًا إلى الجناح الذي تركت فيه دولوريس وأنا أشعر بعذاب غراميّ ناعس.

ودهشت إذ وجدتها مرتدية ثيابها. وكانت جالسة على حافّة السرير. تنظر إليّ نظرة غريبة كأنّها لم تعرفني، أو هي تشكّ بذلك. وكان قماش القميص المعرّى الذي ترتديه فوق البنطلون يُبرز نهديها الصغيرين الأزغبين، بدلاً من أن يقنّعهما، وسرعان ما أثارت هذه الجرأة غيظي. ولم تكن فد اغتسلت ولكنّي رأيت شفتيها مصبوغتين (أو بالأحرى ملطّختين) منذ وقت قليل، وكانت أسنانها الكبيرة تلتمع التماع أصابع عاجيّة مصبوغة بالخمر.

وكانت مزروعة هناك، شابكةً ذراعيها على ركبتيها، حالمة، تقطر برونق شيطانيّ لم أعهده فيها قطّ.

وتركت حزمة المؤن تسقط ثقيلة، ووقفت بقربها، وأنا أتأمّل كعيبها العاريين وقدميها المنتعلتين حذاء مقطّعًا، ثم وجهها البليد، ثم قدميها المجرمتين مرّة أخرى. وقلت: «لقد خرجتِ». (وكان نعلاها ملطّخين بالرمل والحجارة).

فأجابت: «لقد نهضت في هذه اللحظة فقط (ثم أرادت أن توقف نظري الذي انخفض على حذائها، فأضافت بحيويّة) لقد خرجت لحظة، لأرى إذا كنت عائدًا».

ولمحتْ الموز فتطاولت بجسمها نحو الطاولة.

أكان بوسعي أن أؤكّد شكًّا دقيقًا؟ بالطبع لا، ولكن عينيها، عينيها المضطربتين، وتلك الحرارة الغريبة التي كان جسمها ينفثها! ومن غير أن أقول كلمة، رحت أرقب الطريق التي كان كلّ منعطف من منعطفاتها يُرى من النافذة. كانت تلك النافذة برج مراقبة مثاليًا، لكلّ من كان يريد أن يخدع ثقتي. وهوت «لو» على الموز تلتهمه بقابليّة متزايدة. وفجأة، فكّرت ببسمة الفتى الذي كان أمام الباب، فهرعت إلى الخارج. فإذا جميع السيّارات قد رحلت باستثناء سيّارته الشاحنة التي كانت زوجته، وهي المرأة الحبلى، تصعد إليها مع طفلها وابنها الآخر.

وصاحت «لو» من فوق الباب: «ماذا هناك؟ إلى أين أنت ذاهب؟».

فدفعتُ جسمها الصغير المرن إلى داخل الغرفة ودخلتُ على أعقابها من غير أن أقول كلمة. ونزعت قميصها المعرّى فتطايرت الأزرار حولها وانتزعت حذاءها المقطّع وطاردت بوحشيّة شبح خيانتها، ولكنّ الأبخرة التي كنت أتبع أثرها كانت أضعف من أن تتميّز من وهم رجل معتوه.

١٧

كان غاستون السمين يحبّ، على طريقته المتدلّلة، أن يقدّم الهدايا ـ هدايا كانت تبرز أنفها المدلّل خارج الحدود المألوفة، أو ما كان يظنّه كذلك ـ وقد لاحظ ذات مساء أنّ الصندوق الصغير الذي كنت أرتّب فيه قطع الشطرنج كان مكسورًا، فإذا بأحد صبيته يحمل لي في صباح اليوم التالي صندوقًا نحاسيًّا ذا غطاء مزيّن بنقش شرقي دقيق، وقفلٍ متين. وللنظرة الأولى عرفت فيه حُقّة للبضائع، من تلك الحقق التي تُشترى من الجزائر ثم لا يعرف ما يصنع بها. والواقع أنّها لم تكن تصلح ـ بسبب انبساطها ـ لقطعي الثقيلة ـ ولكنّي احتفظت بها مع ذلك لغاية أخرى.

وكنت قد عزمت ـ لكيّ أحطّم حلاقات الشرك القدريّ الذي كنت أشعر أنّي ساقط فيه ـ عليّ أن أقضي ليلة أخرى في نزل الشاتينيه، على مضض من لوليتا وحين استيقظت في الساعة الرابعة صباحًا، تحقّقت من أنّ «لو» كانت مستغرقة في النوم، فاغرة الفمّ، في تعبير من الذعر المخدّر إزاء هذه الحياة القذرة التي هيّأناها لها). ورحت بعد ذلك أتأكّد من محتوى الحقّة. فكان فيها مسدّس جيب أوتوماتيكي عيار ٣٢ من ثماني رصاصات، وطوله لا يقلّ عن تسع طول لوليتا، خشبه من خشب الجوز المطبّع، وحديده من الفولاذ المزرقّ. وكنت قد ورثته من المرحوم هارولدهاز مع مذكّرة بتاريخ ١٩٣٨ تشير بابتهاج إلى أنّه صُنع «بطريقة مناسبة جدًّا للبيت والسيّارة ومفعوله مناسب للناس». وكان ينتظر هناك، ملفوفًا بغلالة من الصوف الأبيض، مستعدًّا لتفسير الشخص أو الأشخاص بصورة مناسبة، معبّأ ومسلّحًا، منخفض الرأس احتراسًا من أيّ انفجار عَرَضي. ولا نَنْس أنّ المسدّس هو الرمز الفرويدي للعضو الأوسط من

الجدّ الكبير الأوّل.

وكنت سعيدًا بأن أملكه ـ وأكثر سعادة بأنّي قد تعلّمت استعماله قبل سنتين في الغابات التي كانت تحيط ببحيرة شارلوت (وكانت أيضا بحيرتي). وكان فارلو الذي قطعت بصحبته هذه الغابات البعيدة مطلقًا بارعًا، بل هو قد قتل طائرًا صغيرًا بمسدّسه عيار ٣٨. ولكن ما بقي منه ـ وهو بعض نتف من زغب ملتمع ـ لم يسمح إلّا بعد مشقّة كبيرة بمعرفة نوعه. وقد انضمّ إليّ شرطيّ متقاعد صلب يُدعى كرستوفسكي (كان في عام ١٩٢٠ قد قتل سجينين فارّين برصاص مسدّسه) فاصطاد عصفورًا أصفر ـ وحدث هذا، بين هلالين، إذ كان موسم الصيد قد أغلق منذ وقت طويل. وإلى جانب هذين الرياضيين الكاملين لم أكن أنا نفسي إلّا مبتدئًا وكنت أخطئ دائمًا هدفي ـ إذا استثنيت ذلك السنجاب الذي توصّلت إلى جرحه في مناسبة سابقة أخرى، بينما كنت وحيدًا «لا تتحرّك من هنا» هكذا همست باتّجاه رفيقي الصغير الخفيف والثقيل في وقت واحد وشربت قطرة من «الجن» على صحّته.

١٨

على القارئ الآن أن ينسى «شاتينيه» و«كولتس» ويدلف إلى اللحاق بنا في صحارى الغرب. لقد تميّزت الأيّام التالية بسلسلة من العواصف الصاعقة ـ إلّا إذا كان هو نفسه ذلك الذي كان يلعب متثاقلاً لعبة القفزة من طرف إلى آخر من القارّة. ولم نكن نستطيع أن نتخلّص منه كما لم نكن نستطيع أن نتخلّص من رجل الاستخبارات السرِّي «تراب»: لأنّ سرّ «السيّارة المكشوفة الحمراء» المسمّاة «أزتيك» قد ظهر لفكري في تلك الفترة بالذات، كاسفًا كسفًا نهائيًا عامل عشّاق «لو».

عجبًا! أنا الذي كنتُ شديد الغيرة من جميع الذكور الذين كنّا نلتقيهم، فوجئت بأنّي كنت مخطئًا في تعليلي لقرارات القدر. فإنّ مسلك «لو» الفاضل خلال الشتاء ربّما كان قد نجح في إنامة مخاوفي ـ وفي هذه الأثناء، كان يكون مضحكًا جدًّا، حتى بالنسبة لإنسان قمري متقلّب، أن يفكّر بأنّ «همبرتًا» ثانيًا مسلّحًا بالصواعق والسهام الجوبيتريّة يستطيع أن يتعقّب «همبرت» الأوّل وجنّيّته عبر هذه السهول الشاسعة. وقد استنتجت أنّ «السيّارة الحمراء» التي كانت تلاحقنا بلا هوادة، كيلومترًا بعد كيلومتر. على مسافة خفيّة، كان يقودها رجل استخبارات كلّفه أحد المزعجين المجهولين بأن يحدّد تمامًا كيف كان همبرت همبرت يقتل الوقت مع صغيرته القاصرة، وهكذا استولت عليّ الهلسنات، كما يحدث لي غالبًا في فترات الاضطراب الكهربائي أو البرق الراعد. وأعتقد أنّ الأمر ليس أمر هلسنات فقط.

فذات ليلة (لا أدري من الذي، أو من التي وضع لي شيئًا من الخمر) نهضت واثبًا وأنا على يقين بأنّ هناك من يدقّ على باب غرفتنا، ففتحته سريعًا ورأيت أوّلاً أنّني كنت عاريًا كدودة، وأنّ رجلاً، بعد ذلك، كان يقف تجاهي، شبح باهت ومنير تقريبًا أمام ظلمات المطر، ويخفي وجهه تحت قناع «الفكّ المربّع»، الشرطيّ الوحش الذي يُرى في القصص المتسلسلة المصوّرة. وبعد أن أطلق ضحكة مُصمّة، فرّ في الليل. وعدت إلى الغرفة لأنام ـ وحتى الآن، لا أستطيع أن أؤكّد أنّه ليس كابوسًا سبّبته بعض المخدّرات: فقد درست دراسة دقيقة نموذج الفكاهة التي كانت تميّز «تراب». وأنّ تلك الزيارة الليليّة، إذا كانت قد تمّت حقًّا، كانت عيّنةً مناسبةً جدًّا. ولكن أيّ انحطاط، وأيّة بربريّة لا حدّ لها: أن يغتني بعضهم من بيع هذه الأقنعة العفريتيّة الشيطانيّة! أتُراني قد رأيت حقًّا، صباح اليوم التالي، شخصين يعيثان في قمامة ويجرّبان قناع «الفكّ المربّع»؟ إنّني

أتساءل عن ذلك. أو لعلّ ذلك كلّه لم يكن إلّا مصادفة ـ تُعزى على الأرجح إلى الأحوال الجوِّيّة.

أيّها السيّدات والسادة: إنّني عاجز، أنا القاتل الذي ينعم بذاكرة عجيبة، ولكنّها للأسف متجزّئة وقليلة الاستقامة، إنّني عاجز عن أن أحدّد اليوم الدقيق الذي تأكّد لي فيه تأكّدًا مطلقًا أنّ «السيّارة المكشوفة الحمراء» كانت حقًّا تتعقّبنا ولكنِّي أتذكّر تمامًا، بالمقابل، ذلك اليوم الذي رأيت فيه عن كثب سائقها للمرّة الأولى، وكان ذلك بعد الظهر، وكنت أجري على مهل عبر أمطار غزيرة، من أن غير أن أغادر بنظري لحظة واحدة الشبح القرمزي الذي كان يتمايل ويرتعش من الشبق في مرآتي العاكسة، حين انتهى الطوفان إلى رذاذ ثم غاض في طرفة عين. وكنست موجة من الشمس الطريق بهسهسة مبلّلة، ولاحظت أنِّي كنت بحاجة إلى زوج جديد من النظّارات الشمسيّة، فتوقّفت أمام محطّة للخدمة. وكان ما يحدث لي مرضًا، سرطانًا لم أكن أستطيع أن أعالجه، ولهذا تصنّعت أنِّي أجهل أنّ حاشيتنا المريبة، المكشوفة، قد توقّفت هي أيضًا على بعد عشرة أمتار منّا أمام مشرب أو حانة ذات لافتة صارخة. وسهرت على إرضاء حاجات سيّارتي، ثم توجّهت إلى المكتب لأشتري هذه النظّارات وأدفع ثمن البنزين. وكنت قد وقّعت شكًّا من شكّات السفر، وكنت أستعلم عن الطريق وأنا أرمي بنظرة عارضة من نافذة جداريّة، فرأيت شيئًا مريعًا. كان هناك رجل ذو كتفين عريضتين ورأس أصلع يصغي إلى «لو» التي كانت تحدّثه بسرعة، وهي منحنية خارج السيّارة تحرّك يدها المفتوحة من فوق إلى تحت (وهذا ما لم تكن تفعله إلّا في الظروف الجادّة المستعجلة). على أنّ ما أدهشني بأعنف من ذلك وأقسى، هو هذا النوع من الصميميّة الملتفّة التي يحسب الناظر معها أنّها كانت تعرفه منذ أسابيع وأسابيع. وقد رأيته يهزّ رأسه وهو يحكّ خدّه، ثم يستدير ويرجع إلى سيّارته ـ فإذا هو رجل مربوع

سمين، في مثل عمري تقريبًا، وكان ينزع في الشبه إلى «غوستاف تراب» وهو قريبٌ سويسري من أقرباء أبي: الوجه الملفوح نفسه، وإن كان أسمن من وجهي، مع شارب صغير أسود وفمّ كزرّ الورد ـ فمّ إنسان منحلّ. وحين استعدت مكاني في السيّارة، كانت لوليتا تجهد في قراءة خارطة للطريق.

ـ «ما الذي كان يريده منكِ هذا الرجل، يا لو؟».

ـ «أيّ رجل؟ آه، تقصد ذلك. آه نعم. أوه، لم أعد أذكر. سألني عمّا إذا كانت معي خارطة. فالظاهر أنّه قد أضاع طريقه».

وحدتُ إلى الطريق، وانطلقت مسرعًا

وقلت: «اسمعي يا «لو». لستُ أدري إن كنت قد كذبتِ عليّ، ولست أدري إن كنت قد فقدتِ الرشد، ولا يهمّني ذلك الآن. ولكن هذا الشخص تعقّبنا طوال النهار، وبالأمس رأيت سيّارته أمام المنزل، وأعتقد أنّه من الاستخبارات. وأنتِ تعلمين كلّ العلم ما الذي سيحدث، وأنّك ستُحبسين إذا فهم رجال الشرطة وضعنا حسنًا، والآن، أريد أن تكرّري لي كلمة كلمة ما الذي رواه لكِ وما الذي قلته له».

وضحكتْ.

وقالت بصوت حادّ أكثر قليلاً ممّا ينبغي، ولكنّه لا يخلو من منطق:

ـ «إذا كان حقًّا من الشرطة، فإنّ أسوأ الغباوة هي أن ندعه يرى أنّنا خائفون. فلا تهتمّ به يا بابا

ـ «وهل سألك إلى أين نحن ذاهبون؟».

ـ «إنّه يعرف ذلك جيّدًا». (ساخرة).

فقلت ضجرًا:

ـ «على أيّ حال، تمكّنت من رؤيته عن كثب. إنّه ليس جميلاً وهو

يشبه أحد أقربائي، قريبًا يدعى «تراب».

ـ «قد يكون هو «تراب» نفسه. ولو كنت مكانك. أوه، انظر! إنّ جميع التسعات تتحوّل إلى أصفار. وحين كنت صغيرة (ببشاشة غير منتظرة) كنت أتصوّر أنّها تعود إلى التسعة إذا رجعت بها أمّي إلى الوراء».

وكانت هي المرّة الأولى، على ما يُخيّل إليّ، تتكلّم فيها بعفويّة عن طفولتها لما قبل العهد الهمبرتي: أكان هذا تصنّعًا تعلّمته على المسرح؟ وتابعنا سيرنا صامتين، بلا موكب هذه المرّة.

ولكن في اليوم التالي، رأيته مرّة أخرى وراءنا، ذلك الشيطان اللامع الأحمر، كالمريض الذي لا يُشفى حين يشعر بعودة الألم بعد أن يزول المخدّر والأمل. وفي ذلك اليوم، كانت السيّارات قليلة على الشارع، ولم يكن أحدٌ ليتجاوز أحدًا، ولم يحاول أحد أن ينزلق بين زرقة سيّارتنا الصغيرة وحمرة شبحه الكثيف ـ كما لو أنّ قَدَرًا قد أُلقي في هذا الفراغ، فحوّله إلى منطقة مسحورة، طريفة وشيطانيّة في وقت واحد، منطقة كان لاطّرادها الذي لا يتغيّر ميزة شفّافة تكاد تكون أثرًا فنّيًا. وكان صاحبنا بكتفيه المحشوّتين وشاربه الكثيف يشبه دميةً كبيرة في واجهة، وكان لديّ شعور بأنّ سيّارته المكشوفة لم تكن تتحرّك إلّا بفضل خيط الحرير غير المرئي، الصامت، الذي كان يشدّها إلى سيّارتنا المضعضعة. ولم أحاول أن أتخلّص منها لإدراكي أنّ محرّكها الضخم اللامع كان يملك من القوّة أضعاف ما تملك سيّارتنا. ورقينا روابي لا تنتهي ثم هبطناها، واحترمنا حدود السرعة، وتفادينا الأولاد عند المحطّات، وعكسنا نقوش الانعطافات على تروس اللافتات الصفراء، وظلّت المسافة المسحورة، أيًّا ما كان سيرنا، تجري في أثرنا محسوبة، دقيقة، كأنّها السراب ـ المعادل القرويّ للبساط السحري. وفي هذه الأثناء، كنت أعي التلألؤ الذي إلى يميني: عين «لو» المشعّة، ووجنتها الملتهبة.

وكانت يد القدر التي حطّمت شؤم السحر، هي ذلك الشرطي المكلّف بالسير، في قلب كابوس الطرق المتشابكة داخل مدينة صناعيّة، في الساعة الرابعة والنصف مساء. فقد أعطاني إشارة المرور، بالحركة نفسها قطعني عن ظلّي. وجرى بيننا سرب من السيّارات، فأسرعتُ وحدتُ ببراعة إلى زقاق ضيّق. وحطّ دوريّ، وفي منقاره قطعة خبز كبيرة، ولكنّ زميلاً له لحق به وسلبه غنيمته. وحين عدت إلى الشارع الكبير، بعد سلسلة من التوقّفات النافدة الصبر، والانعطافات المقصودة، رأينا أنّ ظلّنا قد اختفى.

وشخرت «لو» وقالت: «إذا كان هذا الشخص هو حقًّا من تظنّ فإنّك معتوه بتجنّبك إيّاه.

فأجبتها: «إنّ لي الآن نظريّة أخرى».

وقالت وهي تتلوّى تحت سوط سخرياتها:

ـ «إذا كنت تودّ ـ يا همف ـ أن تطبّقها، يا أبي المحبوب ـ همف ـ كان عليك ألّا تضيّعه». (وأضافت فجأة بلهجتها المألوفة): «بواه! كم أنت مسكين!».

وقضينا ليلة سوداء في نزل قذر تحت صوت المطر المرن. وتحت تدحرج رعدٍ لا ينتهي ذي صخب تاريخيّ.

ـ «إنّني لست سيّدة ولا أحبّ الرعب قطّ». هذا ما قالته «لو»، وكان جزعها من التقلّبات السماويّة بمثابة عون مؤثّر لي.

وتناولنا فطورنا في ناحية «سوبا» وعدد سكّانها ١٠٠١.

ولاحظت: «إذا صدّقنا هذا الرقم الأخير فإنّ «وجه القمر» قد سبق إلى هنا

فقالت: «إنّ ذهنك سيعينني من الضحك، يا أبي المعبود».

ودلفنا إلى منطقة الأراضي الأرطماسيّة، وعرفت يومًا أو يومين من

الجذل اللذيذ (ولقد تصرّفت تصرّف الأبله، وكان كلّ شيء على ما يرام، وكان سبب ضيقي الأبخرة المعويّة المتمرّدة) وما لبثت السهول أن أفسحت المكان للجبال الحقيقيّة، ودخلنا في اليوم نفسه إلى مدينة «واس الطيّبة».

أوه، يا للكارثة! كان هناك التباس، فقد أخطأت «لو» في قراءة التاريخ الذي حدّده الدليل لحفلات «المغارة السحريّة» التي كانت قد انقضت. وقد واجهت الموقف بشجاعة، وأسارع إلى الاعتراف بذلك ـ واكتشفنا بأنّ «واس»، ميناء الفنون الجميلة، كانت في ذروة موسمها المسرحيّ، فكان من الطبيعي أن نقصد المسرح في أمسية عذبة من منتصف حزيران. وسأكون عاجزًا بكلّ صراحة عن أن أروي لكم حبكة المسرحيّة التي رأيناها. وهي على أيّ حال تهريج رخيص مع تأثيرات ضوئيّة عديمة الحسّ ونجمة تثير الشفقة. والشيء الوحيد الذي استطاع أن يروق لي هو إكليل من سبع صغيرات جميلات، جامدات إلى حدّ ما، أنيقات، مرتديات الموسلين القزحيّ، أذرعة وسيقان عارية. سبع جنّيّات زاهدات غير بالغات، منتخبات من المدينة نفسها (على ما يبدو من الحماس المحموم الذي كان يهزّ الحضور). وكان المفترض فيهن أن يقدّمن قوس قزح يبقى على المسرح طوال الفصل الأخير قبل أن يمّحي مع إرهافات من ورق الأغصان، خلف سلسلة متلاحقة من غلالات مختلفة. وأذكر أنّي فكّرت بأنّ المؤلّفين المشتركين، «كلار كيلتي» و«ڤيڤيان درك بلوم» قد سرقا هذه الفكرة للأولاد ـ الألوان من مقطع «لجيمس جويس»، وأنّ لونين من هذه الألوان كانا لا يكادان يستقرّان ـ البرتقاليّة التي لم تكن تفتأ تتلوّى، والزمرّدة التي حين اعتاد نظرها ظلام القاعة التي كنّا منهوكين فيها جميعًا، ابتسمت لأمّها أو لحاميها وما إن انتهت هذه التفاهة وارتفع التصفيق حولي ولم تكن أعصابي تحتمل هذه القعقعة اليدويّة ـ حتى عمدت إلى دفع «لو» وسحبها نحو الباب بنفاد صبر، لحرصي على أن نعود إلى غرفتنا

الصغيرة الزرقاء في الليل المكوكب المدهوش، لأنّي أعتقد دائمًا أنّ الطبيعة لا بدّ أن تكون مدهوشة بالأشياء التي تراها. على أنّ «لو» كانت تجرّ نفسها على مهل ورائي، مستغرقةً في نشوة مورّدة وعيناها مسبلتان من الغبطة، مضحّية بجميع حواسّها الأخرى لصالح حاسّة البصر بحيث إنّ يديها الساكنتين اللتين كانتا ما تزالان ترسمان تصفيقًا آليًّا بحتًا، لا تكاد إحداهما تلامس الأخرى. وكنت قد سجّلت هذا النوع من الآليّة عند الأولاد. ولكن هذه كانت «ابنتي»! غلامة لا شبيه لها، كانت ترسل أنظارها المشعّة الحسيرة نحو المرح المصغر الذي كنت أميّز فيه بغموض المؤلّفين ـ رجل في السموكن وامرأة طويلة جدًّا ذات كتفين عاريتين وشعر أسود.

وقالت «لوليتا» بصوت رفيع وهي تنزلق إلى السيّارة:

ـ «لقد آلمتني مرّة أخرى في معصمي، أيّها الوحش».

ـ «إنّني آسف جدًّا يا حبيبتي الصغيرة البنفسجيّة». (أجبتها وأنا أحاول عبثًا أن ألامس مرفقها، ثم استطردتُ، لأغيّر الموضوع، لأعكّر مجرى القدر. أوه يا إلٰهي!): «إنّ ڤيڤيان هذه هي عشيقة ـ امرأة، وأنا على يقين من أنّنا رأيناها أمس في مطعم «سودا».

فقالت «لو»: «إنّ عندك أحيانًا غباوة مثيرة. ڤيڤيان أوّلاً هو اسم الرجل، والمرأة هي التي تسمّى كلار، ثم إنّها في الأربعين من عمرها، وهي متزوّجة ولها دمّ أسود.

فقلت لأثير أعصابها: «كيف؟ كنت أحسب أنّ كيلتي كان مغازلك القديم، حين كنتِ لا تزالين تحبّينني في عهد رامسدال الكريم!».

فأجابت منقبضة الملامح:

ـ «ماذا؟ طبيب الأسنان السمين؟ إنّك تخلط ولا شكّ بيني وبين فاجرة أخرى».

وفكّرت في نفسي. أوه كم تدوس هؤلاء الفاجرات على كلّ شيء وينسين كلّ شيء، كلّ شيء، بينما نحن العشّاق المساكين الشيوخ، نحبّ كلّ ذرة من ذرات جنّيّتهنّ.

١٩

أوصيت بريد «برادسلي»، بمعرفة «لو» وموافقتها، بأن يحوّل رسائلنا إلى الشبّاك المركزيّ في «واس» أوّلاً ثم في «الفنستون». وصباح اليوم التالي ذهبنا إلى أوّل هذين الموعدين وأخذنا دورنا في صفّ انتظار قصير، ولكنّه بدا لي غير منقضٍ عل الإطلاق. وكانت «لو» تتأمّل بهدوء إعلانات متاحف «ترويان». كما كانت تقرأ ما أعلن عن «بريان بريانسكي» الجميل، المدعو «أنطوني بريان» و«توني براون» وهو ذو عينين جوزيّتين وبشرة بيضاء، ملاحق بتهمة الخطف. وإلى جانب ذلك، كان هناك جنتلمان عجوز ذو عينين حزينتين، وكان يرى نفسه مرهقًا لا بتهمة سلب بريديّ فقط، بل بتهمة تشويه القناطر النباتيّة. وكانت بسمة «سوليفان» تعلوها توصية: «احذروا! إنّه مسّاح على الأرجح، ويجب أن يُقترب منه باحتراس شديد». إذا فكّرتم في إخراج فيلم من قصّتي، فاحرصوا على أن تجعلوا أحد هذه الوجوه يذوب في وجهي، بينما أنا أنظر. وكان هناك أيضًا صورة غير مؤكّدة لبنت ضائعة عمرها أربعة عشر عامًا، وكانت تلبس ساعة هربها حذاء أبيض من الموكاسين (إنّ هذا ينسجم مع قافيتنا!) وافوا الضابط «بولر» بجميع معلوماتكم».

لا نتحدّث عن بريدي، أمّا بريد دولّي، فكان يحتوي على التقرير المدرسيّ للأشهر الثلاثة الأخيرة، وعلى المغلّف الغريب جدًّا. وقد فضضت هذا الأخير وتفحّصت محتواه. وكان بدهيًّا أن تتوقّع «لو» هذه

الرقابة، إذ هي لم تسجّل أيّ احتجاج، بل توجّهت بهدوء نحو كوخ الصحف بالقرب من باب الخروج.

«عزيزتي دولّي ـ لو ـ لقد أحرزت تلك المسرحيّة نجاحًا عظيمًا! ولقد لزم الكلاب الثلاثة الهدوء (وأنا أتّهم «كاتلر» بتخديرها خفيةً) وكانت «ليندا» تحفظ دورك عن ظهر قلب. وكانت جيّدة جدًّا، وقد مثّلت بحيويّة وتسلّط، ولكنّها لم تكن تملك تلك «المرونة» وذلك «الهيجان الهادئ» وذلك «السحر» الذي كان المؤلّف وكنت معه نحبّه كثيرًا في بطلته «ديانا». والواقع أنّ المؤلّف لم يكن موجودًا ليصفّق لنا كما صفّق في المرّة الماضية. وقد حدثت لنا عاصفة مريعة من تصفيقاتنا المتواضعة في الكواليس. وما أسرع ما يمضي الوقت يا إلٰهي! أمّا وقد انتهى الآن كلّ شيء، المدرسة، والمسرحيّة، والورطة مع «روي» وحَبَل أمّي (لم يعش الطفل مع الأسف) فإنّ ذلك يبدو بعيدًا بعدًا فظيعًا، ومع ذلك فإنّي أشعر بأنّي ما زلت أحمل آثاره في وجهي.

«سنقصد نيويورك بعد غد، وأنّي أخشى ألّا أستطيع الإفلات من سخرة مرافقة أهلي إلى أوروبا. ولكن عندي ما هو أسوأ، يا دولّي ـ بو! فمن الممكن ألّا أكون بعد في برادسلي حين تعودين ـ هذا إذا عدت ـ. فبسبب أمرٍ أوّل وآمر آخر، الأوّل من تعرفين، والآخر ليس هو من تحسبين، يريد أبي أن أذهب إلى المدرسة في باريس لمدّة عام، في أثناء إقامته بأوروبا تحت رعاية مؤسّسة «فولبرايت».

«كان منتظرًا أن يتعثّر شاعرك المسكين في المنظر الثالث حين يبلغ ذلك النصّ باللغة الفرنسيّة. أتذكرين؟ «لا تنسي أن تقولي لعشيقكِ، يا شيمين، كم أنّ البحيرة جميلة، لأنّه يجب أن يأخذك إليها». تعيش البحيرة! وأن «يأخذك إليها!» هنا تعثّر صاحبنا! هيّا! كوني عاقلة لوليشيت! ذكرياتي الحلوة لأبيك الشيخ ولك، وكلّ الحنان لشاعرك. المخلصة ـ مونا.

«حاشية: إنّ بريدي مراقب بشدّة، لسبب أو لآخر. والأفضل أن تنتظري أن أكتب لكِ إلى باريس». (وهذا ما لم تفعله، على ما أذكر. وقد كان في هذه الرسالة لهجة خبيثة أراني اليوم أتعب من أن أحلّلها ولقد عثرت عليها بين صفحات دليل، وأنا أوردها هنا على سبيل الوثيقة. وقد قرأتها مرّتين متواليتين).

ورفعت نظري عن قصيدة الشاعر وتهيّأت لأن.   ولكن لولا لم تكن هناك بعد. فبينما كنت مستغرقًا في أحقاد «مونا»، هزّت «لو» كتفيها واختفت. وسألت الرجل الذي كان يكنّس الأرض بالقرب من المدخل: «هل رأيت بالمصادفة. .» طبعًا، لقد رآها هذا الشيخ الفاسد. وكان يخيّل إليه أنّ الصغيرة رأت واحدًا من معارفها فأسرعت في الخروج. وأسرعت في الخروج بدوري. وتوقّفت، ولكنّها لم تكن قد توقّفت، هي، واستعدت ركضي، وتوقّفت من جديد، وانتهى كلّ شيء. لقد هربت إلى الأبد.

وفي أثناء السنوات التالية، تساءلت مرارًا لماذا لم تهرب إلى الأبد، في ذلك اليوم. هل منعتها من ذلك القوّة الممسكة الساحرة الكامنة في أثوابها الصيفيّة الجديدة المسجونة في السيّارة؟ أم كان عدم نضج بعض التفاصيل في مخطّط واسع؟ أم كان بكلّ بساطة أنّها، بعد كلّ حساب، كانت تريد أن تسحب منّي أقصى ما تستطيع سحبه وأن تصل معي إلى «الفنستون» التي كانت على أيّ حال نهاية الخطّ السرّي؟ كلّ ما أعرفه أنّي اقتنعت بأنّها قد تركتني إلى الأبد. وكانت الجبال البنفسجيّة الهاربة التي ترسم نصف دائرة حول المدينة تبدو وكأنّها تزخر بـ «لوليتات» صغيرات لاهثات هاربات كنّ يذبن وهنّ أكثر ضحكًا ولهاثًا في ضباب القمم. وفي البعيد، عند أفق شارع معترض، كان حرف «W» كبير من الأحجار البيضاء يتهجّأ بسخرية، فوق ربوة وعرة، الحرف الأوّل من هذه المدينة المشؤومة.

وكان البريد الجميل الجديد الذي تركته قبل ذلك بلحظات قائمًا بين

دار للسينما ما تزال نائمة وركام من الصفصاف. الزمن: الساعة التاسعة صباحًا. المكان: «مين ستريت». واجتزت رصيفًا مظلّلاً بالأزرق فيما أنا أراقب الثاني الذي كان نور الصباح قد غيّره تغييرًا سحريًّا، صباح صيفيّ نديّ عذب، يتخلّله هنا وهناك التماعات دوديّة، ويبدو وكأنّه يترنّح قبل أن يسقط ما كانت الظهيرة تنذر به من حرارة غير محتملة. واجتزت الطريق، وشرعت أبحث وأفتّش عند سلسلة طويلة من الأبواب: منتجات صيدليّة، وكالة عقاريّة، قطع للسيّارات، مقهى، بضاعة رياضيّة، قطع غيار كهربائيّة، أثاث، وسترن أونيون صباغة، سمانة. «يا سيّدي الشرطيّ، لقد فرّت ابنتي، يا سيّدي الشرطيّ». يساعدها رجل من الأبحاث، يحبّها رجل من رجال التهديد والوعيد، مستغلًّا ضعفي وقلقي. وراقبت جميع المخازن، وناقشت نفسي إمكانيّة سؤال كلّ مارّ من السابلة النادرين. ولكنّي عدلت. وجلست لحظة في السيّارة الواقفة. وراقبت حديقة عامّة إلى يمين الشارع. وعدت إلى «قطع السيّارات». وكنت أقنع نفسي، بغصّة من الغضب الساخر، بأنّي كنت مضحكًا إذ اتّهمتها، وأنّها ستعود بعد دقيقة.

وعادت.

وانفتلتُ ودفعتُ بقوّة اليد التي وضعتها على كمّي وهي تبتسم بخجل وسذاجة.

وقلت: «عودي إلى السيّارة».

فأطاعت، وظللت أذرع الطريق جيئة وذهابًا، تتملّكني أفكار لا اسم لها، محاولاً أن أضع خطّة قادرة على إحباط نفاقها.

وفجأة، غادرت السيّارة وانتصبت أمامي. وتدريجيًّا، أخذت أعصابي السمعيّة تلتقط من جديد صوت «لو»، وسمعتها توضح لي أنّها التقت صديقة قديمة.

ـ «من؟ من هي؟».

ـ «فتاة من برادسلي».

ـ «حسنًا. إنِّي أعرف أسماء جميع رفيقات صفّكِ. هل هي أليس أدامس؟»

ـ «هذه الفتاة ليست من صفي».

ـ «حسنًا. إنّ معي اللّائحة الكاملة بأسماء جميع الطالبات. فما اسمها، من فضلكِ؟».

ـ «هي لا تذهب إلى مدرستي. كلّ ما هنالك أنّها تسكن برادسلي.

ـ «حسنًا. إنّ معي أيضًا أسماء سكّان برادسلي في التلفون. وسوف نستعرض جميع أفراد أسرتَيْ سميث وبراون».

ـ «لا أعرف إلّا اسمها الأوّل».

ـ «ماري أم جان؟»

ـ «لا هذه ولا تلك. إنّها دولِّي، مثلي أنا».

فقلت: «ها نحن إذن في مأزق. حسنًا. لنحاول شيئًا آخر. لقد تغيّبت ثماني وعشرين دقيقة. فماذا فعلت مع دولِّي الثانية؟»

ـ «ذهبنا إلى مقهى صغير».

«ـ وماذا تناولتما؟ .».

ـ «أوه. زجاجة كوكا كولا أو اثنتين».

ـ «حذار يا دولِّي. إنِّي أستطيع أن أحقّق في ذلك أيضًا، وأنت تعرفين هذا».

ـ «هي على أيّ حال. أمّا أنا فلم أشرب إلّا قدح ماء».

ـ «حسنًا هل هو ذلك المقهى، هناك؟».

ـ «نعم».

ـ حسنًا. تعالي معي، سنتحدّث مع الخادم».

ـ «لحظة. يبدو لي الآن أنّه ربّما كان مقهى آخر، أبعد قليلاً في زاوية الشارع».

ـ «تعالي على أيّ حال. أدخلي هنا، من فضلك. حسنًا لنرَ قليلاً، (وفتحت دفتر التلفون المعلّق على جدار الغرفة) لنرَ: أقمشة من جميع الأشكال. لا، بعد. آه، ها نحن أولاء: مقاهٍ، صيدليّات. هذا كلّ ما في «واس» من مقاهٍ. في الحيّ التجاري على الأقلّ. حسنًا: سنحقّق فيها واحدًا واحدًا».

فقالت: «قذر!».

ـ «إنّ الوقاحة لن تفضي بك إلى شيء يا لو».

فقالت: «حسنًا. ولكنّي لا أحبّ أن توضع السكّين تحت عنقي. أوافق. نحن لم نشرب عصير ليمون. وإنّما ثرثرنا ونحن نتفرّج على الأثواب في الواجهات».

ـ «أيّ واجهات؟ قد تكون هذه الواجهة؟».

ـ «أوه! لنذهب فنراها عن كثب يا لو».

وكان ذلك يستحقّ إلقاء نظرة! كان هناك شابّ قصير يُمرّر المكنسة الكهربائيّة على حصيرة صغيرة كان ينتصب في وسطها شبحان غريبان يبدوان وكأنّهما قد اكتسحهما انفجار مريع. وكانت إحداهما عارية، بلا شعر ولا ذراعين. وكان جسمها القصير نسبيًّا ووقفتها المصطنعة يوحيان بأنّها قد مثّلت (وهي مرتدية الثياب) وستمثّل من جديد بعد أن ترتدي الثياب) غلامة في مثل جنس لوليتا وقامتها. على أنّها، في ذلك الوضع، كانت بلا جنس. وإلى جانبها كانت تقف عروس عليها غلالة، أطول منها

بكثير، وفي حالة ممتازة. باستثناء ذراع مقطوعة. وعلى الأرض، عند أقدام الآنستين، اللتين كان العامل يزحف أمامهما بجدّ وهو يدفع مكنسته، كانت ثلاث أذرع رقيقة مستقرّة وشعرٌ أشقر. وكان ذراعان من الأذرعة متعانقتين بحركة تشنّجيّة من الاستفظاع والابتهال.

وقلت على مهل: «أنظري يا لو. انظري جيّدًا. أليس هذا رمزًا رائعًا لشيء ما؟ ومهما يكن من أمر (وعدت بها إلى السيّارة) فقد اتّخذت بعض الاحتياطات. هنا (وفتحت على مهل صندوق القفّازين سجّلت على هذا الدفتر الصغير رقم سيّارة صاحبنا»

وما كان أغباني ـ فأنا لم أحفظ ذلك الرقم! وإنّ ذاكرتي لم تحفظ منه إلّا الحرف الأوّل والرقم الأخير ـ كما لو أنّ ذلك الأمفيتياتر من الألغاز كان مقنطرًا خلف لوحة من الزجاج المدخّن كثيفة جدًّا بحيث لا تسمح بحلّ معناها، ولكنّها مع ذلك من الشفافيّة بحيث تسمح برؤية أطرافها القصوى ـ ب كبيرة ورقم ٦ إنّ عليّ أن أوضح جميع هذه التفاصيل (التي لا تستطيع بحدّ ذاتها أن تعني إلّا عالمًا نفسيًّا ممتهنًا) خشية أن يخطئ فهم طبيعة الصدمة التي شعرت بها وأنا ألاحظ أنّ حرف «ب» قد تحوّل إلى «ق» وأنّ رقم ٦ قد امّحى تمامًا أمّا الباقي بخطوطه المخربشة التي تكشف ذهاب وإيّاب ممحاة صغير مستديرة بقلم رصاص وبأرقامه المتنكّرة بكتابة خطّ صبياني، فقد كان يسمح للفكر بنفس ما يسمح به تشابك خطوط شائكة من خطوط التفسير. إنّني لم أعد أعرف إلّا اسم الولاية المتاخمة للولاية التي كانت تقوم فيها مدينة برادسلي.

ولم أقل كلمة. وإنّما أرجعت الدفتر إلى مكانه وأغلقت صندوق القفّازات وأقلعت بالسيّارة وخرجت من المدينة. وكانت «لو» قد تناولت ركامًا من الجرائد المصوّرة من المقعد الخلفيّ، واستغرقت في المغامرات الأخيرة لأحد المهرّجين أو المشرّدين المشهورين، وكانت تبدو ملتفّة دقيقة

في قميصها الأبيض المرتعش، بينما كان مرفقها الأسمر خارج النافذة. وعلى بعد خمسة كيلومترات أو ستّة من «واس». أوقف السيّارة في ظلّ أرض للنزهات (في وسطها طاولة فارغة كان الصباح قد خلّف عليها فتاتًا من النور)، ورفعت لو عينيها بنصف ابتسامة من الدهشة، ومن غير أن أقول كلمة أرسلت بظاهر يدي صفعة قويّة أدركت عظمة خدّها الصلبة المحرقة.

وبعد ذلك ـ بعد ذلك الندم، وعذوبة دموع التكفير المُحرقة، وعاطفتي الراكعة، واليأس من المصالحة الشهوانيّة. لقد غطّيت بالقبلات في ليل فندق ميرانا (ميرانا!) باطن قدميها الزعفرانيّتين بأصابعهما الطويلة، إنّني أنتحر. ولكن ما الفائدة؟ لقد كنّا كلانا محكومين وسأعرف عمّا قليل دورة أخرى من التعذيب.

في شارع «واس»، في الضاحية. أوه أعلم جيّدًا أنّ ذلك لم يكن وهمًا في شارع من واس، كنت قد رأيت السيّارة الحمراء المكشوفة، أو أختها التوأم. وكانت تحمل، بدلاً من «تراب» أربعة أشخاص أو خمسة من الجنسين ـ ولكنّي لم أقل كلمة. وبعد «واس»، انقلب الموقف رأسًا على عقب. فطوال يوم أو يومين تذوّقت ـ في غنائيّة صامتة ـ اليقين بأنّنا لم نقع في الفخ، وفجأة، وعيت بقسوة أنّ «تراب» قد غيّر خطّته وأنّه ما زال يتعقّبنا ـ ولكن في سيّارات أجرة.

عفريت حقيقيّ من عفاريت الطريق! لقد كان ينتقل من سيّارة إلى أخرى بسهولة مدهشة. وكانت هذه الطريقة تفرض وجود مرائب متخصّصة. ولكنّي لم أستطع قطّ أن أكتشف وسائل الاتّصال التي كان يستعملها. كان يفضّل في البدء جنس الشفروليه بادئًا بسيّارة مكشوفة صفراء اللون ما لبث أن استبدل بها واحدة زرقاء قبل أن ينزلق في أخرى رماديّة وفي رابعة شهباء. وبعد ذلك التفت إلى الأجناس الأخرى وتنقّل بين جميع الألوان حتى إنّي لم أعد أميّز بين فارقين بسيطين من لون الزرقة التي كانت تميّز

سيّارتين من سيّاراته. على أنّ الرمادي ظلّ لونه المفضّل، وقد جهدت عبثًا، خلال كوابيس مريعة، بتصنيف أشباح الكريزلر وشفروليه ودودج وكلّها كانت بلون رمادي.

هكذا أجبرت على أن أظلّ أبدًا تحت مرصاد شاربه الصغير وقميصه المفتوح أو مخّه الأصلع وكتفيه الثقيلتين، فاضطررت إلى القيام بدراسة معمّقة لجميع السيّارات التي كانت تظهر في طريقي، أمامي أو ورائي أو إلى جانبي في الاتّجاه نفسه أو في الاتّجاه المعاكس ـ جميع السيّارات الجارية تحت الشمس: سيّارة المتعطّل المطمئن وفيها علبة المناديل الورقيّة القابعة عند النافذة الخلفيّة، وسيّارة الشحن الكبيرة، وسيّارة الأعزب التي تركبها فتاة عابرة محشورة في وسط المقعد لتكون أقرب إلى السائق الشابّ، والسيّارة التي تحمل على سقفها قاربًا أحمر يشقّ حيزومه الهواء والسيّارة الرماديّة التي كانت تتمهّل خلفنا، السيّارة الرماديّة التي كانت تدركنا.

وعلى شارع جبليّ من شوارع الكولورادو، في مكان ما بين «سنو» و«شامبيون»، إذ كنّا نهبط شاطئًا لا يكاد يُرى، رأيت مرّة أخرى سيّارة شرطيّ الاستخبارات تراب. وفجأة كما لو أنّ السيّارة التي كنت أقودها كانت تصدِّي بقفزات قلبي المسكين ـ أخذنا نترنّح على الشاطئ ذات اليمين وذات اليسار. ثم سمعت ضجّة صرير متعب تنبعث من الطريق.

وقالت «لو» السفيهة: «لقد انفجرتَ يا سيّدي الصغير».

وتوقّفت عند حافّة هاوية تقريبًا وانقلبت «لو» على المسند مشبكة الذراعين معلّقة القدم بلوحة الطرف. ونزلت من السيّارة فتأمّلت العجلة الخلفيّة اليمنى. كان أسفل العجلة منبسطًا بطريقة نذلة كريهة. وكان «تراب» قد توقّف على بعد خمسين كيلومترًا وراءنا. وكان وجهه الساخر، عبر هذه المسافة يشبه لطخة من الدهن. وكانت هي الفرصة المناسبة وإلّا فلا

ومشيت نحوه، مع فكرة مدهشة بأن أطلب منه مرفعة، بالرّغم من أنّي كنت أملك مرفعة. وتراجع قليلاً واصطدم إصبع رجلي الكبير بحجر ـ وانتفخ الجوّ بجذل عامّ. وفجأة انبعثت شاحنة كبيرة خلف «تراب»، وألمّت بي في ضجيج راعد وقذفت ضربة بوق هستيريّة. ولفتُّ رأسي بصورة غريزيّة، فرأيت سيّارتي بالذات تبتعد خفية. وكانت «لو» قد اتّخذت مكانها بوقاحة خلف المقود، وكان بديهيًا أنّ المحرّك كان دائرًا، ومع ذلك، فقد كنت على يقين من أنّي كنت قد قطعت التيّار، ناسيًا بالمقابل أن أشدّ مكبح اليد، وفي أثناء الخفقان الزمنيّ القصير الذي قمت به لأدرك السيّارة الصارّة التي توقّفت أخيرًا، أدركت أنّ «لو» قد استفادت من السنتين الماضيتين لتتعلّم مبادئ قيادة السيّارات. وفتحت الباب بوحشيّة، وأنا متأكّد أنّها قد حرّكت السيّارة لتمنعني من أن أصل إلى حيث كان «تراب». غير أنّ حيلتها كانت بلا جدوى، فحين كنت أعدو نحو «لو»، كان قد أدار سيّارته ولاذ بالفرار. ونفخت قليلاً، وعبّرت لو عن دهشتها بأنّها لم تهنئ نفسها: لقد سارت السيّارة من تلقاء نفسها و. إزاء صمتي، استغرقتْ في تحليل الخارطة. ونزلت إلى الأرض، ورضخت «لعذاب العجلات» كما كانت تقول شارلوت. ولا أدري ـ لعلّني كنت قد بدأت أفقد رشدي.

وتابعنا هذه السفرة التائهة. وبعد هبوط محزن ضالّ، كان لا بدّ من الصعود من جديد، أعلى فأعلى. وحين حاذينا مطلعًا متعرّجًا، وجدنا أنفسنا خلف الشاحنة التي قد تجاوزتنا وكانت تتسلّق المنعطفات وهي تئنّ بقسوة، وتسدّ علينا الطريق. وأتتني الفكرة بأنّي إذا كنت حقًّا أفقد رشدي، فسينتهي بي الأمر إلى قتل أحد. واقترح همبرت العالي لهمبرت المنهار أنّ من الحصافة بالفعل إعداد كلّ شيء (أي حمل سلاح الحقّة في جيبي) ليمكن الاستفادة فورًا من الجنون حين يخرج إلى الوجود.

٢٠

حين سمحت للو بأن تتعلّم فنّ التمثيل، سمحت لها في الوقت نفسه في براءتي المُحبّة، أن تبرع في فنّ الخيانة. فإنّي أرى الآن أنّ غاية تلك الدروس لم تكن فقط تهيّئتها لحلّ بعض المشاكل المسرحيّة (من مثل شرح الصراع الأساسي في «هيدا غابلر» أو سرد المشاهد الرئيسيّة في مسرحيّة «الحبّ تحت الزيزفون»، أو التعليق على الجوّ العامّ في رواية «بستان الكرز») وإنّما كانت القضيّة في نظرها أن تتعلّم خيانتي، لا أكثر ولا أقلّ. وكم أحتقر الآن تلك التمرينات من التقليد الشهواني الذي كانت تمارسه في صالوننا ببرادسلي، والذي فاجأته مرارًا، وأنا قابع في ركن استراتيجي بينما كانت تقدّم لي، كما لو أنّي كنت وسيطًا في حالة نوم، أو كاهنة تنجز طقسًا سحريًّا، نسخةً مزيّفةً من الشعوذة الصبيانيّة كانت تكمن في إصدار حركات تقليديّة تمثيليّة محضة من مثل طريقة الاستماع إلى أنين في الظلام، أو التعرّف إلى شابّة جديدة، أو تذوّق شيء كانت تكرهه كالحليب المجمّد أيضًا أو استنشاق العشب المقطوع حديثًا في حديقة وافرة الأشجار، أو ملامسة سراب أشياء بأطراف أصابعها النحيلة الطفلة. لقد احتفظت في أوراقي بلائحة مطبوعة كانت تنصّ على:

«تمرينات لمسيّة. تصوّري أنّك تلتقطين وتمسكين بيديك كرة «بنغ بونغ» وتفّاحة وثلجة لزجة، وكرة تنس جديدة مزغبة، وبطاقة محرقة، وقطعة ثلج مكعّبة، وهرّة وليدة، وكلبًا صغيرًا، ونعل حصان، وريشة طير، ومصباحًا كهربائيًّا

«اعجني بين أصابعك الأشياء الخياليّة التالية: كتلة من خبز معجون، مطّاطًا، جبين صديقة مريضة، عيّنة من المخمل، ورقة من الورد.

«إنّك عمياء: تلمّسي وجوه الأشخاص التالين: مراهق يونانيّ، سيرانو، بابا نويل، طفل، حيوان ضاحك، مجهول نائم، أبيك».

ولكن كم كان عذبًا يا إلٰهي أن تُرى وهي تنسج هذه الألوان من السحر الدقيق وأن تحقّق دروسها ومواهبها كما لو أنّها كانت تحلم. بل لقد نجحت ذات مساء في برادسلي بحملها على أن ترقص لي، لقاء وعد بهديّة أو بتسلية. وبالرّغم من أنّ قفزاتها المبتذلة بساقيها المنفرجتين كانت تشبه ارتعاشات أولئك الرياضيّات اللواتي يلعبن الكرة، أكثر ممّا كانت تشبه الارتدادات الموقّعة المسترخية التي كانت تقوم بها «فئران باريس»، فإنّ إيقاعات جسمها الطفولي قد أشاعت لذّة كبيرة فيّ. ولكن ذلك كلّه لم يكن شيئًا، لم يكن شيئًا على الإطلاق، إزاء ذلك التمزّق الشهوانيّ الذي لا يوصف والذي كنت أستشعره إذ كنت أراها تلعب التنس، شعور ذاهل وغير محتمل تقريبًا بأنّي كنت أترنّح على حافّة روعة وتناسق لابشريّين.

وبالرّغم من تقدّمها في العمر، كانت تزداد جنّيّةً بأعضائها ذات اللون المشمشي وقامتها، قامة لاعبة التنس الطفوليّة. أيّها السادة المجنّحون المحترمون! إنّني لا أقبل شيئًا في العالم الآخر، إذا لم تُردّ لي كما كانت ذلك اليوم، في تلك المحطّة من كولورادو بين «سنو» و«الفنستون»، وذلك من غير نسيان أيّ تفصيل: سروالها الصبياني القصير، وقامتها الدقيقة، وبطنها المشمشيّ، وصدريّتها البيضاء التي كان شريطاها يرتفعان ليحيطا بعنقها قبل أن يختفيا خلف رقبتها في عقدة راعشة، معرّية عظمتَيْ ظهرها الملوّنتين هما أيضًا بلون المشمش، واللتين تبدوان في نضارة وفتوّة تقطعان النّفَس، وتلك الزغبرة، وتلك العظام المقصوصة بلطف، وذلك الظهر الملتمع الذي ينحدر حتى الكليتين. وكانت تضع قبّعة ذات حرف أبيض. وكان مضربها قد كلّفني ثروة صغيرة. إنّني غنيّ، غنيّ مثلّث، إذا لم أفكّر بأخذ فيلم لها! فلو قد فعلت، لكانت الآن معي، أمام عينيّ. في قاعة

ألمي ويأسي المظلمة:

كانت، قبل أن تقذف بكرتها الأولى، تقف وتستعدّ لحظة، وغالبًا ما كانت ترميها إلى الأرض فتقفز قفزة أو اثنتين، أو تضحك متردّدة دائمًا، مرحة دائمًا، كما كانت نادرًا في الحياة المظلمة التي كانت تسوقها بالقرب منّي. لقد كان أسلوبها في لعب التنس يبلغ أرفع ذروة يمكن لمخلوقة صغيرة أن تبلغه، على ما أعتقد، في فنّ التقليد، بالرّغم من أنّ هذا لم يكن في نظرها إلّا هندسة دقيقة للواقع البسيط.

وكان للوضوح اللذيذ في حركاتها جميعًا، مقابل سمعي في اصطفاق كلّ من ضرباتها اصطفاقًا مرنًا رائقًا. لقد كانت الكرة، إذ تدخل فلك طاقتها المكلّل، تُصبح أشدّ بياضًا، وزغبها أشدّ غنى، وكانت آلة الدقّة التي كانت «لو» تقابلها بها تبدو أوفر قابليّة للالتقاط وشبه واعية في لحظة التماسّ. والحقّ أنّ أسلوبها كان تقليديًّا كاملاً للاعب لابشريّ ـ ولكن بلا أدنى نتيجة مفيدة. لقد قالت لي ذات يوم «أليكرا غولد» (شقيقة أدوسا وهي ناظرة مثاليّة) بينما كنت أرتعش على مقعدي الخشبيّ وأنا أنظر إلى دولوريس هاز تتلاعب بليندا هال (وتتركها تهزمها): «إنّ في مضرب دولّي مغنطيسًا عجيبًا ولكن لماذا تُراها تبدي مثل هذا القدر من التأدّب!» آه، وما أهمّيّة ذلك، يا أليكترا، مع مثل ذلك الجمال وتلك الروعة؟ أذكر، أوّل مرّة رأيتها فيها تلعب، إنّي غرقت في تشنّج عضلي مؤلم من فرط الامتلاء الجماليّ. فقد كان لحبيبتي لوليتا، وهي تنقر الزنبرك الواسع لضربتها الأولى، طريقة غير قابلة للتقليد بأن ترفع ركبتها اليسرى المطويّة قليلاً، فيرى الناظر، ذات لحظة، كيف تولد وتخفق في الشمس لُحمة التوازن الحيويّ الذي كان يتشكّل من رأس هذه القدم المدبّبة، وذلك الإبط النقيّ، وتلك الذراع الملساء السمراء، ومضربها المرفوع إلى فوق من الخلف ـ وكانت تبتسم، مشعّة الأسنان، للمصباح الصغير المعلّق في

السماء، ولمست هذا العالم القادر الدقيق الذي خلقته لغاية واحدة هي أن تهدمه بضربةٍ موجزة مرنة من مدقّتها الذهبيّة.

وكانت ضربة البدء أعجوبة من الجمال والصراحة والصبا كانت تحطّها نقاوة رحلتها التقليديّة ـ وبالرّغم من قوّتها، فقد كان من اليسير ردّ كرتها التي كان اندفاعها الطويل الأنيق مجرّدًا ممّا هو حادّ و«فاعل».

واليوم، إذ أفكّر بأنّه كان من الممكن لكلّ ضربة من ضرباتها، ولكلّ ألوان سحرها، أن تُخلّد على شريط من الأفلام، لا أتمالك غصّات من الحرمان. قد يكون ذلك خيرًا من الصور التي حرقتها! لقد كان طيرانها العالي بالنسبة لضربتها الأولى ما هي اللّازمة بالنسبة للأغنية. ذلك أنّها كانت قد تعلّمت أن تطير إلى الشبكة بعد ذلك بقدميها الصغيرتين الناشطتين المنتعلتين الحذاء الأبيض. وكان مستحيلاً أن يفضّل المرء ضربتها اليمنى على ردّتها: فقد كانت إحداهما تعكس الأخرى ـ وما زالت أحشائي تصدي بتلك الفرقعات التي كانت تزيدها أرنانًا صرخات أليكترا وتعبيرات إعجابها. وكانت إحدى لآلئ لعبها نصف طيران قصير درّبها عليه «نيد ليتمان» في كالفيورنيا.

وكانت تؤثر المسرح على السباحة، والسباحة على التنس، ومع ذلك، فإنّي ما زلت على اعتقادي بأنّي لو لم أحطّم فيها شيئًا ـ ولكن كيف كان يمكنني آنذاك أن أدرك هذا؟ ـ فإنّ طريقتها وأسلوبها الرائعين كانا يتعزّزان بالرغبة في الانتصار وتذوّقه، وكان يمكن لدولّي أن تصبح بطلة حقيقيّة. دولوريس، مضرباها تحت ذراعها في «ويمبلدون». دولوريس تمتدح سكاير «الدروم» في إحدى المجلّات. دولوريس تصبح ممتهنة. دولوريس تمثّل دور بطلة تنس في أحد الأفلام. دولوريس وزوجها المدرّب، همبرت العجوز الأشيب، المتواضع، الأبكم.

ولم يكن في روح لعبتها أيّ خبث أو أيّ مكر ـ إلّا إذا شئنا أن نرى

دهاء جنّيّة في اللامبالاة الجذلة التي كانت تظهرها بشأن النتيجة النهائيّة. وهي التي كانت تعرف أن تكون قاسية ومراوغة في الحياة العاديّة المألوفة، كانت تُظهر في اللعب براءة عجيبة سداها الاستقامة ولحمتها الكرم، في طريقة إرسال الكرات، حتى إنّ خصمًا دونها في القوّة، ولكنّه ثابت العزم، يستطيع مهما كان عديم الخلق في اللعب، أن يتغلّب عليها من فرط الحركات والالتواءات. وبالرّغم من جسمها الصغير، فقد كانت تغطّي الأمتار المربّعة الستّة والتسعين التي تؤلّف ميدانها من الساحة بمرونة ويسر عجيبين منذ ألفت إيقاع التبادل وأصبحت تستطيع توجيهه على هواها غير أنّ هجومًا مفاجئًا من خصمها أو تغيّرًا في الخطّة مباغتًا كانا يدعانها بلا دفاع. فعند نهاية الشوط مثلاً، كانت ضربة كرتها الثانية ـ التي كانت «لو» تضاعف لها القوّة والأسلوب (إذ لم تكن لديها أيّ الموانع التي تعرقل المنتصرين الحذرين) تطبّق هزّة معزف على حبل الشبكة وترتدّ خارج الساحة. وكان يعترض طيرانها المخفّف خصمٌ مضحك كان يبدو أنّه يجرجر أربع أقدام وهو يحرّك مقذافًا مقرّنًا فكانت ضرباتها الأروع وارتداداتها الأبدع تحطّ بصورة ساذجة عند قدمَيْ العدوّ. وكانت ترسل إلى الشبكة كرة سهلة، وتظهر اليأس بفرح، وقد انطوى جسمها انطواء «الباليه» وسقطت خصلاتها على جبينها وقد بلغ من عقم براعتها ومرونتها أنّها لم تكن تستطيع أن تنتصر حتى عليّ أنا، وبنَفَسي القصير وضرباتي اليساريّة القديمة.

ومن المرجّح أنّي شديد التأثّر بسحر الألعاب. فقد كانت رقعة الشطرنج، حين كنت ألاعب غاستون، تبدو لي كحوض ماء ساكن تتخلّله الصَدف والحركات الغريبة النادرة التي كانت تنفصل متورّدة على القاع المربّع الأملس، بينما كان خصمي لا يرى فيه إلّا تفلاً وحبرًا. وكذلك فإنّ ذكرى دروس التنس الأولى التي أخضعت لها لوليتا (قبل أن تنكشف لها روعة اللعبة على يد المدرّس الكبير) كانت ذكرى مزعجة ومؤلمة تقريبًا ـ

ليس فقط بسبب الحنق الموئس الذي كانت تقابل به كلّ نصيحة من نصائحي، بل لأنّ سيمتريّة الساحة الدقيقة، بدلاً من أن تعكس الانسجامات الكامنة فيها، كانت تنقلب وتضطرب بسبب ضجر هذه الغلامة الحامزة التي كنت أسيء تعليمها اللعبة. ولكنّ الأمور قد تبدّلت منذ ذلك الحين، وفي ذلك الأصيل، في هواء «شامبيون» (كولورادو)، الطلق، وفوق تلك الساحة الرائعة القائمة عند أسفل السلّم الحجري الذي كان يصعّد وعرًا حتى فندق «شامبيون» حيث قضينا الليل، بدا لي ممكنًا أن أجد بعض الراحة والاطمئنان ـ أثر كابوس خياناتها التي لم أستطع سبر غورها ـ في براءة طريقتها، وفي روحها، وفي روعتها الأساسيّة.

كانت تضرب ضربًا قويًّا واضحًا، عبر هذه الحركة العريضة اليسيرة التي ألفتها، مرسلةً كراتٍ طويلةً تلمّ بالشبكة إلمامًا، وتنسجم مع إيقاع دقيق يصبح معه تلاعب ساقيّ، نزهة بسيطة موقّعة (وسيفهم اللاعبون النخبة ما أعنيه). وإنّ ضربتي الأولى الثقيلة، التي ورثتها عن أبي الذي تعلّمها هو نفسه من «ديكوجي» أو «بورمان» وكلاهما بطل مشهور، كان يمكن أن تضع لوليتا في موضع حرج لو كان هذا قصدي. ولكن من ذا الذي يفكّر بمعاكسة غلامة مشعّة إلى هذا الحدّ؟ أتُراني قد ذكرت أنّ ذراعها كانت تحمل علامة التلقيح؟ وإنّي كنت أحبّها حبًّا يائسًا؟ وأنّها لا تكاد تتجاوز الرابعة عشرة؟

ومرّت بيني وبينها فراشة فضوليّة.

كائنان يرتديان شورت التنس ـ شابّ أحمر كان يصغرني بسبعة أعوام أو ثمانية على الأكثر، ذو ظنبوبين ملتمعين ومحمرّين بلفحة شمس، وسمراء متراخية ذات نظرة قاسية وشفتين مقطّبتين، كانت تكبر «لو» بسنتين تقريبًا ـ انبعثا من العدم. وكما كان مألوفًا لدى المعمّدين حديثًا، كان مضرباهما مشدودين بالأغشية والإطارات، وكانا يحملانهما لا على أنّهما امتدادات

طبيعيّة مريحة لبعض عضلات متخصّصة، وإنّما كدبابيس أو كبندقيّات أو كمثاقب أو كعبء آثامي المخيف الثقيل. وجلسا بلا تردّد على مقعد متّصل بالساحة، على مقربة من معطفي المحمّل بشيء ثمين، وأخذا يعبّران بأصوات عالية عن إعجابهما بسلسلة من تبادل الكرة كانت «لو» تساعدني بكلّ براءة على المشاركة فيها ـ ولكن حدث فجأة انقطاع في الإيقاع انتزع من «لو» صرخة دهشة حين خرجت الكرة على أثر ضربة خرقاء منها إلى خارج الساحة، فانفجرت بضحكة ساحرة. يا لمعبودي الأسمر!

وتوجّهت إلى الصنبور، جافّ الحلق، فلحق بي أحدهما وعرض عليّ أن نلعب مباراة مزدوجة وهو يقول: «اسمي بيل ميد» وهذه «فاي بيج» وهي ممثّلة، ثم أضاف: «خطيبتي»، وهو يشير بطرف مضربه إلى الأنيقة «فاي» التي كانت قد بدأت تحدّث دولّي. وكنت أهمّ بأن أجيب «آسف، فإنّني. .» (لأنّي لم أكن أستطيع أن أطيق رؤية مهرتي معرّضة لمبتدئين مبتذلين)، فإذا بنداء غنائيّ عجيب يسترعي انتباهي: صبيّ يهبط السلّم وهو يشير إليّ إشارات كبيرة. وكنت مطلوبًا، بسرعة من فضلك، لمخابرة خارجيّة بعيدة ـ والواقع أنّ ذلك كان مستعجلاً جدًّا حتى إنّهم كانوا يحتفظون لي بالخطّ، طبعًا. وأخذت معطفي (الثقيل بالمسدّس الأوتوماتيكي) وصحت بـ «لو» إنّي عائد بعد دقيقة. ورأيتها تلتقط كرة بين قدمها والمضرب (على الطريقة الأوروبيّة، ممّا كان أحد الأمور النادرة الجميلة التي علّمتها إيّاها)، وكانت تبتسم، كانت تبتسم لي.

وفيما كنت أرقى السلّم في أعقاب الصبي، كان هدوء مريع يمسك قلبي مجنّحًا لقد كنت هذه المرّة «طيّبًا» إذا أردت أن أستعمل كلمة تلخّص بهذه الأحرف المختصرة الاكتشاف والعقاب والعذاب والموت والخلود. لقد تركت حبيبتي لوليتا بين أيدٍ أقلّ من متوسّطة، ولكنّ ذلك لم يعد له أيّة أهمّيّة. فبكلّ تأكيد سوف أصارع. أوه! كم سأصارع! هدم كلّ شيء ولا إعادتها.

وفي مكتب الاستقبال بسط لي عجوز لطيف ذو أنف روحانيّ، وأفترض أنّ له ماضيًا غامضًا لا بدّ لسبر غوره من أن يُكافئ حماسة المحقّق فيه، بسط لي رسالة كتبها بيده إذ إنّهم لم يستطيعوا، في آخر الأمر، أن يحتفظوا بالخطّ. وكانت الرسالة تقول:

«السيّد همبرت. تلفنت مديرة معهد «برادسلي». الرجاء الاتّصال بها فورًا في منزلها الصيفي، برادسلي ٢ ـ ٨٢٨٢. الأمر مهمّ جدًّا».

ودخلت غرفة التلفون، وابتلعت قرصًا صغيرًا، وشهرت، طوال عشرين دقيقة، معركة غامضة ضدّ الأرواح الرنّانة. وكان يبلغ سمعي تدريجيًّا رباعيّ من العروض المتسلسلة. سوبرانو، هذا الرقم غير معروف في «برادسلي». التوّ: الآنسة «برات» مسافرة في إنكلترا. تينور، مدرسة برادسلي لم تتلفن. باس: وكيف تراها تلفنت ما دام ليس هناك من يعرف أنّني كنت في ذلك اليوم في «شامبيون كولورادو». وتولّى الرومانيّ عنّي مشقّة الاستعلام، بعد ضربات غضبي، كلّا، لم نتلقَّ أيّ نداء من الشاطئ الشرقيّ. إنّ إمكانيّة عمليّة تزوير من غرفة تلفونيّة محلّيّة ليست مستبعدة. وشكرته. وأجاب: «عفوًا». وبعد إقامة قصيرة بين زقزقات تواليت الرجال وإقامة أخرى في المشرب لابتلاع جرعة من الكحول، قفلت راجعًا. ومنذ الدرجة الأولى امتدّ نظري نحو ساحة التنس (التي لم تكن، إذا نُظر إليها من عل أكبر من لوح تلميذة صغيرة) فرأيت حبيبتي لوليتا تلعب مباراة مزدوجة. وكانت تبدو وهي تقفز كأنّها ملاك رقيق بين ثلاثة عُرْج. وقد ربت خصمها على ردفها بمضربه مازحًا حين غيّرا مكانهما وكان له رأس بيضاوي ويرتدي بنطلونًا ذا لون أسمر متغيّر. وفي لحظة قصيرة حدث الفوران: فقد رآني وألقى مضربه ـ مضربي! ـ وتسلّق الربوة. وخفق مرفقيه ومعصميه في شبه حركة جناحين بدائيين ولاذ بالفرار باتّجاه الطريق حيث كانت تنتظره سيّارة رماديّة. وبعد لحظة كان عدوّي والرماديّ قد اختفيا.

وحين وصلت إلى أسفل السلّم كان الثلاثي المتروك منهمكًا في التقاط الكرات وفرزها.

ـ «من هو هذا الرجل يا سيّد ميد؟».

فهز «بيل» و«فاي» رأسيهما هزًّا رصينًا. لقد تدخّل هذا الدخيل المضحك عنوة ليعرض لعبًا مزدوجًا، أليس كذلك يا دولّي؟

يا دولّي! إنّ ذراع مضربي ما تزال دافئة دفئًا منفرًا وقبل أن أعود إلى الفندق، دفعت «لو» في ممرّ صغير مختبئ تحت الأدغال العطرة ذات الزهور الصدفيّة، وكنت على وشك البكاء، إزاء حلمها الذي لا يتأثّر، وأن أستعطي بطريقة كريهة ظلًّا من إيضاح الفظاعة البطيئة التي كانت تغيظني حين وجدتنا فجأة خلف «بيل» و«فاي» المتشنّجين من الضحك ـ لقد وصلنا إلى نهاية مزاحهما، ولم يكن لذلك حقًّا أيّة أهمّيّة.

وأعلنت لوليتا أنّها ذاهبة لتغيّر ثيابها وأنّها ستقضي ساعات الأصيل في حوض السباحة، وكانت تتحدّث هي أيضًا كما لو أنّ ذلك كلّه كان حقًّا بلا أهمّيّة، وكما لو أنّها مقتنعة بأنّ الحياة كانت تتابع آليًّا مجراها بكلّ لذائذها المألوفة. لقد كان النهار رائعًا يا لوليتا!

٢١

«لو! لولا! لوليتا!» إنّني أتمثّلني على عتبة ذلك الباب، وأسمعني أنادي باسمها في الشمس، بينما يُحمّل بوق الزمن المقبّب ندائي ذاك ـ الذي تخونني نبرته الرقيقة ـ بعبء من الضيق والهوس والألم كان يكفي، لو أنّها كانت ميّتة، لنزع غطاء كفنها النيلوني. لوليتا! اكتشفتها أخيرًا وسط حديقة مقصوصة العشب ـ وكانت قد خرجت قبل أن أكون مستعدًّا وكانت، أوه حبيبتي لوليتا، تلعب مع كلب، لا معي! وكان الحيوان يُضيع

ويلتقط ويشدّ بين أسنانه كرة صغيرة حمراء رطبة ثم يوقّع توقيع بيانو بقدميه الأماميّتين على العشب الإسفنجي قبل أن ينطلق بقفزات مجنونة. وكنت أودّ أن أعرف فقط أين كانت لوليتا، فإنّي لم أُطِقْ التفكير بأن أسبح مع قلبي في هذه الحالة ـ غير أنّها كانت تسخر من ذلك! وكانت هناك، وكنت أنا هناك أيضًا، في برنسي، وكففت عن الصراخ، وإذ كانت تنطنط هنا وهناك في تبّانها الأحمر ذي القطعتين، جذب انتباهي ما لست أدريه في هيئة حركاتها ـ لقد كان في طفراتها نشوة بل بلاهة تكشفان عن إفراط في الجذل. وحتى الكلب، كان يبدو منشدهًا بشذوذ تلك الحركات! ووضعت على صدري يدًا مهدِّئة، وأخذت أدرس الموقف. ولم يكن الحوض، الذي كان يُرى على بعض المسافة خلف الحديقة، لم يكن بعد خلف تلك الحديقة وإنّما في داخل صدري، وكانت أعضائي تسبح فيه كما تسبح النفايات في الماء الأزرق في بحر نيس. وكان مستحمٌّ قد ترك الحوض ووقف جامدًا يكاد يخفيه ظلّ الأشجار، ممسكًا بكلتا يديه منشفته حول عنقه، يتابع لوليتا بعينيه العنبريّتين. كان واقفًا خلف ظلّ الشمس والذي كان يشوّشه، مقنَّعًا بعريه بالذات، بشعره المشحّم المبلّل اللزج على مُخّه المستدير، مع لطخة شاربه الرطب الصغير وجزّازة صدره الصوفيّة المنبسطة كأنّها غنيمة منسجمة، وسرّته الخافقة وردفيه اللذين تقطر منهما نقط مشعّة، وتبّانه الأسود الذي يبدو متمدّدًا، متفجّرًا بالقوّة حيث كان كيسه اللحميّ مشمّرًا إلى فوق كأنّه ترس يسحق حيوانيّته المقلوبة. وفيما أنا أرقب وجهه البيضاوي الأسمر، أدركت أنّي عرفته بسبب أنّه كان يعكس ما كانت تظهر ابنتي من الجذل: لقد كانت هي تلك الغبطة نفسها، ولكن رجولته كانت تجعله كريهًا وكنت أعلم أيضًا أنّ غلامتي كانت تعلم أنّه كان يراقبها، وأعلم أنّها كانت تتلذّذ بشبق نظرته، وأنّها تهدي إليه مشهد جذلها وقفزها، أوه يا للداعرة الكريهة المعبودة! وارتمت على الكرة، فأخطأتها وسقطت على ظهرها متخبّطةً

بساقيها الزغباوين الداعرتين. وكان بوسعي، من حيث كنت واقفًا، أن أدرك مِسْك تهيّجه ـ ورأيت فجأة أنّ الرجل كان يغمض عينيه، كأنّه محجّر بنوع من الاشمئزاز المقدّس، ويكشف عن أسنانه الصغيرة، ويستند إلى شجرة مهتزّة الأغصان. وبعد ذلك بقليل، حدث تغيّر عجيب. إنّه لم يعد شبيهًا بالتيس، بل هو رجل سويسريّ ساذج، «هو» غوستاف تراب الذي تحدّثت عنه غير مرّة، ذلك القريب الذي كان يعوّض عن «حفلاته» (إذ كان يشرب البيرة مع الحليب، ذلك الخنزير المرح!) بتمرينات لرفع الأثقال وهو يدمدم ويترنح في ساحة البحيرة مرتديًا ثوب السباحة الذي كان يعوِّض عن تحفّظه بأن يُعرِّي إحدى كتفيه بجرأة. ولكن هذا، «تراب» أميركا، لحظني من بعيد، وحكّ عنقه بمنشفته ورجع إلى الحوض بخطوة مزيّفة اللامبالاة. وعند ذلك استرخت «لو» كما لو أنّ الشمس قد غادرت الساحة، ثم نهضت على مهل، غير مبالية بالكرة التي كان الكلب يضعها أمامها. من ذا الذي يستطيع أن يصف اليأس الذي قد يستشعره كلب إذ يُوضع حدٌّ للعبه؟ وأردت أن أقول شيئًا، وسقطت جالسًا في العشب وقد استولى على صدري ألم جنوني، وقئت شلّالاً من النفايات السمراء والخضراء التي لا أذكر أنّي أكلتها قطّ. ورأيت عينَيْ «لو»، فبدا نظرها متأمّلاً مدقّقًا أكثر ممّا هو مذعورًا. وسمعتها تشرح لسيّدة أقبلت للنجدة بأنّ أباها أخذته نوبته، وبعد ذلك بقيت وقتًا طويلاً قابعًا في كرسيّ طويل أحتسي «الجن» جرعة بعد جرعة. وفي صباح اليوم التالي، أحسستني قويًّا بما فيه الكفاية لأعود إلى المقود (غير أنّ أيّ طبيب لم يرد أن يصدِّق هذا بعد عامين أو ثلاثة).

٢٢

كان الجناح المؤلّفِ من غرفتين، والذي كنّا قد حجزناه في نول

«إيبورون دارجان» في «الفنستون» من ذلك النموذج الريفي (ذي الجدران المؤلّفة من جذوع الأرز الملمّعة) الذي كانت لوليتا تجنّ به فرحًا في أيّام رحلتنا الأولى التي لم يكن فيها من هموم. أوه كم تغيّرت الأمور بعد ذلك! وإذ أقول هذا لا أشير أيّة إشارة إلى أيّ «تراب». وبعد كلّ شيء، أيّها السادة، أصبح طبيعيًّا، أكثر فأكثر، أنّ جميع رجال الاستخبارات هؤلاء الذي كانوا يتّصلون بينهم عبر سيّارات مختلفة، لم يكونوا إلّا أوهامًا خلقتها وساوس التعذيب عندي، وصورًا راجعة مردّها إلى اتّفاقات أو تشابهات جاءت بمحض المصادفة. «لنكن منطقيين!» هكذا كان يصرخ الجزء الجسور من مخي الذي كان يبذل كلّ جهوده ليطرد فكرة أنّ نذلاً (مسافرًا تجاريًّا أو شقيًّا يساعده بعض المعاونين الغامضين) قد وقع في حبّ لوليتا، وأنّه كان يزعجني ويضايقني ويستفيد بطرق كثيرة صاخبة من علاقاتي التي كان أقلّ ما يقال فيها إنّها خارقة للقانون. وما زلت أسمع تلك الأغاني التي كنت أدمدم بها لأبعد الضيق، وأرى تلك النظريّات التي فكّرت فيها لأشرح سرّ النداء التلفوني الذي صدر من برادسلي. ولكن إذا كان بوسعي أن أهمل «تراب» كما أهملت تشنّجاتي في حديقة «شامبيون» فلم أكن أستطيع أن أفعل شيئًا لأخفف من الضيق الذي يصدر عن معرفتي بأنّ حبيبتي لوليتا لم تعد في متناول يدي، وهذا عشيّة عهد جديد بالذات، إذ كانت أنابيقي تبلغني بأنّها ستفقد جنّيّتها وتكفّ عن أن تعذّبني.

كان ينتظرني في «الفنستون» عذاب إضافي، مريع، مجّانيّ تمامًا ومهيّأ بحبّ. كانت «لو» قد بدت عابسة صامتة خلال المرحلة الأخيرة. ثلاثمئة كيلومتر من الجبال لم يلطّخها أيّ شرطيّ أو أيّة سيّارة متعرّجة. وهي لم تكد تلقي إلّا نظرة عابرة على قمّة «ريد روك» الشهيرة التي كانت تتبخّر فوق قمم أخرى قرمزيّة، والتي اتّخذتها نجمة غريبة لوحة وثب نحو النرفانا. وكانت المدينة مبنيّة حديثًا فوق وادٍ مرتفع سبعة آلاف قدم، وكنت آمل أن

تضجر منها «لو» سريعًا، وأن تستطيع التحوّل نحو كاليفورنيا وحدود المكسيك، نحو الخلجان الأسطوريّة، نحو صحارى العجائب والغرائب. لقد كان «جوزيه ليزار بنغوا»، كما تذكرون جميعًا، يحلم بأخذ حبيبته كارمن إلى العالم الجديد. وكنت أتصوّر في مخيّلتي مباراة لبطولة التنس في أميركا الوسطى تشترك فيها دولوريس هاز اشتراكًا باهرًا إلى جانب نخبة من التلميذات البطلات الكاليفورنيّات. وعلى هذا الصعيد الرفيع الباسم كانت رحلات التسلية تحذف كلّ تمييز بين السبور والباسبور. ولماذا كنت أتصوّر أنّنا سنكون سعيدَيْن في الخارج؟ ذلك أنّ تغيّر الإطار هو الوهم التقليدي الذي يتشبّث به العشّاق المحكومون.

وقد سألتني السيّدة «هايز»، الأرملة النشيطة (ذات العينين الزرقاوين واللون القرميديّ) والتي كانت تُدير النزل، عمّا إذا لم أكن سويسريًّا لأنّ شقيقتها كانت قد تزوّجت مدرّبًا للسكي ذا أصل سويسريّ. طبعًا كنت سويسريًّا وابنتي نصف إيرلنديّة. ووقّعت الورقة وأعطتني السيّدة هايس مفتاحًا وبسمة متوقّدة، ثم دلّتني، وهي ما تزال متوقّدة، على المكان الذي أوقف فيه سيّارتي. وخرجت «لو» بخطوة زاحفة، وارتعشت قليلاً: والحقّ أنّ نسيم المساء المشعّ كان قارسًا وما إن دخلنا الجناح، حتى تركت نفسها تسقط فوق كرسيّ أمام طاولة بريدج، وأغرقت وجهها في ثنية ذراعها وقالت متنهّدة إنّها كانت غير مرتاحة على الإطلاق. وفكّرت بأنّها حجّة للتخلّص من ملامساتي، وكنت يابسًا من فرط العاطفة، ولكنّي حين حاولت أن أعانقها أخذت تئنّ بصوت أكثر ألمًا من المعتاد. لوليتا المريضة. لوليتا في الاحتضار! لقد كان جلدها محرقًا! وقسْتُ حرارتها، شفهيًّا، واستشرت عمليّة حسابيّة كنت أحتفظ بها في دفتر صغير، إلى السنتيغرادات المألوفة في طفولتي، اكتشفت أنّ حرارتها تبلغ الأربعين وأربعة خطوط، وهذا له معنى واضح على أيّ حال. وكنت أعرف أنّه يحدث للجنّيّات الصغيرات

الهستيريّات أن يصبن بألوان مختلفة من الحرارة، بل حتى إنّهن يتجاوزن الرقم المشؤوم. وقد كنت أصف لها جرعة من الخمر المغليّة مع قرصين من الأسبرين، وأطرد الحمّى تحت قبلاتي، لولا إنّي فحصت لهاتها الجميلة، وهي إحدى جواهر جسمها، فرأيت أنّها ملتهبة بالاحمرار. ونزعت ثيابها، وكان نفَسها عذبًا ـ مريرًا وكان لوردتها السمراء مذاق الدم. وكانت ترتجف من الرأس إلى القدمين. وكانت تتوجّع من تصلّب مؤلم في الأعضاء العليا، ففكّرت كأيّ أبٍ أميركيٍّ، بداء النخاع الشوكيّ المُعدي، تخلّيت عن أيّ أمل بالمجامعة، ولففتها في غطاء للسفر ثم حملتها إلى السيّارة. في هذه الأثناء، كانت السيّدة هايز الطيّبة قد أخبرت طبيب المنطقة وقالت: «إنّك محظوظ في أن يحدث هذا هنا» فليس الدكتور «بلو» هو خير طبيب في المنطقة وحسب بل لا يمكن أن نجد مستشفى أحدث من مستشفى «الفنستون»، بالرّغم من قدرته المحدودة. وبدأت السير، يعميني غروب للشمس ملكيّ فوق الأراضي الواطئة، وتقودني عجوز قصيرة أعارتني إيّاها السيّدة هايز ولم أرها بعد ذلك أبدًا. وقد رأيت أنّ الدكتور «بلو» كان ذا علم أقلّ بلا شكّ من شهرته، وقد أكّد لي أنّ القضيّة قضيّة التهاب حمويّ، وحين أشرت إلى «الكريب» الذي أُصيبت به من قبل، أجاب بجفاء بأنّ ذلك لا علاقة له على الإطلاق وأنّه يعرف أربعين حالة مماثلة تجعلنا نفكّر بحميات أجدادنا وتساءلت لحظةً عمّا إذا كان عليّ أن أشير، وأنا أضحك، إلى ابنتي الصغيرة، وهي مراهقة ستبلغ الخامسة عشرة عمّا قريب، قد أُصيبت بحادث صغير حين كانت تتسلّق بلا حذق حاجزًا مع رفيقها في اللعب، ولكنّي عزمت وأنا واع لسُكري، بأن أحتفظ بهذه المعلومات لنفسي ما لم يكن نشرها ضروريًّا وصرّحت للسكرتيرة وهي شقراء قذرة يبدو أنّها تجهل كلمة «ابتسامة»، بأنّ عمر ابنتي هو ـ عمليًّا ـ ستّ عشرة سنة. وما كدت أدير ظهري، حتى سُلبت منّي

غُلامتي. وابتهلت بإلحاح لا جدوى منه أن يدعوني أقضي الليل على حصير ما في زاوية مستشفاهم الملعون. ورقيت سلالم، وحاولت أن ألتقي حبيبتي لأوصيها بألّا تثرثر ولاسيّما إذا كان ذهنها يهذر بشرود كأذهاننا وذات لحظة، بدوت شديد الصفاقة مع ممرّضة شابّة وقحة ذات عينين سوادهما شديد الالتماع ـ وقد علمت أنّ أصلها بلجيكيّ وأنّها ابنة راعٍ أصبح فيما بعد مدرّب كلاب. ولم أجد بدًّا من العودة إلى السيّارة وظللتُ ساعات لا أستطيع عدّها قابعًا في الظلام، ترهقني تلك الوحيدة الجديدة، أتأمّل تارة، وأنا فاغر الفمّ، بناء المستشفى الضعيف الإضاءة والواطئ والمربّع الجنبات، الجاثم وسط حصنه المعشب، وتارة أخرى رواسب النجوم ومتاريس الجبل الفضّيّة التي كان والد ماري، جوزف لور المتوحّد، يحلم فوقها بأولورون أو بلاغور أو برولاس، ما يدريني؟ إلّا إذا كان يُفسد إحدى العنزات. وإنّ مثل هذه الأفكار الشاردة كان غالبًا يحمل لي المعونة والعزاء في فترات التوتّر الاستثنائي، وبالرّغم من بعض الشرب، فقد كنت مخدّرًا بما فيه الكفاية بتلك الليلة حين فكّرت بأن أعود إلى النزل. وكانت المرأة العجوز قد اختفت، ولم أكن على يقين من معرفة الطريق. وكان هناك دروب عريضة محصبة تتّجه كلّ اتّجاه من مناطق الظلال الناعسة. وحسبتني أرى ذات لحظة شكل مشنقة فوق ما كان ساحة لعب المدرسة، وفي رقعة أرض أخرى، رأيت معبد طائفة محلّيّة مكلّلاً بقبّة من الصمت. وأخيرًا اهتديت إلى الطريق العامّة، ثم إلى النزل حيث ملايين البعوض تطوف حول إطار النيون الذي كان يعلن «العدد كامل». وعند الساعة الثالثة صباحًا، أخذت حمّامًا ساخنًا من تلك الحمّامات التي تشبه حامضًا حادًّا وليس من شأنها إلّا أن تركّز ألم إنسان وضجره، وحين تمدّدت على سريرها ذي العبير الورديّ والكستنائيّ وذلك العطر الفرنسيّ الخاصّ الذي بدأت تستعمله منذ وقت قصير، بعد استئذاني، وجدتني عاجزًا عن هضم ذلك

الواقع البسيط، هو أنّي كنت منفصلاً عن حبيبتي لوليتا للمرّة الأولى منذ عامين. وأخذني الشعور فجأة بأنّ مرضها كان، على نحوٍ ما، امتداد فكرة معروفة، وهي أنّها كانت تعاني الخليط نفسه من الانفعالات المتداعية التي استولت عليّ وعذّبتني طوال رحلتنا. وكنت أتصوّر عدوّي أيًّا كان، شرطيًّا سرِّيًا، أو عاشقًا خفيًّا، أو مازحًا، يرود حول المستشفى ـ ولم يكن الفجر قد أدفأ بَعْدُ أطراف أصابعه ـ كما يقول قاطفو اللوندة في مسقط رأسي، حتى كنت في طريق العودة إلى برج المستشفى، محاولاً أن أشقّ لنفسي طريقًا، طارقًا أبوابه الخضراء، وأنا فارغ المعدة ممتلئ الأحشاء باليأس. وكان ذلك يوم ثلاثاء. وما إن حلّ الأربعاء أو الخميس حتى كانت غلامتي اللذيذة قد تحسّنت كثيرًا إثر مصل خاصّ، وأكّد لي الطبيب أنّها سوف «تنطنط» من جديد بعد يوم أو يومين.

وإنّ الزيارة الأخيرة من مجموع الزيارات الثماني التي قمت لها بها، هي التي ظلّت محفورة بوضوح في ذهني. ولم تكن هذه الحجّة الثامنة انتصارًا هزيلاً، ذلك أنّي أحسستني مبرأ من المرض الذي كان يتأكّلني في تلك الفترة ولن يدرك أحد ما بذلته من جهد لأحمل تلك الباقة، هذا العبء من الحبّ، وهذه الكتب التي اجتزت مائة كيلومتر وراء المقود لأعود بها: «مسرحيّات بروننغ»، «تاريخ الرقص»، «مهرّجون وراقصات»، الباليه الروسي، «أزهار الجبال الصخريّة» «أنطولوجيا المسرح»، التنس، (بقلم «هيلين ويلس» التي حازت جائزة البطولة الوطنيّة من فئة الصغيرات حين كانت في الخامسة عشرة). وحين وصلت وأنا أتعثّر أمام باب ابنتي (وكانت لها غرفة خاصّة بثلاثة عشر دولارًا في اليوم) خرجت منها الممرّضة الشابّة الكريهة التي كانت تكنّ لي بغضًا واضحًا، وهي تحمل صحفة فطور الصباح التي وضعتها بصخب على كرسي الممرّ، وما لبثت أن دخلت مهتزّة الردف إلى الغرفة ـ لكي تبلِّغ، بلا شكّ، دولوريس الصغيرة أنّ أباها

الطاغية الشيخ قد وصل وهو متقلّص الجبين ويحمل كتبًا وباقة. وهذه الأخيرة مؤلّفة من زهور متوحّشة وأوراق نادرة كنت قد قطفتها بيدي في ركن من الجبل عند مطلع الشمس (ولم أنم عمليًا طوال ذلك الأسبوع المشؤوم).

كيف تُراهم كانوا يغذّون حبيبتي؟ لقد نظرت بشرود إلى الصفحة فرأيت في صحن ملطّخ ببقايا صفار البيض مغلّفًا مدعوكًا، لا شكّ في أنّه كان يحوي رسالة لأنّ أحد أطرافه كان ممزّقًا، ولكن لم يكن عليه عنوان ـ باستثناء صورة خزائن يعلوها اسم بالأحرف الخضراء «دار بونديروزا»، وفي اللحظة نفسها، شرقتني الممرّضة ماري مرّة أخرى إذ ألمّت بي راكضة ـ يا لهنّ من مخلوقات غريبة، أولئك الممرّضات ذوات العجيزة الكبيرة واللواتي هنّ أبدًا مستعجلات من غير أن يعملن شيئًا! وحدّقت بهيئة وحشيّة في المغلّف الذي كنت قد أعدته بعد أن بسطت جوانبه. وسمعتها تقول وهي تهزّ رأسها وتحدّد ذقنها نحو الصفحة: «لا تمّسه، فقد يحرق أصابعك».

ولم يكن يليق بي أن أجيب. ولهذا اكتفيت بأن أقول بالفرنسيّة:

ـ «كنت أظنّ أنّه الحساب، وليس رسالة رقيقة». ثم توجّهت إلى لوليتا، في الغرفة المشمسة وقلت: «صباح الخير يا صغيرتي».

وقالت ماري لور (وهي تدخل فيّ، وأمامي، وخلالي، تلك المومس السمينة، وتطرف بعينها، وتنشغل، وهي ما تفتأ تطرف بعينها في طيّ غطاء من القطن الأبيض): «اسمعي يا دولوريس، إنّ أباك يتصوّر أنّ صديقي الصغير يرسل لك رسائل غراميّة. أنا التي أتلقّى هذه الرسائل (وأخذت تربّت برضى على الصليب المذهّب الصغير التي كانت تضعه في عنقها) ثم إنّ أبي يتحدّث بالفرنسيّة مثل أبيك تمامًا».

وغادرت الغرفة. وكانت دولوريس مضطجعة ببراءة، مورّدة، محمرّة، مصبوغة الشفتين منذ قليل، مسرّحة الشعر الملتمع، ممدّدة الذراعين العاريتين على الغطاء المبسوط بلا ثنية، وكانت مفترّة الثغر عن بسمة مشعّة (أتُراها كانت ترسلها لي أم للّاشيء؟) وكان خاتمها الزمرّديّ يلتمع في الشمس، وهو مستقرّ على طاولة الليل، إلى جانب قلم ومنشفة من الورق.

وقالت: «أيّ باقة مزيّنة من باقات الجنائز؟ شكرًا على أيّ حال ولكن هل يزعجك كثيرًا أن تستغني عن كلّ هذه العبارات باللغة الفرنسيّة؟ إنّ ذلك يزعج الجميع».

وعادت المضحكة ذات الأعضاء السمينة، بسرعتها المألوفة، تتصاعد منها رائحة البول والثوم، وبسطت جريدة محلّيّة «أخبار الصحراء» لمريضتها الجميلة التي استولت عليها بنهم، مهملةً المؤلّفات الفخمة المصوّرة التي حملتها لها.

وقالت ماري، وهي تجمع المكر إلى تفكير السلالم: إنّ أختي آن تعمل في «دار بونديروزا».

ألست تحبّينني بعدُ يا كارمنسيتا؟ إنّها لم تحبّني قطّ. وفي تلك اللحظة أدركت أنّ حبّي كان يائسًا أكثر من أيّ وقت مضى، وأدركت أيضا أنّ المخلوقتين كانتا مجتمعتين أو متآمرتين على حبي الذي لا أمل له. بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إنّ «لو» كانت تلعب لعبة مزدوجة لأنّها كانت تستهزئ أيضًا بماري المفرطة في العاطفيّة، والتي أؤكّد أنّها قد أسرّت لها برغبتها في أن تعيش مع خالها الشابّ الممراح لا معي، أنا القاسي المقطّب. وهناك ممرّضة أخرى لم أستطع قطّ أن أعرف هويّتها، ومعتوه القرية الذي كان يحمّل في المصعد صناديق البيرة والمحامل، وهذا الرجل والمرأة الجالسان ببلاهة في قاعة الانتظار: إنّهم جميعًا ضالعون في هذه المؤامرة القذرة. ورأيي أنّ ماري كانت تعتبرني أبًا تمثيليًّا البرفسور

همبرتولدي الحريص على معاكسة قصّة حبّ دولوريس وأبيها البديل، روميو هذا الضخم (لأنّك أنت في الحقيقة كبير البطن، عجوز بالرّغم من هذا «الثلج» كلّه ومن «أكسير» «الأحلام») وكنت أشكو وجعًا في حلقي، فابتلع بمشقّة. واقتربت من النافذة وتأمّلت الجبال والقمّة الرومنتيكيّة التي كانت تنتصب في السماء الباسمة المتآمرة.

وقلت: حبيبتي كارمن (وكان يحدث لي أن أدعوها أحيانًا بهذا الاسم) سنغادر هذه المدينة الرقيقة المجفّفة فور وقوفك على قدميك».

وقنطرت الصغيرة اللطيفة ركبتيها تحت الغطاء، وقالت وهي تقلب صفحة جريدتها:

ـ بهذه المناسبة، أريد أن تكون عندي هنا جميع ثيابي.

وتابعت ـ لأنّه ليس هناك أيّ مبرّر لبقائنا هنا.

فقالت لوليتا: «وليس هناك أيّ مبرّر لبقائنا في أيّ مكان.

وارتميت في مقعد من الكريتون، وفتحت كتاب علم النبات المدهش الذي أهديته إليها، وأخذت أحاول في صمت حمّى الغرفة أن أتعرّف على هويّة زهوري. وكانت جهودي بلا نتيجة. وبعد قليل رنّ جرس موسيقيّ بعذوبة في مكان ما من الممرّ.

وأعتقد أنّ هذه الواجهة الدعائيّة التي كأنّها مستشفى «الفنستون»، لم تكن تضمّ أكثر من اثني عشر مريضًا. (بينهم ثلاثة أو أربعة من المعتوهين، على ما أخبرتني «لو» بلهجة فرحة قبل يومين أو ثلاثة) وكان أمام الموظّفين أوقات فراغ كثيرة. على أنّ النظام كان من أشدّ الأنظمة حزمًا بدافع الاعتزاز المحض. وصحيح أنّي كنت أحضر غالبًا في أوقات غير مناسبة. فكانت ماري تتشبّث بكمّي ـ في مكر خبيث لتخرجني من المستشفى. وحين كنت أخرج ـ بملء إرادتي ـ كانت دولوريس هاز تذكّرني بما ينبغي

أن أجيئها به في صباح اليوم التالي. وهي لم تعد تعرف أين أصبحت الحاجات التي كانت تريدها. وقد صاحت بي، بعد أن أصبحت في الخارج وأغلق الباب: «اجلب لي المحفظة الرماديّة الجديدة وصندوق أمّي». ولكنّي في صباح اليوم التالي أصبت ببرد في السرير الصغير الذي لم تقض فيه إلّا بضع دقائق، ولم أجد في تلك الظروف الدائريّة، إلّا أن أدعو عشيق الأرملة، وهو صاحب شاحنة قوي بشوش، ليحمل إلى لوليتا حاجاتها. وتصوّرتها وهي تفتح كنوزها أمام ماري. ولا شكّ في أنّي كنت أهذي قليلاً وفي اليوم التالي كنت ما أزال على ارتعاش أكثر منّي صلابة، لأنّي إذ نظرت إلى الحديقة المتّصلة عبر نافذة الحمّام، رأيت درّاجة دولّي واقفة على قدمها المعدنيّة وسط الأعشاب، وعجلتها الأماميّة منصرفة عنّي (كما هو الشأن دائمًا! دائما!) بل لقد رأيت دوريًّا واقفًا على الصهوة ـ ولكنّها كانت درّاجة صاحبة الفندق، وعند ذلك ابتسمت ابتسامة خفيفة وهززت رأسي المسكين لأطرد هذه الأوهام الرقيقة وعدت إلى سريري بخطًى مترنحة.

ويظهر أنّ عيدًا وطنيًّا كبيرًا كان يقوم في المدينة، إذا حكمنا على ذلك من المفرقعات والقنابل الحقيقيّة التي كانت تنفجر بلا هوادة، وقبيل الساعة الثانية ما بعد الظهر، سمعت صوت شفاه هامسة تقترب من باب غرفتي المشقوق، ثم ضربة صمّاء على الإطار الخشبيّ.

وكان هو فرانك السمين. وكان واقفًا في مدخل الباب، ويده على قائمته، منحنيًا قليلاً إلى أمام.

كيف الحال؟ لقد تلفنت الآنسة لور الممرّضة، وكانت تريد أن تعرف ما إذا كانت صحّتي في تحسّن وإذا كنت سأحضر اليوم.

وكان فرانك، وهو على بُعد عشرين خطوة مني، قد أشعرني بجبل من الصحّة، ولكن، هناك، على بُعد خمس خطوات، لم يكن إلّا موزاييكًا من

الندوب البنفسجيّة ـ وكانت قنبلة قد قذفت به عبر جدار في أثناء الحرب. ومع ذلك، وبالرّغم من هذه الجروح التي لا اسم لها، كان قادرًا على قيادة شاحنة ضخمة، وعلى الصيد والشرب والفجور مع حوريّات الفنادق الطرقيّة. وفي ذلك اليوم ـ أكان ذلك بسبب الاحتفالات المحلّيّة أم لتسلية مريض، بكلّ بساطة ـ كان قد نزع القفّاز الذي كان أبدًا يلبسه بيده اليسرى (التي كانت تعتمد على قائمة الباب) عرض على عينَيْ المريض المبهورتين يدًا تنقص إصبعين، ولكنّه عرض أيضًا امرأة عارية ذات ثديين زنجريين، موشومة وشمًا لذيذًا على ظهر يده المشوّهة التي كانت السبابة والإصبع الوسط يشكّلان منها الساقين، بينما كان المعصم يحمل رأسها المكلّل بالزهور. أوه! ساحرة: ساحرة! ـ وجنّيّة صغيرة فاجرة مستندة إلى الباب.

ورجوت فرنك السمين أن يخبر «ماري لو» أنّي سأبقى نائمًا طوال النهار وسأذهب لرؤية ابنتي في اليوم التالي إذا شعرت بتحسّن.

ورأى اتّجاه نظري فحرّك بلطف الكشح الأيمن عن المرأة ـ اليد. وبعد أن صفع بجذل قائمة الباب، قال: «حسنًا»، ومضى بالرسالة الشفويّة وهو يصفّر وتركني لخمري وسكري، وفي اليوم التالي كانت الحمّى قد زالت، وبالرّغم من أنّني قد أحسستني أخرعَ من ضفدع، فقد ارتديت برنسي البنفسجيّ فوق منامتي الصفراء، وجرجرت نفسي حتى مكتب الاستقبال لأتلفن. وكان كلّ شيء على ما يرام. وقال صوت عريض: أجل، كلّ شيء على ما يرام، وقد تركت فتاتي المستشفى في الساعة الثانية ما بعد ظهر أمس، وكان خالها السيّد غوستاف قد أقبل يأخذها ومعه كلب صيد وليد، وبسمة لجميع الناس، وسيّارة كاديلاك سوداء، وأنّه دفع حساب دولّي كاملاً، وقال لهم بأن يقولوا لي بألّا أقلق وأن أبقى في دفء الفراش، فهما ذاهبان إلى مزرعة «بيبا» كما جرى الاتّفاق.

لقد كانت «الفنستون» ـ وأرجو أنّها لا تزال ـ مدينة صغيرة فاتنة

تصوّروا أنّها كانت تشبه تصميمًا ملقًى في جوف الوادي بأشجارها الصوفيّة الخضراء وبيوتها ذات القبّعات الحمراء، ويُخيّل إليّ أنّي سبق أن أشرت إلى مدرستها النموذجيّة، ومعبدها الصغير، وشوارعها التي كانت ترسم جُزيْرات مستطيلة واسعة لم يكن بعضها يضمّ إلّا مراعي متواضعة حيث تقضم بغلة (أو وحيد قرن) العشب في ضباب ذلك الصباحي التمّوزيّ اللطيف. والطريف جدًّا إنّي رأيت في منعطف حادّ يصرّ فيه الحصى، سيّارة واقفة، غير أنّي أقنعت نفسي بأنّي عائد فيما بعد، وأنّ عنواني كان «مدرسة بيرد» في «برادسلي». وبعد بعض الخسوفات والفجوات المعروفة في عالم الأحلام، وجدتني، والقلب منتعش ولكنّ الذهب مختلط بشراب «الجن»، وجدتني في غرفة الاستعلامات بالمستشفى أوجّه الضربات واللكمات إلى الطبيب، وأهدر أمام الأشخاص المختبئين تحت المقاعد، مطالبًا، بصراخ شديد، برؤية «ماري لور» التي كان من حسن حظّها أنّها لم تكن هناك، والتقطت يدان وحشيّتان بُرنسي فتمزّقت إحدى جيوبه فجأة، ويجب التصديق بأنّي كنت قد جلست، دون أن أعرف كيف، فوق مريض ذي رأس أصلع حسبته الدكتور «بلو»، إذ انتهى به الأمر إلى النهوض وهو يتمتم بلهجة مضحكة: «وبعد، قل لي، من هو العصابيّ؟». وفي هذه الأثناء بسطت لي ممرّضة حمراء سبعة كتب مجلّدة ومعطفًا اسكتلنديًّا مطويًّا بعناية، وطلبت منّي وصلاً وفي الظلام المفاجئ، ميّزت عند مدخل الممرّ شبح شرطيّ كان زميلي سائق السيّارة يوميء إليّ أمامه، ووقّعت بيدٍ مرتخية الوصل الرمزي الذي أسلّم به لوليتا لجميع هؤلاء القرود. وما عساي أفعل غير ذلك؟ لم يكن في رأسي إلّا فكرة واحدة عنيفة: «في هذه اللحظة، الحرّيّة وحدها هي المهمّة». وخطوة متعثّرة تدفعني إلى الاعتراف بحياة مجرمة برمّتها. وقد دفعت لزميلي الآلي المبلغ الذي حكمتُ بأنّه معقول. ورويت للدكتور «بلو»، والدموع في عينيّ، قصّة الخمر الذي كنت أدعم به

قلبًا ذا أهواء، من غير شكّ، ولكنّه ليس معطّلاً بالضرورة، فأخذ الطبيب يربت على كتفيّ. وقدّمت للمستشفى، بمجمله، اعتذاراتي بحركة كبيرة كادت تفقدني توازني، وحرصت على أن أضيف بأنّي لم أكن متّفقًا مع أعضاء قبيلة همبرت. وهمست لنفسي بأنّي ما زلت أحتفظ بمسدّسي، وأنّي ما زلت إنسانًا حرًّا ـ حرًّا في مطاردة الفارّين، وحرًّا في اجتثاث أخي.

٢٣

كان زهاء ألف وخمسمئة كيلومتر من طريق ناعم كشريط حريري تفصل «كاسبيم» (التي كان منتظرًا فيها ظهور الخائن الأحمر لأوّل مرّة على المسرح) عن «الفنستون» المشؤومة التي بلغناها قبل أسبوع من حلول ٤ تمّوز وهو يوم عيد الاستقلال. وقد استغرقنا شهر حزيران بطوله لقطع هذه المسافة، لأنّنا نادرًا ما كنّا نسير أكثر من مئتَيْ كيلومتر في اليوم، لنقضي الوقت الباقي (الذي بلغ خمسة أيّام في إحدى المناسبات) في مختلف المراحل المصمّمة سلفًا بالطبع. وإذن، فقد كان عليّ أن أتعقّب آثار الخائن على هذا الطريق، ولقد انطلقت في هذه الرحلة بعد بضعة أيّام لا أستطيع أن أسمّيها باسم قضيّتها في روحات وغدوات متشنّجة على الطرقات التي كانت تشعّ بلا نهاية حول «الفنستون».

تصوّرني، يا قارئي، بما أملكه من خجل ومن نفور لكلّ شكل من أشكال التباهي ومن حسٍّ بالواجب ـ تصوّرني وأنا أقنّع أهوال يأسي خلف ابتسامة مرتعشة أكثر منها متملّقة، وأختلق حجّة تافهة لأقلّب سجلّات الفنادق، وكنت أقول مثلاً: «أوه! أنا شبه متأكّد أنّي قضيت ليلة هنا. دعوني ألقي نظرة على زبائنكم يوم الخامس عشر من حزيران. ولكن لا لعلّني مخطئ. عجبًا! «اسكاموتي» أيّ اسم ظريف لمدينة! شكرًا

كثيرًا». أو أقول: «لقد نزل أحد زبائني هنا قبل حين، وقد أضعت عنوانه. فهل أستطيع؟». وكان يحدث بين وقت وآخر، ولاسيّما حين يكون موظّف الاستعلامات منتميًا إلى تلك الفئة السوداويّة، أن كنت أُمنَع من أن أبحث أنا نفسي في السجلّ.

وعندي هنا مذكّرة: بين ٥ تمّوز و١٨ تشرين الثاني، وهو الموعد الذي عدت فيه إلى برادسلي لبضعة أيّام، استأجرت (إن لم أكن قد شغلت فعلاً) غرفة في ثلاثمئة واثنين وأربعين فندقًا أو نزلاً أو مضافة عائليّة. وهذا الرقم يشمل عدّة أوصاف بين «الشاتينيه» و«برادسلي» كشف لي أحدها ظلّ العدوّ («ل. بيتي، لاروس، إيل»). وكان عليّ أن أوفّق بدقّة بين تحقيقاتي في المكان والزمان حتى لا ألفت الانتباه. وفي خمسين مكانًا على الأقلّ، اكتفيت بأن أطرح عدّة أسئلة على المكتب ـ ولكن ذلك كان جهدًا ضائعًا، وكنت أفضّل أن أؤسّس قاعدة من الحقيقة والنيّة الطيّبة بأن أدفع فورًا بدل إيجار غرفة لم أكن أعرف ماذا أصنع بها. وتدلّ أبحاثي التي أجريتها على ما يُقارب ثلاثمائة سجلّ على أنّ زهاء عشرين منها قد شقّت أمامي الطريق: إنّ الخائن التائه كان قد توقّف أكثر منّا أو أنّه قد نصب في طريقه معالم مسهبة ليرهقني بالعلامات الهازئة. ولم يجرؤ إلّا مرّة واحدة على أن يقضي الليل في نزلنا نفسه، على بُعد خطى من وسادة لوليتا وقد أقام معسكره بضع مرّات في الشارع نفسه أو شارع مجاور: وقد نصب الكمين مرّات كثيرة في منتصف الطريق بين مرحلتين مقرّرتين سلفًا. وقد كنت أرى، بدقّة قاسية، لوليتا متمدّدة على سجّادة الصالون قبل ذهابنا إلى برادسلي وهي تدرس الخرائط والأدلّة، وتعلّم الشوارع والمحطّات بإصبع أحمر شفاهها

واكتشفت مرّةً واحدة أنّه قد تنبّأ بمداوراتي وعلّم مروره بألقاب مهينة موجّهة إليّ بالذات. ففي مكتب أوّل نُزلٍ زرته (دار بونديروزا) قفز إلى عينيّ، بين زهاء عشرة أسماء حقيقيّة وبشريّة، توقيعه: «الدكتور غراتيانو

فوربيسون، ميراندولا، ن .ي.» وقد أثّرت عليّ هذه الإرنانات التمثيليّة الإيطاليّة. وتفضّلت المديرة فأخبرتني أنّ السيّد بقي خمسة أيّام في السرير مُصابًا بالزكام، وأنّه ترك سيّارته لإصلاحها في هذا المرآب أو ذاك، وأنّه ترك النزل يوم ٤ تمّوز. نعم، كانت المدعوّة «آن لور» موظّفة في النزل، ولكنّها كانت قد ردّت ثياب الخدمة لتتزوّج سمّانًا من «سيدار سيتي». وفي ليلة سابحة بنور القمر، نصبتُ كمينًا لماري (رجلاً آليًّا بحذاء أبيض) في زقاق منعزل، وكانت على وشك الصراخ، ولكنّي نجحت في تهدئتها بأن سقطت على ركبتي، ثم طلبت معونتها بكلمات تقيّة. وأقسمت لي أنّها لم تكن تعرف شيئًا من هو «غراتيانو فوربيسون» هذا؟ فبدا عليها التردّد. وبحركة سريعة، سحبت من جيبي ورقة من فئة مئة دولار، فرفعتها ماري لتراها على ضوء القمر. «إنّه شقيقك» هذا ما همست به أخيرًا وانتزعت الورقة من يدها ببرودة جصيّة، ثم بصقت شتيمة فرنسيّة، وانفتلتُ ولذتُ بالفرار. وقد علّمتني هذه التجربة أنّي لا أستطيع أن أعتمد إلّا على نفسي. فليس هناك أيّ رجل استخبارات يستطيع أن يكتشف الإشارات التي رسمها «تراب» لفكري وتصرّفاتي. وكان عبثًا بالطبع أن أؤمل أن أجد اسمه وعنوانه الحقيقيين مكتوبين بصورة عفويّة وغير حذرة على سجلّ فندق، ولكنّني كنت آمل أن ينزلق يومًا ما على صمغ دقّته بالذات ـ بأن يجازف مثلاً بإضافة لمسة من لون أوضح وأكثر ذاتيّة ممّا كان ضروريًّا، أو بأن يدعني أنفذ إلى تنكّره بفضل جمع الكسور الكمّيّة التي لا يمكن فهمها وهي منفصلة. ولئن كان قد نجح في أمر، فهو أنّه استطاع أن يوقعني، أنا وقلقي الشديد، في مغطس لعبه الشيطانيّ. لقد كان يدور ويحور، بتوازن غير معقول، عند حافّة الهاوية، ويتركني كلّ مرّة وأنا أرجو رجاءً رياضيًّا ـ إذا جرؤت على استعمال هذه الكلمة لأعبّر عن المكر واليأس والنفور والغضب والاستفظاع ـ أن يخون نفسه في المرّة القادمة. ولكنّه ويا للأسف لم يخن

نفسه قطْ، ومع ذلك، فقد كان أحيانًا على قاب قوسين أو أدنى. فمن منّا لا يتأثّر ببراعة البهلوان، الملطّخ بالقشّ، الذي يمشي، في الضوء الرماديّ، فوق حبله الخشن بخطوة دقيقة؟ كم كان أبرع وأدقّ فنّ البهلوان المترنّح المرتدي ثياب مخوِّف الطيور والمقلّد للسكّير المبتذل؟ إنّ عندي من ذلك الخبر اليقين!

ولئن لم تكن الإشارات التي كان يرسمها هنا وهناك عن هويّته، فإنّها كانت مع ذلك تعكس شخصيّته، أو على أيّ حال مظهرًا واضحًا موحّدًا من مظاهر شخصيّته، إنّ خصائصه وحسّه الفكاهي ـ إذا بلغ ذروته على الأقلّ ـ وطريقة تفكيره، كلّ ذلك كان يشبه خصائصي بالذات. لقد كان يقلّدني ويسخر منّي. وقد كانت إيماءاته تدلّ على إنسانيّته. وكان قد قرأ كثيرًا وكان يعرف الفرنسيّة. وكان هاوي أساطير وتقاليد غراميّة. وكان له خطّ نسائي. وكان يستطيع أن يغيّر اسمه، ولكنّه كان عاجزًا عن أن يغيّر ميزة بعض الأحرف التي يكتبها بخطّه. وكانت جزيرة «كلكوبار» من بين أماكن إقامته المفضّلة. ولم يكن يستعمل قلم الحبر، ممّا يدلّ ـ على ما قد يزعمه لك أوّل عالم طبّ نفسيّ ـ إنّ المريض كان جنّي ماء مجرومًا. ولا يمكن ألّا نتمنى تمنّيًا رحمانيًّا بأن يوجد عرائس ماء في «الستيكس».

وكانت ميزته الطاغية تذوّقه لعذاب «تانتال» القديم. إنّ هذا الشخص كان لعمري عبقريّة حقيقيّة من عباقرة التخويف! لقد كان يتحدّى علمي. وأنا أفخر بأنّي أعرف أشياء صغيرة تجعلني أتواضع لأقرّ بأنّي لا أعرف شيئًا وأعترف بأنّ عدّة عناصر من هذه المباراة الكتابيّة الخفيّة قد فاتتني. أوه وأيّ رعشة انتصار وحقد كانت تهز رأسي الهزيل حين كان لغزه الخائن ينقذف في وجهي من بين الأسماء الطاهرة المبتذلة المرسومة على سجلّ الفندق. وقد لاحظت أنّه حين كان يشعر بأنّ ألغازه مفرطة في الغموض ـ حتى بالنسبة لمتعقّب بارع على غراري ـ فقد كان يردّني كلّ مرّة إلى الطريق

بجاذب طفولي البساطة. وكان هذا الـ «أرسين لوبين» ابتدائيًّا في نظر فرنسي لم ينس روايات شبابه البوليسيّة، ولم يكن بحاجة تقريبًا لأن يكون «كوليريدجيا» ليحمل رسم «أ بيرسون، بورلوك، إنكلترا». وكان يستعمل ألقابًا أخرى أيضًا تدلّ على ذوق جدير بالاحتقار ولكنّها تكشف مخًّا عالمًا ـ ليس هو مخ شرطيّ السير ولا شقي عادي ولا رحّالة تجاريّ فاسد. وهكذا كان «أرثور رامبو» الذي كان يحتمي وراءه بلا شكّ مؤلّف «القارب الأزرق» المتنكّر (دعوني أيّها السادة أضحك هنا قليلاً) أو «موريس سمتر لينغ» مؤلّف «العصفور السكران» (لقد أصبته أيّها القارئ) إنّ «د. أوغون، الهيرا، ن .ي». ينتمي طبعًا، بالرّغم من سذاجته إلى «موليير»، و(أنا الذي حاولت قبل وقت قليل أن أحمل لوليتا على الإعجاب بمسرحيّة مشهورة من مسرحيّات القرن الثامن عشر الإنكليزي) حييت كما أحيّي صديقًا قديمًا». هاري بومبر، «شريدان ويومنغ» وقد دلّتني دائرة معارف منتشرة على العجيب «فينياس كوينبي لبنان، نيوهمبشير»، وأنّ كلّ فرويدي ذا اسم ألماني وبعض الفضول للبغاء المقدّس سيعرف للنظرة الأولى معنى هذا «الدكتور كيتزلرا ريكس ميس». إلى هنا ليس من صعوبة. لقد كان هذا النوع من التسلية ذا جنس رديء، ولكنّه في مجمله لاشخصيّ، وبالتالي غير مؤذٍ. وبالمقابل أراني أنفر من كتابة لائحة جميع الألغاز التي كانت تبرز بمثابة علامات يقينيّة ولكن مغزاها كان يعجزني تمامًا ـ لأنّي أشعر بأنّي أتلمّس في ظلمات آخر الدنيا، بصحبة أطياف كلاميّة مستعدّة للانقلاب إلى رحّالة من لحم ودم. من كان «جوني راندال، رامبل، أوهيو؟». أمن الممكن أنّه زبون حقيقيّ أعطي بالمصادفة خطّ «ن .س. أريستوف نفسه، كتاجيلا، ن .ي؟». وأيّ سمّ كان في «كتاجيلا؟» وما القول في «جيمس ميفور مورال، هوكسفيل، إنكلترا؟». «أريستوفان»، «هوكس» ـ «خداع» حسنًا، ولكن أين كانت الحلقة المفقودة؟ كان يتسلّل عبر جميع هذه الهنات

الألقابيّة لمسة فكريّة، كانت كلّما تميّزتها على طريقي، تثير فيّ خفقات مؤلمة بصورة غير معقولة. وكانت أسماء مثل «ج. تراب، جنيفا، ن .ي.» تشهد بمكر لوليتا. وكان «أوبري برادسلي، جزيرة كيلكوبار» توحي بأنّ نقطة الانطلاق في القضيّة كلّها قائمة على الشاطئ الأطلنطيكي، بأوضح ممّا كشفت عن ذلك المخابرة التلفونيّة المقطوعة في «شامبيون». وكان «لوكاس بيكادور، ميريماي، بانسلفانيا» يوحي بأنّ حبيبتي كارمن كانت قد أطلعت الكاذب، بصورة ماكرة، على غرامياتي المؤثرة. وأيّ قسوة شيطانيّة كانت في اسم «ويل برادون دولوريس، كولورادو»؟ وأمّا الاسم المظلم «هارلود هاز، طمسون، أريزونا»، (الذي كان يمكن أن يدغدغ حسّي الفكاهيّ في ظروف أخرى) فقد كان يوحي بألفة شديدة جدًّا مع ماضي الغلامة حتى إنّي استنتجت منه، في لحظة كابوسيّة، بأنّ عدوّي كان صديقًا قديمًا من أصدقاء العائلة، وربّما كان فارسًا خادمًا من فرسان شارلوت أو مقيلاً للعثرات («دولاند كيشوت، سيرا، نيفادا») ولكنّ النقطة التي جرحتني أقسى جرح هي التوقيع الذي رأيته في سجلّ النُزل «الشاتينيه»: «أ .ن. بيروسلند، نيوهمبشير».

ولم يكن خليط أرقام التسجيل التي كان جميع هؤلاء الأورغون والموريل والبرسون والتراب، يسجّلونه يعني شيئًا في نظري. إلّا أنّ جميع مديري النُزل يهملون تحقيق المعلومات التي يسجّلها زبائنهم سائقو السيّارات. وقد كان من العبث طبعًا أن أطمئن إلى أوصاف جميع السيّارات التي كان الخائن قد استأجرها لمراحل قصيرة بين «واس» و«الفنستون». فالواقع أنّ رقم السيّارة الحمراء المكشوفة «أزتيك» كان يتلخّص في التماع أحرف متغيّرة متبدّلة تشكّل دائمًا تركيبات متجاورة بصورة غريبة (مثلا: «و .س ١٩٩٤» و«س .هـ. ١٦١٦»، و«كـا ـ ٣٢٨٨٨» أو «س .و. ـ ٨٨٣٢٢». وكانت مصنوعة بمهارة شديدة حتى إنّها لم تكن تكشف قطّ عن

قاسم مشترك أعظم.

والتمعت في ذهني فكرة: أنّه لم يكن مستحيلاً، بعد أن ترك هذه السيّارة المكشوفة بين أيدي شركائه في واس، لينتقل إلى نظام الاتّصال بين السيّارات، أن يكون الذين خلفوه (ولعلّهم أقلّ منه حذرًا) قد سجّلوا على سجلّ ما النموذج الأكبر لجميع هذه التركيبات المتشابكة. ولكنّي مدرك بأنّ جميع جهودي لبلوغ الخائن كانت قاسية ومختلطة وعقيمة، بالرّغم من أنّي عرفت الطريق التي سلكها، فهل كان بوسعي أو أؤمل تأميلاً عاقلاً مطاردة سائقي السيّارات مجهوليّ الهويّة الذين يسيرون على دروب مجهولة.

٢٤

حين وضعت قدمَيّ مرّة أخرى في برادسلي كان من شأن المراجعات المتملّكة التي تحدّثت عنها أكثر ممّا ينبغي، أن تحفر في عقلي صورة كاملة لعدوّي. وبفضل طريقة وعرة من الحذف والإسقاط قصرت هذه الصورة على الأصل الحسّي الوحيد الذي تستطيع ذاكرة مخدّرة وترّهات مرضيّة أن تعزوه له.

فباستثناء الكاهن («الأب المحترم ريغور مورتيس»، كما كانت الفتيات يلقّبنه)، وباستثناء جنتلمان عجوز يلقّن دورسًا اختياريّة بالألمانيّة واللاتينيّة، لم يكن هناك أيّ أستاذ من جنس الرجال مرتبطًا ارتباطًا منظّمًا بمدرسة برادسلي. ومع ذلك فقد جاء أستاذ لفن الجمال من الجامعة المتوسّطيّة يعلّق مرّتين أمام التلميذات على عرض بالفانوس السحري كان يمثّل القصور الفرنسيّة ولوحات القرن التاسع عشر. وكنت قد عبّرت عن رغبتي في حضور هذه الجلسات. ولكنّ «دولّي» كانت قد أمرتني، على عادتها، بألّا أفعل. وكنت أذكر أيضًا أنّ غاستون كان قد وصف هذا المُحاضر بأنّه

«فتى لامع»، ولم يكن هذا أمرًا ذا بال: فإنّ ذاكرتي كانت ترفض أن تحمل إليّ اسم هاوي القصور.

وفي اليوم المحدّد للعرض، اجتزت تحت لفحات من الثلج الذائب ساحة جامعة برادسلي، وتوجّهت نحو مكتب الاستعلامات في المبنى المسمّى «مايكر سول». وهناك علمت أنّ صاحبنا يُدعى «ريغز» (اسم قريب من اسم الكاهن) وأنّه كان عازبًا، وأنّه كان قد أوشك أن ينهي درسه وسيخرج من «المتحف» بعد عشر دقائق. فدلفت إلى ممشى «الأمفيتياتر» وجلست على مقعد من المرمر أو من شيء آخر، وهو هبة من السيّدة «سيسليا دارلمبل رامبل». وفيما كنت أنتظر مسمّرًا ومنهوكًا وثملاً ومرهقًا بجميع تلك الليالي الساهرة، ومسدّسي في راحتي، وراحتي في جيب مشمّعي، شعرت فجأة أنّي كنت أسقط في البلاهة وأنّي سأرتكب حركة معتوهة. لم يكن هناك أيّ حظّ من مليون في أنّ «ألبرت ريغز» هذا، الأستاذ المساعد، يحتفظ بحبيبتي لوليتا حبيسة في بيته، «٢٤ ريتشارد رود» برادسلي. إنّه لا يمكن أن يكون الخاطف، فإنّ هذا غير معقول على الإطلاق. وقد كنت أفقد وقتي ورشدي. كلّا إنّه لا يمكن أن يكون هنا، فقد كان في كاليفورنيا معها

وفجأة رأيت حركات خلف مجموعة من التماثيل البيضاء، وفُتح باب ـ ليس هو الذي كنت أرقبه ـ فرأيت رأسًا أصلع وعينين سوداوين مشعّتين يتقدّم صاحبهما على رأس سرب من التلميذات.

وكنت أجهله كلّ الجهل، ولكنّه ذهب إلى أنّنا سبق أن تعارفنا في أثناء حفلة بالمدرسة. كيف كان حال ابنتي الصغيرة الفاتنة التي كانت بارعة كلّ البراعة في التنس؟ وكان عنده درس آخر. فعلى أمل اللقاء مرّة أخرى.

وحدثتْ محاولة أخرى لمعرفة هويّة الخائن. ولكنّ الأمور هنا لم تجرِ بمثل تلك السرعة: فبواسطة إعلان ظهر في مجلّة من مجلّات «لو»، جرؤت

على أن أتّصل برجل استخبارات خاصّ، سارق سابق، وأطلعته على مختلف التواقيع التي كنت قد جمعتها من أجل أن أعطيه فكرة عن الطريق التي يستعملها العدوّ. وطلب سلفات كبيرة، وطوال سنتين ـ سنتين يا قارئي ـ انشغل هذا السخيف بالتحقيق في هذه المعطيات المضحكة. وكنت قد قطعت معه منذ وقت طويل كلّ علاقة مادّيّة، حين طلع عليّ ذات صباح جميل ليبلغني بفخر واعتزاز، أنّه قد وضع يده على شخص في الثمانين من عمره كان اسمه يطابق اسم «بيل براون» ويسكن في جوار «دولوريس» في (الكولورادو).

٢٥

إنّ هذا الكتاب مخصّص للوليتا، أمَا وأنّي أباشر الآن هذا الدفتر الجديد ـ الذي كنت أحبّ أنّ أعنونه (دولوريس المختفية) لو لم يسبقني هذا الشهيد الآخر ذو الغليان الداخلي ـ فإن ممّا يعتبر في غير محلّه أن أتحدّث عن السنوات الثلاث الفارغة التي تلت. وبالرّغم من أنّه لا مناصّ من ذكر بعض الوقائع الملائمة فإنّ الانطباع العامّ الذي أودّ أن أخلقه هو صورة بوّابة منتزعة فجأة من حياة هادئة وتدفّق زمن أسود هادر، عاصفة صافعة تغرق صرخة الغريق المتوحّد.

وكنت أحلم قليلاً أو كثيرًا بلوليتا كما كنت أتذكّرها وكما كانت تحاصر بلا هوادة ذهني الواعي أثناء كوابيس النهار وأرق الليل. والحقّ أنّها كانت ترهقني أيضًا في نومي، غير أنّها لم تكن تظهر لي آنذاك إلّا متنكّرة بطريقة غريبة ومضحكة، تحت ملامح «فاليري» أو «شارلوت» أو خليط من الإثنتين. وكان هذا الشبح المعقّد يقترب منّي، نازعًا أستاره واحدًا عقب واحد، في جوّ من الكآبة والنفور اللامتناهيين، ثم كان يتمدّد

في بشاشة على لوح خشبيّ ضيّق أو ديوان خشن وقد تفتّح لحمه كصمّام مطّاط لنُفيْطة كرة. وكنت أجدني، وقد تحطّمت أسناني المستعارة أو تطايرت بلا أمل، في غرف كريهة مؤثّثة كانوا يعرضون عليّ فيها جلسات تشريح فخمة تنتهي عامّةً بالدموع ـ «شارلوت» أو «فاليري» تبكي بين ذراعَيَّ، بينما أغطّي وجهها بقبّل أخويّة لطيفة، كلّ ذلك وسط دكّان حُلمي من تحف ڤيينا المعروضة بالمزاد العلنيّ ومن الشفقة والعجز والشعر الأحمر الفاجع لنساء عجائز محكومات بالاختناق في غرف الغاز.

وذات يوم، أخرجت من السيّارة ركامًا من مجلّات الأولاد أسرعت في حرقها. وأنتم تعرفون نوع هذه المجلّات: ترجع إلى العصر الحجريّ من ناحية الموضوع، وإلى ذوق العصر من الناحية الصحّيّة. الممثّلة الرائعة الناضجة ذات الجفون المفرطة في الطول، والشفة السفلى البنفسجيّة اللبّ ـ التي توصي بنوعٍ معيّن من «الشامبوينغ». إعلانات ودعايات. التلميذات العصريّات شديدات الإعجاب بالتنانير المكسّرة ـ ما كان أبعد ذلك! إنّ من واجبكِ كربّة منزل أن تضعي برانس تحت تصرّف المدعوّين. حذارِ التفاصيل الزائدة التي تُبهت رونق محادثاتكم. لقد رأيتم جميعًا أولئك الذين يشذّبون نباتاتهم في أثناء حفلة المكتب الراقصة. وعلى كلّ رجل، إذا لم يكن كبير السن أو كبير المقام، أن ينزع قفّازيه قبل أن يصافح سيّدة. نادين «الحبّ» بأن ترتدين الصدريّة المصغّرة الجديدة الرائعة التي تبرز القامة وتشذّب القوام. أخبار «تريستان» في مقابر هوليوود. عمّقن سحركنّ! حالاً! وبصورة توفيريّة! شرائط ملوّنة. العفريتة الصغيرة ذات الشعر الأسود مع أبيها الغليون. الفتاة البريئة ذات الشعر الذهبي مع أبيها الأنيق ذي الشارب الرقيق ـ أو تلك القصّة المغثية عن القرد وامرأته. أوه! لوليتا، وأنا الذي كنت أهبك عبقريّتي! فأنظم لك القصائد والأشعار؟!

ولكن هناك ذكريات أخرى باقية منها لم أستطع أن أنفصل عنها إلّا

ممزّقًا. فحتى نهاية ١٩٤٩، ظللت أحبّ وأدلّل وأُغرق بالقُبَل والدموع زوجًا من الحذاء المقطّع الصغير، وقميصًا صبيانيًّا كانت قد ارتدته، وسروالاً قديمًا وجدته في صندوق السيّارة الخلفيّ، وقبّعة تلميذة مخطّطة ـ ومئة كنز آخر شهوانيّ.   وكنت، إذ أحسّ رشدي ينهار آنذاك، أجمع هذه الثروات المتناثرة وأضمّ إليها ما كان مركومًا في برادسلي ـ صندوق كتب، درّاجتها، معاطف قديمة ـ وفي يوم ذكرى ميلادها الخامس عشر، أرسلتها كلّها هديّةً مغفلة إلى ميتم للفتيات، على شاطئ بحيرة تصفعها الرياح عند تخوم كندا

ولو كنت قد استشرت منوّمًا مغناطيسيًّا قادرًا، فلربّما كان باستطاعته أن ينتزع بعض الذكريات العارضة التي نثرتها في هذه الصفحات بقدر من الفخفخة يتعدّى ما كان لها في ذهني، الآن وقد عرفت ما ينبغي لي أن أبحث عنه في ماضيّ. ربّما كان باستطاعته أن ينتزع هذه الذكريات ليعود فيجمعها في حبكة منطقيّة. وقد كنت أشعر، في ذلك العهد، بأنّي أفقد كلّ اتّصال بالواقع، ولهذا عزمت، بعد أن قضيت نهاية الشتاء ومعظم الربيع التالي في مصحّ بمدينة «كويبك» كنت قد أقمت فيه من قبل، عزمت على أن أنهي أوّلاً بعض الأشغال في نيويورك، قبل أن أقصد كاليفورنيا لأقوم بتحقيق بحثيّ معمّق.

وهذا شيء نظمته في تلك العزلة:

ضاعت دولوريس هاز. وصفها:

فم قرمزيّ، وشعر أسود.

عمرها: خمسة آلاف وثلاثمائة يوم (خمسة عشر عامًا عمّا قريب).

مهنتها: «عدم» (أو «نجمة»).

أين نبحث عنكِ يا دولوريس؟ وأيّ بساط

سحري يحملكِ إلى أيّ كوكب؟
وما هو جنس السيّارة التي
ترتعش عند بابكِ؟
من هو إلٰهك الجديد؟ ذلك المغنّي الدّعيّ
حامل القيثار في حانة «ريماتان»
آه! يا لأمسيات الماضي الجميلة إذ كنّا نبقى
إلى ساعة متأخّرة متعانقيْن قرب النار، يا بدويّتي!
إنّ هذا الملعون «ورليتزر» يجنّني يا لوليتا
ومع من ترقصين يا حبيبتي الطائشة؟
أنت وهو في تبّان ملآن بالثقوب
وأنا وحدي أرقبكِ في زاويتي!
إنّ ماك فاتوم القرد العجوز سعيد جدًّا لعمري
مع امرأته ـ الطفلة يسافر.
والباحثة في الحدائق التي يحمي فيها القانون
كلّ حيوان متوحّش
لوليتا! عيناها الرماديّتان تبقيان مفتوحتين
حين كنت أقبّل فمها المغلق
قل لي: أتعرف عطر «الشموس الخضراء»؟
عجبًا! أظنّ أنّك فرنسيّ؟
ذلك المساء، ألزمني هواءٌ باردُ الفراشَ
ومجنون هو الذي يلجأ إليه!
وكان الثلج يتساقط، فانهار الديكور يا لوليتا!

وما الذي عملتِه بحياتكِ يا لوليتا!
انتهى الأمر، إنِّي أموت يا حبيبتي لوليتا، يا لو
أجل، أموت ندمًا وحقدًا
ولكن هذه الراحة المنشعرة أرفعها من جديد
لقدميك، من جديد، أجرجر نفسي.
هيه، الشرطة! ها هم أولاء يزحفون
إزاء نور الواجهة التي تسحقها العاصفة:
جوارب بيضاء: إنّها هي! يا لقلبي المسكين!
إنّها هي، إنّها دولوريس هاز!
أعِدْها إليّ أيّها الضابط، حبيبتي لوليتا، لو
ذات العينين القاسيتين والشفتين العذبتين
لوليتا: واحد وأربعون كيلو على الأكثر
حبيبتي لو، طولها ستّون بوصة
إنّ سيّارتي المرهقة في حالة رديئة جدًّا
وأقسى المراحل هي المرحلة الأخيرة
وفي عشب حفرة، سأموت يا لوليتا
وكلّ شيء ما عدا ذلك كلام وأدب[1]

ولا بدّ أن ألاحظ، إذ أحلّل هذه القصيدة تحليلاً طبِّيًّا نفسيًّا، بأنّها أثر رائع من آثار عاشق مجنون. إنّ قوافيها العارية، الصلبة الباهتة توازي تمامًا بعض المناظر أو الصور المخيفة التي ليس لها منظور، أو بعض تفاصيل

(١) لا شكّ في أنّ هذه القصيدة قد فقدت كلّ رونقها عند نقلها إلى العربيّة نثرًا. ولكن إثباتها ضروري للسياق. (المترجم).

الصور والمناظر التي يرسمها المرضى النفسيّون خلال التجارب التي يتصوّرها مروّضوهم المحتالون إلى حدّ بعيد. وقد كتبت قصائد أخرى، وغرقت في شعر الآخرين، ولكنّي لم أنس لحظة واحدة عبء الانتقام.

لن أكون من النفاق بحيث أقول ـ ولا أنتم من السذاجة بحيث تصدّقون ـ بأنّ الصدمة التي أحدثها فقط لوليتا قد نجحت في أن تشفيني من «البيدوفيليا». فحتى لو تطوّر حبّي لها، فإنّ طبيعتي الفاحشة لم تكن تستطيع ذلك. لقد كان نظري الكئيب الخاطف ما يزال يبحث بالرّغم منّي، فوق الشاطئ وحدائق اللعب، عن رونق ذراع أو ساقٍ جنّيّة، هذه العلامات الخفيّة التي كنت أعرف بها وصيفات «لو» وآنسات شرفها ولكنّ شهوة رئيسيّة كانت قد تقلّصت فيّ، فلم أعد أحلم أبدًا بإمكانات النشوة مع غلامة، خاصّة أو مركّبة في منعزل بعيد! لم تعد أوهامي تزرع قطّ مخالبها في شقيقات لوليتا بمنجًى من حدائق الجزر العجيبة البعيدة. أجل: لقد انتهى هذا ـ الآن، على كلّ حال. ومع ذلك فإنّ هذين العامين من السكر الشيطاني كانا مع الأسف قد زرعا في جسدي بعض العادات الشهوانيّة. وكنت أخشى أن يجرّني فراغ حياتي أن أغرق في تيّار حرّيّةِ جنونٍ مفاجئ لمجرّد أن ينصب لي القدر فخًّا مغريًا في زقاق مظلم بين الصف والعشاء. لقد كانت الوحدة تسمّمني شيئًا فشيئًا. وكنت بحاجة إلى حضور إنسان، إلى عناية إنسان، إنّ قلبي لم يكن بعدُ إلّا عضوًا رخصًا هستيريًّا وإذ ذاك دخلت «ريتا» المسرح.

٢٦

كان عمرها ضعفَيْ عمر لوليتا وثلاثة أرباع عمري: فتاة بالغة نحيلة، شديدة بياض البشرة، شديدة سواد الشعر، زنتها زهاء خمسين كيلو، ذات

عينين جميلتين جدًّا وبلا تناظر، ووجه جانبيّ مقرّن يبدو كأنّه رُسم على عجل، وظهر مَرِن ذي تقويرة فاتنة ـ وأعتقد أنّ في عروقها بعض قطرات من دم إسبانيّ أو بابليّ. ولقد قطفتها ذات مساء فاسد من أيّار، في مكان ما بين مونتريال ونيويورك، أو على الأدقّ، بين «تويلستون» و«بلاك»، في حانة متّقدة معتمة، تدعى «فراشة الليل المنتحرة». وكانت ثملة بلطف، وقد ذهبت إلى أنّنا كنّا معًا في المدرسة، ووضعت يدها المرتجفة على يدي القرديّة. ولم تكن حواسّي مشحوذة إلّا قليلاً، ولكنّي عزمت على أن آخذها على سبيل التجربة. وهكذا كان، فسرعان ما تبنّيتها بصفة رفيقة دائمة. وكانت ريتا أنيقة جدًّا ولطيفة جدًّا وأحسب أنّها كانت ستستلم لأيّ كائن أو لأيّ وهم عاطفيّ من مثل شجرة هرمة منهارة أو خنزير محتاج، لمجرّد اندفاع رفقةٍ أو شفقة.

وحين تعارفنا، كانت قد تطلّقت من زوجها الثالث قبل حين، وكان قد هجرها، قبل حينٍ أقصر، فارسها السابع ـ أمّا الآخرون القابلون للمبادلة، فإنّ عددهم وصفتهم العابرة يجعلان أيّ تسمية لهم أو تعداد مستحيلاً وقد كان لها في ذلك العهد، وما يزال، شقيق مرموق (أحد هؤلاء الساسة ذوي السحنة المعجّنة والذين يلبسون مشدّات وربطات عنق مطليّة باليد). وكان في وقت واحد رئيس بلديّة مسقط رأسه وبطلها المتعصّب، وهي مدينة هواة لكرة القدم وباعة الحبوب وقرّاء الكتاب المقدّس. وكان منذ ثمانية أعوام يدفع بضع مئات من الدولارات في الشهر لأختها الصغيرة الطيّبة شريطة ألّا تضع قدميها قطّ في «غرينبال»، هذه المدينة الصغيرة الطيّبة. على أنّ كلًّا من عشّاقها الجدد، كما روت لي وهي تتمتم تمتمات ضيق، كان لا يحرص على شيء أكثر من حرصه على أن يأخذها إلى مدينة «غرينبال» هذه؟ جاذبيّة مشؤومة، لأنّها ما إن تقول «أوف» حتى تجد نفسها مشروقة في محور المدينة ومحكومًا بأن تتدحرج بلا أمل

فوق سطيحة النور الذي كان يحيط بها ـ «وكنت (على حدّ تعبيرها) آخذ في الدوران كفراشة ليل مجنونة!».

وقد قمنا برحلتنا إلى كاليفورنيا في سيّارتها، فقد كان عندها سيّارة أنيقة جدًّا، طلبًا للراحة. وكان سيرها الطبيعي مئة وأربعة كيلومترات في الساعة. ويا لريتا المعبودة! لقد تهنا عامين مذنبين من صيف ١٩٥٠ إلى صيف ١٩٥٢، ولا يمكنكم أن تتصوّروا «ريتةً» ألطف ولا أطهر ولا أضيق عقلاً منها. فبإزائها كانت «فاليتشكا» تعادل «شليغل»، وكانت شارلوت توازي «هيغل». وليس هناك ما يبرّر على الإطلاق أن أهاجمها، على هامش هذه الذكريات الحزينة، ولكن اسمحوا لي أن أقول (وتحيّة لك يا ريتا، حيث تكونين، سكرى ضائعة أو واعية، تحيّة يا ريتا) بأنِّي لم أرزق قطّ رفيقة في مثل لينها وتفهّمها، وأنا مدين لها وحدها بتجنّب الأغلال. وقد شرحت لها أنِّي كنت أحاول أن أبحث عن يتيمة وأن أخرق كرش خاطفها فأعلنت استعدادها التامّ لمشاطرتي البحث. وباشرتْ تحقيقًا خاصًّا من تلقاء نفسها (بالرّغم من أنّها لم تفهم شيئًا من القضيّة) ولكنّها وقعت في ورطة مع شقيّ مخيف، في «سان همبرتينو»، فكان عليّ أن أنطنط كالعفريت لأخلّصها من هذه الورطة التي نالها فيها الضرب والأذى، ولكنّها ظلّت متغرلمسة. وبعد قليل من الزمن، وضعت في رأسها فكرة أن تلعب الروليت الروسيّة مع سلاحي الروسيّ المقدّس. فأجبتها: «هذا مستحيل، فإنّه ليس مسدّسًا». واشتبكنا وكلّ منّا يودّ الحصول عليه، وأخيرًا انطلق من تلقاء نفسه، دافقًا دفعة ماء ساخن ومضى يبوّل بطريقة طريفة من الثقب المحدث في جداره! وما زلت أسمع صيحات جذلها وسرورها.

وقد وقاني من عواطفي المخجلة انحناءة ظهرها اللابالغ، وبشرتها الرزيّة وبطء قبلاتها اليماميّة الناعسة. إنّ ما يشكّل الصفات الجنسيّة الثانويّة ليس على الإطلاق الملكات الفنّيّة، كما يزعم بعض الدجّالين، فعلى

العكس تمامًا: إنّ النزعة الجنسيّة ليست إلّا مظهرًا خادميًّا للفنّ، وأظنّ أنّ من المفيد أن أروي هنا مغامرة غريبة ليست عواقبها خالية من الفائدة. لقد تخلّيت عن بحثي: فإنّ الخائن كان في ترتاريا أو كان ينتهي من الاحتراق في أتون عقليّ (الذي كانت مخيّلتي ويأسي يضرمان ناره). ولكنّه بكلّ تأكيد لم يكن على الشاطئ الباسفيكي يعدّ دولوريس هاز لبطولة التنس. وكنّا قد توجّهنا نحو الشرق فنزلنا في فندق كريه ـ إحدى تلك المقصورات التي يجتمع فيها مختلف أنواع البشر والتي يتجاور فيها شيوخ وأطفال في خليط من الأسماء والأرقام والخمر. وبعد ظهر أحد الأيّام، استيقظنا، أنا وريتا الطيّبة، لنجد في غرفتنا شخصًا ثالثًا شابًّا أشقر ممّا ينبغي ذا جفون بيضاء وأذنين كبيرتين شفّافتين. ولا أذكر ولا تذكر ريتا أنّنا سبق أن رأيناه في حياتنا البائسة. وكان يرشح عرقًا في ثيابه السميكة القذرة وينتعل حذاءً عسكريًّا، وكان يشخر بلا خجل فوق سريرنا، من جهة طاهرتي ريتا وكان ينقصه سن أماميّة، وكانت دمامل عنبريّة صغيرة تزدهر على جبينه. وغطّت ريتوتشكا عريها المتموّج بمشمّعي ـ وكان أوّل رقعة تحت يدها ـ بينما ارتديت أنا سروالاً مخطّطًا، وبعد ذلك ندرس الموقف. واكتشفنا خمسة أقداح وسخة، ممّا يدلّ على فيض الخيرات، وكان الباب غير مغلق بإحكام. وكان تبّان وبنطلون كاكي مدعوك مبسوطين على الأرض. فهززنا صاحبها هزًّا مستمرًّا حتى استعاد وعيه. وكان مصابًا بفقد الذاكرة. وحين تكلّم بلهجة ريفيّة حكمت ريتا بأنّها ذات أصل بروكليني ادّعى وهو ينتحب أنّنا كنّا نتآمر نحن الاثنين لننزع منه هويّته المسكينة. ودفعناه بثيابه دفعًا قويًّا ثم تركناه في أقرب مستشفى ـ لنلاحظ فجأة بعد سلسلة من الانعطافات الشاردة، أنّنا كنّا قد وصلنا بأعجوبة إلى وسط مدينة غرينبال. وبعد ستّة أشهر تقريبًا كتبت ريتا للطبيب أخبارًا فأجابها بأنّ جاك همبرستون، كما عمّدناه بلا حياء، كان لا يزال مقطوعًا عن ماضيه.

وما كان لي أن أذكر هذا الحادث لو لم يخلق موكبًا من الأفكار تمثّلت في دراسة نشرتها في مجلّة «كانتريب ريفيو» تحت عنوان: «ميمر والذاكرة» عرضت فيها (فيما عرضت من تكّهنات استقبلها القرّاء المحسنون على أنّها اكتشافات مبتكرة وآسرة) نظريّة للزمن المحسوس القائم على جريان الدم والمتوقّف فكريًّا (وأشرح لكم القضيّة بكلمة) على قابليّة الذهن ليعي ليس فقط المادّة وإنّما أيضًا الذاتيّة التي يستطيع ابتداء منها أن يخلق صلة مستمرّة بين قطبَيْ (المستقبل الذي هو في طريق التسجّل والماضي الذي سُجّل). وكانت نتيجة هذا الفتح الجريء ـ الذي أكّد الانطباع الحسن الناشئ عن أعمالي السابقة ـ أن دُعيت إلى مغادرة نيويورك، حيث كنت أعيش آنذاك مع ريتا في منزل صغير يطلّ على غلمان ذوي بشرات ملتمعة يغتسلون تحت دفقات الماء في غابة «سنترال بارك» الصغيرة، وإلى أن أقيم لمدّة عام في جامعة «كانتريب» التي تبعد ستمئة كيلومتر تقريبًا ولقد أقمت هناك في أحد المنازل المخصّصة للفلاسفة والشعراء، من أيلول ١٩٥١ إلى حزيران ١٩٥٢، بينما كانت ريتا (التي كنت أفضّل أن لا أعرضها بصحبتي) تأسن، بطريقة سيّئة ـ وأعترف بذلك ـ في نزل للمسافرين كنت أزورها فيه مرّتين كلّ أسبوع. ولقد اختفت ذات مساء اختفاء مفاجئًا، ولكنّه أقلّ قسوة من اختفاء سابقتها ـ ولم أجدها ثانية إلّا بعد شهر في سجن المحلّة. وكانت الرصانة بادية عليها، وقد تدبّرت أمرها لتستأصل زائدتها الدوديّة، بل هي قد نجحت في إقناعي بأنّ الفراء الجميلة الرائعة التي اتّهمت بسرقتها من سيّدة تُدعى «رونالد ماك كروم» كانت هديّة تلقائيّة من السيّد رونالد، زوجها وقد استطعت إطلاق سراحها بدون حاجة للجوء إلى أخيها النزق جدًّا، ثم عدنا إلى «سنترال بارك ويست»، عن طريق «بروسولاند»، حيث كنّا قد توقّفنا بضعة أيّام في العام السابق.

وكانت تحرّكني حاجة غريبة ملتهبة لأبتعث الساعات التي كنت قد

قضيتها هناك مع لوليتا والواقع أنّي كنت أقترب من مرحلة جديدة من حياتي، كنت قد فقدت على عتبتها كلّ أمل بلقاء «لو» وخاطفها ولم أكن أحاول آنذاك ألاّ أن ألتمس الإطارات القديمة لأحافظ على كلّ ما يمكن أن يمتّ إلى الماضي ـ «أيّتها الذكريات، أيّتها الذكريات، ماذا تريدين منّي؟» وكان الخريف يقرع أجراسه في الهواء. وجوابًا على البطاقة البريديّة التي أرسلها البروفسور هامبورغ لحجز غرفة بسريرين، تلقّى جوابًا يعبّر عن الأسف المتأدّب. لقد كانت جميع الغرف محجوزة. ولم يكن باقيًا إلّا غرفة تحت الأرض بأربعة أسرّة، ولكن ليس فيها حمّام، وهي غرفة لم أكن أرغبها بالطبع، وكان مغلّف الرسالة التي بعثوا بها إليّ يحمل العنوان التالي:

«الصيّادون المسحورون»

قريب من الكنائس الكلاب غير مقبولة

جميع المشروبات مشروعة

وتساءلت عمّا إذا كان هذا التأكيد الأخير ينطبق على الواقع. جميع المشروبات حقًّا؟ هل هم يقدّمون مثلاً «شراب رمّان الوادي»؟ وتساءلت أيضًا عمّا إذا كان الصيّادون، مسحورين أو غير مسحورين، ليسوا بأحوج إلى كلب منهم إلى مركّع للآله، واستعدت في ذهني، بتشنج مؤلم، مشهدًا جديرًا بفنّان كبير: «جنّيّة صغيرة مقرفصة، ولكن ربّما كان هذا الكلب الحريريّ قد عُمّد. كلّا، لم يكن في وسعي أن أتحمّل عذاب رؤية باحة الفندق هذه مرّة أخرى. على أنّ مدينة بريسولند العذبة التي كان الخريف يرسمها بألوان غنيّة كانت تمنحني إمكانات أخرى للقاء الزمن الضائع. وتركت ريتا في حانة، وقصدت المكتبة الوطنيّة. وأسرعت آنسة عجوز متمتمة لتساعدني بحماسة على استخراج مجلّد منتصف آب ١٩٤٧ من مجموعة «غازيت» بريسولند، وجلست في عشّ منعزل تحت الضوء العاري

وبدأت أقلّب صفحات هذه المجموعة الكبيرة الرخصة المسودّة والتي تكاد تبلغ طول لوليتا

أوه! أيّها القارئ! أيّ همبورغ مضحك هذا الهامبورغ! إنّ ذهنه المفرط الحساسيّة كان ينفر دون شكّ من مجابهة مسرح ماضيه بالذات، ولكنّه كان يحلم مع ذلك بتذوّق تفاصيله السرّيّة، شأنه في ذلك شأن الجنديّ العاشر أو العشرين في صفّ الانتظار، ذلك الجنديّ الذي، حين يأتي دوره في الجماع، يلقي على وجهه الأزرق غلالة الفتاة حتى لا يرى تلك النظرة التي لا تطاق، فيما هو يستوفي لذّته العسكريّة في خرائب القرية المسلوبة. وإنّ ما كنت أطمع فيه، إنّما كان الصورة المطبوعة التي استغرقت شبحي الذي اعترض الحقل في اللحظة نفسها التي كان فيها مصوّر «الغازيت» يركّز انتباهه على الدكتور «برادوك» وجماعته. كنت أرغب رغبة شديدة في أن أتأمّل صورة الفنّان حين كان وحشًا شابًّا ـ همبرت البطل. وأيّ فخّ سحريّ رائع أن أكون قد طبعت صورة طاهرة وأنا في طريقي المظلمة نحو سرير لوليتا! إنّني لا أستطيع أن أشرح تمامًا طبيعة هذا الشعور العميقة وأحسب أنّها قريبة من الفضول المبهور الذي يدفعك إلى ترصّد الأشكال الصغيرة المثلجة الشبيهة بصور الطبيعة الميّتة والتي تشاهد وهي على حافّة الغثيان عمليّة إعدام، وها هو الفجر، وها إنّ تعبير المحكوم لا يمكن سبر غوره على الصورة. وبالاختصار كنت فاقد النَفس تمامًا وكانت إحدى زوايا المجلّد المشؤوم تطعن معدتي بينما كنت ألمح وأقلّب كلّ صفحة. وكانت قاعتا سينما المدينة تعلنان عن فيلم «القوّة الوحشيّة» و«المأخوذة» ليوم الأحد ٢٤. وكان السيّد «بوردوم» ملتزم تبغ فرجينيا المستقلّ يصرّح بأنّه لم يكن يدخن إلّا سجاير «أومن فوس توم» منذ عام ١٩٢٥ وبعد حفلة العرس كان «هنغ» الجميل وزوجته الفاتنة مدعوّي الشرف عند السيّد والسيّدة «ريجنالد ج .غور، ٥٨ إنشكايت أفنيو». وكان

بعض الطفوليين يبلغون سُدس حجم مضيفهم. وقد عُزّزت «دنكرك» في القرن العاشر. جوارب قصيرة للأوانس بـ ٣٩ سنتًا. أحذية موكسان بـ ٣,٩٨ دولار. أمّا المغني الموهوب في فيلم «عصر الظلمات» الذي رفض أن تؤخذ له صورة مع الأسف، فقد أسعدنا بطرف أغنية: «أوه، يا خمر، يا خمر، يا خمر، أنّك تفرح بكلّ تأكيد الحسّون الفارسيّ، ولكنّي أنا أصيح. يا مطر، يا مطر، يا مطر، اجعل الورود تحمرّ على سقف كوخي واجعل القيثارة تغني في جوف قلبي». إنّ الخدود تتشكّل من التصاق الجلد بالأنسجة التي تحت الجلد. اليونان يصدّون هجومًا عنيفًا للمتمرّدين. وفجأة، آه أخيرًا! شبح صيّاد أبيض، والأب المحترم برادوك بالأسود ـ ولكن مهما كانت الكتف الشبحيّة التي كانت تلامس كرشه فإنّي لم أستطع أن أجد في ذلك أدنى انعكاس منّي.

وعدت إلى ريتا التي قدّمت لي شيخًا متهدّمًا ثملاً وهي تشرح لي بابتسامتها اليسيرة الباهتة الملطّخة بالخمر الحزين، أنّه كان أحد رفاق صفها القدماء. وأراد أن يستبقيها، وفي أثناء التماسك القصير الذي حدث بعد ذلك دعكت إبهامي على صلعته اللامعة. واستصحبت ريتا إلى حديقة منقّشة صامتة لنستنشق الهواء، فأخذت تنتحب وهي تقول إنّني سأتركها عمّا قريب، عمّا قريب، كجميع الآخرين، فغنّيت لها إذ ذاك أغنية فرنسيّة كئيبة أضفتُ إليها بعض القوافي الفارّة لأرفع معنوياتها:

كان اسم هذا المكان «الصيّادين المسحورين»

وكان الخريف المضيء يمزج أوراقه الصفراء

بجدران الفندق الزرقاء المنعكسة في البحيرة.

وصاحت: «ولماذا زرقاء ما دامت الجدران بيضاء، بربّك لماذا هي زرقاء؟». وعادت إلى بكائها، فدفعتها نحو السيّارة واستأنفنا طريقنا إلى

نيويورك، وما لبثت أن وجدت ظلًّا من السعادة في الدوائر الضبابيّة العالية فوق حديقة منزلنا. إنّني ألاحظ أنّي شابكت فصلين متمايزين ـ الإقامة القصيرة التي قضيتها في بيرسولند على طريق «كانتريب» ورحلتنا الثانية حين عدنا إلى نيويورك. ولكنّ الفنّان لا يستطيع أن يهمل هذا الامتزاج في ألوان الذكرى الرقّافة.

٢٧

كانت علبتي البريديّة، في ممرّ البناية، من تلك العلب التي تتيح رؤية جزء من محتواها، بفضل فتحة زجاجيّة قائمة فيها. وقد حدث بضع مرّات، بسبب انعكاس أشعّة ملوّنة تتسلّل عبر الزجاج، أن تحوّلت كتابات مجهولة إلى نسخة طبق الأصل من خطّ لوليتا، فإذا بي تخور قواي فأضطرّ إلى التمسّك بالصندوق المجاور الذي كاد يصبح صندوقي. وكلّما كان يحدث هذا ـ تتحلّل خربشتها المضيئة ذات الخصلات الطفوليّة، بفساد فظيع لتصبح خطّ أحد أصدقائي النادرين ـ كنت أجترّ، في لذّة ممزوجة بالمرارة، أيّام ماضيّ الذي يسبق العهد الدولوري، إذ كان نظري المترصّد، هذا المئفاق الذي لا يكلّ لعاطفتي المخجلة، يميّز في البعيد، عبر ضوء النافذة المواجهة، جنّيّة نصف عارية تسرّح شعرها، فكأنّها «أليس» مسمّرة «في بلاد العجائب». وكان هذا الوهم البصريّ، بسبب اكتماله بالذات، يقذفني في أتون شهوة مكتملة هي أيضًا، لأنّ الرؤية إنّما كانت خارج حدود التحقّق، وهي بالتالي محرّرة من خوف المحرّمات التابعة، والحقّ أنّ مصدر الجاذبيّة التي يحدثها فيّ عدم النضج ليس هو صفاء هذا الجمال الجنّي النقيّ الداعر الذي تتمتّع به الغلامات، بقدر ما هو طمأنينة موقف يسدّ فيه الكمال المطلق الفجوة القائمة بين القليل المعطى والكثير الموعود ـ ذروة ما لا

يدرك. أوه، يا لنوافذي! لقد كنت أقوم هناك، مصطكّ الأسنان، فوق بُقَع الشمس الغاربة وتدفّق الظلمات الثقيل، فأجمع جميع شياطين الشبق ضدّ درابزون الشرقيّة المهتزّة ـ إذ يكونون على وشك أن يقذفوا بأنفسهم في لزوجة الشفق السوداء الحامزة، ثم يطيرون آخر الأمر ـ وسرعان ما تتحرّك الصور المضيئة، وتعود حوّاء إلى الركن، ولا أعود أرى خلف النافذة إلّا رجلاً سمينًا بشعًا يقرأ صحيفته.

والحمد الله أنّي كنت أفوز أحيانًا بالنصر في هذا السباق بين أوهامي وواقع الطبيعة، ولهذا كانت خيباتي تظلّ محتملة، ولكنّ الأمر يختلف حين كان القدر يدخل الحلبة ليحرمني البسمة المرصودة لي. «أتعلم أنّ صغيرتي كانت، وهي في العاشرة، مجنونة بحبّك؟» هذا ما قالته لي ذات يوم امرأة أثرثر معها، في أثناء تناول الشاي، بباريس ـ وكانت «الصغيرة» قد تزوّجت حديثًا، غير بعيد من هناك، وكنت عاجزًا عن أن أتذكّر إذا كنت قد رأيتها في هذه الحديقة، خلف ملعب التنس، منذ اثني عشر عامًا تقريبًا والآن، كما في السابق، فإنّ هذه الرؤية المشعّة، وهذا الوعد بالتحقّق (وليس وهمًا ساحرًا، بل هو وعدٌ مضروب حقًّا وموفى به) إنّ كلّ ذلك كان محرّمًا عليّ من قبل القدر ـ وضعف مفاجئ في خطّ مراسلتي المحبوبة الباهتة. ففي ذلك الصباح، حوالى منتصف أيلول ١٩٥٢، بينما كنت هابطًا لآخذ بريدي، بدأ البوّاب، وهو رجل نشيط نزق كانت علاقاتي معه سيّئة جدًّا، يعنف السيّد الذي كان يصحب «ريتا» في مساء سابق ولكنّه كان يبدو «مريضًا كالكلب» عند حاجز البناية. وبينما كنت أستمع إليه. وأحاول أن أبرطله، وأستمع إلى رواية جديدة مزيدة ومنقّحة عن الحادث، شعرت بأنّ إحدى هاتين الرسالتين اللتين يحملهما لي هذا البريد الملعون صادرة عن أمّ «ريتا»، وهي امرأة قصيرة طائشة زرناها يومًا في منزلها في «كاب كود» كانت لا تفتأ تكاتبني على مختلف عناويني لتعبّر عن شديد إعجابها بأن

نؤلّف أنا وريتا هذا الزواج المعجب، وكم سيكون رائعًا معجبًا أن نتزوّج، وأمّا الرسالة الثانية التي فضضتها وقرأتها على عجل في المصعد، فكانت من «جون فارلو».

لقد لاحظت مرارًا أنّنا شديدو الميل إلى أن نعزو لأصدقائنا مثل ذلك الثبات في الشخصيّة الذي يكتسبه أبطال الروايات في عيون قرّائهم. ومهما أعدنا قراءة «الملك لير»، فلن نجد الحاكم الطيّب مفرطًا في الطعام على الإطلاق، وسنجد جميع همومه منسيّة، وسنجده رافعًا إبريقه المذهّب في وليمة فاجرة بصحبة محظياته الثلاث وكلابهن النائمة. ولن نرى أبدًا «إيما» تتحسّن أو ينقذها ملح الدمع الفلوبيرتي الذي يسقط على تخريمة أبي المؤلّف. وأيًّا ما كان التطوّر الذي يصيبه هذا البطل الشعبي أو ذاك بين الصفحة الأولى والفهرست، فإنّ مصيره مرسوم في ذهننا، وعلى هذا الغرار ننتظر من أصدقائنا أن يسلكوا هذا الطريق المنطقيّ التقليديّ أو ذاك الذي نرسمه لهم. وهكذا لن يستطيع فلان أبدًا أن يؤلّف الكتاب الخالد الذي يعاكس الأنغام الثانويّة التي عوّدنا إيّاها وهكذا أيضًا لن يصبح علاّن قاتلاً أبدًا، ولن تستطيع فلانة، في أيّ ظرف أن تخوننا وعلى هذا النحو نركّب كلّ شيء في ذهننا: فبقدر ما تقلّ رؤيتنا لكائن معيّن بقدر ما نُسرّ كلّما سمعنا حديثًا عنه، بأن نعلم إلى أيّ حدّ من الوداعة ينسجم مع الرأي الذي كوّناه عنه. وأنّ أيّ تغيير في المصائر التي نكون قد حبكناها سيبدو لنا غير طبيعي بل غير أخلاقي، فنحن نفضّل أن لا نكون قد عرفنا جارنا، بائع البطاطا المقليّة المتقاعد، إذا بلغ سمعنا أنّه قد نشر أروع مجموعة من قصائد العصر.

ليغفر لي القرّاء هذا الاستطراد الذي تكمن غايته الوحيدة في التعبير عن الانزعاج الذي استولى عليّ حين قرأت رسالة «فارلو» الذاهلة. صحيح أنّي كنت أعرف أنّ امرأته قد ماتت ولكنّي كنت أؤمن بأنّه سيظلّ في عهد

ترمّله التقي. الرجل المعتدل التافه الذي كان أبدًا. وها هو يكتب لي أنّه قد سافر مرّة أخرى إلى أميركا الجنوبيّة بعد مكوث قصير في الولايات المتّحدة، وأنّه عزم على أن يعهد في جميع الأعمال التي كان مكلّفًا بها إلى «جاك واندمولر» وهو صديق مخلص من رامسدال كنّا نعرفه كلانا وقد بدا مرتاحًا راحة خاصّة من أنّه قد تخلّص من «مشكلة» هاز. وأخبرني أنّه متزوّج إسبانيّة، وأنّه انقطع عن التدخين وأنّ وزنه قد زاد كيلو ونصف الكيلو. وكانت زوجته شابّة وبطلة في التزلّج، وسوف يقضيان شهر عسلهما في الهند. أمّا وأنّه سيبني الآن بيتًا (وأنا أردّد كلماته) فلن يجد وقتًا بعد للاهتمام بشؤوني التي يصفها بأنّها «غريبة ومنفرة». وكان بعض الناس قد أعلموه بأنّ أحدًا لم يكن على علم بما آلت إليه دولّي هاز، وأنّي كنت أعيش في كاليفورنيا مع مطلّقة مرموقة. أمّا هو فقد كان عمّه، أبو زوجته «كونتًا» حقيقيًّا يملك ثروة ضخمة، وقد عبّر الذين كانوا قد استأجروا بيت هاز قبل سنوات عن رغبتهم في شرائه. وكان ينصحني بأن أخرج دولّي في وضح النهار. وكان قد كسر ساقه. وقد أرفق برسالته صورة تمثّله بصحبة سمراء قصيرة مجلببة بالصوف الأبيض وهما يتبادلان بسمات نشوانة، في ثلوج شيلي.

وما زلت أتمثّلني أفتح باب المنزل وأنا أحدّث نفسي. «حسنًا، سنستطيع أخيرًا على الأقلّ أن نعرف مكانهما». وإذا الرسالة الأخرى تأخذ في التحدّث إليّ بصوت مألوف:

«عزيزي بابا

«كيف حالك؟ إنّني متزوّجة. وأنا أنتظر طفلاً وأعتقد أنّه سيكون كبيرًا وأعتقد أنّه سيصل حوالى عيد الميلاد. ليست هذه الرسالة سهلة الكتابة، إنّني سأصبح مجنونة لأنّنا لا نملك ما ندفع به ديوننا لنترك هذا المكان. معروض على «ديك» عقد مهمّ في ألاسكا بسبب معلوماته في جزء

متخصّص من الميكانيك، ولا أعرف أكثر من هذا، ولكنّه شيء ممتاز. اغفر لي لأنّني لم أعطك عنواننا، قد تكون ما زالت غاضبًا عليّ، ويجب ألّا يطّلع ديك على الأمر. إنّ هذه المدينة شيء محترم! ومن حسن الحظّ أنّ فيها ضبابًا لأنّ ذلك يخفي قليلاً البلهاء الذين يعيشون هنا!

أتوسّل إليك يا بابا أن ترسل لي شكًّا صغيرًا إنّ ثلاثمئة أو أربعمئة دولار تكفي، بل أقل، فإنّ أصغر مبلغ يساعدنا. تستطيع أن تبيع حاجاتي القديمة، لأنّنا ما إن نصبح في ألاسكا حتى تمطر السماء مالاً أكتب لي إذا كنت تريد. لقد مررت بتجارب كثيرة وآلام. فحتى رسالتك قريبًا.

دولِّي (السيّدة ريتشارد ف .شيلر)

٢٨

ومن جديد، كنت في الطُرق، ومن جديد وراء مقود سيّارتي القديمة الزرقاء، ومن جديد وحدي. وفي اللحظة التي قرأت فيها هذه الرسالة وقاومت هوّة اليأس التي حفرتها فيّ، كانت ريتا قد انسحبت من العالم. ولقد رأيتها لحظة وهي تبتسم في نومها، فوضعت قبلة على جبينها الرطب، وغادرتها إلى الأبد بعد أن تركت لها رسالة وداع لطيفة علّقتها على بطنها بطرف شريط ملصق، خشية أن لا تستطيع اكتشافها إذا تركتها في مكان آخر.

هل قلت إنّي أصبحت وحيدًا؟ ليس تمامًا. فقد كان معي «رفيقي» الصغير الأسود، وما إن وجدتني في مكان منعزل حتى كرّرت مشهد موت السيّد ريشارد. ف. شيلر وأخرجت من الصندوق الخلفيّ تبّانًا رماديًا قديمًا قذرًا وممزّقًا، فعلّقته على غصن عالٍ في بقعة صامتة مخيفة بعيدة

عن الشارع العامّ في أقصى درب غابي. على أنّ تنفيذ حكم الإعدام قد عوكس بعض الشيء بسبب قسوة في الزناد، ففكّرت أوّلاً في أن أشتري بعض الزيت لألّين هذه الآلة العجيبة، ولكنّي ما لبثت أن عدلت ـ فلم يكن لديّ وقت أضيّعه. ورميت على المقعد الخلفي تبّاني الميّت المثقوب بثقوب إضافيّة وملأت الرفيق الذي كان ما يزال فاترًا ثم استأنفت السير.

كانت رسالتها مؤرّخة في ١٨ أيلول ١٩٥٢. (وكنّا في ٢٢) وكان العنوان الذي عيّنته لي هو «شبّاك البريد ـ كولمون» (لم تكن الولاية لا «فا» ولا «با» ولا «تي»، ولم تكن المدينة من جهة أخرى «كولمون». فقد «غطّيت» كلّ شيء يا حبيبتي!) وقد كشف لي تحقيق قصير أنّها كانت قرية صناعيّة على بعد ١٢٠٠ أو ١٣٠٠ كيلومتر من نيويورك. وكنت قد عزمت في البدء على أن أقوم بالرحلة دفعة واحدة، غير أنّي غيّرت رأيي في أثناء الطريق، وقبل مشرق الشمس أخذت لنفسي ساعتي راحة في غرفة بفندق على بُعد عدّة كيلومترات من محجّتي. وقد دلّت استنتاجاتي على أنّ هذا الخائن، شيلر، كان في الماضي وكيل سيّارات، وأنّه إنّما تعرّف على لوليتا يوم ساعدها إذ «انفجر» إطار درّاجتها بينما كانت متّجهة إلى بيت الآنسة «لامبرور». وكانت جثّة التبّان ما تزال ممدّدة في السيّارة. وقد حاولت عبثًا أن أقلبها على المقعد حتى لا تذكّرني بشبح «تراب ـ شيلر»، ذلك الشبح الداعر الوحشيّ، وقد عزمت، بعد أن كبست زرّ الساعة المنبّهة (قبل لحظة من انفجار جرسها في الساعة المحدّدة ـ السادسة صباحًا) على أن أزيل طَعْم هذا التحلّل المنتن، بأن أرتدي ثيابًا أنيقة معنيًّا بها عناية استثنائيّة. وقد دقّقت في كلّ شيء تدقيقًا قاسيًا وروائيًّا يشبه تدقيق الجنلتمان الذي يتهيّأ لدخول الساحة، فنظّمت أوراقي وغسلت جسمي الدقيق وعطّرته وحلقت ذقني وصدري، واخترت قميصًا حريريًّا وسروالاً وجوربًا شفّافًا

وكنت مسرورًا بأنّي أضفت إلى أمتعتي بعض ثياب أنيقة في مثل صدريّة ذات أزرار صوفيّة وربطة عنق من الكشمير الأصفر إلخ.

ولم أستطع من الأسف أن أحتفظ بفطوري الصباحي، ولكنّ ذلك لم يكن إلّا مضايقة تافهة أبعدتها من أفكاري ومسحت شفتَيَّ بمنديل رقيق جدًّا أخرجته من كمِّي، وكان مكان قلبي بلاطة زرقاء، وعلى لساني قرص، وفي جيب بنطلوني الخلفي عبء الموت. ودخلت بخطوة مرنة إلى غرفة تلفون «كولمون» (فصاح الباب الصغير «آه! آه! آه!») وشكّلت رقم «شيلر» الوحيد ـ بول شيلر، تأثيث بيوت ـ الذي كان موجودًا في دفتر التلفون الممزّق. وأجاب بول أنّه كان يعرف بالفعل ريتشارد هذا، وهو ابن أحد أقربائه، وأنّه كان يسكن على ما يظنّ، رقم ١٠ شارع «سوير». (وصاح الباب مرّة أخرى «آه! آه! آه!»).

وفي شارع ١٠ «سوير»، وهو بناء عالميّ، سألت مجموعة من الشيوخ المنتشرين، وجنّيتين قذرتين قذارة لا تُصدّق (وقد كان الوحش الأوّليّ الكامن فيَّ يتخبّط بحثًا عن غلامة قصيرة الثياب أستطيع أن أضمّها إلى صدري لحظة بعد عمليّة القتل، حين لا يعود شيء مهمًّا، وحين يصبح كلّ شيء مباحًا) فقيل لي أن نعم إنّ ديك شيلر كان يسكن هنا في الماضي ولكنّه قد انتقل بعد زواجه ولم يكن أحد يعرف مسكنه الجديد. «قد يكونان في دكّان السمانة». هذا ما قذفه صوت انبعث من جوف باب كنت قد توقّفتُ عنده بالمصادفة قرب فلّاحتين حافيتين نحيلتَيْ الذراعين غير متميّزتين من جدّاتهنّ. وأخطأت المخزن المقصود، وهزّ زنجيّ عجوز مرتاب رأسه من غير أن يتيح لي حتى أن أفتح فمي. واجتزت الشارع. وعبرت عتبة دكّان سمانة مظلم، وهناك ارتفع صوت امرأة من وراء باب هو شقيق للباب الذي رأيته قبل لحظة، فقالت جوابًا على سؤالي: «درب الصيّاد»، البيت الأخير.

وكان «درب الصيّاد» على بُعد عدّة كيلومترات في حيّ أكثر كآبة، تنبعث منه روائح النتن، وفيه حدائق نخرها الدود، وخنزيرة رماديّة فوق وحل الأرض الحمراء ومداخن المصنع تدخّن بعيدًا، وتوقّفت أمام «البيت» الأخير ـ وهو كوخ مسكين من الخشب، وسط بؤر من السياجات المجفّفة مع كوخين أو ثلاثة مماثلة منعزلة. وكانت تُسمع ضربات مطرقة خلف البيت، وقد ظللت وقتًا متجمّدًا في سيّارتي الهرمة وأنا نفسي هرم خائر ـ انتهت يا أصدقائي، انتهت عفاريتي. وكانت الساعة زهاء الثانية. وكان نبضي يخفق أربعين مرّة في دقيقة، ومئة في الدقيقة التالية. وكان المطر يطقطق على غطاء السيّارة. وكان مسدّسي الأوتوماتيكي قد انتقل إلى الجيب الأيمن لبنطلوني. وبرز كلب ملوّن من زاوية البيت، وتوقّف لحظة مشدوهًا ثم أخذ ينبح بودّ «أواف، أواف» معصوب العينين، وهو ممتلئ البطن قشًّا ووحلاً، ثم قام بدورة صغيرة وهو ينطنط وعاد ينبح من جديد.

٢٩

ترجّلتُ وصفقتُ باب السيّارة. وما زلت أسمع تلك الصفقة الشديدة المبتذلة، في فراغ ذلك اليوم الذي لم تكن فيه شمس. وعلّق الكلب ليبرّر ضميره «أواف». وشددت الجرس فاهتزّت الرنّة عبر جسدي كلّه. وقال الكلب «أواف». وخطوة خفيفة، وهمسة خفيفة، وهمسة ثوب، ثم الباب: «أوي ـ أواف».

زيادة خمسة سنتيمترات. نظّارات ذات إطار مورّد. تسريحة جديدة لشعر مرفوع، أذنان جديدتان. ما كان أبسط ذلك! الاستحقاق، ذلك الموت الذي كنت أخشاه بلا انقطاع منذ ثلاثة أعوام ـ كان كلّ شيء بدهيًّا

واضحًا كبقيّة من خشب جافّ. كانت حبلى بصورة ثقيلة وقاسية. وكان وجهها يبدو أصغر (لحظتان فقط كانتا قد مضتا ولكن دعوني أعطيهما كلّ امتداد حياة برمّتها) وكانت وجنتاها قد تقّعرتا وبهتت لطخاتهما النمشيّة، وكانت ذراعاها وربلتاها العاريتان قد فقدتا لفحهما، وكان ظلّ الشعر فيهما قد وضح وبان. وكانت ترتدي ثوبًا قطنيًّا أسمر بلا كمّين، وحذاءً من اللبّاد عديم الذوق.

وبعد صمت، قالت بلهجة فخّمتها المفاجأة والسرور: «عجبًا أنت؟».

فوعوعت ويدي في جيبي: «هل زوجك هنا؟».

بكلّ تأكيد، لم أكن أستطيع أن أقتلها، هي، كما يكون بعض القرّاء قد ظنّ. اسمعوا! لقد كنت أحبّها، أحبّها من اليوم الأوّل، وسأحبّها إلى آخر يوم، حتى نهاية الأبد.

«ادخل» قالتها بلهجة حماسة شديدة. ثم انبسطت دولي شيلر، كما تستطيع، إزاء خشب الباب الميّت، بل هي ارتفعت قليلاً على رأسَيْ قدميها لتتيح لي أن أدخل، فإذا بها تُصلَب لمدّة لحظة، مسبلة العينين، باسمة للعتبة الموحلة، بخدّيها المتقعّرين ووجنتيها المستديرتين وذراعيها الباهتتين اللتين تشبهان لون الحليب المزبّد، المبسوطتين على قائمة الباب. ودخلتُ من غير أن أمسّ انتفاخ الطفل. عطر لوليتي مضاف إلى رائحة شواء خفيفة. وكززتُ على أسناني كالمعتوه. «لا، لا تدخل أنت» قالت ذلك للكلب. وأغلقت الباب، وتبعتني، بطنها وأنا إلى الصالة الصغيرة.

وعادت تقول: «إنّ ديك هناك» مادّةً مضربًا غير مرئي، داعية نظري إلى عبور الغرفة ـ الصالة حيث كنّا واقفين، وإلى اجتياز المطبخ ومدخل باب الخدمة، لأتأمّل في منظور ساذج، شابًّا مجهولاً أسمر يرتدي مريولاً

ويتسلّق سلّمًا موليًا إيّانا ظهره، يصلّح لا أدري ماذا على كوخ جاره، وهو شخص أكبر منه جثّة ولكنّه مقطوع الذراع، كان واقفًا قربه ينظر إليه وهو يشتغل.

وشرحت لي هذا الوضع من بعيد بصوت يوشك أن يكون اعتذارًا («إنّ الرجال لن يتغيّروا أبدًا») هل كان عليها أن تناديه؟

كلّا

وظلّت مزروعة وسط الغرفة ذات البلاط المعوجّ، وهي تطلق نبرات «هم ـ م». على شكل أسئلة، ترسم بيديها ومعصميها حركات راقصة مألوفة لتدعوني إلى أن أختار بين مقعد هزّاز والديوان (وهو تختهما ابتداء من الساعة العاشرة مساء)، وأقول مألوفة لأنّها ذات مرّة، أثناء «أمسيتها» في برادسلي، كانت قد استقبلتني بمثل هذه الرقصة من معصميها وجلسنا كلانا على الديوان. أمر غريب: فبالرّغم من أنّ نضارتها قد بهتت قليلاً، فقد لاحظت فجأة، في صفاء حاسم ـ ولكن بعد فوات الأوان واحسرتاه! ـ إلى أيّة درجة كانت تشبه، وقد أشبهت دائمًا الفينوس الحمراء التي رسمها «بوتيشلّلي». الأنف الدقيق نفسه، والجمال المتبخّر. وكانت أصابعي في جوف جيبي تسترخي شيئًا فشيئًا فوق سلاحي الذي لم يستعمل وتجمَّع حول فمه زوايا المنديل الذي كان غارقًا فيه.

قلت: «ليس هو الرجل الذي أبحث عنه».

وغادر شعاع الاستعجال عينيها وتجعّد جبينها كما كان يتجعّد في أمرٍ أيّام حياتنا الماضية.

ـ «ليس هو من؟».

أين هو؟ بسرعة!

وقالت وهي تحني رأسها وتهزّه إلى جانب:

ـ «اسمع أنّك لن تفتح ذلك الموضوع».

فصحت: «بلى، ومرّتين بدلاً من مرّة واحدة». وانتصبنا وجهًا لوجه، طوال لحظة كانت هي اللحظة الوحيدة المحتملة الليّنة في هذه المقابلة. انتصبنا وجهًا لوجه كما لو أنّها لم تكفّ قطّ عن أن تكون لي.

ولكنّها، وهي الفطنة، سرعان ما تمالكت نفسها

إنّ ديك لم يكن مطّلعًا على شيء. وكان يتصوّر أنّي كنت أباها ويتصوّر أنّها غادرت منزلاً فاخرًا لتصبح خادمة في مطعم حقير في الطريق، وكان يصدّق كلّ شيء. فما كانت حاجتي لأن أعقّد حياتهما إذ أحرّك كلّ هذا الوحل؟ ألم تكن تلك الحياة معقّدة بما فيه الكفاية؟

وأجبت بأنّ عليها أن تكون معقولة، فهي قد كبرت بما فيه الكفاية لتدرك أنّ عليها، إذا أرادت معونتي، المعونة التي أتيت أحملها لها، أن تقدّم لي إيضاحات عن الموقف.

ـ هيّا. ما اسمه؟

فإذا هي تظنّ بأنّي قد حزرت هذا الاسم قبل وقت طويل: «لقد كان ذلك عجيبًا جدًّا» (قالت هذا بابتسامة خبيثة وكئيبة في وقت واحد) إنّني لن أصدّق ذلك أبدًا. ولقد وجدت هي نفسها مشقّة في تصديقي.

ـ اسمه، يا جنّيّتي الخريفيّة؟

وقالت إنّ ذلك لا أهمّيّة له. لماذا لا نمسح القضيّة كلّها؟ هل كنت أريد سيجارة؟

فهزّت رأسها بقوّة. وقالت إنّ الأوان قد فات لإحداث الجلبة

والضوضاء. ثم إنّ القضيّة تبلغ من عدم احتمال التصديق بحيث لا يمكن أن تصدّقُ.

وقلت إنّه قد آن الأوان لاستئناف سيري، فتهانئي، وسعيد جدًّا بأن أكون قد رأيتك.

وقالت إنّه لا جدوى من الإلحاح، فهي لن تعترف أبدًا ـ ولكن من جهة أخرى، بعد كلّ شيء. «هل تحرص حقًّا على أن تعرف من هو حسنًا، إنّه. . ».

وأخيرًا، وعلى مهل، كأنّما هي مسارّة، وبعد أن قطّبت حاجبيها وزمّت شفتيها المتشقّقتين، لفظت بلهجة ساخرة بعض الشيء، وبنوع من الصفير، وبلا حنان، الاسم الذي حزره القارئ المتبصّر قبل وقت طويل.

إنّه غير قابل للمهاجمة. مُحكمٌ لا ينفذ منه سائل. مُحكم. لماذا كان ذلك الانعكاس من بحيرة رامسدال يعبر ضميري؟ أيضًا كنت قد عرفته، من غير أن أعرفه منذ زمن طويل. ليس هناك أيّة صدمة، ولا أيّة مفاجأة. لقد تمّ الذوبان والاختلاط بصمت واندرج كلّ شيء في مكانه، في هذه الشبكة من العروق التي جدلتها من أوّل هذه المذكّرات إلى آخرها، لغاية واحدة هي أن أسقط الثمرة الناضجة في اللحظة المطلوبة! لغاية مقصودة وفاسدة وهي أن أعبِّر ـ أجل أن أعبّر عن هذه الطمأنينة المهذبة والشيطانيّة المنبعثة من ابتهاج الفهم المنطقيّ، هذا الأمر الذي لا بدَّ لأعدي قرّائي أن يستشعروه في هذه اللحظة.

قلت إنّها كانت تتكلّم. وكانت الكلمات تتدفّق الآن بهدوء على شفتيّ. إنّه الرجل الوحيد الذي أحبّته حقًّا حبًّا مهووسًا. وديك؟ أو أنّ ديك كان ملاكًا، وكانا سعيدين جدًّا معًا، ولكن هذا لا علاقة له بالموضوع.

وأنا، لم تكن تحسب لي أيّ حساب طبعًا؟

وحدّقت بي ـ فكأنّها أدركت فجأة الأمر الذي كان لا يُعقل ـ وهذا الأربعيني الضعيف المزعج قليلاً، والمربك، الجالس على مقربة منها، هذا الرجل البعيد النحيل في معطفه المخمليّ الأنيق، كان قد عرف وعبّد كلّ ذرّة وكلّ نقطة من جسمها قبل البلوغ. وفي عينيها الرماديّتين خلف نظّارتيها الجديدتين، انعكس حبّنا المسكين لحظة ثم فحص ثم قُذف به إلى النسيان، كما يُصنع بأمسية مملّة، أو بنزهة تحت المطر مع أضجر أفراد الفريق أو بسخرة مزعجة أو بلطخة الوحل الجافّة التي كانت تغطّي طفولتها.

وتمكّنت في الوقت المناسب من أن أطوي ركبتي بعيدًا عن متناول يدها، وأن أتجنب لمستها العديمة الحذق (إحدى حركاتها المكتسبة).

وابتهلت إليّ أن لا أكون صفيقًا إلى ذلك الحدّ. فما وقع قد وقع. وهي تعتبر أنّي قد كنت أبًا طيّبًا لها ـ كانت تمنحني هذا على الأقلّ. تابعي يا دولي شيلر.

حسنًا. هل كنت أعلم أنّه قد عرف أمّها؟ وأنّه كان بصورة عمليّة صديقًا قديمًا للعائلة؟ وأنّه قضى بعض الوقت في منزل خالها في رامسدال ـ أوه، كان ذلك قبل أعوام ـ وأنّه حاضر في نادي الماما، وأنّه قبض عليها (هي، دولي) وجذبها من ذراعها العارية، وأخذها على ركبتيه ليقبّلها أمام الجميع، ولم تكن إلّا في العاشرة، وأنّها جُنّت من الغضب؟ وهل كنت أعرف أيضًا أنّه قد رآنا كلينا في ذلك الفندق الذي كان مقيمًا فيه ليكتب المسرحيّة التي كان يجب أن تتمرّن عليها في برادسلي بعد عامين؟ وهل كنت أعرف أيضًا ـ أجل كنت أعرف أيضًا ـ أجل، كان فظيعًا منها أن تكون قد حاولت أن تحملني على الاعتقاد بأنّ «كلار» كانت امرأة مسنّة

وربّما قريبة لها، أو معلّمة قديمة ـ وكم هلعت إذ رأت صورتها في جريدة «واس».

إنّ جريدة «الغازيت» في بريسولاند لم تنشرها، أجل. هذا غريب جدًّا

وقالت إنّ الحياة لم تكن حقًّا إلّا ترهة بعد ترهة، وإذا كتب أحد سيرتها، فلن يصدّق أحدٌ أنّها كانت الحقيقة الصافية.

وفي تلك اللحظة، بلغتنا ضجّة اصطفاق أوانٍ من المطبخ، حيث كان ديك وبيل يتنقّلان ذات اليمين وذات الشمال بحثًا عن قدح بيرة، فلمحا الزائر من الباب المفتوح، ودخل ديك إلى الصالون.

ـ «ديك! هذا أبي!» صاحت «دولي» بصوت مرن مرح اكتشفت فيه نبرة كنت أجهلها تمامًا ـ نبرة جديدة، مازحة، ضجرة كئيبة ـ لأنّ صاحبنا، وهو جنديّ شابّ متقاعد من حرب بعيدة كان ضعيف السمع.

العينان زرقاوان شماليّتان، الشعر أسود، الخدّان قرمزيّان، الذقن رديئة الحلاقة، وتصافحنا وأمّا الصديق بيل الذي كان يبدو أنّه معتزّ بتحقيق العجائب بيد واحدة، فقد حمل بالخفية علب البيرة التي فتحها بنفسه. وأراد أن ينسحب. اللياقة اللذيذة التي يتمتّع بها الناس البسطاء. فأجبروه على البقاء. والحقيقة أنّي كنت مرتاحًا لذلك، ولا شكّ في أنّ آل شيلر كانوا يفكّرون مثلي. وتركت الديوان لأنعم بوثبات الكرسيّ الهزّاز. وكانت دولّي تعلك بشراهة، فيما هي تقدّم لي التفّاح والفاكهة الأخرى. وكان الرجلان يحدّقان في أبيها، هذا الأوروبي المريض، الذي ما يزال شابًّا ولكنّه رخصٌ بِرّيد، المرتدي معطف المخمل وصدريّة الرمل ـ لعلّه «فيكونت».

وكانا يظنّان كما يبدو أنّي جئت لأبقى، فعرض ديك، الذي كان جبينه منقّشًا بتجعّدات تنمّ عن جهد فكريّ موصول، أن ينام مع دولّي في فراش إنقاذ كان موجودًا في المطبخ. فحرّكت يدًا خفيفة وقلت لدولّي التي نقلت جوابي إلى ديك بواسطة هديرٍ خاصّ، أنّي إنّما جئت لأحيّيهما، وأنّ فريقًا من الأصدقاء والمعجبين كان ينتظرني في «رادسبورغ». وفي هذه الأثناء، اكتشفوا أنّ إحدى أصابع بيل الباقية كانت تنزف دمًّا (إنّه، بعد كلّ حساب، لم يكن المقطوع اليد العجيب الذي كان يمكن تصوّره). كم كانت أنثويّة، ناضجة وغير متوقّعة، تلك الفرجة المظلمة التي رأيتها بين نهديها الباهتين حين انحنت فوق يدّ المجذوم! وصحبته إلى المطبخ لتعالجه. وخلال بضع دقائق: ثلاث أياد صغيرة فائضة بالودّ المصطنع، بقينا ديك وأنا وجهًا لوجه. وكان جالسًا على كرسيّ خبيث، مجعّد الجبين، وكان يحكّ مقدّم رجليه. وكنت أرغب رغبة غامضة، بدافع من البطالة، أن أفرك بين مخالبي الزبرجديّة الطويلة النقط السوداء التي كانت تزيّن جناحَيْ أنفه الملتمع بالعرق. كان له عينان طيّبتان حزينتان مع جفون طويلة وأسنان شديدة البياض. وكان حلقومه ناتئًا ذا زغب. لماذا لا يحسنون حلاقة ذقونهم، أحفاد شمشون هؤلاء الأقوياء؟ لقد تضاجعا، هو وزوجته دولّي ما وسعهما فوق ذلك الديوان هناك، مئة وثمانين مرّة على الأقلّ، وأكثر من ذلك بكثير على الأرجح، وقبله؟ بالمناسبة، من أيّ عهدٍ تُراها تعرفه؟ إنّني لا ألومها ولكنّ الشيء العجيب هو أنّي لم أكن أشعر بأيّ غضب، وإنّما بالحزن، وبإحساس من الغثيان. وها هو ذا الآن يفرك أنفه. وكنت أعرف أنّه إذا عزم على أن يفتح فمه، فإنّما ليقول: (بلهجة لا تخلو من تعالٍ): «آه يا سيّد هاز. إنّها طفلة لذيذة. لذيذة أكثر ممّا أقول لك وستكون أمّ أسرة لذيذة أيضًا». وفتح فمه ـ وكرع جرعة بيرة وقد أكسبه ذلك تمالكًا، فاستمرّ يشرب جرعات صغيرة حتى إنّ الزبد صعد على شفتيه، وكانت قد قالت لي

بأنّه ملاك. وكان قد دعك براحتيه نهدَيْ حبيبتي دولّي. وكانت أظافره سوداء ومشقّقة ولكن سلاميّاته، ومشط يده، ومعصمه الصلب المتناسب كانت أكثر انسجامًا من سلاميّاتي: فلقد عذبت يداي المسكينتان المعقوفتان كثيرًا من الأجسام ـ أكثر ممّا تسمح لي بأن أعتزّ بهما صفات فرنسيّة، أوصال فلّاح من «الدورسيه»، أطراف أصابع خيّاط نمسوي ـ ذلك هو همبرت همبرت.

حسنًا، لئن ظلّ صامتًا فبوسعي أنا أيضًا أن أصمت. والحقيقة أنّي كنت شديد الحاجة إلى بعض الراحة، في هذا المقعد المنهار والمشلول من الرهبة، قبل أن أستأنف السير لأطارد الشيطان إلى داخل عرينه، حيث كان، قبل أن أنزع الغلاف عن مسدّسي وأتذوّق حرارة الزناد المحرّر: فقد كنت ما أزال التلميذ الأمين للمجبّر الفينوّي. على أنّي أشفقت آنذاك بعض الشيء على ديك المسكين الذي كنت أمنعه، بضروب سحري، من أن يقول التعليق الوحيد الذي كان قادرًا عليه («إنّها طفلة لذيذة. . »).

وقلت ـ «هكذا إذن، أنت ذاهب إلى كندا؟».

وفي المطبخ، كانت دولّي تضحك من شيء قاله «بيل» أو فعله.

وعدت أقول:

ـ «هكذا إذن، أنتما ذاهبان إلى كندا؟ (ثم صحّحت) أقصد إلى الأسكا، طبعًا».

فهدهد قدحه وهزّ بذقنه ثم أجاب:

ـ أظنّ أنّه جرح يده بشظيّة من الحديد. وقد فقد ذراعه في إيطاليا».

روعة أشجار اللوز المزدهرة البنفسجيّة. وهناك، فوق، ذراع سيرياليّة

انتزعها الانفجار فعُلّقت هنا. فتاة ـ زهرة موشومة اليد. وعاد بيل (وإبهامه مضمّد) مع دولّي. وخطر في بالي أنّ جمالها الوحشيّ الممتقع الغامض كان يثير صاحب اليد المجذومة. ونهض ديك بتعبير من الارتياح. وكان يخيّل إليه أنّه وبيل يحسنان صنعًا إذا عادا إلى العمل، وكان يخيّل إليه أنّ السيّد هاز ودولّي لا بدّ أن تكون لديهما أشياء كثيرة يقولانها. وكان يخيّل إليه أنّه سيراني مرّة ثانية قبل أن أذهب. لماذا يملك هؤلاء الناس هذا القدر الكبير من التخيّل ويملكون هذه اللامبالاة بموسى الحلاقة وهذا الاحتقار لآلات السمع؟!

ـ «اجلس». قالتها وهي تطبق يديها بصخب على خاصرتيها، وسقطت مرّة أخرى في أعماق الكرسيّ الهزّاز السوداء.

ـ «وهكذا، لقد خنتني! إلى أين هربتِ؟ وهو، أين هو الآن؟».

وتناولت من على المدخنة صورة مستديرة ذات انعكاسات لامعة لمرأة عجوز ترتدي الأبيض، سمينة، مشعّة، ثوب قصير جدًّا، ورجل شيخ في قميص مشمّر الأكمام، شاربان متدلّيان، سلسلة ساعة. إنّهما والدا زوجها وكانا يعيشان في «جونو» بالأسكا، مع أسرة شقيق ديك.

ـ «هل أنت على يقين من أنّك لا تريد سيجارة؟».

وكانت هي تدخّن. وكانت هذه هي المرّة الأولى التي أراها فيها والسيكارة في فمها وبرشاقة، عبر ضباب مزرقّ، نهضت شارلوت هاز من بين الأموات. حسنًا ما دامت عنيدة إلى هذا الحدّ، فسوف أعثر على القاتل بواسطة قناة العمّ «إيفور».

ـ «أنا قد خنتُك؟ ولكن لا!» ونفّضت سيكارتها بطرف سبّابتها، ثم قذفتها باتّجاه المدخنة، تمامًا كما كانت تفعل أمّها، وكأمّها أيضًا، أوه يا

إلٰهي، حكّت شفتها السفلى بظفرها ونزعت قطعة من الورق. ولكن كلّا، إنّها لم تخنّي. فلم يكن لي إلّا أصدقاء وكانت «أوديس» قد أخبرتها بأنّ «كيلت» كان يحبّ الفتيات الصغيرات وأنّه نجا من السجن بأعجوبة، وكان يعرف أنّها كانت تعرف. أجل. المرفق على الركبة، نفخة من السيكارة، بسمة نفثة دخان، السبّابة تربت على السيكارة الممدودة على طول الذراع. فيض من الذكريات. أجل (بسمة) كان كيلت ينظر عبر الأشخاص والأشياء، عبر كلّ شيء، لأنّه لم يكن إنسانًا عاديًا، مثلها ومثلي، بل كان عبقريًّا رجل عظيم. وظريف جدًّا! ولقد أمسك بخاصرتيه من شدّة الضحك حين حدّثته عنّا نحن الإثنين، وقال إنّه حدس بذلك. والحقّ أنّها لم تُقدم على أيّة مغامرة حين اعترفت له بكلّ شيء، بالنظر للظروف.

إنّ كيليت إذن ـ أجل، كان الجميع يدعونه كيلت (اسم ذلك المخيّم، منذ خمسة أعوام، فأيّة مصادفة!) قد أخذها إلى مزرعة للكوبوي الملياردير كانت تقع على مسير يومٍ كامل في السيّارة من «الفنستون». ماذا كان اسم ذلك المكان؟ أوه، إنّه اسم مضحك مزرعة دوك ـ دوك، اسم سخيف كما ترى ـ غير أنّ ذلك كان بلا أهمّيّة، لأنّ البيت كان قد تبخر، قد تهدّم. بلا مزاح، إنّني لم أكن أتصوّر فخامة تلك المزرعة، وقد كان فيها كلّ ما يمكن تصوّره، كلّ شيء بلا استثناء، وحتى شلّال داخل البيت. هل تُراني أذكر ذلك الشابّ الأحمر الذي لعب يومًا معنا بالتنس (هذه «المعنا» كانت مريرة)؟ الحقيقة أنّ المزرعة كانت تخصّ أخاه الذي كان قد أعارها لكيلت لمدّة الصيف. وحين وصلت مع ش .ك. أخضعهما الآخرون لتجارب تنصيب وقذفوا بهما إلى الماء ـ حفلة برمّتها، كما يجري الأمر عند اجتياز خطّ الاستواء.

وطرفت بعينيها في استسلام تامّ.

ـ «استمرِّي، أرجوك».

حسنًا كانت فكرة كيلت هي أن يأخذها إلى هوليوود في أيلول ليجعلها تمثّل دورًا صغيرًا في مشهد مباراة التنس في فيلم «الإمعاء الذهبيّة» ـ وهو فيلم مقتبس من إحدى مسرحيّاته. بل لقد أسمعها أنّها ستمثّل دورًا بديلاً للنجمة الرئيسيّة. ولكنّ الأمور لم تبلغ هذا الحدّ، واحسرتاه.

ـ «والآن، أين هو هذا الخنزير؟».

إنّه لم يكن خنزيرًا وإنّما كان رجلاً عظيمًا في عدّة ميادين. ولكنّه لم يكن يعيش إلّا بالخمر والمخدّرات. أمّا في ما يتعلّق بقصص المضاجعات، فقد كانت له أهواء غريبة، بالطبع، وكان أصدقاؤه يجرجرون أنفسهم أمام قدميه كالعبيد. ولم أكن أستطيع أن أتصوّر (أنا همبرت، لم أكن أستطيع أن أتصوّر) (كلّ ما كانا يعملانه في مزرعة دوك ـ دوك. إنّها لم تُرد أن تشارك في جميع هذه الأمور، لأنّها كانت تحبّه وحده، وإذ ذاك طردها

ـ «أيّ أمور؟».

ـ «أوه، أمور عجيبة، غريبة. قذارات. فمثلاً، كان هناك بنتان وصبيّان وثلاثة رجال أو أربعة، وكان يريد أن نتعرّى جميعًا وأن نتحرّك كلّنا معًا، بينما تصوّر امرأة عجوز هذا المشهد.

ـ «أيّ أشياء على الضبط؟».

ـ «أوه. أشياء. أوه، إنّني. الحقيقة أنّني. .» وتمتمت «أنّني» هذه بأنين مخنوق، فيما هي تستمع إلى ينبوع ضيقها القديم ينبعث من جديد، وكانت في خلال الكلمات تباعد الأصابع الخمسة من يدها التي كانت تحرّكها ذهابًا وإيابًا ثم كلّا، لن تذهب إلى أبعد من ذلك، وكانت ترفض ـ وهذا الطفل في جوف بطنها ـ أن تدخل في التفاصيل.

وكان هذا مفهومًا ومعقولاً

واستطردت وهي تضرب بقبضتها وسادة رماديّة، ثم تتمدّد على الديوان وبطنها في الهواء:

ـ «أمّا اليوم، فلا أهمّيّة لذلك. أشياء سخيفة، أعمال خنزيريّة». وقد قلت: «كلّا أنا لا أريد أن (وهنا قالت كلمة منحطّة جدًّا) رفاقك الداعرين. لأنّني إنّما أحبّك أنت وحدك». وهكذا قذف بي خارجًا

وهكذا، قالت تقريبًا كلّ شيء. وفي ذلك الشتاء (١٩٤٩) كانت هي و«فاي» قد وجدتا عملاً وطوال عامين تقريبًا تاهت هنا وهناك، وعملت في مطاعم ريفيّة، ثم التقت ديك. أمّا الآخر؟ كلّا، إنّها لم تكن تعرف أين كان هو بلا شكّ في نيويورك. وقد كان طبعًا من الشهرة بحيث لم يكن يصعب عليها أن تعرف مكانه لو أرادت. وكانت «فاي» قد حاولت أن تعود إلى المزرعة ـ ولكن لم يعد هناك من مزرعة. إذ إنّها قد احترقت برمّتها من غير أن تخلّف أثرًا، إلّا ركامًا من البقايا المفحّمة. كان ذلك غريبًا، غريبًا جدًّا.

وكانت تستند إلى وسادتها مسبلة الجفنين مفتوحة الفم، وإحدى قدميها تستريح. وكانت الأرض منحدرة بحيث لو ألقيت عليها كرة نحاسيّة لتدحرجت حتى المطبخ. وكنت أعرف كلّ ما كنت راغبًا في معرفته، وكان بعيدًا عن ذهني أن أعذب محبوبتي. وفي مكان ما، خلف كوخ «بيل» كان جهاز راديو يغني الجنون والمصير ـ وكنت أراها، هي، بوجهها المتداعي ويديها، يدَيْ الفتاة البالغة، الضيّقتين اللتين تبرز منهما العروق، وذراعيها البيضاوين يقف فوقهما الزغب، وأذنيها المتوازيتين، وإبطيها المهْمَلين، كنت أراها (حبيبتي لوليتا) وقد ذبلت في السابعة عشرة

ذبولاً لا شفاء له، وهي تحمل في بطنها هذا الطفل الذي بدأ يتأمّل بأن يصبح رجلاً مرموقًا وأن يعتزل العمل عام ٢٠٢٠ ـ كنت أنظر إليها وأنظر إليها مرّة أخرى، وكنت أعلم، كما أعلم بوضوح أنِّي سأموت، أنِّي كنت أحبّها أكثر من أيّ شيء رأيته أو تصوّرته في هذا العالم أو رجوته في العالم الآخر. إنّها لم تعد إلّا عطر البنفسج الضئيل ـ صدًى صاخبًا تحت الأوراق الميّتة من جنّيّة الأمس التي تدحرجت عليها وأنا أهدر فرحي، صدًى على حافّة هاوية مذهّبة، في غابة بعيدة تحت السماء البيضاء، مع ساقية مخنوقة بأوراق مسمّرة وصرصور أخير في الأعشاب المرتفعة الجافّة. وشكرًا لله إنِّي لم أكن لأعبد فقط هذا الصدى. فإنّ ما كنت أهدهده من قبل، بين كروم قلبي المعذّب ـ إثمي الكبير المشعّ ـ قد ارتدّ إلى أصله: أمّا الباقي، الشبق الأناني العقيم، فقد تهدّم كلّه ولُعِن. إنّ بوسعكم أن تكمّوا فمي حتى الاختناق، فإنِّي سأظلّ أهتف بحقيقتي المسكينة. سيعلم العالم كم كنت أحبّ حبيبتي لوليتا، هذه اللوليتا الممتعة المدنّسة، والحبلى بولد رجل آخر، ولكنّها أبدًا هي نفسها ـ بعينيها الرماديّتين نفسهما، وجفونها اللزجة نفسها ـ أجل كرمانسيتا حبيبتي، حبيبتي إلى الأبد! لنغيّر حياتنا يا كارمن. لنذهب ولنعش في مكان ما لا نفترق فيه أبدًا، الأوهيو؟ صحارى مساشوستس؟ سيّان عندي أن تنطفئ عيناها بمرض، وأن تتورّم براعم نهديها وتتشقّق، وأن يتمزّق ويجفّ مجْمَعُها الفتي والرقيق والمخملي ـ فحتى في تلك الحالات سأتداعى من الحنان لمجرّد رؤية وجهها الجميل الأصفر ولمجرّد سماع غناء صوتها الفتيّ الرقيق، أوه، أوه، يا حبيبتي لوليتا

واستطردتُ أقول:

ـ «لوليتا، ربّما كان هذا خارج الموضوع تمامًا ولكن ينبغي أن أقوله

لكِ إنّ الحياة قصيرة جدًّا وبين هذه النقطة وتلك السيّارة الهرمة التي تعرفينها جيّدًا مسافة عشرين أو خمس وعشرين خطوة. وليس هذا شيئًا تقريبًا. قومي بهذه الخطوات الخمس والعشرين الآن على الفور، تعالي كما أنتِ. وسوف نعيش سعيدين حتى آخر الأزمان».

هل تريدين يا كارمن أن تأتي معي؟

ـ «كيف؟» سألت (وهي تفتح عينيها وتنهض نصف نهضة ـ الأفعى تستعدّ للضرب) إذا كنت أفهم جيّدًا، فإنّك ستعطينا (ستعطيه «نا»!) هذا المال شريطة أن أذهب معك إلى أحد الفنادق؟ هل «هذا» هو ما تقصده؟»

فأجبتُ: «كلّا لقد أسأتِ فهمي. أريد أن تتركي «ديك» هذا العارض وهذا الكوخ البائس وأن تأتي لتعيشي معي، وتموتي معي، وكلّ شيء معي».

قالت وملامحها متشنّجة ـ «إنّك مجنون!»

ـ فكّري يا لوليتا إنّني لا أفرض عليكِ أيّ شرط وأنا لا أطلب منكِ شيئًا ربّما باستثناء ـ كلّا الأمر سيّان. (كنت أودّ أن أقول «تأجيل»، ولكنّي امتنعت) ومهما يكن، وحتى لو رفضتِ، فستحصلين على. جهازكِ».

وسألتْ دولي: «هل هذا صحيح؟».

ومددت لها مغلّفًا يحتوي على أربعمئة دولار نقدًا وعلى شكّ بثلاثة آلاف وستمئة دولار إضافيّة.

وتلقّت هديّتي الصغيرة بتحفظ وهي لم تصدّق بعد، وفجأة اكتسى جبينها بلون ورديّ ثمين. وتمتمت بانفعال راعش:

ـ يعني أنّك تعطينا أربعة آلاف دولار؟»

فغطّيتُ وجهي بكلتا يدَيَّ وانخرطتُ في البكاء. وذرفتُ أحرق دموع ذرفتها في حياتي. وكنت أشعر بها تسيل بين أصابعي وعلى ذقني وتخنقني. وكان أنفي مسدودًا ولم أكن أستطيع أن أتمالك نفسي وفجأة، لامستْ معصمي.

فقلت ـ «سأموت إذا لمستني. هل أنتِ متأكّدة أنّكِ لا تريدين أن تأتي معي؟ أليس هناك أدنى أمل؟ إنّ هذا كلّ ما أريد أن أعرفه؟

فقالت ـ «لا لا يا عزيزي، لا».

ولم يكن قد سبق أن نادتني من قبل بهذه الصفة.

وقالت ـ «كلّا إنّ هذا غير وارد إطلاقًا فأنا أفضّل أن أذهب ثانية مع كيلت، أعني. .».

وكانت تبحث عن كلماتها فأمليتها عليها ذهنيًّا («لقد حطّم لي قلبي أمّا أنت فقد حطّمت حياتي»).

وقالت ـ «اسمع إنّ هذا آي!»

وكان المغلّف قد سقط على الأرض فتناولته بحيويّة.

ـ «. إنّ هذا عظيم جدًّا، أوه، لطيف جدًّا منك أن تعطينا هذا المال كلّه. إنّ ذلك ينظّم كلّ شيء، وسيكون بوسعنا أن نرحل في الأسبوع القادم. أبتهل إليك ألّا تعود إلى البكاء. حاول أن تفهم. انتظر، سآتيك بمزيد من البيرة. أوه لا تبكِ بعدُ، إنّي خجولة جدًّا أن أكون قد خدعتك هكذا، ولكن هكذا تمضي».

ومسحتُ وجهي وأصابعي. وكانت «دولّي» تبسم لهديّتها كانت

جذلة. وكانت تريد أن تنادي «ديك». فقلت: «كلّا، فإنّي ذاهب بعد دقيقة». ولم أكن أريد أن أراه قطّ. وجهدنا في أن نجد موضوعًا آخر للحديث، ولكن كان أمام عينَيّ دائمًا، لا أدري لماذا، منظر مشعّ لغلامة في الثانية عشرة، جالسة على درجة سطيحة وهي تقذف حصوات ـ بنغ! بنغ! ـ على صحيفة فارغة. صورة راعشة، حريريّة، نائسة على شبكة عينَيّ الرطبة. وكدتُ أقول (وأنا ما أزال أبحث عن موضوع لا عاقبة له): «إنّني أتساءل أحيانًا عن مصير «ماك كو» الصغيرة، هل شفيتُ؟». ولكنّي توقّفت في اللحظة المناسبة خشية أن أسمعها تجيب: «إنّني أتساءل أحيانًا عن مصير هاز الصغيرة. .». وأخيرًا عدتُ إلى الموضوع المادّي. فشرحتُ بأنّ هذا المبلغ كان يمثّل مجموع بدل إيجار بيت أمّها فقالت: «كنت أظنّ أنّه قد بيع قبل سنوات». كلّا (أعترف بأنّي كنت قد حملتها على الاعتقاد بذلك لقطع كلّ صلة مع «ر»)، وسيرسل لها الكاتب العدل قريبًا لائحة مفصّلة عن الوضع المادّي، وهو وضع حسن: فإنّ عددًا من الأسهم التي خلّفتها أمّها قد ارتفع ثمنها. نعم، حقًّا، يجب عليّ أن أرحل بسرعة. أرحل، وأعثر على صاحبنا، وأقتله.

وكنت أعلم أنّي لن أستطيع أن أقاوم مسّ شفتيها، وكلّما كانت «دولّي» وبطنها يتقدّمان نحوي، كنت أتقهقر في نوع من الرقص الشفوق.

وحضرت مشهد رحيلي بصحبة كلبها وكنت مدهوشًا (إنّ هذه صورة بلاغيّة، لأنّني لم أشعر بأيّة دهشة) بأن تتركها رؤية السيّارة القديمة التي سافرت فيها طويلاً إذ كانت غلامة وجنّيّة، أن تتركها لامبالية إلى ذلك الحدّ. واكتفت بأن تلاحظ بأنّ دهانها كان يتحوّل إلى لون بنفسجيّ باهت. وقلت لها بأنّ السيّارة كانت لها، وأنّي كنت، أستطيع بسهولة أن أستقلّ الكار. فأجابت: «لا تكن سخيفًا». سيستقلّان الطائرة إلى «جونو»

وهناك سيشتريان سيّارة. فعرضت عليها آنذاك أن أشتري منها هذه السيّارة بخمسمئة دولار.

فقالت للكلب الذي استخفّ به الفرح:

ـ «على هذه الحالة سنصبح سريعًا من أصحاب الملايين».

وسألتها: كارمنسيتا. قلت بلغتي الخليطة المجتهدة:

ـ كلمة أخيرة. هل أنت متأكّدة، متأكّدة تمامًا أنّك ـ كلّا، لا غدًا طبعًا ولا بعد غد، بل ـ بالاختصار ذات يوم ـ أيّ يوم، لا تريدين أن تعودي لي؟ إنّني سأخلق إلٰهًا جديدًا وسأغنّي صلوات شكر حادّةً إذا منحتني هذا الأمل الصغير.

فقالت وهي تبتسم: «لا لا».

وقال همبرت همبرت: «لو كان هذا يحدث لغيّر كلّ شيء».

وبعد هذه الكلمات تناولت مسدّسي الآلي ـ أو بالأحرى: هذا هو نوع الحماقة التي ربّما كان القارئ ينتظرها منّي ـ والحقيقة أنّ الفكرة لم تخطر حتى في رأسي.

ـ «غود باي!» هكذا غنّت، أوه حبيبتي الأميركيّة، محبوبتي الميّتة الخالدة، لأنّك إذا قرأت هذا فهو يعني أنّها ميّتة وخالدة. وهذا هو الاتّفاق العلني الذي وقّعته مع السلطات.

وحين أقلعت، سمعتها تنادي: «ديكها» بصرخات مهتزّة، وجرى الكلب منطنطًا إلى جانب السيّارة كأنّه درفيل بدين، ولكنّه كان أثقل ممّا ينبغي وأكبر، وما لبث أن عدل.

ووجدتني وحيدًا مرّة أخرى، أجري تحت مطر النهار المحتضر،

وكانت مسّاحات الزجاج في ذروة عملها، ولكن ما عساها كانت تستطيع إزاء دموعي؟

٣٠

كان بوسعي، بعد أن غادرت «كولمون» حوالى الرابعة بعد الظهر (على الطريق الوطنيّة التي لم أعد أذكر رقمها) أن أبلّغ رامسدال (قبل الفجر لو لم أستسلم لإغراء سلوك طريق مختصرة. وكان عليّ أن أصل إلى الطريق الوطنيّة X، غير أنّ خريطتي كان تشير برياء إلى أنّي كنت أستطيع، لدى خروجي من «وودبين» التي بلغتها عند هبوط الليل، أن أترك بلاط X لأنتقل إلى بلاط Y بطريق معترضة كانت على ما تشير خارطتي لا تزيد على ستّين كيلومترًا وعلى غير هذا النحو، كان عليّ أن أجتاز أكثر من مئة وخمسين كيلومترًا على الطريق الوطنيّة X وأن أسلك عندئذ منعطفات Z قبل أن أبلغ Y ومحجّتي. غير أنّ الطريق المختصر الذي أشرت إليه أخذ يمتدّ أكثر فأكثر ويضطرب ويزداد توحّلاً وحين حاولت أن أعود على أعقابي، بعد عشرين كيلومترًا من السير المتعرّج لسلحفاة عمياء، غرقت سيّارتي في حوض من الكلس. وكان كلّ شيء أسود لزجًا وبلا أمل. وكان المنظر المجاور، إذا وُجد حقًّا فهو صحراء من الظلمات. وحاولت عبثًا أن أنتزع السيّارة، ولكنّ العجلات الخلفيّة أخذت تهدر في الدوّامة والرهبة. واغتظت من هذا العذاب فاستبدلت بثيابي الجميلة بنطلونًا من الفلانيل وتبّاني القديم المثقوب بالرصاص. ثم عدت أدراجي ومشيت مشيًا مريعًا طوال ستّة كيلومترات قبل أن أجد مزرعة على حافّة الطريق. وأخذ المطر يهطل بينما كنت في منتصف الطريق، ولكنّي لم أجد القوّة على أن أعود

إلى السيّارة لآخذ مشمّعي. وهذه الألوان من الشرود والاضطراب هي التي أقنعتني بأنّ فؤادي مبلّل جدًّا، مهما قالت فحوص هذه الأيّام الأخيرة. وحوالى منتصف الليل، انتزعت شاحنة إنقاذ سيّارتي من الحوض المكلّس، فاستأنفت السير على الطريق الوطنيّة X. وبعد ساعة، إذ دخلت مدينة صغيرة مغفلة، استولى عليّ تعب شديد، فتوقّفت على الرصيف وشربت تحت جنح الظلام زجاجة خمر صديقة.

وكان المطر قد توقّف منذ عدّة كيلومترات، فإذا هو ليل مظلم فاتر، في مكان ما من «الأبالاش». وبين وقت وآخر كانت تلمّ بي السيّارات بأنوارها البيضاء المتنامية، وأضوائها الحمراء النائسة، ولكنّ المدينة كانت تبدو ميّتة. فلم يكن هنا من يتنشّق الهواء في الشارع ولا من يتنزّه ضاحكًا كما يفعل البرجوازيّون الطيّبون في أوروبا اللطيفة الرقيقة. وكنت وحدي أفيد من الليل الهادئ ومن أفكاري المخيفة. وكانت هناك سلّة معدنيّة على حافّة الرصيف للأوراق والأقذار. وكان حانوت للآلات الفوتوغرافيّة يعلن عن نفسه بأحرف حمراء مضيئة. وكان ميزان حرارة كبير يزيّنه اسم «دواء مليّن» منصبًّا على واجهة صيدليّة. أمّا واجهة «مجوهرات روبينوف وأولاده» فقد كانت تعرض جواهر اصطناعيّة تنعكس انعكاسًا رائعًا على مرآة حمراء. وكانت ساعة مضيئة باللون الأخضر تتموّج في أعماق حانوت التنظيف «جيفي ــ جف» المنشّى. ومن الجهة الأخرى للشارع كان مرآب يتمتم في نعاسه. ومرّت طائرة صغيرة تهدر في سماء مخمليّة سوداء. ولكم رأيت من هذه المدن الصغيرة المرتعشة في قلب الليل، ولم تكن هذه آخرها

امنحوني هذه الاستراحة، ولا تخافوا، فإنّ صاحبنا، لا يمكن أن يفلت منّي. وغير بعيد من هناك، عند الرصيف المقابل، كانت أضواء من النيون تخفق بأبطأ ممّا يخفق قلبي بمرّتين. كانت ترسم خطوط لافتة

مطعم، آلة قهوة كبيرة كانت كلّ بضع لحظات تنفجر ثم تنطفئ. وكانت هذه الضاحية الفارّة قريبة جدًّا من «الصيّادين المسحورين». وأخذت من جديد أبكي، وأنا ثمل بماضِيَّ الخياليّ.

٣١

تناولت وجبة خفيفة أثناء وقفة متوحّدة بين «كولمون» و«رامسدال» (بين البريئة دولّي شيلر والمرح العمّ إيفور) واستعرضت الموقف عن كثب. كان الرجل الذي كنته ـ أنا وعاطفتي ـ يبدو لي الآن على صفاء ووضوح لا مثيل لهما وبالمقابل فإنّ جميع جهودي القديمة للتوضيح لم تكن إلّا تلمّسات أعمى. فقد كان يقودني منذ عامين معرّف ذو تعبير فرنسي وذكاء مرموق، وقد كنت اعترفت له في حالة من الفضول الميتافيزيقي بإلحادي البروتستنتي، وكنت ظننت أنّ شعوري بالإثم يسمح لي بالحكم بوجود كائن أعظم. وفي تلك الصبائح المثلوجة التي كانت تنثر الجليد على شوارع «كويبك» القديمة أخذ الأب الطيّب يعالجني بصبر رائع ممزوج بالعذوبة والتفهّم. وإنّي أحفظ له عرفانًا غير محدود كما أحفظ للمؤسّسة العظيمة التي كان يمثّلها على أنّه كان ثمّة، ويا للأسف، احتمال إنساني محض لم أستطع أن أتغلّب عليه، أيًّا كان العون الروحيّ الذي يُقدّم لي، ومهما كان الخلود الذي ينتظرني وهو أنّه لم يكن هناك شيء يستطيع أن ينسي حبيبتي لوليتا النذالة الجبانة التي أغرقتها فيها فما دام ليس من المستطاع أن يثبتوا لي ـ كما أنا اليوم بقلبي ولحيتي وعفونتي ـ أنّه ليس هناك أيّة عاقبة، في آخر المطاف، لاغتصاب غلامة أميركيّة تُدعى دولوريس هاز من قبل مجنون، ما داموا عاجزين عن إثبات ذلك (وإذا استطاعوا فإنّ الحياة

ستكون آنذاك مهزلة) فإنِّي لن أجد أيّ شفاء لآلامي باستثناء الملطّف المحلِّي الكامن في فنّ النظم، وأستشهد هنا بقصيدة قديمة:

أيّها الناس الفانون، إنّ حسّ الأخلاق هو فينا

الضريبة المفروضة على حسّ الجمال الفاني

٣٢

أذكر ذلك اليوم من أيّام رحلتنا الأولى ـ الدائرة الأولى من جنّتي ـ حين عزمت، لأتذوّق أوهامي باطمئنان، على أن أغلق عينَيّ أمام ما لم أكن أستطيع أن أراه: وهو كون لوليتا لا تعتبرني عاشقًا، ولا بطلاً سينمائيًّا ولا صديقًا حتى ولا كائنًا بشريًّا وإنّما فقط زوجًا من العيون وقدمًا من اللحم المحتقن ـ هذا لأكتفي بذكر ما يُقال فقط. وأذكر ذلك اليوم الآخر الذي سحبت فيه الوعد المقطوع في أثناء الليل، (ولا أدري أيّة تجربة كانت قد أغرت قلبها الصغير العجيب ـ بأن تذهب إلى السينما بدوني، أو تفتتح مكانًا للتزلّج الثوري ذا حلبة مطّاطة) ففاجأت على وجهها، وأنا في الحمّام، عبر مرآة مواربة فوق الباب المشقوق نظرة غريبة على وجهها نظرة لا أستطيع أن أصفها ممزوجة برهبة شديدة جدًّا، حتى إنّها تتحوّل إلى تعبير عن الذعر الذي يكاد يكون جذلان ـ لأنّ «لو» كانت ترى فجأة الحدّ الأخير للظلم والحرمان، وأنّ كلّ حدّ يفترض وجود شيء ما وراءه، وهذا هو مصدر ذلك الانعكاس المذعور الواضح في نظرها وإذا تذكّرنا أنّ ذلك كان وجه فتاة صغيرة بحاجبيها المقطّبين وشفتيها المنفرجتين أمكننا أن نقدّر ارتعاش الفجور المحسوب واليأس الواعي اللذين منعاني آنذاك من السقوط عند قدميها والانخراط في بكاء دمويّ، والتضحية بغيرتي لصالح

اللذة التي كانت لوليتا تأمل أن تتذوّقها لدى الاحتكاك بصبيان قذرين مخيفين من صبيان هذا العالم الأجنبيّ الذي كان في نظرها واقعيًا إلى ذلك الحدّ.

وعندي كثير من الذكريات الأخرى الكامنة والتي تنبعث شيئًا فشيئًا أشباحًا لشقائي، ممزّقة مقطّبة. فذات مساء في برادسلي، في شارع كانت الشمس الغاربة تقطعه من بعيد، التفتت «لو» إلى إيفا روزين (وكنت مصطحبًا الجنّيّتين إلى حفلة، وكنت أمشي خلفهما قريبًا جدًّا حتى كدت ألامسهما) التفتت إلى إيفا الصغيرة التي كانت تؤكّد أنّها تفضّل أن تموت على أن تستمع إلى «ميلتون بينسكي» التلميذ الذي كانا يعرفانه وهو يتحدّث في الموسيقى، فأجابتها حبيبتي ولوليتا بصوت هادئ هدوءًا غريبًا:

ـ «أتعلمين؟ إنّ ما هو فظيع حين يموت الإنسان، هو أنّه يجد نفسه وحيدًا جدًّا». وبينما كانت ركبتاي الآليّتان تذهبان وتجيئان، أدركت فجأة أنّي كنت أجهل كلّ أفكار ابنتي، وأنّ وراء فقر هذه الكليشيهات الطفوليّة، ربّما كانت تكمن حديقة، وشفق، وحاجز قصير ـ مناطق شفّافة رائعة كان محظورًا عليّ أن أدخلها بأطماري الدنسة وتشنجاتي البائسة. ذلك أنّي لاحظت مرارًا أنّنا في قلب عالم الإثم الكامل الذي كان يعيش فيه كلانا، كنّا نرتبك ارتباكًا شديدًا كلّما كنت أحاول أن أوجّه الحديث نحو هذا الموضوع أو ذاك من الموضوعات التي كان يمكن أن تعالجه بكلّ سهولة هي وصديقة أكبر منها أو هي وعمّ أو ابنة عمّة، أو هي وحبيب حقيقيّ صحيح، أو أنا وأنابيل أو لوليتا وهارولد هاز آخر رفيع التفكير، مطهّر مؤله ـ من مثل نظريّة مجرّدة أو لوحة أو هوبكنز المحبّ أو بودلير الأجرد أو الله أو شكسبير أو أيّ موضوع عامّ. فأيّة مهزلة! لقد كانت تحمي ضعفها بسلاح من الفجور القذر، وكنت أنا أدلي بتعليقات لامبالية بلهجة بلغ من

زيفها أنّ أسناني الباقية كانت تصطك، وكنت أثير لدى محدّثتي انفجارات وقاحة شديدة حتى إنّ كلّ تفاهم كان يبدو مستحيلاً، أوه، يا ابنتي الصغيرة البائسة!

لقد كنت أحبّك. وكنت إنسانًا ساقطًا، ولكنّي كنت أحبّك. لقد كنت كريهًا ووحشًا وحقيرًا ـ كنت هذا كلّه، ولكنّي كنت أحبّك، كنت أحبّك! وقد كنت أحيانًا أحدس بما كنت تحسّين به وكان هذا عذابًا جهنّميًّا لي، يا ولدي. يا لوليتا الصغيرة، يا دولّي الشرّيرة الطيّبة.

إنّي أذكر بعض اللحظات (التي تبدو لي كأنّها جبال ثلجيّة في جنّة عدن) كنت أمتلئ بها منها بعد حركات عجيبة غير طاهرة كانت تخلّفني جامدًا، فأعود أضمّها بغصّة خرساء من الحنان الإنساني (أوه، يا لالتماع بشرتها تحت أشعّة الضوء المتسلّل عبر النافذة، وترطّب جفونها السوداء، وهاتين العينين الرماديّتين الرصينتين الفارغتين أكثر من أيّ وقت مضى ـ صورة مريضة ما تزال ذاهلة تحت تأثير المخدّر إثر عمليّة خطيرة) وكان ذلك الحنان يتشقّق، ويتحوّل إلى خجل وأسى، وإذا بي أهدهد الغلامة بين ذراعيّ العاجيّتين، وأدلّلها ـ حبيبتي لوليتا، نجمتي الوحيدة ـ وأهدر في شعرها الفاتر الذي ألامسه ملامسة عمياء، مستعطيًا بصمت تبرئتي. وفي ذروة هذا الحنان، وهذه الموجة الإنسانيّة وهذا التمزّق وهذا الكفر بالذات، بينما تكون روحي المتشبّثة بجسمها العاري، على حافّة الندم، فجأة تنتفخ اللذّة فيّ من جديد بسخرية مريعة، وتئنّ لوليتا («أوه! لا») وهي تزفر في السماء، فإذا بكلّ شيء ـ بذلك الحنان وبذلك الشفق اللازورديّ، ينهار في لحظة.

في هذا النصف الأوّل من القرن العشرين فسدت فكرة العلاقات بين الوالدين والأولاد فسادًا خطيرًا بسبب الترهات المفخّمة والرموز الموحّدة

للمتاجرين بعلم الطبّ النفسيّ. ولكنّي أجرؤ أن أرجو هنا أن أتوجّه إلى قرّاء غير متغرّضين. ذات يوم حين زمّر أبو «أفيس» في الشارع (معلنًا أنّ البابا كانت ينتظر صغيرته ليعود بها إلى العشّ) حسبت أنّ عليّ أن أدعوه إلى الصالون، فجلس لحظة، وبينما كنّا نتحدّث، رأيت أفيس (وهي غلامة لطيفة ولكنّها مخدّدة ومجرّدة من كلّ جمال) تلتصق به وتجلس أخيرًا فوق ركبتيه بكلّ ثقلها. ولست أدري إن كنت قد تحدّثت قبل الآن عن البسمة التي كانت لوليتا تحتفظ بها دائمًا للأجانب، بسمة ساحرة بصورة إلٰهيّة. عيناها مكسّرتان بانفراجة رقيقة زغباء، وجميع ملامحها مشرقة بحذر حالم لم يكن يعني شيئًا بالطبع ولكنّه كان رائعًا وفاتنًا جدًّا بحيث كان يصعب شرحه بالطاقة السحريّة لبعض الأجسام القادرة على إلهاب الوجوه بصورة آليّة كدلالة وراثيّة على الحفاوة الترحيبيّة ـ وسيقول بعض قرّائي الخشنين بل: على البغاء الترحيبي. كانت لوليتا إذًا جامدة بينما كان السيّد بيرم يتحدّث وهو يتلاعب بقبّعته و ـ آه ما أغباني، كدت أنسى الخاصّة الأساسيّة التي تميّز البسمة اللوليتيّة: فالواقع أنّ هذا السحر المضيء المعسول لم يكن موجّهًا للمتحدّث، بل كان يطفو في فراغ ضبابها البعيد المزدهر، إذا صحّ التعبير، أو أنّه كان يتيه إلى جانب نظر ملائكيّ على الأشياء العارضة، وهذا ما حدث آنذاك: بينما كانت «أفيس» السمينة تحتكّ بأبيها كانت «لوليتا» تنظر ببسمة مغتبطة إلى سكّين الفاكهة الذي كانت تقلّبه بشرود عند حافّة الطاولة التي كانت تجلس إليها بعيدة عنه. وفجأة تعلّقت أفيس برقبة أبيها الذي كان، يحيط بذراع مهملة، جسم صغيرته. ورأيت بسمة لوليتا تصبح ظلًّا باهتًا مثلجًا، وسقط السكّين من فوق الطاولة فصدمت ذراعها الفضّيّة قدم «لو»، التي انتفضت وسقطت جاثية، خافضة الرأس ثم وثبت وقد اكتست ملامحها بتلك التكشيرة التي تلوي وجه الأولاد إذ يهمّون بالبكاء، واختفت في المطبخ ـ وما لبثت أن لحقت بها

أفيس، التي كان لها أب صغير مورّد لطيف، وأخٌ صغير ظريف، وأخت صغيرة وُلدت حديثًا وبيت وعائلة، وكلبان، ولم يكن للوليتا شيء. وقد كان لهذا المشهد شبيهٌ وقع في إطار «برادسلي»: كانت لوليتا تقرأ أمام النار، وتمطّت طويلاً ثم سألت فجأة، ومرفقها في الهواء، بصوت ثاقب: «حقًّا، أين دُفنت؟» ـ «من هي» ـ «أوه! أنت تعرف جيّدًا. أمّي المقتولة». ـ «أنت أيضًا تعرفين جيّدًا أين يقع قبرها» أجبتها كذلك وأنا أضبط أعصابي، ثم ذكرت اسم المقبرة وهي عند مدخل رامسدال، بين سكّة الحديد ومرتفعات «لاكيفو هيل» وأضفت: «ثم إنّ فاجعة هذا الحادث من جهة أخرى، قد فسدت بذلك النعت الذي حسبتِ أنّ من المستحسن إلصاقه بها. إذا كنت تريدين حقًّا أن تنتصري في ذهنك على فكرة الموت. .» فقاطعتني لو قائلة «برافو!» وتركت القاعة بخطوة مسترخية، وظللتُ راكعًا بضع دقائق، تحرقني عيناي وأنا أتأمّل النار. وفتحت إذ ذاك كتابًا وكان أحد تلك الحمرنات السخيفة برسم الأولاد. وكان القارئ يرى فتاة صغيرة «ماريون» عابسة مع زوجة أبيها التي كانت جميلة جدًّا ومرحة ومتفهّمة (على غير المألوف) وكانت تشرح لماريون أنّ أمّها (أمّ ماريون) كانت مخلوقة بطلة. لأنّها إذ عرفت أنّ داءها سيقتلها أخفت عن ابنتها الحبّ العظيم الذي كانت تكنّه لها، حتى لا تتألّم هذه لفقدها، كلّا، أنّني لم أهرع باكيًا إلى غرفة لوليتا ـ فقد كنت دائمًا أدعو إلى سياسة عدم التدخّل الفكري. والآن، وأنا أتخبّط وأدافع ضدّ ذاكرتي أعتقد أنّني في تلك المرّة، كما حدث في مناسبة مماثلة، قد استجبت لقاعدتي المألوفة التي تنصّ على أن أتصنّع تجاهل عواطف لوليتا لكي أرضي قذاراتي الشخصيّة. حين أخذت أمّي تعدو بثوبها المبلّل تحت كتلة الغيوم الداكنة (تلك هي الصورة التي حفظتها عنها) وتسلّقت القمّة المشرفة على «مولنيه» لتقتلها الصاعقة هناك، لم أكن إلّا طفلاً في الثالثة من عمري، ولم أستطع

منذ ذلك الحين أن ألصق أيّ انفعال حنينيّ من الانفعالات التقليديّة على أيّة فترة من فترات طفولتي.   على أنّي أقرّ بأنّ كائنًا موهوبًا في مثل قوّة خيالي لا يستطيع أن يستنتج من جهله الذاتي انفعالات عالميّة. ولعلّني بعد ذلك اعتمدت أكثر ممّا ينبغي على العلاقات الباردة برودًا غير طبيعي بين شارلوت وابنتها   ولكن أبشع مظهر من مظاهر هذه القضيّة هو التالي: شيئًا فشيئًا، خلال تعايشنا الوحشيّ الضالّ، خطر في ذهن حبيبتي لوليتا (ذهنها العُرفي) أنّ أفظع حياة عائليّة أفضل من هذا الزيف البغائيّ الذي كان. على أيّ حال، خير ما كنت أملك تقديمه لهذه اليتيمة.

٣٣

عودة إلى رامسدال. بلغت المدينة عن طريق البحيرة، وكانت سماء الظهر المشمسة شديدة الصفاء. فكان بوسعي أن أميّز رقع ماء مجوهرة بين شجرات الأرز البعيدة. وقمت بقفزة إلى المقبرة، تاركًا سيّارتي الملطّخة بالوحل، وخطوت بضع خطوات بين الأنصاب. «غودمورنينغ» يا شارلوت. وعلى بعض القبور كانت أعلام صغيرة منجّمة صفراء شفّافة تأسن في الهواء الجامد تحت أشجار السرو. لا حظّ لك، يا عزيزي «أدي» ـ أدي يعني «ج. أدوار غرامر» (من سكّان نيويورك، خمس وثلاثون سنة، مدير شركة). الذي أُوقف بتهمة قتل زوجته دوروتيه (عمرها ثلاث وثلاثون سنة) وقد فكّر «أدي» بالجريمة الكاملة فقتلها بضربات مطرقة وحملها في سيّارته ولكن عمله ذهب أدراج الرياح حين رأى شرطيّان ريفيّان كانا يقومان بدوريّتهما سيّارة الكريزلر الزرقاء الجديدة التي تخصّ السيّدة «غرامز»، وهي هديّة عيد ميلاد من زوجها، تنحدر على شارع وهي تلتوي بسرعة فائقة تفوق حدود

سلطانهما (ليبارك الرب حرّاسنا الطيّبين!) واصطدمت السيّارة بعمود تلغراف، وتسلّقت ربوة مزروعة بأعشاب الحمير وأشجار الفريز البرّيّة وبسرعة زاحفة ثم وقفت. وكانت العجلات ما تزال تدور على مهل حين أخرج الشرطيّان جثّة السيّدة «غرامر» منها واعتقدوا أوّل الأمر بأنّ الأمر قضيّة حادث عادي من حوادث السير، ولكن جسم دوروتيه المسحوق لم يكن يتّفق، مع الأسف، والأضرار الطفيفة التي أُصيبت بها سيّارة الكريزلر. أمّا أنا فقد كنت أكثر توفيقًا

واستأنفت سيري. وكانت ملاحظةً نافذة أن أرى مرّة ثانية تلك الكنيسة الهزيلة البيضاء وأشجار الدردار هذه السامقة. ونسيت أنّ المترجّل الوحيد في شارع أميركي ريفيّ يجذب الأنظار أكثر من الراكب، فتركت السيّارة في الشارع وتوجّهت خفية نحو الرقم ٣٤٢، ممرّ البيلوز وقبل المجزرة النهائيّة كان لي الحقّ بلحظة راحة، وبتشنّج تلييني ذهنيّ، وكانت مصاريع بيت الحدّاد البيضاء مغلقة، ورأيت لوحة بيضاء «للبيع» معلّقة فوق الرصيف كلّلها مجهول بشريط مخملي أسود وجده في الشارع. ولم ينبح أيّ كلب. ولم يتلفن أيّ جنيناتي، ولم تكن أيّة «آنسة للبيت المقابل» جالسة تحت كرمة شرفتها العذراء ـ حيث قطعت امرأتان صبيّتان بشعر مجدول على شكل ذيل حصان، قطعتا عملهما الغامض لتنظرا إليّ. إنّها قد ماتت بلا شكّ منذ وقت طويل، ولا بدّ أنّ هاتين التوأمين هما حفيدتاها من فيلادلفيا

هل كنت أجرؤ على أن أزور بيتي القديم ثانية؟ لقد كان شلّال من الموسيقى الإيطاليّة ينبعث من نافذة مفتوحة، هي نافذة الصالون، كما كان يجري ذلك في قصّة «لتورغنايف». فأيّة روح رومنطقيّة كانت تعزف على البيانو، هنالك حيث لم يعزف قطّ أيّ بيانو، في ارتعاشات ذلك الأحد

المسحور، إذ كانت الشمس على فخذيها الرائعتين؟ وفجأة رأيت فوق العشب، الذي كنت يومًا قد جززته، جنّيّة ذات تسعة أعوام أو عشرة، مذهّبة البشرة، سمراء الشعر، بيضاء الشورت كانت تحدّق فيّ بعينيها الكبيرتين الممزوجتين بالزرقة والسواد حيث كان يحترق سحره وقلت لها كلمة لطيفة من غير أن أفكّر بأيّ سوء، ما أجمل عينيك، ولكنّها سرعان ما تراجعت، وكفّت الموسيقى فجأة، وظهر على الباب شخص ذو سحنة متوحّشة وملامح مسودّة وملتمعة بالعرق، فحدجني بنظرة تهديد. وكنت أهمّ بأن أعرّف نفسي حين تذكّرت بارتباك مظهري، وأنا في بنطلوني القديم الموحل وتبّاني الممزّق وعينَيَّ المحتقنتين بالدم وذقني الخشنة. ومن غير أن أقول كلمة، استدرت على عقبي، وانطلقت أهرول باتّجاه الشارع. وخرجت من شقّ مألوف في الرصيف زهرة مسلولة. إنّها «آنسة البيت المقابل» تُبعث بالخفية وتبدو جالسة في مقعدها المتنقّل الذي دفعته حفيدتاها حتى وسط الشرفة التي بدا أنّها تتحوّل فجأة إلى مسرح ليقدّم حفلة همبرت الكبير. ورجوت أن لا تكون قد عرفتني، فأسرعت للعودة إلى سيّارتي. كم كان هذا الشارع الصغير شديد الانحدار والوعورة! وكم كانت الجادّة عميقة! وعند السيّارة كان ضبط جزاء على ورق أحمر ينتظرني معلّقًا تحت المسّاحة، وقد مزّقته بعناية إلى قطعتين ثم إلى أربع، ثم إلى ثمانٍ. وشعرت أنّي كنت أضيّع وقتي فأقلعت بقوّة وجريت نحو ذلك الفندق في وسط المدينة الذي كنت قد وصلت إليه منذ أكثر من خمسة أعوام مع محفظتي الجديدة. وحجزت غرفة وحدّدت موعدين بالتلفون، وحلقت ذقني، واغتسلت، وارتديت بذلة سوداء وهبطت لآخذ قدحًا من الحانة. ولم يكن شيء قد تغيّر. كانت القاعة تسبح في ذلك الضوء الشائع العقيقيّ الذي كان يشبه ضوء العلب الضيّقة في أوروبا ما قبل الحرب، والذي يفرض فيه، في أميركا، أن يرفع المستوى «الصميميّ» للفنادق العائليّة.

وجلست إلى طاولة الزاوية نفسها التي جلست إليها في بدء مكوثي في رامسدال فور نزولي في بيت شارلوت، إذ رأيت مناسبًا أن أحتفل بهذه المناسبة فأقاسمها بلذّة نصف زجاجة شامبانيا. وهذا ما هزم قلبها المسكين الفائض بالانفعال. وفي ذلك العهد، أوصى صبيّ ذو وجه قمريّ على خمسين قدحًا من «الشيري» لوليمة عرس. وبلغت الساعة الثالثة إلّا ثماني دقائق. وقد كان عليّ، وأنا أجتاز باحة الفندق، أن ألفّ حول مجموعة من السيّدات كان بعضهن يودّع البعض الآخر بألف حركة لطيفة. وهجمت عليّ إحداهنّ وهي تطلق صرخة معرفة حادّة. وكانت امرأة سمينة وقصيرة ترتدي اللون الرمادي مع قبّعة صغيرة مزدانة بريشة طويلة رفيعة. إنّها السيّدة شاتفيلد طبعًا! وقد استقبلتني ببسمة مزيّفة، يضيئها فضول جهنّمي (هل تُراني فعلت مع دولّي ما فعله فرانك لاسال، وهو عامل مرآب في الثمانين من عمره، مع غلامة عمرها اثنا عشر عامًا، سالي هورنر، في عام ١٩٤٨؟) ولكنّي، بلفتة يد، وضعت حدًّا لرغبتها في التلذّذ بإلقاء هذا السؤال. وقالت إنّها كانت تظنّني في كاليفورنيا، فكيف حال. ؟ فسررت سرورًا لذيذًا بإخبارها بأنّ ابنتي لزوجتي قد تزوّجت مهندسًا شابًّا مرموقًا كانت له مهمّة سرّيّة عليا في الشمال الغربي. ولم تكن تقرّ قطّ هذه الزيجات السابقة لأوانها، هذا ما أجابت به، ولن ترضى أبدًا لابنتها «فيليس» التي لم تكد تتجاوز الثامنة عشرة أن.

وقلت بلطف ـ «نعم. إنّني أذكر جيّدًا «فيليس» ومعسكر كيلت نعم، طبعًا وبالمناسبة هل روت لكِ يومًا كيف كان شارلي هولمس يفسد هناك الفتيات النازلات في مخيّم أمّه؟» وكانت بسمة السيّدة شاتفيلد قد بدأت تظهر منذ لحظة، فإذا هي الآن تمحى تمامًا؟

وصاحت ـ «يا للعار، يا للعار سا سيّد همبرت! لقد سمعنا أخيرًا أنّ

الصبيّ المسكين قد قُتل في كوريا».

وكان عليّ بعد ذلك أن أمضي.

وكان مكتب وندمللر يبعد شارعين عن الفندق. وقد استقبلني مصافحًا بحرارة وهدوء. وكان هو يظنّني أيضًا في كاليفورنيا أَوَلم أقضِ بعض الوقت في برادسلي؟ فقد سجّلت ابنته اسمها في جامعة ب. وكيف حال. ؟ فأعطيته كلّ المعلومات المطلوبة عن السيّدة شيلر. وكانت محادثة منتجة وبشوشة، وحين خرجت إلى شمس أيلول الحارّة، كنت معوزًا بلا هموم.

أمّا وقد نظّم كلّ شيء الآن، فقد كان بوسعي أن أكرّس نفسي بحرّيّة للغاية التي جئت من أجلها إلى رامسدال.

وكنت قد احتفظت ـ أنا الذي أتمتّع بذلك الفكر المنظّم ـ بوجه كلار كيلتي مقنّعًا في برجي المظلم حيث كان ينتظر وصولي ومعه الكاهن والحلّاق: «استيقظ، يا «لاكو» فقد آن لك أن تموت!». وأنا الآن مستعجل جدًّا، فليس لديّ الوقت للمحاضرة في موضوع علم ذاكرة الفراسة الجسديّة ـ فأنا على موعد مع عمّها وأنا أسير بخطوة رياضيّة ـ ولكن اسمحوا لي أن أسجّل ما يلي بيننا يجري قلمي: لقد احتفظت، في خمر ذاكرة مغمّة، بصورة سحنته الضفدعيّة، والواقع أنّ ظهوره النادر بضع مرّات كان قد سمح لي، في البدء، بأن ألاحظ أنّه يشبه شبهًا خفيفًا أحد أقربائي السويسريين، وهو بائع خمر بشوش لا يخلو من قذارة. أمّا هو، بأثقاله الحديديّة وتبّانه السامّ وذراعيه المشعرتين السمينتين، وصلعته، وخليلته الخادمة الخنزيريّة، فقد كان في الحقيقة شيخًا متحذلقًا غير مؤذٍ على الإطلاق، بحيث ينبغي ألّا يختلط مع فريستي. ولكن، في الحالة الفكريّة

التي كنت فيها آنذاك، فإنّ صورة النسيب «تراب» كانت تفوتني ـ وكانت غارقة في وجه كلار كيلتي كما كان يبرز لعيني، بدقّة فنّيّة، على تلك الصورة المؤطّرة التي تمثّله، والتي كانت منصوبة في زاوية مكتب عمّه.

وفي برادسلي، كان الدكتور اللّطيف «مولنر» قد أجرى لي، بنجاح، عمليّة استبدال في الأسنان لم تُبقِ لي إلّا بعض الجذور الأصليّة في الفكّين. وكانت أسناني البديلة خاضعة لنظام دقيق من الصفائح المعدنيّة يُمسكها خيط معدنيّ غير مرئي يتبع انعطافات لثّتي العليا وكانت هذه الحيلة الصناعيّة أثرًا رائعًا من آثار البراعة والراحة، وقد كانت أسناني في حالة ممتازة من جرّاء ذلك. غير أنّي أردت أن أخفي غايتي السرّيّة تحت حجّة معقولة مناسبة، فصرّحت للدكتور كيلتي بأنّي عزمت على أن أنزع جميع أسناني، على أمل أن أعالج بذلك نوبات الألم العصبي التي كانت تنتاب وجهي. فكم يكلّفني طقم أسنان كامل؟ وكم جلسة أحتاج لأنهي تركيبه، مع العلم بأنّنا لا يمكن أن نبدأ بذلك إلّا في أثناء تشرين الثاني؟ وأين كان يختبئ حفيده الشهير؟ وهل من الممكن نزعها كلّها في عمليّة دراماتيكيّة واحدة؟

وكان الدكتور كيلتي جالسًا على طرف مكتبه، مرتديًا ثوبًا ذا أكمام واسعة، وقد ابيضّ صدغاه، وكان شعره قاسيًا وخدّاه منبسطين كخدود سياسيّي ما وراء الأطلنطي، وكان يهزّ رجله في رقصة حالمة ساحرة، حين بدأ حديثه عن القسم الأوّل من خطّة ذات مدى طويل: فهو سيركّب لي أوّل الأمر طقم أسنان موقّتًا، ليتيح للثّتي وقتًا كافيًا للتصلّب. وبعد ذلك يركّب الجهاز النهائي. فهل أريد أن أسمح له بإلقاء نظرة؟ وكان ينتعل حذاء جلديًّا مثقّبًا وهو لم ير حفيده منذ ١٩٤٦. ولكنّه يرجّح بأنّه لا يزال يسكن في بيت الأجداد ـ «غريم رو» بالقرب من «باركنغتون». وكان حلمًا عظيمًا

وكانت قدمه تزداد رقصًا، ونظره يشعّ بالإلهام. وستكلّفني العمليّة ستّمئة دولار. وهو يرى أن يأخذ قياساتي منذ الآن، وأن يصنع الجهاز الموقّت قبل أن يبدأ عمليّة الانتزاع. وكان فمي في نظره مغارة رائعة تغصّ بالكنوز التي لا تقدّر ـ ولكنّي منعته بقسوة من دخوله.

وقلت: «كلّا إنّني بعد التفكير أفضل أن أتوجّه إلى الدكتور «مولنار». صحيح أنّ أسعاره أعلى، ولكنّ الجميع يعرفون أنّه أكفأ منك بكثير.

ولست أدري إذا كان سيُتاح لأحدكم يومًا أن يقول مثل هذا! إنّه إحساس حُلُمي. وقد ظلّ خال كلار جالسًا على مكتبه، وكان يبدو أنّه ما يزال يحلم، ولكنّ قدمه كفّت عن أن تهدهد عهد الاستعجال، غير أنّ مساعدته ـ وهي فتاة ذابلة شديدة الهزال ذات عينين تشبهان عيون الشقراوات التعيسات ـ ركضت خلفي لتستطيع أن تصفق الباب على أثري.

إدخال المشط في مكانه. ولن يكون في مكانه إلّا حين تحسّ أو تسمع طقّة الزنبرك في مسكنه. عشّ صغيرٌ لطيف. طاقته: ثماني رصاصات. فولاذ مزرقّ. يحترق شوقًا لأن يُفرغ.

٣٤

وشرح لي موظّف محطّة للخدمة في باركنغتون شرحًا مفصّلاً طريق «غريم رود». وأردت التأكّد أنّ كيلتي موجود في بيته، فحاولت أن أتلفن له، ولكنّي عرفت أنّ خطّه الخاصّ كان قد قطع منذ بعض الوقت. فهل يعني هذا أنّه قد انتقل؟ طرحت على نفسي هذا السؤال وأنا أقلع بالسيّارة. وكانت «غريم رود» على بعد عشرين كيلومترًا شمالي المدينة. وكان الليل

قد محا معظم أجزاء المناظر، وبينما كنت أسلك الطريق الضيّق المتعرّج، كانت سلسلة من الأعمدة الشبحيّة البيضاء المزوّدة بالعاكسات تستعير أنواري لترشدني إلى هذا المنعطف أو ذاك. وكنت أميّز بغموض، في جانبٍ من الطريق، واديًا كثيفًا، وفي الجانب الآخر، تلالاً صغيرة مشجرة، وأمامي فراشات ليل كانت تنبعث من الظلمات لتدور في هالتي المستقصية. وعند الكيلومتر العشرين ظلّلني لحظة، كما كان متوقّعًا، جسرٌ ذو قبّة. ثم رأيت في طريقي صخرة مطليّة بالكلس، وعلى بعد يسير، غادرت الشارع الكبير لأدلف (على يميني) إلى طريق «غريم رود» المحصب. وطوال دقيقة أو دقيقتين، سرت في غابة كئيبة غير مطمئنّة. وأخيرًا برز الـ «كاستل بافور» وهو بناء خشبيّ تحاذيه قبّة هرميّة صغيرة كان يقوم وسط بقعة بيضاويّة. وكانت نوافذه تلتمع بالأصفر والأحمر، وكان نصف دزّينة من السيّارات تسدّ الممرّ. وتوقّفت تحت ظلّ الأشجار وأطفأت أنواري لأهيّئ حركتي القادمة في أمان. لا شكّ أنّ «ك .ك.» كان بصحبة محظياته ورجاله المساعدين. ولم أكن أستطيع الامتناع عن مقارنة داخل هذا القصر الخَرِب الجَذِل بديكور «شباب محموم» (وهي إحدى قصصه التي قرأتها في إحدى مجلاّت «لو») مع حفلات سرّيّة حمراء، ورجل ماجن غامض يدخن سيكارًا داعرًا في جوّ من المخدّرات والحرّاس. لقد كان، على أيّ حال، في بيته، وسأعود في خَدَر الصباح.

وبلا عجلة عدت أدراجي إلى المدينة وراء مقود سيّارتي الطيّبة العجوز التي كانت تطيع إرادتي طاعة أمينة هادئة شبه فرحة. أوه، يا حبيبتي لوليتا! لقد وجدت، بعد ثلاث سنوات أحد دبابيسك الشعريّة في جوف صندوق القفّازات! وفي أثناء الطريق وجدت شيئًا آخر: هذه الألوف من فراشات الليل الصفراء التي كان ضوئي المزدوج يسلبها من الظلمات. وكانت أكواخ

مظلمة عالية تنبع هنا وهناك. كانت تلك ساعة الجلسات الأخيرة للمسارح والسينما: فبينما كنت أبحث عن ملجأ أقضي فيه الليل، مررت بدار للسينما في الهواء الطلق. وهناك رأيت في وضوح مضيء شبحًا هزيلاً، بطلاً شبه صوفيّ إزاء الظلام الكثيف الذي لا قمر فيه، يرفع مسدّسه على الشاشة الضخمة التي كانت تضيع في الحقول المظلمة المخدّرة، وكان منحدر هذا العالم القابل للانقباض يحيل الرجل وذراعه إلى ماء قذر مرتجّ ـ ثم يُلاشى هذه الحركات صفّ من الأشجار.

٣٥

حوالى الساعة الثامنة صباحًا غادرت فندق «أنسومنيا» وشردت لحظة طويلة في «باركنغتون». وكان يستولي عليّ قلق تنفيذ العمليّة. وخوفًا من أن تكون رصاصة مسدّسي الآليّ قد ترطّبت خلال هذا الأسبوع، استبدلتها بمشط لم يُمسّ. وكنت قد أعطيت «صاحبي» حمّامًا من الزيت لم أعد أستطيع معه أن أوقف هذا التدفّق من اللزوجة. وكان عليّ أن أعصبه بخرقة قديمة، كأنّه ذراع مقطوعة وأن آخذ خرقة أخرى لأضع فيها قبضة من رصاصات التبديل.

وقد واكبتني عاصفة حتى منعطف «غريم رود». ولكن حين بلغت «كاستل بافور» كانت الشمس قد ظهرت من جديد فتيّة محرقة كالشجاع، وكانت العصافير تصيح بأعلى صوتها في الأشجار المدخنة. وكان البَيت العجيب المتصدّع يبدو مسمّرًا في شبه تخشّب لم يكن بعيدًا عن أن يعكس حالتي بالذات ـ لأنّي تبيّنت وأنا أضع قدمي على الأرض المطّاطة المهتزّة، أنّي قد بالغت كثيرًا في استغلال طريقتي التنشيطيّة بواسطة الخمر.

واستقبل قرعة جرسي صمت حذر السخرية، على أنّ مرأبه كان محشورًا حتى المدخل بسيّارته ـ وهي سيّارة مكشوفة سوداء، بالمناسبة! وجرّبت مدقّ الباب. لا أحد. ودفعت الباب و ـ انظروا كيف «يتدبّر» كلّ شيء! ـ فانفتح على مصراعيه، كما كان يجري ذلك في قصص الجنّيّات في العصور الوسطى. وأغلقته خلفي على مهل، واجتزت ممشًى ضخمًا ذا بشاعة شديدة، وأرسلت نظرة في الصالون المجاور. ولمحت عددًا من الأقداح القذرة ترشح رائحة السجّاد، واستنتجت بأنّ سيّد المكان لا يزال ينام في غرفة السيّد.

ورقيت السلّم بخطى بطيئة. وكنت أشدّ على صاحبي المكوّم في قعر جيبي، بيدي اليمنى، وباليسرى كنت أوقّع على الدرابزون اللزج.

ومن الغرف الثلاث التي راقبتها كانت إحداها قد استُعملت ليلاً بكلّ تأكيد. ورأيت ممرًّا ـ مكتبة يغصّ بالزهور. ورأيت حجرة شبه عارية ذات مرايا عميقة وفرو دبٍّ قطبيّ على البلاط الزلق. ورأيت غرفًا أخرى. وفجأة خطرت في ذهني فكرة لبيبة. فاحتياطًا للحالة والخطّة التي قد يعود فيها «السيّد» من نزهته الصباحيّة عبر الغابة أو يخرج من خدره السرّي وسيكون وضعه خيرًا من وضع مهاجمه ـ وهو حامل مسدّسًا تنتظره مهمّة طويلة وشاقّة في أن يمنع خصمه من أن يغلق على نفسه الباب في إحدى غرف الدار. ولذلك جعلت أنتقل طوال خمس دقائق عبر البيت (بجنون متبصّر وهدوء دائخ كصيّاد مسحور مخمور) وأنا أدير جميع المفاتيح في جميع الأقفال بيدي اليسرى الحرّة ثم أضعها في جيبي. وكان البيت، ذو البناء القديم نسبيًّا، مزوّدًا بجميع هذه الزوايا والخادع للصميميّة والجلسات الحميمة التي لا تتّسع لها الغرف الضيّقة في المباني الحديثة التي يجب استعمال الحمّام فيها وهو المخدع الوحيد القابل للإغلاق، لقضاء حاجات الاستيلاد المنظّم.

وبمناسبة الحمّامات ـ كنت أوشكت أن أرى حمّامًا ثالثًا حين رأيت «السيّد» يخرج منه، مخلّفًا وراءه شلّالاً سريعًا. ولم تكن زاوية الممرّ تخيفني تمامًا. وقد مرّ أمامي بزهو، بوجهه الممتقع، وعينيه ذواتي الجيوب، والخصل الخفيفة التي تنتشر في رأسه، وكان يرتدي برنس الحمّام ذا اللون العقيقيّ (وكان عندي مثله تمامًا) ولم يَرَني، أو لعلّه محاني من أفكاره كسراب مألوف غير مؤذٍ ـ وهبط السلّم بمشية ناعسة، كاشفًا عن ربلتيه المشعرتين. وأخذتُ آخر مفتاح ووضعته في الجيب ثم لحقت به إلى الناحية. وكان قد فتح نصف فمه وباب الدخول، وكان يلحظ شزرًا من الفجوة المشمسة، كما لو أنّه سمع زائرًا متردّدًا يدقّ الباب وما يلبث أن يختفي. وأخيرًا، دخل «السيّد»، وهو ما يزال يجهل الشبح المرتدي المشمّع والذي كان مسمّرًا في وسط السلّم، دخل ممشًى خفيًّا واقعًا باتّجاه الصالون، بالنسبة للممشى المركزيّ. وقد عبرت هذا الصالون من أوّله إلى آخره (تاركًا طريدتي بلا أدنى خوف، فقد سقطت في الشَرَك) ودخلت مطبخًا متنكّرًا على شكل بار، فنزعت «صاحبي» من خرقته بألف احتياط محترسًا ألّا أدع أيّة لطخة زيت على الكروم ـ لا بدّ أنّي أخطأت نوع المنتوج، فإنّه كان خليطًا قذرًا أسود. وعند ذلك زلقت صاحبي المعرّى، بالدقّة المعهودة فيّ، في مخبأ من ثيابي وعدت إلى الممشى. وكنت أمشي كما ذكرت، بخطوة مطّاطة ـ لعلّها كانت أكثر ممّا كان مطلوبًا لنجاح عمليّتي، وكان قلبي يخفق بطمع نمر غاضب، فطحنت قدح كوكتيل تحت كعبي.

والتقى بي «السيّد» في الصالون الشرقي.

وسألني «من أنت؟» بصوت ثاقب ورقيق معًا، ويداه في جيبي برنسه، ونظره مصوّب إلى الشمال الشرقي من رأسي. واستأنف يقول: «لعلّك

براوستر؟». وإنّه ليقفز أمام عيون الجميع أنّ صاحبنا كان ما يزال معرّضًا تمامًا لرحمتي. وكنت أوشك أن أنفّذ مهمّتي بفرح كبير.

وقلت بصوت عذب: «تمامًا، إنّني السيّد براوستر. فلنتحدّث قليلاً لنتآلف». وكان يبدو عليه أنّه مسرور جدًّا وقد اهتزّ شاربه المفحم. وخلعت مشمّعي. وكنت أرتدي ثوبًا أسود، وقميصًا أسود، بلا ربطة عنق. وجلسنا على هوانا في مقعدين عميقين. وقال وهو يكشف أسنانه الصغيرة اللؤلؤيّة في بسمة نصفيّة ويحكّ بصخب خدّه المقشوط اللحيم:

ـ «أتدري أنّك لا تشبه قطّ جاك براوستر، أعني أنّ الشبه ليس واضحًا تمامًا. وقد قيل لي إنّ له أخًا يشتغل هو أيضًا في شركة التلفون».

أن أراه يتأرجح في المصيدة بعد هذه الأعوام كلّها من الغضب والندم. وأن أتأمّل الشعر الأسود فوق ظهر يدَيْه المعروقتين. وأن آتيه بمئة عين عند هذه الحريريّات البنفسجيّة وهذا الجسم الضخم وأن أتذوّق سلفًا الثقوب وخليط الدم وغناء عذابه وألمه. وأن أعرف أنّ هذا المجرم الإنسان الدون الذي هدّم حبيبتي. أوه يا عزيزتي إنّ ذلك كلّه كان شهوة لا تكاد تُحتمل!

وقلت ـ «كلّا، أخشى أن لا أكون واحدًا من آل براوستر».

فحنى رأسه، وبدا أنّه ازداد سرورًا.

واستطردت: «فكّر بعد أيّها المهرّج».

وصاح المهرّج: «آه، في هذه الحالة آمل ألّا تكون قد أتيت لتزعجني بصدد هذه المخابرات الخارجيّة؟».

ـ «إنّه يتّفق لك أحيانًا أن تتلفن إلى الخارج؟».

ـ «عفوًا؟».

فقلت: «سبق أن قلت إنِّي كنت أفكّر بأنّه سبق أن قال إنّه لم يسبق له قطّ. . ».

فقال ـ «إنّهم الناس. الناس بالإجمال. فأنا لا أتّهمك يا براوستر ولكنّها غير معقولة هذه الطريقة التي يعمد إليها الناس لاكتساح هذا البيت من غير أن يجهدوا في طرق بابه. إنّهم يحتلّون المطبخ ويحتلّون المرحاض ويحتلّون التلفون. فهذا «فيل» يطلب «فيلادلفيا» وذلك «بات» يطلب «باتاغونيا». إنِّي أرفض أن أدفع. ولكن قل لي، يا كابتن، أنّ لك لهجة غريبة!».

فقلت: «يا كيلتي! هل تذكر فتاة اسمها دولوريس هاز، دولِّي هاز؟ دولِّي المسمّاة دولوريس، كولورادو؟».

ـ أعتقد أنّها هي التي، بكلّ تأكيد، طلبت جميع هذه المخابرات. طبعًا! يتلفنون إلى أيّ مكان مدينة «الجنّة» وضاحية «الجحيم» ما يدريني؟ إنّهم لا يهمّهم ذلك على الإطلاق!».

ـ «لست أنا، يا كيلتي. اسمع، إنّني أبوها».

فقال ـ «كفى مزاح. أنا لا أصدّقك. لا بدّ أنّك وكيل أدبيّ أجنبي. والواقع، هل تعرف كيف ترجم مترجمي الفرنسيّ كتابي. . ».

ـ «لقد كانت ابنتي الصغيرة، يا كيلتي».

وما كان لشيء، في حالته تلك، أن يشوّشه، ولكن ما اتّخذه من مظهر التفنج لم يكن قطّ مقنعًا وقد ألهب شعاعُ حذر مرتاب إثارةً من حياة، وما لبث أن انطفأت.

وقال: «إنّني أنا نفسي أحبّ الأولاد كثيرًا، ولي بين أصدقائي المفضّلين كثير من الآباء».

وكان يبدو وكأنّه يبحث عن شيء ما ولفت رأسه، وجسّ جيوبه، وحاول فجأة أن ينهض من كرسيّه.

وقلت: «اجلس». وظهر لي أنّي كنت أقوى كثيرًا ممّا كنت أعتقد أنا نفسي.

فاحتجّ بصوته ذي الرنّة النسويّة:

ـ «لا حاجة بك إلى الهدير. كنت أبحث عن سيكارة. إنّي أموت رغبة في التدخين».

ـ «إنّكِ على أيّ حال ستموت».

فقال: «أوه، كفى! لقد بدأت تضايقني. فما الذي تطلبه؟ أعتقد أنّك فرنسيّ؟ هل تريد أن تشرب قدحًا؟ لننتقل فنجلس في مشربي الصغير، ولنأخذ قدحًا من. . .».

ورأى المسدّس الأسود مضطجعًا في جوف راحتي، كأنّه عطيّة. فدمدم وهو يقلّد لهجة «الغانغستر» في الأفلام:

ـ «ظريف! إنّه مسدّس لذيذ، هذا الذي معك، كم تطلب ثمنه؟».

فضربت يده الممدودة، فقلب علبة صغيرةً موضوعةً على طاولة بالقرب من مقعده. وانفتح باب العلبة، دافقًا قبضة من السكاير.

وقال باندفاع: «هي ذي. وكما يقول كبلنغ: المرأة هي المرأة، ولكن كابورالا هو سيجارة! حسنًا، والآن نحتاج إلى كبريت».

وقلت: «ركّز تفكيرك يا كيلتي. إنّك ستموت بعد لحظة. إنّ الحياة الأخرى قد لا تكون، على ما نعلم، إلّا خلود جنون لا يرحم. لقد دخّنت آخر سيكارة لك مساء أمس. فركّز تفكيرك. حاول أن تفهم ما يحدث لك».

وكان قد مزّق سيكارته آليًّا ـ وهي سيكارة «دروم» ـ وأخذ يمضغ فتاتًا من التبغ.

وقال: «أودّ كثيرًا أن أحاول. أنت مهاجر أستراليّ أو لاجئ ألمانيّ. أفتكون هذه المحادثة ضروريّة حقًّا؟ إنّك هنا في بيت جنتلمان، كما تعلم! وخيرٌ لك أن ترحل. وكفّ عن إشهار هذا المسدّس. فأنا نفسي أملك مسدّسًا قديمًا من طراز «لوغر» في صالون الموسيقى».

وصوّبت على قدمه المنتعلة حذاء بيتيًّا، فحدثت طقّة. ونظر إلى قدمه وإلى المسدّس، ثم إلى قدمه. وبذلت جهدًا مريعًا، فخرجت الطلقة بطقّة صغيرة صبيانيّة. واخترقت الرصاصة السجّادة الكثيفة الورديّة، وشعرت بأنّها تدحرجت في ثقب وأنّها ستخرج منه بين لحظة وأخرى.

وصاح كيلتي: «أترى ما أعنيه؟ عليك أن تنتبه. أعطني هذا السلاح بربّك».

وحاول أن يستولي عليه، فأسقطته في مقعده. وكان الجذل الذي كنت أشعر به في البدء يبهت شيئًا فشيئًا وكان قد آن الآوان لقتله. غير أنّي كنت أريد أن يفهم أسباب هذا القتل. وكان ضيقه يعديني فأصبح السلاح في يدي عاجزًا وخرعًا

وقلت: «ركّز فكرك على دولّي هاز التي خطفتها».

فصاح: «هذا غير صحيح. أنت مجنون! لقد انتزعتها من يدي شخص

كريه حقير. وقد آن لك أن تريني دفترك كشرطي بدلاً من أن تصوّب رشّاشك على قدمي أيّها القرد! فأين هو؟ فأين هو هذا العتبر. أنا لست مسؤولاً عن اغتصابات الآخرين. إنّ هذا جنون. ولقد كان هذا الهرب حماقة. ضربة تمثيل سخيفة، وأنا أقرّ هذا. ولكنّك استعدت الصغيرة، أليس كذلك؟ حسنًا. تعال لنشرب قدحًا.

فسألته هل يفضّل أن يُقتل جالسًا أم واقفًا؟

فقال: «آه، اسمح لي بأن أفكّر. إنّ السؤال محرج. وبين هلالين. لقد ارتكبت خطأ. وأنا نادم عليه بكلّ صراحة. اسمع. إنّني لم أتسلّ كثيرًا مع دولّي. وإنّي أعترف بالحقيقة المحزنة، وهي أنّي عمليًّا عاجز. غير أنّي منحتها عُطلاً رائعة. وقد تعرّفت على أشخاص مرموقين. فهل تعرف. ؟».

وباندفاع هائل، ارتمى عليّ بكلّ جسمه، قاذفًا «صاحبي» تحت خزانة. ومن حسن الحظّ أنّه كان فائرًا أكثر منه قويًّا، فتمكّنت بلا جهد من أن أقذفه ثانية في مقعده.

وكان يلهث لهاثًا خفيفًا فشبك ذراعيه على صدره.

فصاح ساخرًا: «لقد ربحت! وها أنت ذا في المغطس يا صاحبي».

ونظرت فيما حولي. فربّما أستطيع. فربّما. أستطيع. ربّما. ـ على الأربع ـ أن أجرّب حظّي.

واستطرد يقول ونظره يَقِظ:

ـ «وإذًا فماذا نفعل؟».

وانحنيت. فلم يتحرّك. وانحنيت قليلاً أكثر.

فقال: «أيّها السيّد العزيز، كفّ عن المزاح مع الحياة والموت، إنّني كاتب مسرحيّ. وقد ألّفت مآسي ومهازل وانتقاديّات. وأخرجت أفلامًا لاستعمالي الخاصّ، طبعًا مستمدّة من «جوستين» ومن مصادر أخرى من القرن الثامن عشر. وقد وقّعت اثنين وخمسين سيناريو ناجحًا وأنا أعرف جميع حيل المهنة. فدعني أتولّى الأمور بيدي. لا بدّ أن يكون هناك سفود في مكان ما وسآتي به لنسحب به مسدّسك».

وفيما هو يتحرّك حركات مكياڤيليّة، نهض شيئًا فشيئًا وتلمّست الأرض تحت الخزانة وأنا أحاول في الوقت نفسه أن لا أنزع عنه بصري. ورأيت فجأة أنّه قد رأى بأنّي لم يظهر عليّ أنّي رأيت أنّ فم «صاحبي» كان ينفذ من تحت الطرف الآخر للخزانة. واشتبكنا مرّة ثانية جسديًا وفيما نحن متعانقان أخذنا نتدحرج على الأرض، كصبيين سمينين لا سلاح معهما وكان عاريًا وكانت رائحته تشبه رائحة الخنزير وهو في برنسه حتى حسبتني أختنق حين انقلب عليّ وانقلبت عليه. وانقلبنا على نفسي. وانقلبنا عليه. وانقلبنا على نفسَيْنا

وأعتقد أنّ القارئ يقرأ هذا الكتاب بشكله المطبوع في الأعوام الأولى من الألف الثالث (١٩٣٥ زائد ٨٠ أو ٩٠ عامًا، عيشي أطول مدّة ممكنة يا حبيبتي!) (وعند هذه النقطة من قصّتي لا بدّ أنّ القرّاء ذوي الأعمار المطابقة للقوانين الكنسيّة سيتذكّرون المنازعة التي لا بدّ منها في «وسترن» طفولتهم) أمّا منازعتنا نحن فإنّها لم تكن تكشف للأنظار تلك الضربات من القبضات التي تقتل بقرة، ولا ذلك التطاير للطاولات والكراسي التي تشقّ هواء الصالون. إنّنا أنا وكيلتي لم نكن إلّا تمثالين مكرشين محشوّين بالقطن المندوف وبالخرق القذرة. وقد كان اشتباكًا صامتًا، مائعًا، غير متناسب، بين كاتبين مُكثرين كان أحدهما قد فسد فسادًا

كاملاً بالمخدّر، وكان الآخر مرهقًا بقلب مريض وبالإفراط في شرب «الجنّ». وحين استوليت أخيرًا على مسدّسي الثمين، وأعدت مؤلّف السيناريوات إلى مقعده، كنّا نحن الاثنين نزفر ونشخر كما يفعل بقّار ومعّاز إثر انتهاء نزاعهما

وبدا لي من الحكمة أن أتحقّق من سلاحي ـ فربّما كان عرقنا المختلط قد أفسد شيئًا ما ـ وأن أستعيد أنفاسي قبل أن أباشر المشهد الرئيسيّ من حفلتي. ولكي أملأ فترة الاستراحة، دعوته أن يقرأ بنفسه حكم إعدامه بصورته الشعريّة التي أعطيته إيّاها وإنّ عبارة «العدالة الشعريّة» هي التي تصوّر الوضع خير تصوير. وقد بسطت له عدّة أوراق مطبوعة على الآلة طبعًا أنيقًا فقال: «براڤو، فكرة رائعة. لحظة، سآتي بنظّارتي».

واصطنع أنّه يهمّ بالوقوف.

«لا لا

ـ «كما تريد. هل يجب عليّ أن أقرأ بصوت عالٍ؟».

ـ «نعم».

ـ «حسنًا يا للعجب. أرى أنّه شعر».

لما كنتَ قد

استغللت ميزتك

ولما كنت قد

استغللت ميزة عدم ميزتي.

أتعرف. هذا رائع جدًّا جميل!»

بينما كنت أقف عاريًا كآدم

أمام العلم المنجم

ونظر القانون

«أوه رائع، رائع!»

ولمّا كنت قد هزئت بي

وبإثمي وبقلبي المرتعش

الضعيف اللزج

وبينما كنت أتمنّى أن

يتدبّر كلّ شيء وكنت أحلم بالزواج

في ولاية من «الجبال الصخريّة»

وبعدد كبير من «اللوليتات»

«إنّني لم أفهم جيّدًا هذا المقطع!»

ولمّا كنت قد لطّخت زبدة

براءتي

الجوهريّة

وأنّك حرمتني.

«هذا إسهاب بعض الشيء! أين كنّا؟»

وأنّك حرمتني من خلاصي

وأنّك سلبتني لوليتي

عندما كان عمرها يشابه عمر

صبي يعصب

قوسه النشّاب في الغاب

«إيه، إيه، بدأ صاحبنا يصبح فاجرًا!»

غلامة غير بالغة ما تزال تلبس الجورب القصير

غلامة زغباء ما تزال تضع

إكليل الشقائق

وتقرض الفستق

في السينما بينما يسقط رجال «السيو»

عن أفراسهم مقتولين، السقطة بخمسة دولارات

ولمّا كنت

قد سلبتها من حاميها

من وصيّها الرصين ذي الجبين الشمعيّ

وبصقت في عينها الناعسة

ومزّقت ثوبها لتتركها

عند الصباح

أيّها الخنزير القذر

لتتدحرج فوق فراش الفظاعة

فظاعة الحبّ فظاعة البنفسج

والخجل والعار واليأس

بينما كنت تمزّق أنت لعبة ميّتة

وترمي برأسها المنزوع

بالنظر لما عملت

وبالنظر لما لم أستطع عمله

فإنّ عليك أن تموت

ـ «لعمري! إنّها لقصيدة عظيمة يا سيّدي. بل هي خير ما كتبت، في رأيي المتواضع».

وطوى الأوراق ثم بسطها لي.

وسألته عمّا إذا لم يكن له شيء هامّ يريد أن يقوله قبل أن يموت.

وكان مسدّسي الآلي مستعدًّا من جديد للدخول في العمل. ونظر إليه كيلتي وأرسل زفرة طويلة. ثم قال:

ـ «استمع إليّ يا عزيزي. أنت سكران تمامًا، وأنا مريض، فلنؤجّل القضيّة، إذا سمحت؟ إنّي أحتاج إلى الهدوء، إذا كنت أريد أن أشفي عجزي. وأنا أنتظر أصدقاء بعد ظهر اليوم لأذهب معهم لمشاهدة مباراة. وإنّ إشهار هذه المدفعيّة قد بدأ يثير أعصابي. إنّنا كلينا رجلان مرموقان، وموهوبان في ميادين كثيرة ـ الحبّ والشعر الحرّ وصيد الحمام. فإذا كنت تعتبر نفسك مهانًا، فإنّي مستعدّ لإصلاح ما أفسدت استعدادًا كبيرًا. وإذا

لزم الأمر، فلا بأس من اللقاء على الطريقة القديمة، بالسيف أو بالمسدّس، في «ريو» أو في مكان آخر. إنّ ذاكرتي وبلاغتي ليستا هذا الصباح على ما يرام، ولكن أعترف فيما بيننا يا عزيزي السيّد همبرت، أنّك لم تكن عمًّا نموذجيًّا. ولست أنا الذي أجبرت التي تحميها على أن تلحق بي، بل هي التي ابتهلت إليّ أن آخذها إلى بيت أوفر سعادة. وأنّ هذا البيت ليس في مثل عصريّة المزرعة التي كنّا نتقاسمها آنذاك مع أصدقاء أعزّاء. ولكنّه بيت واسع، بارد في الصيف مثله في الشتاء، وهو بكلمة واحدة مريح جدًّا وإنّي أنوي أن أنسحب إلى إنكلترا أو إلى فلورنسا حتى آخر أيّامي، وأعرض عليك أن تُقيم فيه. إنّه لك، بالمجان، بشرط واحد، هو أن تكفّ عن أن تشهر هذا المسدّس (ونطق بشتيمة داعرة) في عينَيّ. وعلى الهامش، لا أدري إذا كنت من هواة جمع الأشياء الغريبة، فإذا كنت كذلك فباستطاعتي أن أقدّم لك آنسة لطيفة للرفقة، بالمجان أيضًا. وهي ظاهرة حقيقيّة مثيرة جدًّا لعمري، إذ إنّ لهذه المخلوقة الشابّة ثلاثة نهود، والثالث هو جوهرة، وهذه الحالة نادرة جدًّا ولذيذة، أعجوبة من أعاجيب الطبيعة. كفى ولنكن عاقلَيْن! إنّك لن تنجح إلّا في جَرحي بصورة فظيعة، وستذهب لتتعفن في السجن بينما أستعيد أنا صحّتي في المناطق الاستوائيّة. وإنّي أتعهّد لك، يا بروستر، بأنّك ستكون سعيدًا جدًّا هنا، إنّني أترك لك كهفًا رائعًا وجميع حقوق التأليف لمسرحيّتي القادمة فليس عندي أيّ رصيد في المصرف الآن، والمال النقديّ هو الذي ينقصني، غير أنّي أفكّر بالاستدانة وستجد هنا أيضًا خيرات أخرى. إنّ خادمتي امرأة قابلة للإفساد بوسعك أن تثق بها كثيرًا وهي تُدعى السيّدة «فيبريسا» ــ اسم غريب أليس كذلك؟ ــ وهي تأتي من القرية مرّتين في الأسبوع وليس موعدها اليوم مع الأسف، وأنّ لها بنات جميلات. وحفيدات. وبالإضافة إلى ذلك أعرف أمرًا أو أمرين في غير صالح مدير الشرطة المحلِّيّة وهو

يأتي ليأكل في يدي. إنّني مؤلّف مسرحيّ. وقد لقّبوني بـ «مترلينك» الأميركي. ياه! مترلينك، شمترلينك، سيّان. اسمع. اسمع! إنّ هذا مذلّ جدًّا، ولست على يقين بأنّي قد اخترت الحلّ الأفضل. كلّ ما أعرفه هو أنّه ينبغي ألّا نمزج قطّ العرق مع الشراب الهرقلي. هيّا. كنّ لطيفًا، وضعْ هذا المسدّس. لقد عرفت قليلاً زوجتك الفاتنة. خذ ما تشاء من خزانة ثيابي. آه. شيء آخر ـ وهذا سيروق لك! إنّ عندي فوق مجموعة عظيمة من الكتب الجنسيّة. فأنا أملك مثلاً «جزيرة بغراسيون» بقلم «ميلاني واس» الرحّالة المشهورة وعالمة الطبّ النفسيّة، وهي امرأة مرموقة، وكتاب مرموق أيضًا ـ ضعْ هذا المسدّس ـ وهو مجلّد تجليدًا أنيقًا ومزوّد بثمانمئة صورة وأكثر للعضو التناسليّ للرجل، وقد فحصتها وقاستها عام ١٩٣٢ في «بغراسيون» في بحر «باردا» مع رسوم بيانيّة مدهشة، كلّ ذلك منثور عليه مسحوق الحبّ تحت سماء عجيبة ـ ضع هذا المسدّس ـ وبوسعي بعد ذلك أن أحصل لك على إذن لحضور مشاهد الإعدام الكبرى، وقليلون هم الذين يعرفون الكرسيّ الكهربائيّ مدهونًا باللون الأصفر. .».

النار! وأصبت هذه المرّة شيئًا صلبًا، وكان هو أعلى مقعد هزّاز أسود ذكّرني بمقعد دولّي شيلر، وقد ضربت الرصاصة السطح الداخليّ للمسند، وما لبثت أن ارتدّت بقوّة وبراعة لو رآهما زائر غير منتظر لأعجب شديد الإعجاب بهذه المعجزة: المقعد يهتزّ من تلقاء نفسه والكرسي الآخر (الذي كان يحتلّه قبل لحظات خصمي) وقد فرغ فجأة من أيّ محتوى بشريّ. لقد اندفع كيلتي بوثبة مفاجئة من مؤخّرته إلى صالون الموسيقى، وفي اللحظة التالية، كنّا نتماسك ونتدافع ونتلاحق من جهتَيْ الباب ـ الباب الوحيد الذي أفلت مفتاحه منّي. ومن جديد تغلّبت عليه، ولكن، فجأة جلس «كلار»، إلى البيانو وأطبق عليها بسلسلة من الأنغام الصاخبة القاسية

الحادّة، وكان خدّاه يهتزّان، وكانت يداه الممدوتان المتشنّجتان تنهالان على الأصابع العاجيّة، وكان ينفث من منخريه الزفير الشديد الذي كان ينقص مشهد الصراع. فيما هو يهدر بتلك الأنغام المجنونة، كان يجهد لكي يرفع بطرف قدمه غطاء صندوق بحري كان قريبًا من البيانو. فأصابته رصاصتي الثانية في جنبه، وبدأ يرتفع نحو السماء، أعلى فأعلى، كأنّه نيجنسكي إذ جُنّ، أو كابوس همبرتي، حتى بلغ ارتفاعًا غير طبيعي، وبدا يشقّ الهواء ـ الذي كان ما يزال يهتزّ بتلك الأنغام الفنِّيّة الصاخبة ـ محنيّ الرأس بهدير طويل، تضغط إحدى يديه على جنبيه، والأخرى تشدّ إبطه، كما لو أنّ زنبورًا قد لدغه، ثم سقط على عقبيه، وعاد إلى حالة الإنسان، إنسان البرنس، ثم هرب إلى الممشى.

وإنّي لأتمثّلني أجري وراءه عبر الباحة، وأنا أثب وثبات الكانغورو، ولكنّي أبدًا مستقيم فوق ساقيّ القاسيتين، فأدركه بعد قفزتين وأنتصب بينه وبين باب الدخول، في وثبة متشابكة، لأسدّ عليه درب الباب الذي لم يكن مغلقًا كما ينبغي. وفي لحظات أصبح باردًا مقطّب الوجه فدلف على مهل إلى السلّم، ولم أتبعه، بل استدرت في مكاني وأطلقت ثلاث رصاصات أو أربعًا فأصبته بكلّ منها، وبينما كنت أفعل له ذلك الشيء الفظيع، كان وجهه يتشنج بتقطيبات دقيقة تهريجيّة كأنّما كان يبالغ في إظهار ألمه، وأبطأ في سيره. وقلب عينيه، وأسبل جفنيه وكلّما كانت إحدى الرصاصات تخترق جسمه كان يرتعش ويصيح «آه» بلهجة نسائيّة، كما لو أنّي كنت أدغدغه، وكلّما كنت أصيبه برصاصاتي العمياء، الثقيلة، الناعسة، كان يدمدم بين أسنانه وهو يعلك اللهجة البريطانيّة، ما تزال سحنته مشقّقة بالتشنّجات، مرتعش الجسم كلّه وهو ما يفتأ يردّد بصوت بعيد كأنّما هو ودود: «أوه يا عزيزي، كفى، إنّ هذا مؤلم جدًّا أوه! مؤلم بفظاعة، يا

صديقي العزيز. لنكتفِ بهذا. أستحلفك. أوه! مؤلم جدًّا، مؤلم جدًّا يا إلٰهي، هاه! إنّ هذا مريع. إنّك لا بدّ. . » وانطفأت احتجاجاته حين بلغ أسفل السلّم، ولكن خطوته كانت ما تزال ثابتة بالرّغم من الرصاص كلّه الذي أسكنته في جسده المثقّب ـ وأدركت وأنا يائس، أنّني بدلاً من أن أقتله كنت أحقن دفقات من القوّة في عروق المسكين حتى ظننا أنّ رصاصاتي كانت أقراصًا سحريّة يرقص في جوفها إكسير محيي.

وملأت مسدّسي مرّة أخرى بيدَيْن سوداوين داميتين ـ وكنت قد لمست شيئًا كان قد صبغه بلطخات من دمه اللزج ـ فلحقت به إلى الطابق الأوّل، بينما كانت المفاتيح ترن في قعر جيبي كأنّها قطع ذهبيّة.

وكان يترنح من غرفة إلى غرفة. ودمه يتدفّق بقوّة، وهو يبحث عن نافذة مفتوحة هازًّا رأسه وهو ما ينفكّ يحاول أن يثنيني. وصوّبت على جبينه فتراجع نحو غرفة السيّد ولطخة من الأرجوان الأحمر قد حلّت محلّ أذنه.

ـ «ارحل من هنا، اخرج!». هكذا كان يهدر وهو يبصق ويغصّ، ورأيته آنذاك، في رؤية كابوسيّة، ملطّخًا بالدم، وهو ما يزال منتعشًا، ينزلق في سريره ويتجمّع تحت فوضى الأغطية. ورششته بالرصاص عبر اللحاف فاسترخى إلى خلف، وولدت على شفتيه نُفاخَة ورديّة ما لبثت أن أدركت حجم بالون أحمر ثم انفجرت.

ولا شكّ في أنّي فقدت الاتّصال بالواقع خلال لحظة أو لحظتين ـ أوه ولا علاقة لهذا باللازمة «كلّ ـ أصبح أسود ـ في» التي يستعملها مجرموكم العاديّون. بل على العكس، فإنّي ألحّ أنّي كنت مسؤولاً مسؤوليّة واعية عن كلّ مسحة من دمه الفقاعيّ، ولكن حدث نوع من

التراكب الآني فحسبتني في الغرفة الزوجيّة عند سرير شارلوت المريضة. لقد كان كيلتي هو أيضًا مريضًا جدًّا. وكنت أشهر أحد نعليه البيتيين على أنّه مسدّس. أمّا هذا، فقد كنت جالسًا فوقه. وجلست جلسة أكثر راحة على الكرسيّ المجاور للسّرّير ونظرت إلى ساعة يدي. وكان زجاجها قد اختفى، ولكنّها ما تزال تمشي. وقد لزمني أكثر من ساعة لأُنهي هذا العمل الحزين. وكان أخيرًا جامدًا وبدلاً من أن أشعر بالعزاء أحسست بأنّ عبئًا جديدًا، هو أثقل جدًّا من الذي حسبت أنّي تخلّصت منه، قد سقط عليّ، ولم أكن أستطيع أن أقرّر لمس جسمه لأتأكّد إن كان قد مات. كان يبدو عليه أنّه مات. فربع وجهه منتزع، وذبابتان ثملتان من فرط السعادة اكتشفتا حقيقة هذا الحظّ المعجز. ولم تكن يداي أقلّ تلوّثًا من يديه. وقد غسلتهما على خير وجهه في الحمّام المجاور. وكان بوسعي الآن أن أرحل. وبينما أنا أنحدر على السلّم لاحظت بذعر أنّ الطنين الجذل الذي كنت قد حسبته قرع جرس في أذني وأسرعت إلى طرده من أفكاري، كان في الواقع مزيجًا من الصوت والموسيقى المنبعثة من راديو الصالون الأسفل.

وهناك وجدت مجموعة من الناس الذين يبدو أنّهم قد وصلوا لتوّهم وأخذوا ينهبون بفرح مشرب كيلتي. ورأيت رجلاً سمينًا في مقعد كبيرٍ، وفتاتين جميلتين صفراوين بشعر أسود (وهما بدون شكّ شقيقتان، الكبرى متصنّعة، والصغرى متصنعة ـ وهذه ما تزال مراهقة) جالستين جنبًا إلى جنب على مقعد طويل. وفي تلك اللحظة، بدا شخص أحمر الوجه، أصفر العينين، يحمل قدحًا في يد، وهو خارج من المطبخ ـ المشرب الذي كانت تثرثر فيه امرأتان أو ثلاث وهنّ يكسرن الثلج. وتوقّفت على العتبة وقلت: «لقد قتلت كلار كيلتي». فقال الرجل الأحمر الوجه: «شيء رائع» وقدّم

أحد القدحين للأخت الكبرى. وعلّق السمين قائلاً: «كان ينبغي لهذا أن يتمّ قبل وقت طويل». وصاحت من المطبخ شقراء مدعوكة: «إيه، توني ماذا يقول؟» فأجاب الأحمر: «يقول إنّه قتل كيلت» فقال رجل آخر، لم تُعرف هويّته، وهو ينبع من زاوية كان مقرفصًا فيها ينظر إلى الأسطوانات: «أعتقد أنّه كان علينا جميعًا أن نصفي حسابه في يوم أو آخر». وقال توني: «على أيّ حال يحسن به أن ينزل فإذا كنّا نريد أن نرى هذه المباراة، فلا نستطيع أن ننتظر طوال النهار». وقال السمين: «ليقدّم أحدكم قدحًا إلى هذا الشخص». فصاحت امرأة ترتدي البنطلون وتريني قدحًا من بعيد: «هل تريد بيره؟».

أمّا الأختان اللتان كانتا ترتديان السواد، وكانت الصغيرة تفتل الشيء اللامع الذي كان يزيّن عنقها الأبيض، فلم تقولا شيئًا. وإنّما كانتا تبتسمان، ناضرتين، شبقتين، وحدثت فترة استراحة في الموسيقى، وسمعنا تدحرجًا مفاجئًا على الدرج. فهرعنا، توني وأنا، إلى الممرّ. فإذا كيلتي ـ هو بعينه ـ قد نجح في أن يزحف إلى السلّم، ورأيناه يتلوّى وهو يتخبّط بذراعيه ثم انهار كتلة أرجوانيّة، انهيارًا نهائيًّا هذه المرّة.

وصاح توني وهو ينفجر ضاحكًا: «أسرع يا كيلتي. فأنا أعتقد أنّه ما يزال أمامك. . » وعاد إلى الصالون وأغرقت الموسيقى نهاية عبارته.

وأعتقد أنّه آن الأوان لإسدال الستار على الفاصل الذكي الذي أخرجته لكيلتي. لقد تركت البيت، مثقل الفؤاد، ومشيت على مهل عبر ضوء الشمس حتى بلغت سيّارتي. وقد كانت محشورة بين سيّارتين أخريين ووجدت بعض المشقّة لإخراجها من هناك.

٣٦

إنّ الباقي تافه باهت بعض الشيء. لقد هبطت الرابية على مهل، وفاجأت نفسي بأنّي أتدحرج على مهل أيضًا، في الاتّجاه المعاكس لباركنغتون. وكنت قد نسيت مشمَّعي في الممشى و«صاحبي» في الحمّام. كلّا لم أكن أحبّ أن أعيش في ذلك البيت. وتساءلت بشرود عمّا إذا كان أحد أطبّاء التشريح العباقرة لن يغيّر مجرى حياته، بل حياة البشريّة جمعاء، ببعث كيلتي من مملكة الأشباح. كلار المظلم. وليس مردّ ذلك إلى أنّ هذا يزعجني كثيرًا، فقد كانت رغبتي الوحيدة هي أن أنسى تلك القضيّة المفجعة ـ وفيما بعد حين علمت بأنّه قد مات حقًّا كانت الفرحة الوحيدة التي استنتجتها، هي عزائي بأن أعرف بأنّي لن أكون مضطرًّا لمرافقته بالفكر خلال أشهر طويلة لا تنتهي من نقاهة منفرة تقطعها ألوان كثيرة من المضاعفات والعمليّات التي لا توصف، والتي قد يأتي بعدها ليزورني، فألقى مشقّة في أن أستقبله حقيقة لا شبحًا. لقد كان القدّيس توما يعرف ما كان يفعل. ومن العجيب أن نلاحظ أنّ الحسّ اللمسي الذي يبدو أقلّ فائدة للإنسان من الحسّ البصريّ، يصبح في الأوقات الحرجة الشاهد الرئيسيّ، إن لم يكن الوحيد، على الواقع. والواقع أنّي كنت مغطًّى تغطية كاملة بكيلتي من الرأس حتى القدمين ـ مغطًّى بإحساس جسمه في أثناء التشابك الذي سبق المجزرة.

كانت الطريق تتدحرج أمامي مكشوفة، وخطرت لي فجأة فكرة مجرّدة من أيّ رغبة بالاحتجاج أو بالرمزيّة أو بأيّ تفكير مسبق، وهي أنّي ما دمت قد انتهكت جميع قوانين المجتمع فلن أخسر شيئًا أكثر إذا انتهكت أكثر

قوانين السير. وهكذا انحرفت إلى الجانب الأيسر من الطريق الوطنيّة، وترصّدت ردود فعلي: وكانت ردود فعل لذيذة. لقد كنت أشعر باختلاط داخليّ دقيق مخلّل بلمعات أحاسيس لمسيّة، يضاعف ذلك كلّه التفكير بأنّه ليس هناك ما هو أنسب لحذف القوانين الطبيعيّة الأساسيّة من قيادة السيّارة في الجانب الممنوع من الطريق. وهذا انفعال روحانيّ محض، إذا نُظر إليه من زاوية معيّنة. لقد كنت أسير على مهل، بصورة حالمة، من غير أن أتجاوز الثلاثين أو الخمسة والثلاثين في الساعة كما لو أنّ هذا الجانب السيّئ انعكاس الجانب الحسن في إحدى المرايا ولم تكن هناك سيّارات كثيرة. وكانت السيّارات التي كانت تتجاوزني بين وقت وآخر على الجانب الذي تركته لها، تزمّر بقسوة في أذني. أمّا التي كانت تتّجه نحوي فكانت تنحرف وتتذبذب في هدير رعب شديد. وما لبثت أن بلغت مناطق أحفل بالسكّان. وكان قطع الطريق في أثناء الضوء الأحمر يوفر لي فرحة توازي جرعة خمر ممنوع كنت أسرقها وأنا صبيّ. ومع ذلك فقد بدأت التعقيدات تنتصب هنا هناك. وقد لاحظت أنِّي كنت متبوعًا ـ إنّ موكبًا كان ورائي. وفجأة وقفت سيّارتان أمام سيّارتي بحيث سدّتا عليّ الطريق. وغادرت الطريق بالتواءة بارعة، وبعد طفرتين عنيفتين أو ثلاث تسلّقت تلّة معشبة بين بقرات مشدوهات، قبل أن أتوقّف في ارتجاجة أخيرة. إنّكم ترون هنا ما يشبه تركيبة هيغليّة بين سيّدتين ميتتين.

وكانوا يهمّون بين لحظة وأخرى بإخراجي من سيّارتي القديمة الزرقاء ـ وداعًا يا رفيقتي، وشكرًا يا أختي العجوز ـ والحقّ أقول إنِّي كنت نافد الصبر لأستسلم لجميع هذه الأيدي المنقذة وأن أتركها تجهد لحملي من غير أن أبذل حركة واحدة لأهينها، وأنا ممدّد مرتاح متروك بكسل مركَّز كلّيًا على الإحساس الجنّيّ بتجميدي والمعونة السرمديّة لرجال الشرطة

والإسعاف. وفي انتظار وصولهم، في انتظار رؤيتهم وهم يتسلّقون التلّة المتعرّجة بخطى معجّلة ليتولّوا أمري، تذكّرت سرابًا أقصى من الانبهار واليأس. فذات يوم بعد اختفاء لوليتا، أخذتني نوبة غثيان مريعة، فأجبرتني على التوقّف عند حافّة طريق جبليّة قديمة، فكنت كشبح الطرق الذي كان تارة يحاذي وتارة يقطع شارعًا كبيرًا جديدًا تسكنه جالية من زهور النجمة السابحة في فتور هذا الأصيل الأزرق من أصائل نهاية الصيف. وبعد سلسلة من السعال الذي كان يهز جسمي كأنّه القفّاز، ارتحت لحظة على صخرة، وإذ فكّرت بأنّ النسيم العليل سيردّ لي هدوئي، خطوت بضع خطوات في اتّجاه الجدار الحجريّ الذي كان يحمي الطريق من الهاوية الملاصقة. وكان جراد صغير ينطنط بين العشب الذابل في الساقية. وكانت سحابة صغيرة مجنونة تفتح ذراعيها لاقتراب ابن عمّ لها كان ينتمي إلى نظام أكثر كثافة ولكنّه أكثر بطئًا كذلك. وانحنيت فوق الهاوية الحفيّة، فشعرت تدريجيًّا بأنشودة أصداء غريبة كانت تتصاعد كالبخار من ضيعة صغيرة للمناجم متمدّدة تحت قدمي في شقّ من الوادي. وكان بوسعي أن أميّز هندسة الشوارع بين مستطيلات السقوف الحمراء والرماديّة، وضباب الشجر الأخضر، ونهرًا متلوّيًا كالحيّة، وبريق مستودع القذارات البلديّ، وخلف المدينة، شبكة الطرق على رقعة الحقول الباهتة أو الغامقة، وخلف ذلك أيضًا، الجبال العالية المشجّرة. ولكنّ هذا الاهتزاز الطائر للأصوات المتراكمة كان يبدو أحيا من ألوان المناظر ـ أو ليس معقولاً أنّ هذه الاحتفالات من الظلال والأنوار كانت تبتهج بعذوبة لكونها على ذلك القدر من التآلف؟ أجل أحيا وألطف على السمع ممّا كانت تلك على النظر، وكان يتصاعد بلا انقطاع ولا فجوة حتى طرف الصوّان الذي كنت أرتفقه، وأنا أمسح فمي المنتن بمنديل من الحرير. وقد اكتشفت فجأة أنّ جميع هذه الأصداء كانت ذات طبيعة واحدة، وأنّ أيّ صدى آخر لم يكن لينبعث من

شوارع المدينة الشفّافة، إذ كانت النساء في البيوت والرجال في الحقول. أوه! يا قارئي! إنّ ما كنت أسمعه لم يكن إلّا موسيقى الأطفال الذين كانوا يلعبون. وكان الهواء من الصفاء بحيث إنّه كان بالإمكان، عبر ذلك البخار من الأصوات المختلطة ـ الأصوات الضئيلة المتدرّجة، الغريبة والقريبة قربًا عجيبًا، الطاهرة والخفيّة خفاءً إلٰهيًّا ـ كان بالإمكان سماع رنّة ضحكة محسوسة، كأنّما قد أطلقت لغاية، أو اصطفاق مصراع، أو صرير شاحنة، ولكن ذلك كلّه كان بعيدًا، بعيدًا جدًّا حتى إنّ العين لم تكن تلتقط أيّ إشارة للحياة على طول الطرقات المحصّبة بدقّة. وكنت، وأنا مسمّر على حافّة هاويتي، أصغي إلى هذه الانسجامات الراعشة، وإلى همهمة تلك الصرخات المنعزلة التي كانت تخترق طهارة ضجّة المشهد الخلفي المرن، وعند ذاك أدركت أنّ السبب الأعمق ليأسي لم يكن غياب لوليتا عن جانبي، وإنّما غياب صوتها من قلب هذا الجوّ المنسجم.

هذه هي نهاية قصّتي. وقد أعدت قراءتها. إنّ بقايا من النخاع ما تزال ملتصقة بعظمه، ومن الدمّ، وذباب أخضر فاتن. وإنّي لأشعر أنّ بطلي اللزج يفلت منّي، عند هذا المنعطف أو ذاك، ليغطس في مياه بلغ من سوادها وعمقها أنّي لا أجرؤ على سبرها. لقد نكّرت كلّ ما يمكن تنكيره حتى لا أسيء إلى أحد. وفكّرت بعددٍ كبير من الألقاب لنفسي قبل أن أقع بالمصادفة على اسم مستعار مناسب كلّ المناسبة، ولقد رأيت في أوراقي اسم «أوتو أوتو» و«مسمّر مسمّر» و«لامبير لامبير» ولكنّي أشعر بأنّي لا أستطيع أن أشرح لماذا اخترت هذا الاسم الذي يعبّر خير تعبير عن دعارة هذه الشخصيّة.

وحين عزمت منذ ستّة وخمسين يومًا على كتابة «لوليتا»، تحت المراقبة في قاعة الأمراض النفسيّة، بادئ ذي بدء، ثم في هذا المنعزل

القبري، على دفئه وتوفر الراحة فيه، كنت أفكّر باستعمال هذه الملاحظات بجملتها في أثناء محاكمتي، لا لأنقذ رأسي، بل لأنقذ روحي. ولكنِّي في منتصف الطريق، شعرت أنّه سيستحيل عليّ أن أطلب لوليتا لتمثل أمام المحكمة، ما دامت على قيد الحياة. وقد أستعمل، في جلسة سرِّيّة، بعض مقاطع من هذا البيان، ولكنّ نشره ينبغي أن يؤجّل.

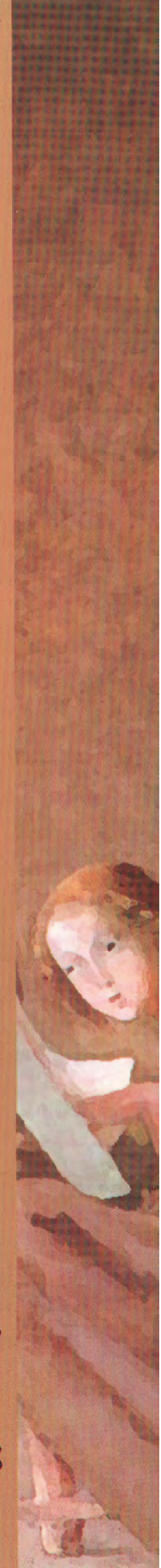
ولبضعة أسباب قد تبدو أوضح ممّا هي في الواقع، أراني أشجب شجبًا شديدًا الحكم بالموت، وأتمنّى أن ينحاز رئيس المحكمة إلى هذا الرأي. وإذا أُعطي لي أن أحكم على نفسي، فإنِّي أحكم على همبرت همبرت بما لا يقلّ عن خمسة وثلاثين عامًا بالأشغال الشاقّة، بتهمة الاغتصاب، وأرمي بجميع حجج الاتّهام الأخرى. وحتى لو تمّ الأمر على هذا النحو، فإنّ دولِّي شيلر ستعيش بعدي بلا شكّ أعوامًا طويلة، ولهذا فإنّ الطلب الذي أطلبه فيما يلي يملك كلّ السلطة الشرعيّة وكلّ القوّة التنفيذيّة لوصيّة موقّعة بصورة قانونيّة: إنِّي أرغب في ألّا تنشر هذه المذكّرات إلّا بعد موت لوليتا.

وإذن، فلن يكون أيّ منّا على قيد الحياة في اللحظة التي يفتح فيها القارئ هذه المذكّرات. ولكن ما دام الدم يخفق في يدي ـ هذه اليد التي تمسك بالقلم ـ فإنّكِ، يا «لو» تؤلّفين أبدًا جزءًا، مثلي أنا نفسي، من عالم المادّة السعيد، وبوسعي أن أسمعك صوتي حتى أعمق أعماق بلدك البعيد في الأسكا كوني أمينة لزوجك «ديك». لا تدعي أيّ رجل آخر يلمسكِ، لا توجّهي الكلام للمجهولين. وأرجو أن تحبِّي طفلكِ. وأرجو أن يكون صبيًّا. وأرجو أن يعرف هذا الزوج الذي اخترته لنفسك أن يرضيك، وإلّا فإنّ شبحي سينقضّ عليه كدخّان ثقيل أسود، كعملاق مجنون شيطان، ليمزّقه إربًا إربًا. ولا تذرفي الدمع على مصير ك .ك. لقد كان لا بدّ من

الاختيار بين هـ .هـ. وبينه، وقد كان لا بدّ أن يعيش هـ .هـ. أكثر منه شهرين أو ثلاثة لكي يجعلك تعيشين إلى الأبد في عقول الأجيال القادمة. هكذا يُخلّد الملائكة، وذلك هو سرّ الألوان التي لا تتبدّل، وتلك هي القصائد الرسوليّة، وذلك هو ملجأ الفنّ، وأنّ هذا لهو الخلود الوحيد الذي أستطيع أن أشاركِكِ فيه، أوه، يا حبيبتي لوليتا

يروي البطل «همبرت همبرت»، أستاذ الأدب علاقته الغراميّة بفتاة في الثانية عشرة من عمرها، دولوريس هايز الملقّبة بلوليتا. علاقة متوتّرة تنتهي بشكل مأساوي...

تعتبر رواية «لوليتا» للكاتب الروسي الشهير فلاديمير نابوكوف تحفة من تحف الأدب الحديث ونقطة تحوّل في مسار الأدب العالمي.



تصميم الغلاف: رئم الجندي
لوحة الغلاف: بالتوس

دار الآداب

هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-242-9